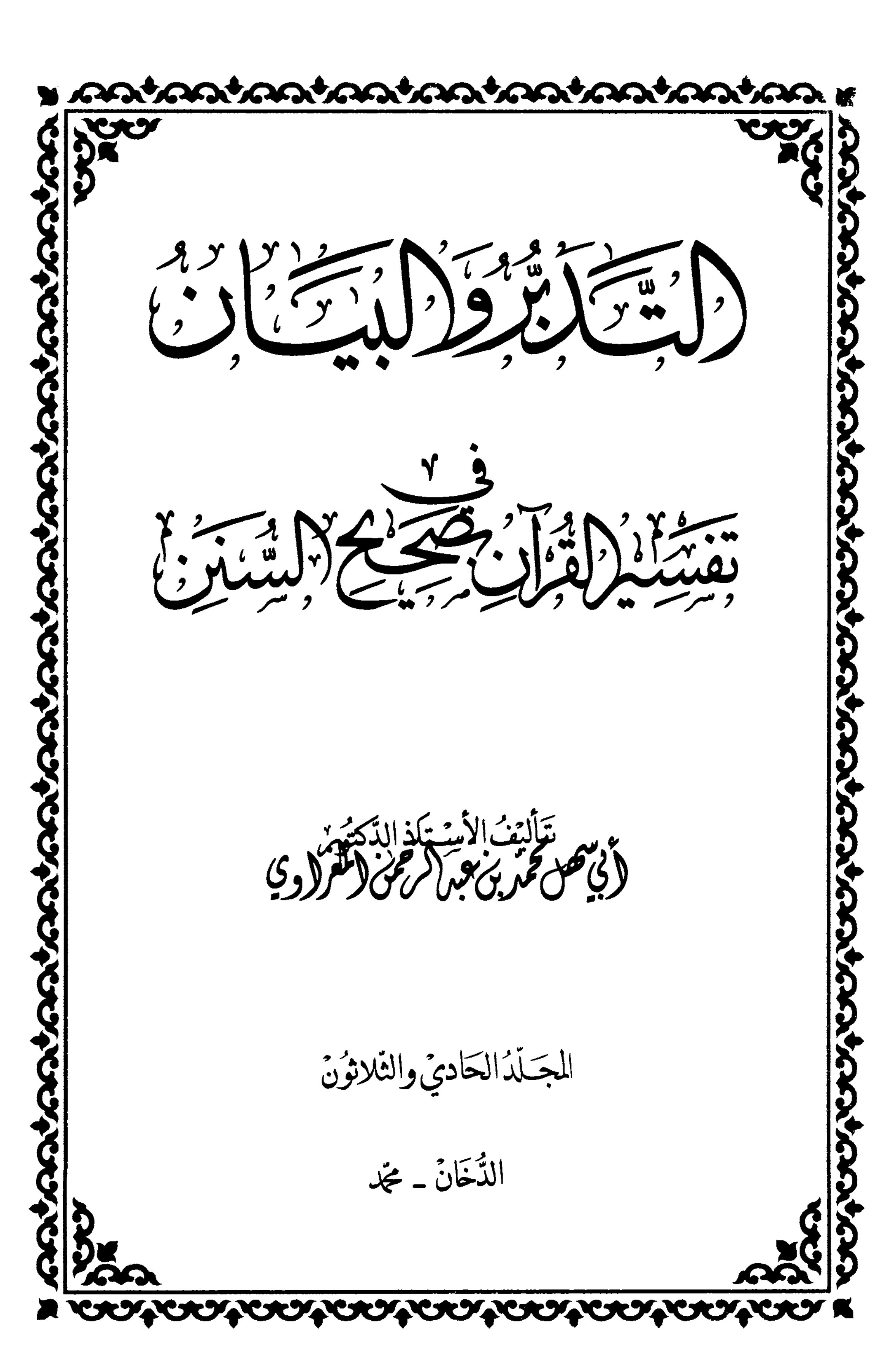


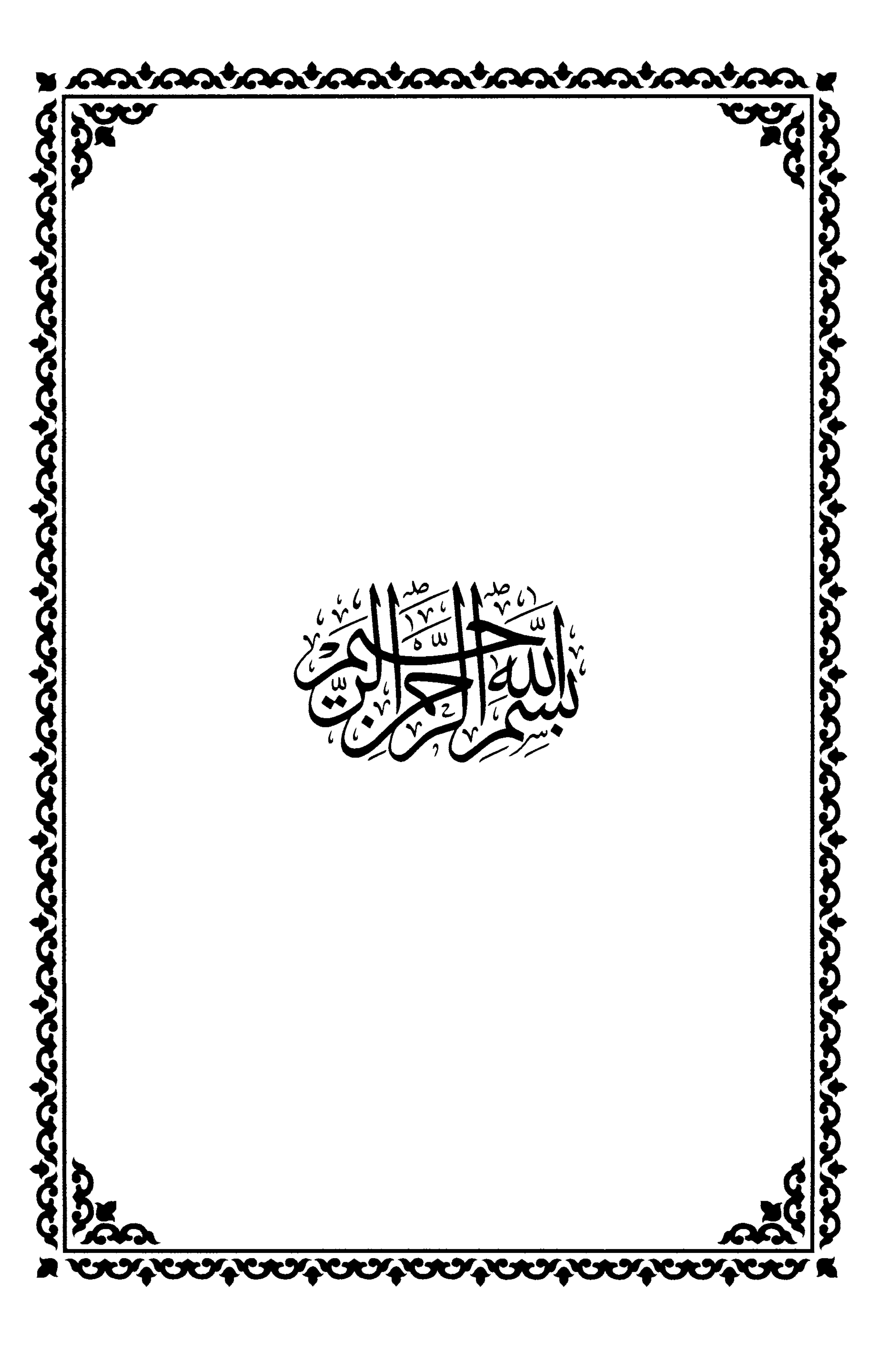
التدبر والبيان

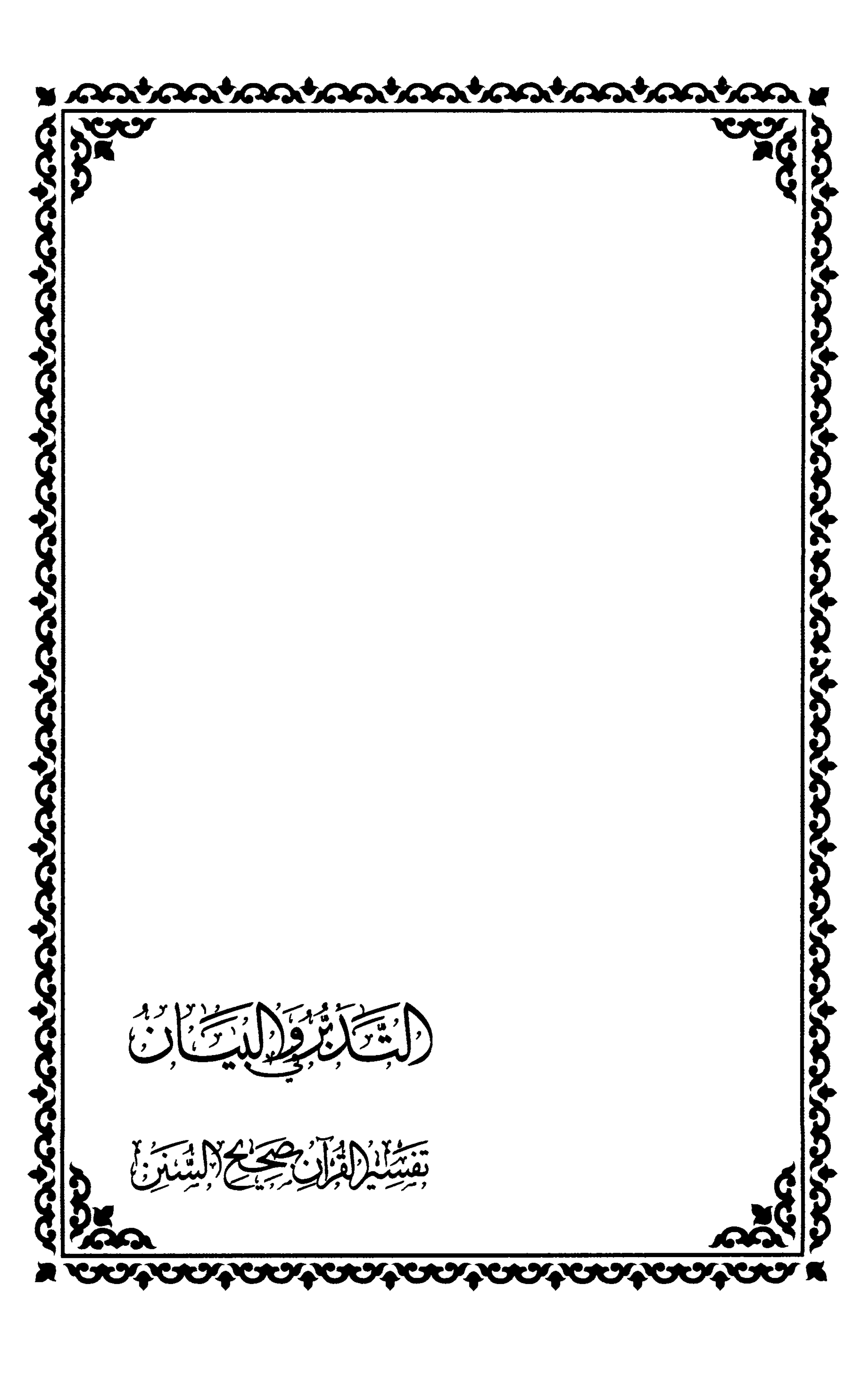
في تفسير القرآن بصحيح السنن

تأليف الأستاذ الدكتور
أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

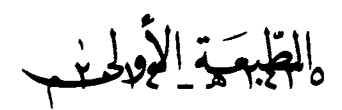
المجلد الحادي والثلاثون

الدخان ـ محمد


بسم الله الرحمن الرحيم


التدبر والبيان
تفسير القرآن بصحيح السنن





الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYĀN
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis
التصنيف : تفسير

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 عدد الصفحات (40 مجلداً)
Size 17x24 cm قياس الصفحات
Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة
Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنان
Edition : 1st الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٧ - ١٤٧ - ٣٣ - ٩٩٥٤ - ٩٧٨







سورة الدخان

اغراض السورة

قال البقاعي: «مقصودها الإنذار بالهلكة لمن لم يقبل ما في الذكر الحكيم من الخير والبركة رحمة جعلها بين عامة خلقه مشتركة. وعلى ذلك دل اسمها (الدخان) إذا تؤملت آياته، فإنه تعالى هددهم بآيتين: العذاب لهم من جهة السماء في صورة الدخان، وهددهم بالانتقام منهم بالبطشة الكبرى لكذبهم، وسوء منقلبهم ومرتكبهم»[1].

وقال ابن عاشور: «أشبه افتتاحُ هذه السورة فاتحةَ سورة الزخرف من التنويه بشأن القرآن وشرفه، وشرف وقت ابتداء نزوله؛ ليكون ذلك مؤذنا أنه من عند اللّه، ودالا على رسالة محمد ﷺ، وليتخلص منه إلى أن المعرضين عن تدبر القرآن ألهاهم الاستهزاء واللمز عن التدبر، فحق عليهم دعاء الرسول بعذاب الجوع، إيقاظا لبصائرهم بالأدلة الحسية، حين لم تنجع فيهم الدلائل العقلية، ليعلموا أن إجابة اللّه دعاء رسوله ﷺ دليل على أنه أرسله ليبلغ عنه مراده.

فأنذرهم بعذاب يحل بهم علاوة على ما دعا به الرسول ﷺ تأييدا من اللّه له بما هو زائد على مطلبه.

وضرب لهم مثلا بأمم أمثالهم عصوا رسل اللّه إليهم، فحل بهم من العقاب من شأنه أن يكون عظة لهؤلاء، تفصيلا بقوم فرعون مع موسى ومؤمني قومه، ودون التفصيل بقوم تبع، وإجمالا وتعميما بالذين من قبل هؤلاء.

وإذ كان إنكار البعث وإحالته من أكبر الأسباب التي أغرتهم على إهمال التدبر

---

(١) مصاعد النظر (٢ / ٤٧١).

في مراد اللَّه تعالى، انتقل الكلام إلى إثباته والتعريف بما يعقبه من عقوبة المعاندين، ومثوبة المؤمنين ترهيبا وترغيبا.

وأدمج فيها فضل الليلة التي أنزل فيها القرآن؛ أي: ابتدئ إنزاله وهي ليلة القدر، وأدمج في خلال ذلك ما جرت إليه المناسبات من دلائل الوحدانية وتأييد اللَّه من آمنوا بالرسل، ومن إثبات البعث. وختمت بالشدة على قلب الرسول ﷺ بانتظار النصر وانتظار الكافرين القهر»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في اختبار النبي ﷺ لا بن صياد بالدخان

* عن ابن عمر رضي الله عنهما أن عمر انطلق في رهط من أصحاب النبي ﷺ مع النبي ﷺ قبل ابن صياد حتى وجده يلعب مع الغلمان عند أطم بني مغالة، وقد قارب يومئذ ابن صياد يحتلم، فلم يشعر بشيء حتى ضرب النبي ﷺ ظهره بيده، ثم قال النبي ﷺ: «**أتشهد أني رسول الله؟**» فنظر إليه ابن صياد فقال: أشهد أنك رسول الأميين، فقال ابن صياد للنبي ﷺ: أتشهد أني رسول الله؟ قال له النبي ﷺ: «**آمنت باللَّه ورسله**». قال النبي ﷺ: «**ماذا ترى؟**» قال ابن صياد: يأتيني صادق وكاذب. قال النبي ﷺ: «**خلط عليك الأمر**». قال النبي ﷺ: «**إني قد خبأت لك خبيئا**». قال ابن صياد: هو الدخ. قال النبي ﷺ: «**اخسأ، فلن تعدو قدرك**»، قال عمر: يا رسول الله! ائذن لي فيه أضرب عنقه. قال النبي ﷺ: «**إن يكنه فلن تسلط عليه، وإن لم يكن هو فلا خير لك في قتله**»[(٢)].

★ **غريب الحديث:**

أطم: الأطم بناء من الحجارة مرفوع كالقصر، وآطام المدينة حصونها.

بني مغالة: بطن من الأنصار.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٧٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٢ / ١٤٨)، البخاري (٦ / ٢١١ / ٣٠٥٥) واللفظ له، مسلم (٤ / ٢٢٤٤ / ٢٩٣٠)، أبو داود (٤ / ٥٠٣-٥٠٥ / ٤٣٢٩)، الترمذي (٤ / ٤٥٠ / ٢٢٤٩) وقال: «حسن صحيح». وفي الباب عن جابر وأبي سعيد وابن مسعود وأبي ذر رضي الله عنهم.

الدخ: هو الدخان وقال الشاعر:

عند رواق البيت يغشى الدخا.

إخسأ: كلمة زجر واستهانة؛ أي: اسكت صاغرا ذليلا.

★فوائد الحديث:

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في ابن صياد: «يقال له: ابن صياد وابن صائد، وسمي بهما في هذه الأحاديث، واسمه صاف، قال العلماء: وقصته مشكلة، وأمره مشتبه في أنه هل هو المسيح الدجال المشهور أم غيره؟، ولا شك في أنه دجال من الدجاجلة. قال العلماء: وظاهر الأحاديث أن النبي ﷺ لم يوح إليه بأنه المسيح الدجال ولا غيره، وإنما أوحي إليه بصفات الدجال، وكان في ابن صياد قرائن محتملة، فلذلك كان النبي ﷺ لا يقطع بأنه الدجال ولا غيره، ولهذا قال لعمر رضي الله عنه: «**إن يكن هو فلن تستطيع قتله**»»[1].

قال القرطبي: «وكانت حاله في صغره حالة الكهان يصدق مرة ويكذب مرارا، ثم إنه أسلم لما كبر وظهرت منه علامة الخير من الحج والجهاد مع المسلمين، ثم ظهرت منه أحوال، وسمعت منه أقوال تشعر بأنه الدجال، وبأنه كافر فقيل: إنه تاب ومات بالمدينة، ووقف على عينه هناك. وقيل: بل فقد يوم الحرة ولم يوقف عليه، وكان جابر وابن عمر رضي الله عنهم يحلفان أنه الدجال لا يشكان فيه، وعلى الجملة فأمره كله مشكل على الأمة، وهو فتنة ومحنة»[2].

قال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد اختلف الناس في ابن صياد اختلافا شديدا، وأشكل أمره حتى قيل فيه كل قول، وقد يسأل عن هذا فيقال: كيف يقر رسول الله ﷺ رجلا يدعي النبوة كاذبا، ويتركه بالمدينة يساكنه في داره ويجاوره فيها، وما معنى ذلك؟ وما وجه امتحانه إياه بما خبأه له من أنه الدخان؟ وقوله بعد ذلك: «**اخسأ فلن تعدو قدرك**».

والذي عندي: أن هذه القصة إنما جرت معه أيام مهادنة رسول الله ﷺ اليهود

---

(١) شرح مسلم (١٨ / ٣٧).

(٢) المفهم (٧ / ٢٦٢-٢٦٣).

وحلفاءهم، وذلك أنه بعد مقدمه المدينة كتب بينه وبين اليهود كتابا، صالحهم فيه على أن لا يهاجوا، وأن يتركوا على أمرهم، وكان ابن صياد منهم أو دخيلا في جملتهم، وكان يبلغ رسولَ اللَّه ﷺ خبرُه وما يدعيه من الكهانة، ويتعاطاه من الغيب، فامتحنه بذلك ليزور به أمره ويخبر شأنه، فلما كلمه علم أنه مبطل، وأنه من جملة السحرة أو الكهنة، أو ممن يأتيه رؤى من الجن، أو يتعاهده شيطان فيلقي على لسانه بعض ما يتكلم به، فلما سمع منه قوله: الدخ، زبره، فقال: «**اخسأ فلن تعدو قدرك**» يريد أن ذلك شيء اطلع عليه الشيطان فألقاه إليه، وأجراه على لسانه. وليس ذلك من قبل الوحي السماوي؛ إذ لم يكن له قدر الأنبياء الذين أوحى اللَّه إليهم من علم الغيب . . وإنما كانت له تارات يصيب في بعضها ويخطئ في بعض، وذلك معنى قوله: (يأتيني صادق وكاذب) فقال له عند ذلك: قد «**خلط عليك**».

والجملة أنه كان فتنة قد امتحن اللَّه بها عباده المؤمنين ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيي عن بينة، وقد امتحن قوم موسى عليه السلام في زمانه بالعجل، فافتتن به قوم وهلكوا، ونجى من هداه اللَّه وعصمه منهم»[1].

قال القرطبي: وقوله: «**لن تعدو قدرك**» أي: لن تجاوز حالة الكهان المتخرصين الكذابين، لا يليق بك إلا ذلك، وإنما اختبره النبي ﷺ بذلك لينظر هل طريقته طريقة الكهان، أو لا؟ فظهر أنه كذلك. وأن الشياطين تلعب به، وتلبس عليه.

وقوله ﷺ لعمر رضي الله عنه: «**إن يكنه، فلن تسلط عليه، وإن لم يكنه فلا خير في قتله**» هذا يدل على أن النبي ﷺ لم يتضح له شيء من أمر كونه هو دجال أم لا؟ وليس هذا نقصا في حق النبي ﷺ؛ لأنه لم يكن يعلم إلا ما علمه اللَّه، وهذا مما لم يُعْلمه اللَّه تعالى به، ولا هو مما تُرْهق إلى علمه حاجة لا شرعية، ولا عادية، ولا مصلحية، ولعل اللَّه تعالى قد علم في إخفائه مصلحة فأخفاه، والذي يجب الإيمان به: أنه لا بد من خروج الدجال يدعي الإلهية، وأنه كذاب أعور، كما جاء في الأحاديث الصحيحة الكثيرة التي قد حَصَّلَت لمن عاناها العلم القطعي بذلك»[2].

قال الحافظ: «وأما جواب ابن صياد بالدخ فقيل: إنه اندهش فلم يقع من لفظ

---

(١) معالم السنن (٤ / ٣٢٢-٣٢٣).

(٢) المفهم (٧ / ٢٦٥).

الدخان إلا على بعضه، وحكى الخطابي أن الآية حينئذ كانت مكتوبة في يد النبي ﷺ، فلم يهتد ابن صياد منها إلا لهذا القدر الناقص على طريقة الكهنة، ولهذا قال له النبي ﷺ: «**لن تعدو قدرك**» أي: قدر مثلك من الكهان الذين يحفظون من إلقاء شياطينهم ما يحفظونه مختلطا صدقه بكذبه.

وحكى أبو موسى المديني أن السر في امتحان النبي ﷺ له بهذه الآية الإشارة إلى أن عيسى ابن مريم يقتل الدجال بجبل الدخان، فأراد التعريض لابن صياد بذلك، واستبعد الخطابي ما تقدم وصوب أنه خبأ له الدخ وهو نبت يكون بين البساتين، وسبب استبعاده له أن الدخان لا يخبأ في اليد ولا الكم.

ثم قال: إلا أن يكون خبأ له اسم الدخان في ضميره، وعلى هذا فيقال: كيف اطلع ابن صياد أو شيطانه على ما في الضمير؟ ويمكن أن يجاب باحتمال أن يكون النبي ﷺ تحدث مع نفسه أو أصحابه بذلك قبل أن يختبره فاسترق الشيطان ذلك أو بعضه»[(١)].

قال القاضي عياض: «وأصح الأقوال في قوله: «**الدخ**» أنه لم يهتد من الآية التي أضمرها له ﷺ إلا لهذا اللفظ الناقص على عادة الكهان؛ إذ إنما يلقي الشيطان إليهم بقدر ما يختطف قبل أن يدركه الشهاب، ويدل عليه قوله: «**اخسأ فلن تعدو قدرك**»؛ أي: ابعد كاهنا منخرصا فلن تعدو قدر هذا الصنف من الاهتداء إلى بعض الشيء، وما لا يتبين منه حقيقة، ولا يصل إلى قدر البيان والتحقيق والجلاء لأمور الغيب التي تأتي من قبل الوحي إلا من أوتي النبوة»[(٢)].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمقصود أن ابن صياد ليس بالدجال الذي يخرج في آخر الزمان قطعا؛ لحديث فاطمة بنت قيس -حديث الجساسة[(٣)]- وهو فيصل في هذا المقام والله أعلم[(٤)].

وقال شيخ الإسلام بن تيمية: «وهذا بخلاف الأحوال الشيطانية مثل حال (عبد الله بن صياد) الذي ظهر في زمن النبي ﷺ، وكان قد ظن بعض الصحابة أنه

---

(١) فتح الباري (٦ / ٢١٣).
(٢) الإكمال (٨/ ٤٧١-٤٧٢).
(٣) أخرجه: أحمد (٦ / ٣٧٣-٣٧٤). مسلم (٤ / ٢٢٦١-٢٢٦٤ / ٢٩٤٢). أبو داود (٤ / ٥٠٠-٥٠١ / ٤٣٢٦).
(٤) النهاية (١ / ٧٠).

الدجال، وتوقف النبي ﷺ في أمره حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال؛ لكنه كان من جنس الكهان، قال له النبي ﷺ: «**قد خبأت لك خبأ**» قال: الدخ الدخ. وقد كان خبأ له سور الدخان، فقال له النبي ﷺ «**اخسأ فلن تعدو قدرك**» يعني: إنما أنت من إخوان الكهان؛ والكهان كان يكون لأحدهم القرين من الشياطين يخبره بكثير من المغيبات بما يسترقه من السمع، وكانوا يخلطون الصدق بالكذب، كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره أن النبي ﷺ قال: «**إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب، فتذكر الأمر قضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم**»[1]»[2].

* عن أبي وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: قرأت المفصل الليلة في ركعة، فقال: (هذًّا كهذ الشعر؟، لقد عرفت النظائر التي كان النبي ﷺ يقرن بينهن، فذكر عشرين سورة من المفصل، سورتين من آل حاميم في كل ركعة)[3].

★ غريب الحديث:

المفصل: من ﴿قٓ﴾ إلى آخر القرآن على الصحيح، وسمي مفصلا لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة على الصحيح.

هذًّا: بفتح الهاء وتشديد الذال المعجمة؛ أي: سردا وإفراطا في السرعة، وهو منصوب على المصدر، وهو استفهام إنكار بحذف أداة الاستفهام، وقال ذلك لأن تلك الصفة كانت عادتهم في إنشاد الشعر.

النظائر: أي: السور المتماثلة في عدد المعاني كالموعظة أو الحكم أو القصص لا المتماثلة في عدد الآي؛ لما سيظهر عند تعيينها. قال المحب الطبري: «كنت أظن أن المراد بأنها متساوية في العدد حتى اعتبرتها فلم أجد فيها شيئا متساويا».

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «والنظائر والقرائن: هي السور المتقاربة في المقدار، وقد

---

(١) أخرجه: أحمد (٦ / ٨٧)، البخاري (٦ / ٣٧٣-٣٧٤ / ٣٢١٠)، مسلم (٤ / ١٧٥٠ / ٢٢٢٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١١ / ٢٨٣).

(٣) أخرجه: أحمد (١ / ٣٨٠-٤٢٧-٤٦٢)، البخاري (٢ / ٣٢٥ / ٧٧٥) واللفظ له، مسلم (١ / ٥٦٣ / ٨٢٢)، أبو داود (٢ / ١١٧ / ١٣٩٦)، النسائي (٢ / ٥١٦-٥١٧ / ١٠٠٤).

عددها ثماني عشرة في رواية، وفي أخرى عشرين، ولا بعد في ذلك، فإنه يذكر في وقت الأقل من غير تعرض للحصر، ويزيد في وقت آخر. أو يكون النبي ﷺ قرن في وقت بين ثماني عشرة، وفي أخرى بين عشرين، وقد ذكر أبو داود هذا الحديث عن علقمة والأسود قالا: (أتى ابن مسعود رجل فقال: إني أقرأ المفصل في ركعة فقال: أهذًا كهذّ الشعر، ونثرا كنثر الدقل؟ لكن رسول اللّه ﷺ كان يقرأ النظائر، السورتين في ركعة، الرحمان والنجم في ركعة، واقتربت والحاقة في ركعة، والطور والذاريات في ركعة، والواقعة ونون في ركعة، وسأل سائل والنازعات في ركعة، وويل للمطففين وعبس في ركعة، وهل أتى ولا أقسم في ركعة، وعم يتساءلون والمرسلات في ركعة، والدخان وإذا الشمس كورت في ركعة). وقال أبو داود: هذا تأليف ابن مسعود،[1] قلت: وهذا مفسر لرواية من روى ثماني عشرة، وزاد في رواية ابن الأعرابي: والمدثر والمزمل في ركعة، فكملت عشرين»[2].

قال الحافظ: «وعرف بهذا أن قوله في رواية واصل: (وسورتين من آل حم مشكل)؛ لأن الروايات لم تختلف أنه ليس في العشرين من الحواميم غير الدخان فيحمل على التغليب، أو فيه حذف، كأنه قال: (وسورتين إحداهما من آل حم) وكذا قوله في رواية أبي حمزة: (آخرهن حم الدخان، وعم يتساءلون) مشكل؛ لأن حم الدخان آخرهن في جميع الروايات، وأما عم فهي في رواية أبي خالد: (السابعة عشرة) وفي رواية أبي إسحاق (الثامنة عشرة) فكان فيه تجوزا؛ لأن (عم) وقعت في الركعتين الأخيرتين في الجملة، ويتبين بهذا أن في قوله في حديث الباب: (وعشرين سورة من المفصل) تجوزا؛ لأن الدخان ليست منه، ولذلك فصلها من المفصل في رواية واصل. نعم يصح ذلك على أحد الآراء في حد المفصل»[3].

وقال أيضًا: «وأغرب الداودي فقال: قوله: (من آل حاميم)، من كلام أبي وائل، وإلا فإن أول المفصل عند ابن مسعود من أول الجاثية اهـ، وهذا إنما يرد لو

---

(١) يعني بهذا: الترتيب في مصحفه.
(٢) المفهم (٢ / ٤٥٤-٤٥٥).
(٣) الفتح (٢ / ٣٣٠).

كان ترتيب مصحف ابن مسعود كترتيب المصحف العثماني، والأمر بخلاف ذلك؛ فإن ترتيب السور في مصحف ابن مسعود يغاير الترتيب في المصحف العثماني، فلعل هذا منها، ويكون أول المفصل عنده أول الجاثية، والدخان متأخرة في ترتيبه عن الجاثية، لا مانع من ذلك، وقد أجاب النووي على طريق التنزل بأن المراد بقوله: (عشرين من أول المفصل) أي: معظم العشرين»[١].

وقال أيضًا: «والجمع بينهما -أي بين رواية ثمان عشرة ورواية عشرين سورة أن الثمان عشرة غير سورة الدخان والتي معها، وإطلاق المفصل على الجميع تغليبا، وإلا فالدخان ليست من المفصل على المرجح، لكن يحتمل أن يكون تأليف ابن مسعود على خلاف تأليف غيره، فإن في آخر رواية الأعمش على تأليف ابن مسعود آخرهن حم الدخان وعم، فعلى هذا لا تغليب»[٢].

* * *

(١) الفتح (٩ / ١١١).
(٢) الفتح (٩ / ١١٠).

قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا قسم بالقرآن على القرآن.

فأقسم بالكتاب المبين لكل ما يحتاج إلى بيانه أنه أنزله في ليلة مباركة؛ أي: كثيرة الخير والبركة، وهي ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر. فأنزل أفضل الكلام، بأفضل الليالي والأيام، على أفضل الأنام، بلغة العرب الكرام؛ لينذر به قوما عمتهم الجهالة، وغلبت عليهم الشقاوة، فيستضيئوا بنوره، ويقتبسوا من هداه، ويسيروا وراءه، فيحصل لهم الخير الدنيوي، والخير الأخروي، ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾»[(١)].

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في تلك الليلة أي ليلة من السنة هي؟ فقال بعضهم: هي ليلة القدر.. وقال آخرون: بل هي ليلة النصف من شعبان. والصواب من القول في ذلك قول من قال: عني بها ليلة القدر؛ لأن اللَّه -جل ثناؤه- أخبر أن ذلك كذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ خلقنا بهذا الكتاب الذي أنزلناه في الليلة المباركة عقوبتنا أن تحلّ بمن كفر منهم، فلم ينب إلى توحيدنا، وإفراد الألوهة لنا»[(٢)].

وقال الشنقيطي: «أبهم تعالى هذه الليلة المباركة هنا، ولكنه بين أنها هي ليلة القدر في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾[(٣)] وبين كونها مباركة المذكورة

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٣-٤).

(٢) جامع البيان (٢٥/ ١٠٧-١٠٨).

(٣) القدر: الآية (١).

هنا في قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾[1] إلى آخر السورة. فقوله: ﴿فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ أي: كثيرة البركات والخيرات.

ولا شك أن ليلة هي خير من ألف شهر، إلى آخر الصفات التي وصفت بها في سورة القدر كثيرة البركات والخيرات جدًّا.

وقد بين تعالى أن هذه الليلة المباركة هي ليلة القدر، التي أنزل فيها القرآن من شهر رمضان، في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[2]. فدعوى أنها ليلة النصف من شعبان كما روي عن عكرمة وغيره لا شك في أنها دعوى باطلة لمخالفتها لنص القرآن الصريح. ولا شك كل ما خالف الحق فهو باطل. والأحاديث التي يوردها بعضهم في أنها من شعبان المخالفة لصريح القرآن لا أساس لها، ولا يصح سند شيء منها، كما جزم به ابن العربي وغير واحد من المحققين. فالعجب كل العجب من مسلم يخالف نص القرآن الصريح بلا مستند كتاب ولا سنة صحيحة»[3].

وقال ابن عاشور: «وتنكير ﴿لَيْلَةٍ﴾ للتعظيم، ووصفها بـ ﴿مُّبَارَكَةٍ﴾ تنويه بها وتشويق لمعرفتها. فهذه الليلة هي الليلة التي ابتدئ فيها نزول القرآن على محمد ﷺ في الغار من جبل حِرَاءٍ في رمضان قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[4].

والليلة التي ابتدئ نزول القرآن فيها هي ليلة القدر قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١﴾[5].

والأصح أنها في العشر الأواخر من رمضان، وأنها في ليلة الوتر. وثبت أن الله جعل لنظيرتها من كل سنة فضلًا عظيمًا؛ لكثرة ثواب العبادة فيها في كل رمضان، كرامة لذكرى نزول القرآن، وابتداء رسالة أفضل الرسل ﷺ إلى النّاس كافة. قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[6]. وذلك من معاني بركتها، وكم لها من بركات للمسلمين في دينهم، ولعل

---

(١) القدر: الآية (٣).
(٢) البقرة: الآية (١٨٥).
(٣) أضواء البيان (٧/ ٣١٩).
(٤) البقرة: الآية (١٨٥).
(٥) القدر: الآية (١).
(٦) القدر: الآيتان (٤-٥).

تلك البركة تسري إلى شؤونهم الصالحة من أمور دنياهم.

فبركة الليلة التي أنزل فيها القرآن بركة قدَّرها الله لها قبل نزول القرآن؛ ليكون القرآن بابتداء نزوله فيها مُلابسًا لوقت مبارك، فيزداد بذلك فضلًا وشرفًا، وهذا من المناسبات الإلهية الدقيقة التي أنبأنا الله ببعضها.

والظاهر أن الله أمدّها بتلك البركة في كل عام كما أومأ إلى ذلك قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ إذ قاله بعد أن مضى على ابتداء نزول القرآن بضعَ عشرة سنة. وقولُه: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾[1] وقوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾.

وقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾. وعن عكرمة: أن الليلة المباركة هي ليلة النصف من شعبان وهو قول ضعيف.

واختلف في الليلة التي ابتدئ فيها نزول القرآن على النبي ﷺ من ليالي رمضان، فقيل: هي ليلة سبعَ عشرة منه ذكره ابن إسحاق عن الباقر أخذًا من قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾[2] فإن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون ببدر يوم الجمعة صبيحة سبعَ عشرة ليلة من رمضان اهـ. أي تأول قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أنه ابتداء نزول القرآن. وفي المراد بـ ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾ احتمالات ترفع الاحتجاج بهذا التأويل بأن ابتداء نزول القرآن كان في مثل ليلة يوم بدر.

والذي يجب الجزم به أن ليلة نزول القرآن كانت في شهر رمضان، وأنه كان في ليلة القدر. ولما تضافرت الأخبار أن النبي ﷺ قال في ليلة القدر: **«اطلبوها في العشر الأواخر من رمضان، في ثالثة تبقى، في خامسة تبقى، في سابعة تبقى، في تاسعة تبقى»**[3]. فالذي نعتمده أن القرآن ابتدئ نزوله في العشر الأواخر من رمضان، إلاّ إذا حُمل قول النبي ﷺ: **«اطلبوها في العشر الأواخر»** على خصوص الليلة من ذلك العام. وقد اشتهر عند كثير من المسلمين أنّ ليلة القدر ليلة سبع وعشرين باستمرار وهو مناف لحديث: **«اطلبوها في العشر الأواخر»** على كل

---

(١) القدر: الآية (٣). (٢) الأنفال: الآية (٤١).

(٣) أخرجه: أحمد (١ / ٢٣١)، والبخاري (٤ / ٣٢٦ / ٢٠٢١)، وأبو داود (٢ / ١٠٨ / ١٣٨١).

احتمال»[١].

وقوله: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ قال ابن كثير: «أي: في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روي عن ابن عمر، وأبي مالك، ومجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف. وقوله: ﴿حَكِيمٍ﴾ أي: محكم لا يبدل ولا يغير»[٢].

وقال الشنقيطي: «معنى قوله: ﴿يُفۡرَقُ﴾ أي: يفصل ويبين، ويكتب في الليلة المباركة، التي هي ليلة القدر، ﴿كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾، أي ذي حكمة بالغة؛ لأن كل ما يفعله اللَّه مشتمل على أنواع الحكم الباهرة. قال بعضهم: ﴿حَكِيمٍ﴾، أي محكم، ولا تغيير فيه، ولا تبديل. وكلا الأمرين حق؛ لأن ما سبق في علم اللَّه، لا يتغير ولا يتبدل، ولأن جميع أفعاله في غاية الحكمة. وهي في الاصطلاح وضع الأمور في مواضعها، وإيقاعها في مواقعها.

وإيضاح معنى الآية أن اللَّه -تبارك وتعالى- في كل ليلة قدر من السنة يبين للملائكة ويكتب لهم بالتفصيل والإيضاح جميع ما يقع في تلك السنة، إلى ليلة القدر من السنة الجديدة.

فتبين في ذلك الآجال والأرزاق والفقر والغنى، والخصب والجدب، والصحة والمرض، والحروب والزلازل، وجميع ما يقع في تلك السنة كائنًا ما كان.. وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، يدل أيضًا على أن الليلة المباركة هي ليلة القدر، فهو بيان قرآني آخر. وإيضاح ذلك أن معنى قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾ أي في ليلة التقدير لجميع أمور السنة، من رزق وموت، وحياة وولادة، ومرض وصحة، وخصب وجدب، وغير ذلك من جميع أمور السنة.

قال بعضهم: حتى إن الرجل لَيَنْكِح ويتصرف في أموره ويولد له، وقد خرج اسمه في الموتى في تلك السنة. وعلى هذا التفسير الصحيح لليلة القدر، فالتقدير المذكور هو بعينه المراد بقوله: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾»[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٧٧-٢٧٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٤٥).
(٣) أضواء البيان (٧ / ٣٢٠-٣٢١).

قال ابن عاشور: «والأمر الحكيم: المشتمل على حكمة من حكمة اللَّه تعالى، أو الأمر الذي أحكمه اللَّه تعالى وأتقنه بما ينطوي عليه من النُّظُم المدبرة الدالة على سعة العلم وعمومه. وبعض تلك الأمور الحكيمة يُنفِذُ الأمرَ به إلى الملائكة الموكلين بأنواع الشؤون، وبعضها يُنفذ الأمر به على لسان الرّسول مدة حياته الدنيوية، وبَعْضًا يلهمُ إليه من ألهمه اللَّه أفعالًا حكيمة، واللَّه هو العالم بتفاصيل ذلك»[1].

قوله: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝﴾ قال السعدي: «أي: هذا الأمر الحكيم أمر صادر من عندنا.

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ للرسل ومنزلين للكتب، والرسل تبلغ أوامر المرسل وتخبر بأقداره، ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: إن إرسال الرسل وإنزال الكتب التي أفضلها القرآن رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم اللَّه عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسل، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة فإنه من أجل ذلك وسببه، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: يسمع جميع الأصوات، ويعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة، وقد علم تعالى ضرورة العباد إلى رسله وكتبه، فرحمهم بذلك ومن عليهم، فلله تعالى الحمد والمنة والإحسان»[2].

قال الشنقيطي: «واختلف العلماء في إعراب قوله: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ قال بعضهم: هو مصدر منكر في موضع الحال؛ أي: أنزلناه في حال كوننا آمرين به .. وقال بعضهم: هو ما ناب عن المطلق من قوله: ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ وجعل ﴿أَمْرًا﴾ بمعنى: إنزالًا .. وقال بعضهم: هو ما ناب عن المطلق من ﴿يُفْرَقُ﴾، فجعل ﴿أَمْرًا﴾ بمعنى فرقًا أو فرق بمعنى أمرًا .. وقال بعضهم: هو حال من ﴿أَمْرًا﴾ أي: يفرق فيها بين كل أمر حكيم. في حال كونه أمرًا من عندنا، وهذا الوجه جيد ظاهر، وإنما ساغ إتيان الحال من النكرة وهي متأخرة عنها لأن النكرة التي هي ﴿أَمْرًا﴾ وصفت بقوله: ﴿حَكِيمٍ﴾ كما لا يخفى. وقال بعضهم: ﴿أَمْرًا﴾ مفعول به لقوله: ﴿مُنذِرِينَ﴾ وقيل غير ذلك. واختار الزمخشري: أنه منصوب بالاختصاص»[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٨٠).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٤-٥).
(٣) أضواء البيان (٧ / ٣٢٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الليلة المباركة بليلة القدر

* عن ابن عباس ﷺ قال: «إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى ثم قرأ ﴿إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝﴾ يعني: ليلة القدر قال: ففي تلك الليلة يفرق أمر الدنيا إلى مثلها من قابل»[١].

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم رحمه الله: وهذه هي ليلة القدر قطعا لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝﴾ ومن زعم أنها ليلة النصف من شعبان فقد غلط. قال سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: ليلة القدر: ليلة الحكم.

وقال سفيان عن محمد بن سوقة عن سعيد بن جبير: يؤذن للحجاج في ليلة القدر فيكتبون بأسمائهم وأسماء آبائهم فلا يغادر منهم أحد، ولا يزاد فيهم ولا ينقص منهم. وقال ابن علية: حدثنا ربيعة بن كلثوم قال: قال رجل للحسن وأنا أسمع: أرأيت ليلة القدر، في كل رمضان هي؟ قال: نعم، والذي لا إله إلا هو إنها لفي كل رمضان، وإنها لليلة القدر يفرق فيها كل أمر حكيم، فيها يقضي اللّه كل أجل وعمل ورزق إلى مثلها.

وذكر يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجاج، يقال يحج فلان ويحج فلان. وذكر عن سعيد بن جبير في هذه الآية: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى. وقال مقاتل: يقدر اللّه في ليلة القدر أمر السنة في بلاده وعباده إلى السنة القابلة.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: يقدر أمر السنة كلها في ليلة القدر. وهذا هو الصحيح. إن القدر مصدر قدر الشيء يقدره قدرا، فهي ليلة الحكم والتقدير.

وقالت طائفة: ليلة القدر: ليلة الشرف والعظمة، من قولهم: لفلان قدر في

---

(١) أخرجه: ابن جرير في التفسير (٢٥ / ١٠٩)، الحاكم (٢ / ٤٤٨-٤٤٩) وصححه ووافقه الذهبي، البيهقي في الشعب (٣ / ٣٢١ / ٣٦٦١).

الناس. فإن أراد صاحب هذا القول أن لها قدرا وشرفا مع ما يكون فيها من التقدير فقد أصاب، وإن أراد أن معنى القدر فيها هو الشرف والخطر فقد غلط. إن اللّه سبحانه أخبر أن فيها يفرق، أي يفصل اللّه ويبين ويبرم كل أمر حكيم»[1].

* * *

(١) شفاء العليل (١ / ٦٩-٧٠).

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: الذي أنزل هذا الكتاب يا محمد عليك، وأرسلك إلى هؤلاء المشركين رحمة من ربك، مالك السموات السبع والأرض وما بينهما من الأشياء كلها.

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ يقول: إن كنتم توقنون بحقيقة ما أخبرتكم من أن ربكم ربّ السموات والأرض، فإن الذي أخبرتكم أن اللَّه هو الذي هذه الصفات صفاته، وأن هذا القرآن تنزيله، ومحمدا ﷺ رسوله حق يقين، فأيقنوا به كما أيقنتم بما توقنون من حقائق الأشياء غيره.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يقول: لا معبود لكم أيها الناس غير ربّ السموات والأرض وما بينهما، فلا تعبدوا غيره، فإنه لا تصلح العبادة لغيره، ولا تنبغي لشيء سواه، ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، يقول: هو الذي يحيي ما يشاء، ويميت ما يشاء مما كان حيا.

وقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يقول: هو مالككم ومالك من مضى قبلكم من آبائكم الأوّلين، يقول: فهذا الذي هذه صفته، هو الربّ فاعبدوه دون آلهتكم التي لا تقدر على ضرّ ولا نفع»[(١)].

وقال ابن عاشور: «هذا عود إلى مواجهة المشركين بالتذكير على نحو ما ابتدئت به السورة. وهو تخلّص للاستدلال على تفرد اللَّه بالإلهية إلزامًا لهم بما يُقرّون به من أنه ربّ السماوات والأرض وما بينهما، ويُقرون بأن الأصنام لا تخلق شيئًا، غير

(١) جامع البيان (٢٥ / ١١٠).

أنهم مُعرضون عن نتيجة الدليل ببطلان إلهية الأصنام، ألاَ ترى القرآن يكرر تذكيرهم بأمثال هذا مثل قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾[1] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾[2]»[3].

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾ قال السعدي: «فلما قرر تعالى ربوبيته وألوهيته بما يوجب العلم التام ويدفع الشك، أخبر أن الكافرين مع هذا البيان ﴿فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ أي: منغمرون في الشكوك والشبهات، غافلون عما خلقوا له، قد اشتغلوا باللعب الباطل، الذي لا يجدي عليهم إلا الضرر»[4].

* * *

(١) النحل: الآية (١٧).

(٢) النحل: الآيتان (٢٠-٢١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٨٣).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٥).

قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ أي: انتظر فيهم العذاب فإنه قد قرب وآن أوانه، ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: يعمهم ذلك الدخان ويقال لهم: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾»[(١)].

وللسلف في معنى الدخان ثلاثة أوجه: الأول: قال السعدي: إن المراد بذلك ما أصاب كفار قريش حين امتنعوا من الإيمان واستكبروا على الحق، فدعا عليهم النبي ﷺ فقال: «**اللهم أعني عليهم بسنين كسني يوسف**» فأرسل الله عليهم الجوع العظيم حتى أكلوا الميتات والعظام، وصاروا يرون الذي بين السماء والأرض كهيئة الدخان وليس به، وذلك من شدة الجوع.

فيكون -على هذا- قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ﴾ أن ذلك بالنسبة إلى أبصارهم وما يشاهدون، وليس بدخان حقيقة. ولم يزالوا بهذه الحالة حتى استرحموا رسول الله ﷺ وسألوه أن يدعو الله لهم أن يكشفه الله عنهم، فكشفه الله عنهم، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾[(٢)] إخبار بأن الله سيصرفه عنكم، وتوعد لهم أن يعودوا إلى الاستكبار والتكذيب، وإخبار بوقوعه فوقع، وأن الله سيعاقبهم بالبطشة الكبرى، قالوا: وهي وقعة بدر، وفي هذا القول نظر ظاهر»[(٣)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٥).

(٢) الدخان: الآية (١٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٦-٧).

وقال أبو السعود: «﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: يومَ شدَّةٍ ومَجَاعة، فإنَّ الجائعَ يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان، إما لضعفِ بصرهِ، أو لأنَّ في عام القحطِ يُظلمُ الهواءُ لقلةِ الأمطارِ وكثرةِ الغُبارِ، أو لأنَّ العربَ تُسمِّي الشرَّ الغالبَ دُخانًا، وذلكَ أنَّ قريشًا لمَّا استعصتْ على رسول اللَّه ﷺ دعَا عليهم فقالَ: «اللهُمَّ اشدُدْ وطأتَكَ على مضرَ، واجعلْها عليهم سنينَ كسِنِي يوسفَ»[1] فأخذتْهُم سَنةٌ حتى أكلُوا الجيفَ والعظامَ والعِلْهِزَ[2]، وكانَ الرجلُ يَرَى بينَ السماءِ والأرضِ الدُّخانَ، وكان يحدثُ الرجلَ ويسمعُ كلامَهُ ولا يراهُ من الدخانِ، وذلكَ قولُه تعالى: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: يحيطُ بهم ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي قائلينَ ذلكَ، فمشَى إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أبُو سفيانَ ونَفَرٌ معَهُ وناشدُوه اللَّه تعالَى والرحمَ، وواعدُوه إنْ دعَا لهم وكشفَ عنهم أنْ يُؤمنوا، وذلكَ قولُه تعالى: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢﴾ وهَذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ وابنِ مسعودٍ ﵄، وبه أخذَ مجاهدٌ ومقاتلٌ وهو اختيارُ الفرَّاءِ والزَّجَّاجِ»[3].

وقال ابن كثير: «وقد وافق ابن مسعود على تفسير الآية بهذا، وأن الدخان مضى، جماعة من السلف كمجاهد، وأبي العالية، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وعطية العوفي، وهو اختيار ابن جرير»[4].

قال ابن جرير: «وأولى القولين بالصواب في ذلك ما رُوي عن ابن مسعود من أن الدخان الذي أمر اللَّه نبيه ﷺ أن يرتقبه، هو ما أصاب قومه من الجهد بدعائه عليهم، على ما وصفه ابن مسعود من ذلك إن لم يكن خبر حُذيفة الذي ذكرناه عنه عن رسول اللَّه ﷺ صحيحا، وإن كان صحيحا، فرسول اللَّه ﷺ أعلم بما أنزل اللَّه عليه، وليس لأحد مع قوله الذي يصح عنه قول»[5].

وهذا القول هو الذي رجحه ابن عاشور فقال: «والكلام يؤذن بأن هذا الدخان المرتقب حادث قريب الحصول، فالظاهر أنه حَدث يكون في الحياة الدنيا، وأنه

(١) سيأتي تخريجه.
(٢) العلهز بالكسر: طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير في سنين المجاعة، ولحم معلهز: إذا لم ينضج.
(٣) تفسير أبي السعود (٨ / ٦٠).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٤٦-٢٤٧).
(٥) جامع البيان (٢٥ / ١١٤).

عقاب للمشركين.

فالمراد بالنّاس من قوله: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ هم المشركون كما هو الغالب في إطلاق لفظ الناس في القرآن، وأنه يُكشف زمنًا قليلًا عنهم إعذارًا لهم لعلهم يؤمنون، وأنهم يعودون بعد كشفه إلى ما كانوا عليه، وأن اللَّه يعيده عليهم كما يؤذن بذلك قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ . وأما قوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ﴾[1] فهو عذاب آخر. وكل ذلك يؤذن بأن العذاب بالدخان يقع في الدنيا وأنه مستقبل قريب، وإذ قد كانت الآية مكية تعيّن أن هذا الدخان الذي هو عذاب للمشركين لا يصيب المؤمنين لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾[2] فتعيّن أن المؤمنين يوم هذا الدخان غير قاطنين بدار الشرك، فهذا الدخان قد حصل بعد الهجرة لا محالة، وتعيّن أنه قد حصل قبل أن يسلم المشركون الذين بمكة وما حولها، فيتعيّن أنه حصل قبل فتح مكة أو يوم فتح مكة على اختلاف الأقوال. والأصح أن هذا الدخان عُني به ما أصاب المشركين من سِنِي القحط بمكة بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة. والأصح في ذلك حديث عبد اللَّه بن مسعود في «صحيح البخاري» عن مسلم وأبي الضحى عن مسروق قال: دخلتُ على عبد اللَّه بن مسعود فقال: إنَّ قريشًا لما غَلَبوا على النبي ﷺ واستعصوا عليه قال: «**اللّهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف**»، فأخذتهم سَنة أكلوا فيها العظام والميتةَ من الجَهْد حتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع فأُتي رسول اللَّه ﷺ فقيل له: استسقِ لمُضر أن يكشف عنهم العذاب، فدعا فكشف عنهم، وقال اللَّه له: إنْ كشفنا عنهم العذاب عَادوا، فعادُوا: فانتقم اللَّه منهم يومَ بدر، فذلك قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦﴾[3] والبطشة الكبرى يوم بدر. وإن عبَد اللَّه قال: مَضى خمس: الدخانُ، والرومُ والقَمَرُ والبطشة واللِّزَام.

في حديث أبي هريرة في «صحيح البخاري» في أبواب الاستسقاء أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة من الصبح يقول: «**اللهم أنْج عياش بن أبي**

---

(١) الدخان: الآية (١٦).

(٢) الأنفال: الآية (٣٣).

(٣) الدخان: الآيات (١٠-١٦).

ربيعة. اللّهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدُدْ وطْأتَك على مُضَر، اللهم اجعلها عليهم سنينَ كسني يوسُف»[1] وهؤلاء الذين دعا لهم بالنجاة كانوا ممن حبسهم المشركون بعد الهجرة، وكل هذه الروايات يؤذن بأن دعاء النبي ﷺ على المشركين بالسنين كان بعد الهجرة لئلا يعذب المسلمون بالجوع، وأنه كان قبل وقعة بدر، وفي بعض روايات القنوت أنه دعا في القنوت على بني لحيان وعُصيَّة[2].

والذي يستخلص من الروايات أن هذا الجوع حلّ بقريش بُعيد الهجرة، وذلك هو الجوع الذي دعا به النبي ﷺ إذ قال: «اللّهم أعِنِّي عليهم بسبَعٍ كسَبْعِ يُوسف» وفي رواية «اللّهم اشْدُدْ وَطْأتَك على مُضر، اللهم اجعلها عليهم سِنين كسني يوسف» فأُتي النبي ﷺ فقيل له: استسق لِمُضَر وفي رواية عن مسروق عن ابن مسعود في «صحيح البخاري» أن الذي أتى النبي هو أبُو سفيان. وقال المفسرون: إن أبا سفيان أتاه في ناس من أهل مكة يعني أتوا المدينة لمَّا علموا أنّ النبي ﷺ كان دعا عليهم بالقحط، فقالوا: (إن قومك قد هلَكُوا فادع اللَّه أن يسقيهم فدعا)»[3].

الوجه الثاني: هو دخان يظهر في العالم قال القاسمي: «وهو إحدى علامات القيامة ولم يأت بعد، وهو آت، وهو قول حذيفة، ويروى عن علي وابن عباس وجمع من التابعين، قال الرازي: واحتج القائلون بهذا القول بوجوه:

الأول: أن قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ يقتضي وجود دخان تأتي به السماء، وما ذكرتموه من الظلمة الحاصلة في العين بسبب شدة الجوع فذاك ليس بدخان أتت به السماء، فكان حمل لفظ الآية على هذا الوجه عدولًا عن الظاهر لا لدليل منفصل، وإنه لا يجوز.

الثاني: أنه وصف ذلك الدخان بكونه مبينًا، والحالة التي ذكرتموها ليست كذلك؛ لأنها عارضة تعرض لبعض الناس في أدمغتهم، ومثل هذا لا يوصف بكونه

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٩)، البخاري (١٢/ ٣٨٥/ ٦٩٤٠)، مسلم (١/ ٤٦٦/ ٦٧٥)، أبو داود (٢/ ١٤٢/ ١٤٤٢)، النسائي (٢ / ٥٤٦-٥٤٧ / ١٠٧٢-١٠٧٣)، ابن ماجه (١ / ٣٩٤ / ١٢٤٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠٩)، والبخاري (٧/ ٤٩٠/ ٤٠٠٩)، مسلم (١/ ٤٦٨/ ٦٧٧)، والنسائي (٢/ ٥٤٨-٥٤٩ / ١٠٧٦)، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٣) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٨٦-٢٨٧).

دخانًا مبينًا .

والثالث : أنه وصف ذلك الدخان بأنه يغشى الناس ، وهذا إنما يصدق إذا وصل ذلك الدخان إليهم واتصل بهم ، والحالة التي ذكرتموها لا تغشى الناس إلا على سبيل المجاز ، وقد ذكرنا أن العدول من الحقيقة إلى المجاز لا يجوز إلا لدليل منفصل .

الرابع : ما روي عن النبي ﷺ من عده الدخان من الآيات المنتظرة .

أما القائلون بالقول الأول فلا شك أن ذلك يقتضي صرف اللفظ عن حقيقته إلى المجاز ، وذلك لا يجوز إلا عند قيام دليل يدل على أن حمله على حقيقته ممتنع ، والقوم لم يذكروا ذلك الدليل ، فكان المصير إلى ما ذكروه مشكلًا جدًّا ، فإن قالوا : الدليل على أن المراد ما ذكرناه ، أنه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون : ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ وهذا إذا حملناه على القحط الذي وقع بمكة استقام ، فإنه نقل أن القحط لما اشتد بمكة مشى إليه أبو سفيان وناشده باللَّه وبالرحم ، ووعده أنه إن دعا لهم وأزال اللَّه عنهم تلك البلية أن يؤمنوا به ، فلما أزال اللَّه تعالى عنهم ذلك رجعوا إلى شركهم ، أما إذا حملناه على أن المراد منه ظهور علامة من علامات القيامة لم يصح ذلك ؛ لأن عند ظهور علامات القيامة لا يمكنهم أن يقولوا : ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ ولم يصح أيضًا أن يقال لهم : ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ والجواب : لم لا يجوز أن يكون ظهور هذه العلامة جاريًا مجرى ظهور سائر علامات القيامة في أنه لا يوجب انقطاع التكليف فتحدث هذه الحالة ، ثم إن الناس يخافون جدًّا فيتضرعون ، فإذا زالت تلك الواقعة عادوا إلى الكفر والفسق ، وإذا كان هذا محتملًا فقد سقط ما قالوه ، واللَّه أعلم .

وهكذا رجح الإمام ابن كثير الوجه الثاني ذهابا إلى ما صح عن ابن عباس ترجمان القرآن ومن وافقه من الصحابة والتابعين ، مع الأحاديث المرفوعة الصحاح والحسان وغيرهما التي أوردوها ، مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة ، مع أنه ظاهر القرآن ، قال اللَّه -تبارك وتعالى- : ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ أي : بين واضح يراه كل أحد . وعلى ما فسر به ابن مسعود ﷺ ، إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد وهكذا قوله : ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي : يتغشاهم ويعمهم ، ولو كان أمرا خياليا يخص أهل مكة المشركين لما

قيل فيه: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾»[١].

الوجه الثالث: قال السعدي: «قيل: إنه الدخان الذي يغشى الناس ويعمهم حين تقرب النار من المجرمين في يوم القيامة، وأن اللَّه توعدهم بعذاب يوم القيامة، وأمر نبيه أن ينتظر بهم ذلك اليوم.

ويؤيد هذا المعنى أن هذه الطريقة هي طريقة القرآن في توعد الكفار والتأني بهم، وترهيبهم بذلك اليوم وعذابه، وتسلية الرسول والمؤمنين بالانتظار بمن آذاهم.

ويؤيده أيضًا أنه قال في هذه الآية: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾[٢] وهذا يقال يوم القيامة للكفار حين يطلبون الرجوع إلى الدنيا فيقال: قد ذهب وقت الرجوع»[٣].

ومعنى قوله: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ **قال الألوسي:** «أي: يحيط بهم، والمراد بهم كفار قريش، ومن جعل الدخان ما هو من أشراط الساعة حمل ﴿ٱلنَّاسَ﴾ على من أدركه ذلك الوقت، ومن جعل ذلك يوم القيامة حمل ﴿ٱلنَّاسَ﴾ على العموم»[٤].

وقوله: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **قال ابن كثير:** «أي: يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾[٥]، أو يقول بعضهم لبعض ذلك»[٦].

قال ابن عطية: «يحتمل أن يكون إخبارًا من اللَّه تعالى، كأنه يعجب منه على نحو من قوله تعالى لما وصف قصة الذبح: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾[٧]، ويحتمل أن يكون ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من قول الناس، كأن تقدير الكلام: يقولون: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾»[٨].

قال القرطبي: «فمن قال: إن الدخان قد مضى فقوله: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ حكاية حال ماضية، ومن جعله مستقبلا فهو حكاية حال آتية. وقيل: ﴿هَٰذَا﴾ بمعنى ذلك.. وقيل: هو إخبار عن دنو الأمر كما تقول: هذا الشتاء فأعد له»[٩].

---

(١) محاسن التأويل (١٤ / ٣٦٦-٣٦٧).
(٢) الدخان: الآية (١٣).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٦).
(٤) روح المعاني (٢٥ / ١١٩).
(٥) الطور: الآيتان (١٣-١٤).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٤٩).
(٧) الصافات: الآية (١٠٦).
(٨) المحرر والوجيز (٥ / ٧٠).
(٩) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٣٢).

وقوله سبحانه: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ قال ابن كثير: «أي: يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب اللَّه وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم، كقوله جلت عظمته: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾[1]. وكذا قوله -جل وعلا-: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾[2]»[3].

قال المراغي: «وهذه هي طبيعة البشر إذا هم وقعوا في شدة أيا كانت أن يعدوا بالتوبة والإقلاع عما هم فيه، ولكن النفوس الشريرة، لا تتجه إلى فعل الخير، ولا تفعل ما تتقرب به إلى ربها، انتظارا لمثوبته، ورجاء في غفرانه ورحمته»[4].

وقال ابن عاشور: «حملها جميع المفسرين على أنها حكاية قولِ الذين يغشاهم العذابُ بتقدير: يقولون ربّنا اكشف عنا العذاب، أي هو وَعد صادر من النّاس الذين يغشاهم العذاب بأنهم يؤمنون إن كشف عنهم العذاب، أي فيكون مثل قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾[5] أي: إنْ دعوتَ ربّك اتبعناك ويكون بمعنى قوله في سورة الأعراف: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ إلى قوله: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾[6] ومما تسمح به تراكيب الآية وسياقها أن يكون القول المحذوف مقدَّرًا بفعلِ أمرٍ؛ أي: قولوا لتلقين المسلمين أن يستعيذوا باللَّه من أن يصيبهم ذلك العذاب إذ كانوا والمشركين في بلد واحد، كما استعاذ موسى عليه السلام بقوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾[7]. وفيه إيماء إلى أن اللَّه سيخرج المؤمنين من مكة قبل أن يحلّ بأهلها هذا العذاب، فهذا التلقين كالذي في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[8] الآيات. وعليه فجملة ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ تعليل لطلب دفع العذاب عنهم؛ أي: إنا متلبسون بما يدفع عنا عذاب الكافرين، وفي تلقينهم بذلك تنويه بشرف الإيمان»[9].

---

(١) الأنعام: الآية (٢٧).
(٢) إبراهيم: الآية (٤٤).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٤٩).
(٤) تفسير المراغي (٢٥ / ١٢٣).
(٥) الزخرف: الآية (٤٩).
(٦) الأعراف: الآية (١٣٤).
(٧) الأعراف: الآية (١٥٥).
(٨) البقرة: الآية (٢٨٦).
(٩) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٨٩-٢٩٠).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أشراط الساعة

* عن عبد اللَّه فقال: إن النبي ﷺ لما رأى من الناس إدبارا قال: «**اللهم سبع كسبع يوسف**». فأخذتهم سنة حصت كل شيء، حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف وينظر أحدهم إلى السماء فيرى الدخان من الجوع، فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد إنك تأمر بطاعة اللَّه وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا، فادع اللَّه لهم، قال اللَّه تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠﴾ إلى قوله: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾، فالبطشة يوم بدر، وقد مضت الدخان، والبطشة واللزام وآية الروم)[1].

* عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه موقوفا: (مضى خمس: الدخان، والروم والبطشة والقمر واللزام)[2].

* عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: «اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال: **«ما تذاكرون؟»** قالوا: نذكر الساعة، قال: «**إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم ﷺ، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم**»[3].

★ **غريب الأحاديث:**

اللزام: يريد قول اللَّه تعالى من سورة الفرقان: ﴿فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا﴾[4] قال أبو عبيدة: «أي جزاء يلزم كل عامل بما عمل. وله معنى آخر يكون هلاكا»[5].

---

(١) أخرجه: أحمد (١ / ٤٣١ و٤٤١) البخاري (٢ / ٦٢٦ / ١٠٠٧) مسلم (٤ / ٢١٥٦ / ٢٧٩٨) الترمذي (٥ / ٣٥٤ / ٣٢٥٤) وقال: «حسن صحيح» والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥٥/ ١١٤٨١).

(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ٧٣٤ / ٤٨٢٠) واللفظ له، مسلم (٤ / ٢١٥٧ / ٢٧٩٨[٤١]) النسائي في الكبرى (٦ / ٤٢٦ / ١١٣٨٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٤ / ٦) ومسلم (٤ / ٢٢٢٥ / ٢٩٠١) واللفظ له، أبو داود (٤ / ٤٩١-٤٩٢ / ٤٣١١) والترمذي (٤ / ٤١٤ / ٢١٨٣) والنسائي في الكبرى (٦ / ٤٢٤ / ١١٣٨٠) وابن ماجه (٢ / ١٣٤١ / ٤٠٤١) مختصرا.

(٤) الفرقان: الآية (٧٧).

(٥) فتح الباري (٨ / ٤٩٦).

السنة: الجدب والقحط.

★ فوائد الأحاديث:

قال ابن كثير: «قد تكلمنا على تفسير هذه الآية في سورة الدخان بما فيه مقنع، وقد نقل البخاري عن ابن مسعود أنه فسر ذلك بما كان يحصل لقريش من شدة الجوع، بسبب القحط الذي دعا عليهم به رسول اللَّه ﷺ، فكان أحدهم يرى فيما بينه وبين السماء دخانا من شدة الجوع.

وهذا التفسير غريب جدًّا، ولم ينقل مثله عن واحد من الصحابة غيره، وقد حاول بعض العلماء المتأخرين رد ذلك، ومعارضته بما ثبت في حديث أبي سريحة حذيفة بن أسيد؛ «**لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات**»، فذكر فيهن الدجال، والدخان، والدابة، وكذلك في حديث أبي هريرة: «**بادروا بالأعمال ستًّا**»[١]، فذكر فيهن هذه الثلاث، والحديثان في صحيح مسلم مرفوعان، والمرفوع مقدم على كل موقوف، وفي ظاهر القرآن ما يدل على وجود دخان من السماء يغشى الناس، وهذا أمر محقق عام، وليس كما روي عن ابن مسعود أنه خيال في أعين قريش من شدة الجوع.

قال تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ أي: ظاهر واضح جلي، ليس خيالا من شدة الجوع ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: ينادي أهل ذلك الزمان ربهم بهذا الدعاء، يسألون كشف هذه الشدة عنهم، فإنهم قد آمنوا، وأيقنوا بما وعدوا به من الأمور الغيبية الكائنة بعد ذلك يوم القيامة، وهذا دليل على أن يكون هذا قبل يوم القيامة، حيث يمكن رفعه، ويمكن استدراك التوبة، والإنابة واللَّه أعلم»[٢].

قال النووي عند شرحه لحديث حذيفة بن أسيد: «هذا الحديث يؤيد قول من قال: إن الدخان دخان يأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ المؤمن منه كهيئة الزكام، وأنه لم يأت بعد، وإنما يكون قريبا من قيام الساعة، وقد سبق في كتاب بدء الخلق، قول

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢٤)، مسلم (٤/ ٢٢٦٧/ ٢٩٤٧).

(٢) النهاية في الفتن (١ / ١٧٢).

من قال هذا، وإنكار ابن مسعود عليه، وأنه قال: إنما هو عبارة عما نال قريشا من القحط حتى كانوا يرون بينهم وبين السماء كهيئة الدخان، وقد وافق ابن مسعود جماعة، وقال بالقول الآخر حذيفة وابن عمر والحسن، ورواه حذيفة عن النبي ﷺ: وأنه يمكث في الأرض أربعين يوما، ويحتمل أنهما دخانان للجمع بين هذه الآثار»[1].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما نمت البارحة حتى أصبحت، قلت: لم؟ قال: طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق فما نمت حتى أصبحت»[2].

* * *

(١) شرح مسلم (١٨ / ٢٢).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٢ / ٢٠٦). ابن جرير في التفسير (٢٥ / ١١٣) واللفظ له، والحاكم (٤ / ٤٥٩) وصححه ووافقه الذهبي، وزاد نسبته السيوطي في الدر (٥ / ٧٤٤) لعبد بن حميد وابن أبي حاتم وصحح إسناده وأورده الحافظ في الفتح (٨ / ٧٣٦) وسكت عنه.

قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: [هذا] ردٌّ لكلامِهم واستدعائِهم الكشفَ، وتكذيبٌ لهم في الوعدِ بالإيمانِ المنبئ عن التذكرِ والاتعاظِ بما اعتراهُم من الداهيةِ؛ أي: كيفَ يتذكرونَ، أو مِنْ أين يتذكرون بذلك ويفُون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذابِ عنهم ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي: والحالُ أنَّهم شاهُدوا منْ دَواعي التذكرِ وموجباتِ الاتعاظِ ما هو أعظمُ منهُ في إيجابِها، حيثُ جاءَهُم رسولٌ عظيمٌ الشأنِ، وبين لهم مناهجَ الحقِّ بإظهار آياتٍ ظاهرةٍ، ومعجزاتٍ قاهرةٍ، تخِرُّ لها صُمُّ الجبال. ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ عن ذلك الرسول، وهو هو ريثما شاهدوا منه ما شاهدوه من العظائم الموجبةِ للإقبال عليه، ولم يقتنعوا بالتولِّي ﴿وَقَالُواْ﴾ في حقِّهِ ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أي: قالوا تارة: يعلمُه غلامٌ أعجميٌّ لبعض ثقيفٍ، وأُخرى مجنونٌ، أو يقولُ بعضهم كذَا، وآخرونَ كَذا، فَهلْ يتوقعُ من قوم هذه صفاتُهم أنْ يتأثرُوا بالعظة والتذكير، وما مثلُهم إلا كمثلِ الكلبِ إذَا جاعَ ضَغَا، وإذا شبعَ طَغَى»[١].

قال ابن كثير: «وهذا كقوله جلت عظمته: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾[٣]»[٤].

وقال ابن عاشور: «والمعلَّم الذي يعلِّمه غيره، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾[٥].

---

(١) تفسير أبي السعود (٨ / ٦٠-٦١).
(٢) الفجر: الآيتان (٢٣-٢٤).
(٣) سبأ: الآيات (٥١-٥٣).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٤٩).
(٥) النحل: الآية (١٠٣).

والمعنى: أنهم وصفوه مرة بأنه يعلّمه غيره، ووصفوه مرة بالجنون، تنقلًا في البهتان، أو وصفَه فريق بهذا وفريق بذلك، فالقول موزع بين أصحاب ضمير ﴿قَالُوا۟﴾ أو بين أوقات القائلين. ولا يصح أن يكون قولًا واحدًا في وقت واحد؛ لأن المجنون لا يكون معلَّمًا، ولا يتأثر بالتعليم»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٩٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ۝١٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال المراغي: «ثم نبه إلى أنهم لا يوفون بعهدهم؛ بل إذا زال الخوف نكصوا على أعقابهم ورجعوا سيرتهم الأولى، وعضوا على الكفر بالنواجذ، وساروا على طريق الآباء والأجداد فقال: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾»[(١)].

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: أنه يقول تعالى: ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب، كقوله تعالى: ﴿۞ وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾[(٢)]، وكقوله جلت عظمته: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾[(٣)].

والثاني: أن يكون المراد: إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾[(٤)]، ولم يكن العذاب باشرهم، واتصل بهم، بل كان قد انعقد سببه ووصوله عليهم، ولا يلزم أيضًا أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه، قال اللَّه تعالى إخبارًا عن شعيب عليه السلام أنه قال لقومه حين قالوا: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝٨٨ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ﴾[(٥)]، وشعيب عليه السلام لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم. وقال قتادة: ﴿إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ إلى عذاب الله»[(٦)].

---

(١) تفسير المراغي (٢٥ / ١٢٣).
(٢) المؤمنون: الآية (٧٥).
(٣) الأنعام: الآية (٢٨).
(٤) يونس: الآية (٩٨).
(٥) الأعراف: الآيتان (٨٨-٨٩).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٠).

وقال أبو السعود: «[هذا] جوابٌ من جهتهِ تعالى عن قولِهم: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ۝١٢﴾ بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ والتهديد، وما بينهما اعتراضٌ؛ أي: إنا نكشفُ العذابَ المعهودَ عنكم كشفًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا، إنكم تعودون إثرَ ذلك إلى ما كنتم عليه من العُتوّ والإصرارِ على الكفر وتنسَون هذه الحالَة.. ولقد وقعَ كلاهُما حيثُ كشَفهُ اللَّه تعالى بدعاءِ النبيِّ ﷺ، فمَا لبِثُوا أنْ عادُوا إلى ما كانوا عليهِ من العُتوِّ والعناد. ومن فسر الدخانِ بما هو من الأشراط قال: إذا جاء الدخان تضوّرَ المعذبونَ به من الكفارِ والمنافقينِ وغوَّثُوا وقالُوا: ربَّنا اكشفْ عنَّا العذابَ إنَّا مؤمنونَ، فيكشفه اللَّه تعالَى عنهُم بعدَ أربعينَ يومًا، وريثما يكشفُه عنهم يرتدونَ ولا يتمهلونَ»[1].

* * *

(١) تفسير أبي السعود (٨ / ٦١).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال المراغي: «ولما كان العذاب الأليم لم يؤثر، والإصلاح بالعلم والإيمان لم يفد، أمهلناهم إلى يوم البطشة الكبرى حيث لا توبة بعدها فينتقم اللَّه منهم، وهذا ما عناه سبحانه بقوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾»[١].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إنكم أيها المشركون إن كشفت عنكم العذاب النازل بكم، والضرّ الحالّ بكم، ثم عدتم في كفركم، ونقضتم عهدكم الذي عاهدتم ربكم، انتقمت منكم يوم أبطش بكم بطشتي الكبرى في عاجل الدنيا فأهلككم، وكشف اللَّه عنهم، فعادوا، فبطش بهم -جل ثناؤه- بطشته الكبرى في الدنيا، فأهلكهم قتلا بالسيف»[٢].

وقال الماوردي: «والبطشة الكبرى هي العقوبة الكبرى، وفيها قولان: أحدهما: القتل بالسيف يوم بدر، قاله ابن مسعود، وأُبي بن كعب، ومجاهد، والضحاك.

الثاني: عذاب جهنم يوم القيامة، قاله ابن عباس والحسن. ويحتمل ثالثًا: أنها قيام الساعة؛ لأنها خاتمة بطشاته في الدنيا»[٣].

قال ابن عاشور: «و﴿ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾: هي بطشة يوم بدر، فإن ما أصاب صناديد المشركين يومئذٍ كان بطشة بالشرك وأهلِه؛ لأنهم فقدوا سادتهم وذوي الرأي منهم الذين كانوا يسيّرون أهل مكة كما يريدون»[٤].

قال ابن كثير: «والظاهر أن ذلك يوم القيامة وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضًا»[٥].

---

(١) تفسير المراغي (٢٥ / ١٢٤).
(٢) جامع البيان (٢٥ / ١١٦).
(٣) تفسير الماوردي (٥ / ٢٤٨).
(٤) التحرير والتنوير (٢٥ / ١٩٣).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٠).

ورجح هذا القول الرازي أيضًا معللا ذلك بقوله: «لأن يوم بدر لا يبلغ هذا المبلغ الذي يوصف بهذا الوصف العظيم، ولأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[١] ولأن هذه البطشة لما وصفت بكونها كبرى على الإطلاق وجب أن تكون أعظم أنواع البطش، وذلك ليس إلا في القيامة»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن البطشة الكبرى يوم القيامة

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (قال ابن مسعود: البطشة الكبرى يوم بدر وأنا أقول: هي يوم القيامة)[٣].

* * *

(١) غافر: الآية (١٧).

(٢) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٤٥).

(٣) أخرجه: ابن جرير (٢٥ / ١١٧)، وصححه ابن كثير في تفسيره. وزاد السيوطي نسبته في الدر المنثور لعبد بن حميد وصحح إسناده.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بين أن كفار مكة مصرون على كفرهم، بين أن كثيرًا من المتقدمين أيضًا كانوا كذلك، فبين حصول هذه الصفة في أكثر قوم فرعون، قال صاحب «الكشاف»: قرئ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ بالتشديد للتأكيد قال ابن عباس ابتلينا، وقال الزجاج بلونا، والمعنى عاملناهم معاملة المختبر ببعث الرسول إليهم ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ وهو موسى، واختلفوا في معنى الكريم ههنا: فقال الكلبي: كريم على ربه؛ أي: أنه استحق على ربه أنواعًا كثيرة من الإكرام، وقال مقاتل: حسن الخلق، وقال الفراء: يقال: فلان كريم قومه؛ لأنه قل ما بعث رسول إلا من أشراف قومه وكرامهم»[(١)].

وقوله: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ **قال السعدي:** «أي: قال لفرعون وملئه: أدوا إلي عباد اللَّه، يعني بهم: بني إسرائيل أي: أرسلوهم وأطلقوهم من عذابكم وسومكم إياهم سوء العذاب، فإنهم عشيرتي وأفضل العالمين في زمانهم. وأنتم قد ظلمتموهم واستعبدتموهم بغير حق، فأرسلوهم ليعبدوا ربهم»[(٢)].

قال ابن عطية: «واختلف المتأولون في الشيء المؤدى في هذه الآية ما هو؟ فقال مجاهد وابن زيد وقتادة: طلب منهم أن يؤدوا إليه بني إسرائيل، وإياهم أراد بقوله: ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ وقال ابن عباس: المعنى: اتبعوني إلى ما أدعوكم إليه من

---

(١) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٤٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٨).

الحق، فقوله: ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ منادى مضاف، والمؤدى هي الطاعة والإيمان والأعمال.

قال القاضي أبو محمد: والظاهر من شرع موسى ﷺ أنه بعث إلى دعاء فرعون إلى الإيمان، وأن يرسل بني إسرائيل، فلما أبى أن يؤمن، ثبتت المكافحة في أن يرسل بني إسرائيل»[1].

وقال الشنقيطي: «وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن موسى طلب فرعون أن يسلم له بني إسرائيل ويرسلهم معه جاء موضحًا في آيات آخر، مصرح فيها بأن عباد الله هم بنو إسرائيل، كقوله تعالى في طه: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾[2] وقوله تعالى في الشعراء: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾[3] الآية»[4].

وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾ قال السعدي: «أي: رسول من رب العالمين أمين على ما أرسلني به لا أكتمكم منه شيئا، ولا أزيد فيه ولا أنقص، وهذا يوجب تمام الانقياد له»[5].

وقوله: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ قال ابن كثير: «أي: لا تستكبروا عن اتباع آياته، والانقياد لحججه والإيمان ببراهينه، كقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[6]»[7].

قال الماوردي: «فيه أربعة تأويلات: أحدها: لا تبغوا على الله، قاله قتادة. الثاني: لا تفتروا على الله، قاله ابن عباس، والفرق بين البغي والافتراء أن البغي بالفعل، والافتراء بالقول.

الثالث: لا تعظموا على الله، قاله ابن جريج. الرابع: لا تستكبروا على عباد الله، قاله يحيى. والفرق بين التعظيم والاستكبار أن التعظيم تطاول المقتدر، والاستكبار ترفع المحتقر»[8].

---

(١) المحرر الوجيز (٥ / ٧٠-٧١).
(٢) طه: الآية (٤٧).
(٣) الشعراء: الآيتان (١٦-١٧).
(٤) أضواء البيان (٧ / ٣٢٤).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٨).
(٦) غافر: الآية (٦٠).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥١).
(٨) النكت والعيون (٥ / ٢٤٩).

وقوله: ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ يقول ابن جرير: «يقول: إني آتيكم بحجة على حقيقة ما أدعوكم إليه، وبرهان على صحته، مبين لمن تأملها وتدبرها أنها حجة لي على صحة ما أقول لكم»[١].

وهذا تعليل لما قبله من النهي؛ أي: بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها، وقال قتادة: بعذر بين، والأول أولى، وبه قال يحيى بن سلام[٢].

وقوله: ﴿وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ ٢٠﴾ كأنهم توعدوه بالقتل فاستجار بالله[٣].

وقال ابن جرير: «يقول: وإني اعتصمت بربي وربكم، واستجرت به منكم أن ترجمون.

واختلف أهل التأويل في معنى الرجم الذي استعاذ موسى نبيّ اللَّه عليه السلام بربه منه، فقال بعضهم: هو الشتم باللسان.. وقال آخرون: بل هو الرمي بالحجارة.. وقال آخرون: بل عني بقوله: ﴿أَن تَرۡجُمُونِ﴾: أن تقتلوني.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ما دلّ عليه ظاهر الكلام، وهو أن موسى عليه السلام استعاذ باللَّه من أن يرجُمه فرعون وقومه، والرجم قد يكون قولا باللسان، وفعلا باليد. والصواب أن يقال: استعاذ موسى بربه من كل معاني رجمهم الذي يصل منه إلى المرجوم أذًى ومكروه، شتما كان ذلك باللسان، أو رجما بالحجارة باليد.

وقوله: ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ ٢١﴾ يقول -تعالى ذكره- مخبرا عن قيل نبيه موسى عليه السلام لفرعون وقومه: وإن أنتم أيها القوم لم تصدّقوني على ما جئتكم به من عند ربي، فاعتزلون: يقول: فخلوا سبيلي غير مرجوم باللسان ولا باليد»[٤].

قال ابن عاشور: «والرجم: الرمي بالحجارة تباعًا حتى يموت المرمِي أو يثخنه الجراح. والقصد منه تحقير المقتول؛ لأنهم كانوا يرمون بالحجارة من يطردونه، قال: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾[٥].

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ١١٩).

(٢) قاله الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٨٠٣).

(٣) قاله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٣٥).

(٤) جامع البيان (٢٥ / ١١٩-١٢٠). (٥) الحجر: الآية (٣٤).

وإنّما استعاذ موسى منه لأنه علم أن عادتهم عقاب من يخالف دينهم بالقتل رميًا بالحجارة. وجاء في سورة القصص: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[١] ومعنى ذلك إن لم تؤمنوا بما جئت به فلا تقتلوني، كما دل عليه تعقيبه بقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى﴾ .

والمعنى: إن لم تؤمنوا بالمعجزة التي آتيكم بها فلا ترجموني، فإني أعوذ بالله من أن ترجموني، ولكن اعتزلوني، فكونوا غير موالين لي وأكون مع قومي بني إسرائيل، فالتقدير: فاعتزلوني وأعتزلكم، لأن الاعتزال لا يتحقق إلا من جانبين»[٢].

* * *

(١) القصص: الآية (٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٩٧-٢٩٨).

قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «فلما طال مقامه بين أظهرهم، وأقام حجج اللَّه عليهم، كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم، كما قال تبارك تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾[1]. وهكذا قال هاهنا: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ فعند ذلك أمره اللَّه تعالى أن يخرج ببني إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه؛ ولهذا قال: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾[2].

وقوله ﷻ هاهنا: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ وذلك أن موسى عليه السلام لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان، ليصير حائلا بينهم وبين فرعون، فلا يصل إليهم. فأمره اللَّه تعالى أن يتركه على حاله ساكنًا، وبشره بأنهم جند مغرقون فيه، وأنه لا يخاف دركًا ولا يخشى.

قال ابن عباس: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ كهيئته وامضِهْ. وقال مجاهد ﴿رَهْوًا﴾ طريقًا يبسًا كهيئته، يقول: لا تأمره يرجع، اتركه حتى يرجع آخرهم. وكذا قال عكرمة، والربيع بن أنس، والضحاك، وقتادة، وابن زيد وكعب الأحبار، وسِمَاك بن حرب، وغير واحد»[3].

---

(١) يونس: الآيتان (٨٨-٨٩). (٢) طه: الآية (٧٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥١-٢٥٢).

وقال الشوكاني: «﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ﴾ أي: ساكنًا، يقال: رها يرهو رهوًا: إذا سكن لا يتحرّك. قال الجوهري: يقال: افعل ذلك رهوًا؛ أي: ساكنًا على هيئتك، وعيش راه؛ أي: ساكن، ورها البحر سكن، وكذا قال الهروي، وغيره، وهو المعروف في اللغة، ومنه قول الشاعر:

والخيل تمرح رهوا في أعنتها كالطير تنجو من الشرنوب ذي البرد

أي: والخيل تمرح في أعنتها ساكنة، والمعنى: اترك البحر ساكنًا على صفته بعد أن ضربته بعصاك، ولا تأمره أن يرجع كما كان ليدخله آل فرعون بعدك، وبعد بني إسرائيل، فينطبق عليهم، فيغرقون. وقال أبو عبيدة: رها بين رجليه يرهو رهوًا؛ أي: فتح قال: ومنه قوله: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ﴾، والمعنى: اتركه منفرجًا كما كان بعد دخولكم فيه، وكذا قال أبو عبيد، وبه قال مجاهد وغيره. قال ابن عرفة: وهما يرجعان إلى معنى واحد، وإن اختلف لفظاهما؛ لأن البحر إذا سكن جريه انفرج»[1].

* * *

(١) فتح القدير (٤ / ٨٠٤).

قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: كم ترك فرعون وقومه من القبط بعد مهلكهم، وتغريق الله إياهم من بساتين وأشجار، وهي الجنات، ﴿وَعُيُونٍ﴾ يعني: ومنابع ما كان ينفجر في جنانهم»[1].

قال ابن عطية: «والجنات والعيون: روي أنها كانت متصلة ضفتي النيل جميعًا من رشيد إلى أسوان. وأما العيون فيحتمل أنه أراد الخلجان الخارجة من النيل فشبهها بالعيون، ويحتمل أنه كانت ثم عيون، ونضبت كما يعتري في كثير من بقاع الأرض»[2].

قوله: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ **قال ابن كثير**: «وهي المساكن الكريمة الأنيقة والأماكن الحسنة. وقال مجاهد، وسعيد بن جبير: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ المنابر»[3].

وقال الرازي: «والمراد بالمقام الكريم ما كان لهم من المجالس والمنازل الحسنة، وقيل: المنابر التي كانوا يمدحون فرعون عليها»[4].

وقال ابن كثير: «وقال ابن لَهِيعة، عن وهب بن عبد الله المعافري، عن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: نيل مصر سيد الأنهار، سخر الله تعالى له كل نهر بين المشرق والمغرب، وذلَّلَهُ له، فإذا أراد الله أن يجري نيل مصر، أمر كل نهر أن يمده، فأمدته الأنهار بمائها، وفجر الله -تبارك وتعالى- له الأرض عيونًا، فإذا انتهى جريه إلى ما أراد الله -جل وعلا-، أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره. وقال في قول الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٢٣).
(٢) المحرر الوجيز (٥ / ٧٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٢).
(٤) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٤٧).

﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾[1] قال: كانت الجنان بحافتي هذا النيل من أوله إلى آخره في الشقين جميعًا، ما بين أسوان إلى رشيد، وكان له تسعة خلج: خليج الإسكندرية، وخليج دمياط، وخليج سردوس، وخليج منف، وخليج الفيوم، وخليج المنتهى، متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء، وزروع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء، وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعًا، لما قدروا ودبروا من قناطرها وجسورها وخلجها»[2].

قوله: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ قال ابن كثير: «أي: عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاؤوا، ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد، فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير»[3].

وقال ابن عطية: «والنَعمة بفتح النون: غضارة العيش ولذاذة الحياة، والنِعمة بكسر النون أعم من هذا، لأن النعمة بالفتح هي من جملة النعم بالكسر، وقد تكون الأمراض والآلام والمصائب نعمًا، ولا يقال فيها نَعمة بالفتح»[4].

وقال الشوكاني: «النعمة بالفتح: التنعم، يقال: نعمه اللَّه، وناعمه فتنعم، وبالكسر: المنة، وما أنعم به عليك، وفلان واسع النعمة؛ أي: واسع المال ذكر معنى هذا الجوهري»[5].

وقوله: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ قرئت فكهين قال الشوكاني: «والمعنى على القراءة الأولى: متنعمين طيبة أنفسهم، وعلى القراءة الثانية: أشرين بطرين. قال الجوهري: فكه الرجل بالكسر، فهو فكه إذا كان طيب النفس مزاحًا، والفكه أيضًا: الأشر البطر. قال: و﴿فَٰكِهِينَ﴾ أي: ناعمين. وقال الثعلبي: هما لغتان كالحاذر والحذر، والفاره والفره. وقيل: إن الفاكه هو: المستمتع بأنواع اللذة كما يتمتع الرجل بأنواع الفاكهة»[6].

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ قال ابن كثير: «واستولى على البلاد

(١) الشعراء: الآيات (٥٧-٥٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٢).
(٤) المحرر الوجيز (٥ / ٧٣).
(٥) فتح القدير (٤ / ٨٠٥).
(٦) فتح القدير (٤ / ٨٠٥).

المصرية وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾[1] وقال في موضع آخر: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ۝١٣٧﴾[2]. وقال عزوجل ههنا: ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨﴾»[3].

وقال القرطبي: «يعني بني إسرائيل، ملكهم الله تعالى أرض مصر بعد أن كانوا فيها مستعبدين، فصاروا لها وارثين، لوصول ذلك إليهم كوصول الميراث»[4].

وقال الألوسي: «والمراد بالقوم الآخرين بنو إسرائيل، وهم مغايرون للقبط جنسًا ودينًا. ويفسر ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾، وهو ظاهر في أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون وملكوها، وبه قال الحسن.

وقيل: المراد بهم غير بني إسرائيل ممن ملك مصر بعد هلاك القبط، وإليه ذهب قتادة قال: لم يرد في مشهور التواريخ أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر، ولا أنهم ملكوها قط، وأول ما في سورة الشعراء بأنه من باب: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾[5] وقولك: عندي درهم ونصفه، فليس المراد خصوص ما تركوه؛ بل نوعه وما يشبهه، والإيراث الإعطاء. وقيل: المراد من إيراثها إياهم: تمكينهم من التصرف فيها، ولا يتوقف ذلك على رجوعهم إلى مصر، كما كانوا فيها أولًا، وأخذ جمع بقول الحسن وقالوا: لا اعتبار بالتواريخ، وكذا الكتب التي بيد اليهود اليوم، لما أن الكذب فيها كثير، وحسبنا كتاب الله تعالى، وهو سبحانه أصدق القائلين، وكتابه -جل وعلا- مأمون من تحريف المحرفين»[6].

* * *

---

(١) الشعراء: الآية (٥٩).
(٢) الأعراف: الآية (١٣٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٢).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٣٩).
(٥) فاطر: الآية (١١).
(٦) روح المعاني (٢٥ / ١٢٣-١٢٤).

قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ۝٢٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا اللَّه تعالى فيها فقدتهم؛ فلهذا استحقوا ألا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم . . وقال سفيان الثوري عن أبي يحيى القَتَّات، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان يقال: تبكي الأرض على المؤمن أربعين صباحًا. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وغير واحد.

وقال مجاهد أيضًا: ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحًا، قال: فقلت له: أتبكي الأرض؟ فقال: أتعجب؟ وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوي كدوي النحل؟.

وقال قتادة: كانوا أهون على اللَّه عز وجل من أن تبكي عليهم السماء والأرض . . عن يزيد بن أبي زياد قال: لما قتل حسين بن علي رضي الله عنهما، احمرت آفاق السماء أربعة أشهر. قال يزيد: واحمرارها بكاؤها. وهكذا قال السدي الكبير. وقال عطاء الخراساني: بكاؤها: أن تحمر أطرافها.

وذكروا أيضًا في مقتل الحسين رضي الله عنه أنه ما قلب حجر يومئذ إلا وجد تحته دم عَبِيط، وأنه كسفت الشمس، واحمر الأفق، وسقطت حجارة. وفي كل من ذلك نظر، والظاهر أنه من سُخْف الشيعة وكذبهم، ليعظموا الأمر -ولا شك أنه عظيم- ولكن لم يقع هذا الذي اختلقوه وكذبوه، وقد وقع ما هو أعظم من قتل الحسين رضي الله عنه، ولم يقع شيء مما ذكروه، فإنه قد قتل أبوه علي بن أبي طالب، وهو أفضل منه بالإجماع، ولم يقع شيء من ذلك، وعثمان بن عفان رضي الله عنه قتل محصورًا مظلومًا، ولم يكن شيء من ذلك. وعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قتل في المحراب في صلاة

الصبح، وكأن المسلمين لم تطرقهم مصيبة قبل ذلك، ولم يكن شيء من ذلك. وهذا رسول اللَّه ﷺ وهو سيد البشر في الدنيا والآخرة، يوم مات لم يكن شيء مما ذكروه. ويوم مات إبراهيم ابن النبي ﷺ خسفت الشمس فقال الناس: الشمس خسفت لموت إبراهيم، فصلى بهم رسول اللَّه ﷺ صلاة الكسوف، وخطبهم وبين لهم أن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته»[(١)].

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ قال ابن جرير: «يقول: وما كانوا مؤخرين بالعقوبة التي حلت بهم، ولكنهم عوجلوا بها إذ أسخطوا ربهم ﷻ عليهم»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن السماء والأرض تبكيان على موت المؤمن ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الله وأن تسيير الكون كله بيد الله

* عن ابن عباس ﵄ في قوله ﷻ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ قال: «**بفقد المؤمن أربعين صباحا**»[(٣)].

★ فوائد الحديث:

في هذا الأثر أن المؤمن إذا مات يفقده مصلاه الذي كان يصلي فيه ويذكر ربه، فيكون هذا سبب بكاء الأرض عليه، وكذلك السماء لأن المكان الذي يعرج منه عمله يغلق. وأما الكافر فليس له موضع عبادة ولا عمل، لذلك لا يبكي شيء بفقده.

* عن المغيرة بن شعبة قال: انكسفت الشمس يوم مات إبراهيم، فقال الناس: انكسفت لموت إبراهيم، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات اللَّه، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فادعوا اللَّه وصلوا حتى ينجلي**»[(٤)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٣-٢٥٥). (٢) جامع البيان (٢٥ / ١٢٦).

(٣) أخرجه: الحاكم (٢ / ٤٤٩) وصححه ووافقه الذهبي. وأخرجه مقطوعا من حديث محمد بن كعب القرظي: ابن المبارك في الزهد (١٣٨٥) بسند صحيح. أبو نعيم في الحلية (٣ / ٢١٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٤ / ٢٤٥-٢٤٩-٢٥٣)، البخاري (٢ / ٦٩٥ / ١٠٦٠) واللفظ له، مسلم (٢ / ٦٣٠ / ٩١٥).

★ **غريب الحديث:**

انكسفت الشمس: الكسوف هو التغير للسواد، ومنه كسف وجهه إذا تغير[١].

★ **فوائد الحديث:**

المراد منه أن ما يحدث في الكون من بعض الآيات المخوفة لا ينبغي تفسيره بموت أحد الصالحين، وفي هذا رد على أكاذيب الشيعة الذين أوردوا حكايات باطلة في ذلك لما قتل الحسين رضي الله عنه.

قال القرطبي: «وقوله: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات اللَّه تعالى**» أي: دليلان على وجود الحق سبحانه، وقهره، وكمال الإلهية، وقد خصهما بالذكر لما وقع للناس من أنهما يخسفان لموت عظيم، وهذا إنما صدر عمن لا علم عنده ممن ضعف عقله، واختل فهمه، فرد النبي ﷺ عليهم جهالتهم. وتضمن ذلك الرد على من قال بتأثيرات النجوم، ثم أخبر بالمعنى الذي لأجله يكسفان، وهو: أن اللَّه تعالى يخوف بهما عباده»[٢].

* * *

---

(١) المفهم (٢ / ٥٤٩).

(٢) المفهم (٢ / ٥٥٢-٥٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بيّن كيفية إهلاك فرعون وقومه بيّن كيفية إحسانه إلى موسى وقومه. واعلم أن دفع الضرر مقدم على إيصال النفع، فبدأ تعالى ببيان دفع الضرر عنهم فقال: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾ يعني قتل الأبناء، واستخدام النساء، والإتعاب في الأعمال الشاقة»[1].

وقال ابن كثير: «يمتن عليهم تعالى بذلك، حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم، وتسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة.

وقوله تعالى: ﴿مِن فِرْعَوْنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: مستكبرًا جبارًا عنيدًا، كقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[2]. وقوله جلت عظمته: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ﴾[3]، وقوله: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾[4]، فكان فرعون سرفا في أمره، سخيف الرأي على نفسه»[5].

قال القرطبي: «﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: جبارا من المشركين. وليس هذا علو مدح بل هو علو في الإسراف.. وقيل هذا العلو هو الترفع عن عبادة الله»[6].

وقال الشنقيطي: «وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة، من أن فرعون كان عاليًا من المسرفين، أوضحه أيضًا في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في يونس: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[7] وقوله تعالى في أول

---

(١) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٤٩).
(٢) القصص: الآية (٤).
(٣) المؤمنون: الآية (٤٦).
(٤) العنكبوت: الآية (٣٩).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٥).
(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٤٢).
(٧) يونس: الآية (٨٣).

القصص: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾[1] إلى غير ذلك من الآيات»[2].

وقال ابن عاشور: «والمقصود من ذكر هذا الإشارةُ إلى أن اللَّه تعالى ينجي الذين آمنوا بمحمد ﷺ من عذاب أهل الشرك بمكة، كما نجّى الذين اتبعوا موسى من عذاب فرعون.

وجُعل طغيان فرعون وإسرافه في الشر مثلًا لطغيان أبي جهل وملئه، ولأجل هذه الإشارة أُكد الخبر باللام»[3].

* * *

(١) القصص: الآية (٤).

(٢) أضواء البيان (٧ / ٣٢٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣٠٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ﴾ أي: اصطفيناهم وشرفناهم. ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ علم مصدر لم يذكر فاعله، فقيل: على علم منهم، وفضل فيهم، فاخترناهم للنبوات والرسالات. وقيل: على علم منا، أي عالمين بمكان الخيرة، وبأنهم أحقاء بأن يختاروا. وقيل: على علم منا بما يصدر من العدل والإحسان والعلم والإيمان بأنهم يزيفون، وتفرط منهم الهنات في بعض الأموال. وقيل: اخترناهم بهذا الإنجاء وهذه النعم على سابق علم لنا فيهم، وخصصناهم بذلك دون العالم.

﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ : أي عالمي زمانهم؛ لأن أمة محمد ﷺ مفضلة عليهم. وقيل: على العالمين عام لكثرة الأنبياء فيهم، وهذا خاص بهم ليس لغيرهم. وكان الاختيار من هذه الجهة؛ لأن أمة محمد أفضل»[1].

قال ابن كثير: «قال مجاهد: ﴿ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ على من هم بين ظهريه. وقال قتادة: اختيروا على أهل زمانهم ذلك. وكان يقال: إن لكل زمان عالما. وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[2] أي: أهل زمانه ذلك، وكقوله ﷻ لمريم عليها السلام: ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[3] أي: في زمانها؛ فإن خديجة إما أفضل منها، وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، أو مساوية لها في الفضل، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل عائشة رضي الله عنها

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل عائشة على النساء

---

(١) البحر المحيط (٨ / ٣٨).
(٢) الأعراف: الآية (١٤٤).
(٣) آل عمران: الآية (٤٢).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٥).

كفضل الثريد على سائر الطعام»[1].

⋆ غريب الحديث:

الثريد: الثريد في الأصل: الخبز المكسور، يقال: ثردت الخبز ثردا أي: كسرته، فهو ثريد ومثرود، والاسم: الثُّرْدَة بالضم. وقال ابن الأثير في شرح هذا الموضع: قيل: لم يرد عين الثريد، وإنما أراد الطعام المتخذ من اللحم والثريد معا؛ لأن الثريد غالبا لا يكون إلا من لحم، والعرب قلما تجد طبيخا، ولاسيما باللحم. ويقال: الثريد أحد اللحمين، بل اللذة والقوة إذا كان اللحم نضيجا في المرق أكثر مما في نفس اللحم. انتهى. قلت: علم من هذا أن الثريد طعام متخذ من اللحم يكون فيه خبز مكسور، فلا يسمى اللحم المطبوخ وحده بدون الخبز المكسور ثريدا، ولا الخبز المكسور وحده بدون اللحم ثريدا، والظاهر أن فضل الثريد على سائر الطعام إنما كان في زمانهم؛ لأنهم قلما كانوا يجدون الطبيخ، ولاسيما إذا كان باللحم، وأما في هذا الزمان فأطعمة معمولة من أشياء كثيرة متنوعة فيها من أنواع اللحوم، ومعها أنواع من الخبز الحواري، فلا يقال: إن مجرد اللحم مع الخبز المكسور أفضل من هذه الأطعمة المختلفة الأجناس والأنواع، وهذا ظاهر لا يخفى»[2].

⋆ فوائد الحديث:

قال السندي: «مثل بالثريد لأنه أفضل طعام العرب؛ لأنه مع اللحم جامع بين الغذاء واللذة، والقوة وسهولة التناول، وقلة المؤنة في المضغ، فيفيد بأنها أعطيت مع حسن الخلق، وحلاوة المنطق، وفصاحة اللسان، ورزانة الرأي، فهي تصلح للتبعل والتحدث، وحسبك أنها عقلت ما لم يعقل غيرها من النساء، وروت ما لم يرو مثلها من الرجال»[3].

قال الحافظ: «وقوله: «وفضل عائشة» إلخ لا يستلزم الأفضلية المطلقة، وقد

---

(١) أخرجه: أحمد (٣ / ١٥٦-٢٦٤)، البخاري (٧ / ١٣٣ / ٣٧٧٠)، مسلم (٤ / ١٨٩٥ / ٢٤٤٦)، الترمذي (٥ / ٦٦٤ / ٣٨٨٧) واللفظ له، ابن ماجه (٢ /١٠٩٣ / ٣٢٨١)، والنسائي في الكبرى (٤ / ١٦١ / ٦٦٩٢). وله شواهد من حديث أبي موسى وعائشة ﵄.

(٢) عمدة القاري (١١ / ٤٩١).

(٣) حاشية المسند (٣٢ / ٢٨٩-٢٩٠).

أشار ابن حبان إلى أن أفضليتها التي يدل عليها هذا الحديث وغيره، مقيدة بنساء النبي ﷺ، حتى لا يدخل فيها مثل فاطمة رضي الله عنها»[١].

قال الشيخ العثيمين رحمه الله: «وقوله: «على النساء»، ظاهره العموم؛ أي: على جميع النساء. وقيل: إن المراد: فضل عائشة على النساء أي: من أزواجه اللاتي على قيد الحياة، فلا تدخل في ذلك خديجة.

لكن ظاهر الحديث العموم؛ لأن الرسول ﷺ قال: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»[٢]. وقد أخرجه الشيخان بدون ذكر خديجة، وهذا يدل على أنها أفضل النساء مطلقا.

ولكن ليست أفضل من فاطمة باعتبار النسب؛ لأن فاطمة لا شك أشرف من عائشة نسبا. وأما منزلة، فإن عائشة رضي الله عنها لها من الفضائل العظيمة ما لم يدركه أحد غيرها من النساء.

وظاهر كلام المؤلف رحمه الله يريد شيخ الإسلام ابن تيمية- أن هاتين الزوجين رضي الله عنهما في منزلة واحدة، لأنه قال: خصوصا خديجة والصديقة ولم يقل: ثم الصديقة.

والعلماء اختلفوا في هذه المسألة: فقال بعض العلماء: خديجة أفضل لأن لها مزايا لم تلحقها عائشة فيها. وقال بعض العلماء: بل عائشة أفضل، لهذا الحديث، ولأن لها مزايا لم تلحقها خديجة فيها.

وفصل بعض العلماء فقال: إن لكل منهما مزية لم تلحقها أخرى، ففي أول الرسالة لا شك أن المزايا التي حصلت عليها خديجة لم تلحقها عائشة، ولا يمكن أن تساويها، وبعد ذلك، وبعد موت الرسول ﷺ، حصل من عائشة من نشر العلم ونشر السنة وهداية الأمة ما لم يحصل لخديجة، فلا يصح أن تفضل إحداهما على الأخرى تفضيلا مطلقا، بل نقول: هذه أفضل من وجه، وهذه أفضل من وجه،

---

(١) فتح الباري (٧/ ١٣٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٤)، والبخاري (٧/ ١٣٣/ ٣٧٦٩)، ومسلم (٤/ ١٨٨٦-١٨٨٧/ ٢٤٣١)، والترمذي (٤/ ٢٤٢/ ١٨٣٤)، والنسائي (٧/ ٧٨/ ٣٩٥٧) مختصرًا، وابن ماجه (٢/ ١٠٩١/ ٣٢٨٠). من حديث أبي موسى الأشعري وليس في شيء من هذه المصادر ذكر خديجة رضي الله عنها.

ونكون قد سلكنا مسلك العدل، فلم نهدر ما لهذه من المزية، ولا ما لهذه من المزية، وعند التفصيل يحصل التحصيل، وهما وبقية أزواج الرسول في الجنة معا»[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن خديجة نفعته في أول الإسلام نفعا لم يقم غيرها فيه مقامها، فكانت خيرا له من هذا الوجه، لكونها نفعته وقت الحاجة، لكن عائشة صحبته في آخر النبوة، وكمال الدين، فحصل لها من العلم والإيمان ما لم يحصل لمن لم يدرك إلا أول زمن النبوة، فكانت أفضل بهذه الزيادة، فإن الأمة انتفعت بها أكثر مما انتفعت بغيرها، وبلغت من العلم والسنة ما لم يبلغه غيرها، فخديجة كان خيرها مقصورا على نفس النبي ﷺ، لم تبلغ عنه شيئا، ولم تنتفع بها الأمة كما انتفعوا بعائشة، ولا كان الدين قد كمل حتى تعلمه، ويحصل لها من كمال الإيمان به ما حصل لمن علمه وآمن به بعد كماله، ومعلوم أن من اجتمع همه على شيء واحد، كان أبلغ فيه ممن تفرق همه في أعمال متنوعة، فخديجة رضي اللّه تعالى عنها خير له من هذا الوجه، ولكن أنواع البر لم تنحصر في ذلك، ألا ترى أن من كان من الصحابة أعظم إيمانا وأكثر جهادا بنفسه وماله كحمزة وعلي وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير وغيرهم، هم أفضل ممن كان يخدم النبي ﷺ وينفعه في نفسه أكثر منهم، كأبي رافع وأنس بن مالك وغيرهما، وفي الجملة الكلام في تفضيل عائشة وخديجة ليس هذا موضع استقصائه، لكن المقصود هنا أن أهل السنة مجمعون على تعظيم عائشة ومحبتها، وأن نساءه أمهات المؤمنين اللاتي مات عنهن، كانت عائشة أحبهن إليه، وأعلمهن وأعظمهن حرمة عند المسلمين»[2].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخلاف في كون عائشة أفضل من فاطمة، أو فاطمة أفضل، إذا حرر محل التفضيل صار وفاقا، فالتفضيل بدون التفصيل لا يستقيم، فإن أريد بالفضل كثرة الثواب عند اللّه ﷻ، فذلك أمر لا يطلع عليه إلا بالنص؛ لأنه بحسب تفاضل أعمال القلوب، لا بمجرد أعمال الجوارح، وكم من عاملين أحدهما أكثر عملا بجوارحه، والآخر أرفع درجة منه في الجنة.

وإن أريد بالتفضيل التفضل بالعلم، فلا ريب أن عائشة أعلم وأنفع للأمة،

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ العثيمين (٨ / ٦١٣-٦١٥).

(٢) منهاج السنة (٤ / ٣٠٣-٣٠٥).

وأدت إلى الأمة من العلم ما لم يؤد غيرها ، واحتاج إليها خاص الأمة وعامتها ، وإن أريد بالتفضيل شرف الأصل وجلالة النسب، فلا ريب أن فاطمة أفضل ، فإنها بضعة من النبي ﷺ، وذلك اختصاص لم يشركها فيه غير إخوتها ، وإن أريد السيادة، ففاطمة سيدة نساء الأمة ، وإذا ثبتت وجوه التفضيل وموارد الفضل وأسبابه، صار الكلام بعلم وعدل، وأكثر الناس إذا تكلم في التفضيل لم يفصل جهات الفضل، ولم يوازن بينهما ، فيبخس الحق، وإن انضاف إلى ذلك نوع تعصيب وهوى لمن يفضله تكلم بالجهل والظلم.

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن مسائل عديدة من مسائل التفضيل ، فأجاب فيها بالتفصيل الشافي منها أنه سئل عن خديجة وعائشة أمي المؤمنين ، أيهما أفضل؟ فأجاب : بأن سبق خديجة وتأثيرها في أول الإسلام، ونصرها وقيامها في الدين، لم تشركها فيه عائشة ولا غيرها من أمهات المؤمنين، وتأثير عائشة في آخر الإسلام وحمل الدين وتبليغه إلى الأمة ، وإدراكها من العلم ما لم تشركها فيه خديجة ولا غيرها مما تميزت به عن غيرها ، فتأمل هذا الجواب الذي لو جئت بغيره من التفضيل مطلقا ، لم تخلص من المعارضة»[1].

* * *

(١) بدائع الفوائد (٣ / ١٦١-١٦٣).

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «إيتاء الآيات من آثار الاختيار؛ لأنه من عناية اللَّه بالأمة؛ لأنه يزيدهم يقينًا بإيمانهم. والمراد بالآيات: المعجزات التي ظهرت على يد موسى ﷺ، أيد اللَّه به بني إسرائيل في مواقع حروبهم بنصر الفئة القليلة منهم على الجيوش الكثيرة من عدوّهم»[1].

قال الماوردي: «وفي قوله: ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ ثلاث تأويلات: أحدها: نعمة ظاهرة، قاله الحسن وقتادة كما قال تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾[2]. الثاني: عذاب شديد، قاله الفراء. الثالث: اختيار بيِّن يتميز به المؤمن من الكافر، قاله عبد الرحمن بن زيد»[3].

وقال ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن اللَّه أخبر أنه آتى بني إسرائيل من الآيات ما فيه ابتلاؤهم واختبارهم، وقد يكون الابتلاء والاختبار بالرخاء، ويكون بالشدّة، ولم يضع لنا دليلا من خبر ولا عقل، أنه عنى بعض ذلك دون بعض، وقد كان اللَّه اختبرهم بالمعنيين كليهما جميعًا. وجائز أن يكون عنى اختباره إياهم بهما، فإذا كان الأمر على ما وصفنا، فالصواب من القول فيه أن نقول كما قال -جل ثناؤه-: إنه اختبرهم»[4].

* * *

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣٠٦).
(٢) الأنفال: الآية (١٧).
(٣) النكت والعيون (٥ / ٢٥٤).
(٤) جامع البيان (٢٥ / ١٢٧).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى منكرًا على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور»[1].

وقال أبو حيان: «﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني قريشًا، وفي اسم الإشارة تحقير لهم. ﴿لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾: أي ما الموتة إلا محصورة في موتتنا الأولى. وكان قد قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[2] فذكر موتتين، أولى وثانية، فأنكروا هم أن يكون لهم موتة ثانية. والمعنى: ما آخر أمرنا ومنتهى وجودنا إلا عند موتتنا. فيتضمن قولهم هذا إنكار البعث، ثم صرحوا بما تضمنه قولهم، فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾: أي بمبعوثين بحياة دائمة يقع فيها حساب وثواب وعقاب؛ وكان قولهم ذلك في معنى قولهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[3]»[4].

وقوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ **يقول ابن جرير**: «يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن قيل مشركي قريش لنبي الله ﷺ: إن هؤلاء المشركين من قومك يا محمد ﴿لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ التي نموتها، وهي الموتة الأولى ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ بعد مماتنا»[5].

قال ابن كثير: «وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٥).

(٢) البقرة: الآية (٢٨).

(٣) الأنعام: الآية (٢٩).

(٤) البحر المحيط (٨ / ٣٨).

(٥) جامع البيان (٢٥ / ١٢٨).

لا في الدار الدنيا؛ بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها يعيد اللَّه العالمين خلقًا جديدًا، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودًا، يوم تكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا»[١].

وخوطب الرسول ﷺ هو وحده خطاب الجميع كما قيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[٢] وكما قيل: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾[٣]»[٤].

وقال أبو حيان: «﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ خطاب لرسول اللَّه ﷺ، وللمؤمنين الذين كانوا يعدونهم بالبعث، أي إن صدقتم فيما تقولون، فأحيوا لنا من مات من آبائنا، بسؤالكم ربكم، حتى يكون ذلك دليلًا على البعث في الآخرة»[٥].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٥).
(٢) الطلاق: الآية (١).
(٣) المؤمنون: الآية (٩٩).
(٤) أفاده ابن جرير (٢٥ / ١٢٨).
(٥) البحر المحيط (٨ / ٣٨).

قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «إن كفار مكة لم يذكروا في نفي الحشر والنشر شبهة حتى يحتاج إلى الجواب عنها، ولكنهم أصروا على الجهل والتقليد في ذلك الإنكار، فلهذا السبب اقتصر اللَّه تعالى على الوعيد، فقال: إن سائر الكفار كانوا أقوى من هؤلاء، ثم إن اللَّه تعالى أهلكهم، فكذلك يهلك هؤلاء»[١].

قال ابن كثير: «قال تعالى متهددًا لهم، ومتوعدًا ومنذرًا لهم بأسه الذي لا يرد، كما حل بأشباههم ونظرائهم من المشركين المنكرين للبعث، وكقوم تبع -وهم سبأ- حيث أهلكهم اللَّه وخَرَّب بلادهم، وشردهم في البلاد، وفرقهم شذر مذر، كما تقدم ذلك في سورة سبأ، وهي مُصَدَّرة بإنكار المشركين للمعاد. وكذلك هاهنا شبههم بأولئك، وقد كانوا عربًا من قحطان كما أن هؤلاء عرب من عدنان»[٢].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هذا والتبع أيضًا الظل.. والتبع أيضًا ضرب من الطير. وقال السهيلي: تبع اسم لكل ملك ملك اليمن والشحر وحضرموت، وإن ملك اليمن وحدها لم يقل له تبع، قاله المسعودي»[٣].

قال الرازي: «فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ مع أنه لا خير في الفريقين؟ قلنا معناه أهم خير في القوة والشوكة، كقوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾[٤] بعد ذكر آل فرعون»[٥].

قلت: وقد أطال المفسرون في ذكر أخبار تبع وأحواله مما هو من الإسرائيليات، ولا يخلوا من مبالغات كذكرهم أنه ملك الدنيا كلها.

---

(١) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٥٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٥-٢٥٦).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٤٤-١٤٥).
(٤) القمر: الآية (٤٣).
(٥) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٥٠).

قال الألوسي بعد سرد قصة تُبَّع : «إن ملكه الدنيا كلها غير مسلم ، وبالجملة الأخبار مضطربة في أمر التبابعة وأحوالهم وترتيب ملوكهم ؛ بل قال صاحب تواريخ الأمم : ليس في التواريخ أسقم من تاريخ ملوك حمير ؛ لما يذكر من كثرة عدد سنينهم مع قلة عدد ملوكهم ، فإن ملوكهم ستة وعشرون ، ومدتهم ألفان وعشرون سنة .

وقال بعض : إن مدتهم ثلاثة آلاف واثنان وثمانون سنة ، ثم ملك من بعدهم اليمن الحبشة واللَّه تعالى أعلم بحقيقة الحال ، والقدر المعول عليه ههنا أن تبعا المذكور هو أسعد أبو كرب ، وأنه كان مؤمنًا بنبينا ﷺ ، وكان على دين إبراهيم عليه السلام ولم يكن نبيًا ، وحكاية نبوته عن ابن عباس رضي اللَّه تعالى عنهما لا تصح ، وإخباره بمبعثه ﷺ لا يقتضيها ؛ لأنه علم ذلك من أحبار اليهود ، وهم عرفوه من الكتب السماوية»[1] .

وقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ قال ابن جرير : «يقول -تعالى ذكره- : أهؤلاء المشركون من قريش خير أم قوم تبع والذين من قبلهم من الأمم الكافرة بربها ، يقول : فليس هؤلاء بخير من أولئك ، فنصفح عنهم ، ولا نهلكهم ، وهم باللَّه كافرون ، كما كان الذين أهلكناهم من الأمم قبلهم كفارا .

وقوله : ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ يقول : إن قوم تبَّع والذين من قبلهم من الأمم الذين أهلكناهم إنما أهلكناهم لإجرامهم ، وكفرهم بربهم»[2] .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل تبع

* عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «**لا تسبوا تبعا فإنه قد أسلم**»[3] .

---

(١) روح المعاني (٢٥ / ١٣٠).
(٢) جامع البيان (٢٥ / ١٢٩).
(٣) أخرجه : الطبراني في الكبير (١١ / ٢٩٦ / ١١٧٩٠) وفي الأوسط (٢ / ٢٤٧ / ١٤٤١)، الخطيب في التاريخ (٣ / ٢٠٥)وابن عساكر (١١ / ٥ / ٢٦٩٢)، وقال الهيثمي في المجمع (٨ / ٧٦) : «رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه أحمد بن أبي برة المكي ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات». وقال الحافظ في الفتح (٨ / ٧٣٣) بعد ما ذكره من حديث سهل : «وأخرجه الطبراني من حديث ابن عباس مثله وإسناده أصلح من إسناد سهل». وله شاهد قوي من حديث عائشة رضي الله عنها انظر الحديث بعده وصححه لأجل شواهده الشيخ الألباني في الصحيحة رقم (٢٤٢٣).

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «**كان تبع رجلا صالحا، ألا ترى أن الله عز وجل ذم قومه ولم يذمه**»[١].

* عن وهب بن منبه قال: «**نهى رسول الله ﷺ** عن سب تبع. قلنا: يا أبا عبد الله، وما كان تبع؟ قال: كان صابئا، قلنا: يا أبا عبد الله، وما الصابئ؟ قال: كان على دين إبراهيم، وكان إبراهيم يصلي كل يوم صلاة ولم تكن شريعة»[٢].

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أدري أتبع لعين هو أم لا، وما أدري أعزير نبي هو أم لا**»[٣].

★ فوائد الأحاديث:

في هذه الأحاديث النهي عن سب تبع؛ لأنه كان قد أسلم فكان رجلا صالحا على دين إبراهيم.

قال الحافظ ابن حجر: «وموضع تبع في الجاهلية، موضع الخليفة في الإسلام، وهم ملوك العرب الأعاظم»[٤].

قال ابن عساكر في بيان اسمه ونسبه: «هو تبع بن حسان بن ملكي كرب بن تبع بن الأقرن»[٥].

قال ابن كثير رحمه الله: «وكأنه -والله أعلم- كان كافرا ثم أسلم، وتابع دين الكليم على يدي من كان من أحبار اليهود في ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح عليه السلام، وحج البيت في زمن الجرهميين»[٦].

---

(١) أخرجه: الحاكم (٢ / ٤٥٠) واللفظ له وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. عبد الرزاق في التفسير (٢ / ٢٠٨)، وابن عساكر (١١ / ٦)، وله شواهد انظرها في الصحيحة (٢٤٢٣) للشيخ الألباني.

(٢) أخرجه: عبد الرزاق في التفسير (٢ / ٢٠٩)واللفظ له وابن عساكر (١١ / ٦)، وعزاه السيوطي في الدر لابن المنذر وابن عساكر، وقال الشيخ الألباني في الصحيحة (٥ / ٥٤٩): «مرسل جيد»، وله شواهد من حديث عائشة وابن عباس وغيرهما.

(٣) أخرجه: أبو داود (٥/ ٥٤-٥٥/ ٤٦٧٤) واللفظ له، والحاكم (١/ ٣٦) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وعنه البيهقي (٨/ ٣٢٩) وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٨٢٨/ ١٥٥٣) وأورده الألباني في الصحيحة (رقم: ٢٢٧١).

(٤) فتح الباري (٨ / ٧٣٣).

(٥) تاريخ دمشق (١١ / ٣).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٦-٢٥٧).

قال ابن عساكر: «وهذا الشك من النبي ﷺ كان قبل أن يتبين له أمره، ثم أخبر أنه كان مسلما»[(١)].

قال الحافظ: «والجمع بينه وبين ما قبله: أنه ﷺ أعلم بحاله بعد أن كان لا يعلمها، فلذلك نهى عن سبه خشية أي يبادر إلى سبه من سمع الكلام الأول»[(٢)].

قال المناوي بعد سياقه لحديث الباب: «وهذا قبل علمه بأنه كان قد أسلم، بدليل ما سيجيء في حديث: «**لا تسبوا**»، وفي رواية: «**لا تلعنوا تبعا فإنه كان قد أسلم**»، وهو تبع الحميري كان مؤمنا وقومه كافرين، فلذلك ذمهم الله ولم يذمه»[(٣)].

* * *

---

(١) تاريخ دمشق (١١/ ٥).

(٢) فتح الباري (٨ / ٧٣٣).

(٣) فيض القدير (٣ / ٣١٠).

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث والباطل، كقوله -جل وعلا-: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾[2]»[3].

وقال ابن عاشور: «والمعنى: أنه لو لم يكن بعثٌ وجزاءٌ لكان خلق السماوات والأرض وما بينهما عبثًا، ونحن خلقنا ذلك كله بالحق؛ أي: بالحكمة كما دل عليه إتقان نظام الموجودات، فلا جرم اقتضى خلق ذلك أن يجازَى كل فاعل على فعله، وأن لا يضاع ذلك، ولما كان المشاهد أن كثيرًا من النّاس يقضي حياته ولا يرى لنفسه جزاء على أعماله تعيّن أن اللَّه أخّر جزاءهم إلى حياة أخرى، وإلا لكان خلقهم في بعض أحواله من قبيل اللعب. وذكر اللعب توبيخ للذين أحالوا البعث والجزاء بأنهم اعتقدوا ما يفضي بهم إلى جعل أفعال الحكيم لعبًا»[4].

قال المراغي: «وقوله: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ما خلقناهما إلا خلقا ملتبسا بالحق، وهو الدلالة بهما على وحدانية الخالق لهما، ووجوب طاعته، والإنابة إليه، لعظمته وجبروته»[5].

قال ابن عاشور: «والحق: ما يحق وقوعه من عمل أو قول، أي يجب ويتعين

---

(١) ص: الآية (٢٧).
(٢) المؤمنون: الآيتان (١١٥-١١٦).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٨).
(٤) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣١٠).
(٥) تفسير المراغي (٢٥ / ١٣٢).

لسببية أو تفرع أو مجازاة، فمن الحق الذي خُلقت السماوات والأرض وما بينهما لأجله مكافأة كل عامل بما يناسب عمله ويُجازيه، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[(١)]»[(٢)].

قال المراغي: «وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ولكن أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعلمون ذلك، فهم لا يخافون من سخطه عقوبة لهم على ما اجترحوا من السيئات، ولا يرجون ثوابا على خير فعلوه، لتكذيبهم بالميعاد، والعودة إلى دار أخرى بعد هذه الدار»[(٣)].

وهذه يقول الألوسي: «تذييل وتجهيل فخيم لمنكري الحشر وتوكيد؛ لأن إنكارهم يؤدي إلى إبطال الكائنات بأسرها ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾[(٤)] ولهذا قال المؤمنون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[(٥)]»[(٦)].

* * *

---

(١) الروم: الآية (٨).
(٢) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣١٠-٣١١).
(٣) تفسير المراغي (٢٥ / ١٣٣).
(٤) النور: الآية (١٥).
(٥) آل عمران: الآية (١٩١).
(٦) روح المعاني (٢٥ / ١٣١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ هو يوم الحكم؛ لأنه يفصل فيه الحق من الباطل، وهو من أسماء يوم القيامة، قال تعالى: ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾[1]»[2].

قال ابن عطية: «وهذا هو الإخبار بالبعث، وهو أمر جوزه العقل وأثبته الشرع بهذه الآية وغيرها»[3].

قال القرطبي: وسمي بذلك لأن اللَّه تعالى يفصل فيه بين خلقه. دليله قوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾[4]. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾[5] فيوم الفصل ميقات الكل كما قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾[6] أي الوقت المجعول لتمييز المسيء من المحسن، والفصل بينهما: فريق في الجنة وفريق في السعير. وهذا غاية في التحذير والوعيد»[7].

ثم وصف سبحانه ذلك اليوم فقال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ **قال ابن جرير**: «يقول: لا يدفع ابن عم عن ابن عم، ولا صاحب عن صاحبه شيئا من عقوبة اللَّه التي حلت بهم من الله»[8].

---

(١) المرسلات: الآيتان (١٢-١٣).
(٢) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣١١).
(٣) المحرر الوجيز (٥ / ٧٥).
(٤) الممتحنة: الآية (٣).
(٥) الروم: الآية (١٤).
(٦) النبأ: الآية (١٧).
(٧) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٤٧).
(٨) جامع البيان (٢٥ / ١٣٠).

قال ابن كثير: «أي: لا ينفع قريب قريبًا، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾[(١)]، وكقوله جلت عظمته: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾[(٢)] أي: لا يسأل أخًا له عن حاله وهو يراه عيانًا»[(٣)].

قال الألوسي: «والمولى: الصاحب الذي من شأنه أن يتولى معونة صاحبه على أموره، فيدخل في ذلك ابن العم والحليف والعتيق والمعتق وغيرهم، وذكر الخفاجي أنه من الولاية، وهي التصرف، فيشمل كل من يتصرف في آخر لأمر ما كقرابة وصداقة وهو قريب مما ذكرنا»[(٤)].

وتنكير مولى في سياق النفي لإفادة العموم أي: لا يغني أحد من الموالى كائنا من كان عن أحد من مواليه كائنا من كان»[(٥)].

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يقول: ولا ينصر بعضهم بعضا فيستعيذوا ممن نالهم بعقوبة كما كانوا يفعلونه في الدنيا»[(٦)].

وقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ قال القاسمي: «أي: بأن وفقه للإيمان والعمل الصالح»[(٧)].

قال ابن كثير: «ولا ينفع يومئذ إلا رحمة اللَّه عزوجل بخلقه»[(٨)].

قال ابن عاشور: «والاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ .. استثناء متصل؛ أي: إلا من رَحِمَهُ اللَّهُ من الموالي، أي فإنه يأذن أن يُشْفَع فيه، ويأذَن للشافع بأن يَشْفَعَ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[(٩)] وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[(١٠)]. وفي حديث الشفاعة أنه يقال لرسول اللَّه ﷺ: «**سَلْ تُعْطَه واشفَعْ تُشَفَّع**»[(١١)]. والشفاعة: إغناء عن المشفوع فيه. والشفعاء يومئذٍ أولياء

---

(١) المؤمنون: الآية (١٠١).
(٢) المعارج: الآيتان (١٠-١١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٨-٢٥٩).
(٤) روح المعاني (٢٥ / ١٣١).
(٥) قاله ابن عاشور في التحرير والتنوير (٢٥ / ٣١٢).
(٦) قاله ابن جرير في جامع البيان (٢٥ / ١٣٠).
(٧) محاسن التأويل (١٤ / ٣٨١).
(٨) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٩).
(٩) سبأ: الآية (٢٣).
(١٠) الأنبياء: الآية (٢٨).
(١١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه: أحمد (٢ / ٤٣٥). البخاري (٨ / ٥٩٣ / ٢١٧٤)، مسلم (١ / ٤٨١ / ٤٩١). الترمذي (٤ / ٥٣٧ / ٢٤٣٤). النسائي في الكبرى (٦ / ٣٧٨ / ١١٢٨٦). ابن ماجه مختصرا (٢ / ١٠٩٩ / ٣٣٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

للمؤمنين، فإن من الشفعاء الملائكة، وقد حكى اللَّه عنهم قولهم للمؤمنين ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَاخِرَةِ﴾[(١)].

وقيل هو استثناء منقطع؛ لأن من رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليس داخلًا في شيء قبله مما يدل على أهل المحشر، والمعنى: لكن من رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يحتاج إلى من يُغني عنه أو ينصره، وهذا قول الكسائي والفراء. وأسباب رحمة اللَّه كثيرة مرجعها إلى رضاه عن عبده وذلك سِر يعلمه الله»[(٢)].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قال القرطبي: «أي: المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه، كما قال تعالى: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾[(٣)]فقرن بين الوعد بالوعيد»[(٤)].

قال ابن عاشور: «فهو يرحم من يَرحمه بمحض مشيئته وهو رحيم؛ أي: واسع الرحمة لمن يشاء من عباده على وفق ما جرى به علمه وحكمته ووعدُه»[(٥)].

* * *

(١) فصلت: الآية (٣١).
(٢) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣١٣).
(٣) غافر: الآية (٣).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٤٨).
(٥) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣١٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

شجرة الزقوم هي الشجرة الملعونة في القرآن، وهي تنبت في أصل الجحيم[1] فإذا جاع أهل النار التجؤوا إليها فأكلوا منها[2].

قال ابن عاشور: «ومعنى كون الشجرة طعاما أن ثمرها طعام كما قال تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا﴾[3]»[4].

وقد عرف الزقوم الماوردي بقوله: «هو في اللغة ما أكل بكره شديد، ولهذا يقال: قد تزقم هذا الطعام تزقما؛ أي: هو في حكم من أكله بكره شديد لحشو فمه، وشدة شره»[5].

والأثيم الكثير الآثام قال الماوردي: «وفي الأثيم وجهان: أحدهما: أنه الآثم قاله ابن عيسى. الثاني: المشرك المكتسب للإثم قاله يحيى»[6].

قال ابن كثير: «وذكر غير واحد أنه أبو جهل، ولا شك في دخوله في هذه الآية، ولكن ليست خاصة به»[7].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في تفسير الآية وحكم القراءة بغير العربية

* عن همام بن الحارث: أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلا ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝﴾ فقال: طعام اليتيم. فقال أبو الدرداء قل: (إن شجرة

---

(١) أفاده ابن عطية في المحرر الوجيز (٥ / ٧٦).
(٢) أفاده القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٠٠).
(٣) الصافات: الآيتان (٦٥-٦٦).
(٤) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣١٤).
(٥) النكت والعيون (٥ / ٢٥٧).
(٦) النكت والعيون (٥ / ٢٥٧).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٩).

الزقوم طعام الفاجر)[١].

★ **فوائد الحديث:**

أفاد الحديث أن شجرة الزقوم التي أخبر اللَّه أنها تنبت في أصل الجحيم جعلها طعاما لأهل الجحيم.

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثمرها في الجحيم طعام الآثم في الدنيا بربه، والأثيم ذو الإثم، وعني به في هذا الموضع: الذي إثمه الكفر بربه دون غيره من الآثام»[٢].

لذلك لما أقرأ أبو الدرداء هذا الرجل وأكثر عليه، فرآه لا يفهم عدل إلى المعنى المراد من الآية فقال له: إن شجرة الزقوم طعام الفاجر.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا حجة في هذا للجهال من أهل الزيغ، أنه يجوز إبدال الحرف من القرآن بغيره؛ لأن ذلك إنما كان من عبد اللَّه تقريبا للمتعلم، وتوطئة منه له للرجوع إلى الصواب، واستعمال الحق والتكلم بالحرف على إنزال اللَّه وحكاية رسول اللَّه ﷺ»[٣].

قال الزمخشري: «وبهذا يستدل على أن إبدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها. ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية على شريطة وهي أن يؤدي القارئ المعاني على كمالها من غير أن يخرم منها شيئا. قالوا: وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة، لأن في كلام العرب خصوصا في القرءان الذي هو معجز بفصاحته، وغرابة نظمه وأساليبه، من لطائف المعاني والأغراض ما لا يستقل بأدائه لسان من فارسية وغيرها، وما كان أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ يحسن الفارسية، فلم يكن ذلك منه عن تحقق وتبصر»[٤].

قال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن كانت لغته غير العربية جاز له أن يدعو بها في صلاته، ولا يجوز له أن يقرأ بها، ومن قرأ بغير العربية فلا صلاة له.

وقال أبو حنيفة: من قرأ بالفارسية في صلاته جازت صلاته.

(١) أخرجه: الحاكم (٢ / ٤٥١) وصححه ووافقه الذهبي. ابن جرير في التفسير (٢٥ / ١٣٠-١٣١) واللفظ له.
(٢) جامع البيان (٢٥ / ١٣١-١٣٢) باختصار.
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٤٩).
(٤) الكشاف (٣ / ٥٠٦).

قال علي: قال رسول اللّه ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن»(١) وقال اللّه تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾(٢) وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾(٣) فصح أن غير العربية لم يرسل به اللّه تعالى محمدا ﷺ، ولا أنزل به عليه القرآن، فمن قرأ بغير العربية فلم يقرأ ما أرسل اللّه تعالى به نبيه ﷺ، ولا قرأ القرآن؛ بل لعب بصلاته، فلا صلاة له؛ إذ لم يصل كما أمر. فإن ذكروا قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾(٤).

قلنا: نعم، ذكر القرآن والإنذار به في زبر الأولين، وأما أن يكون اللّه تعالى أنزل هذا القرآن على أحد قبل رسول اللّه ﷺ فباطل وكذب ممن ادعى ذلك، ولو كان هذا ما كان فضيلة لرسول اللّه ﷺ ولا معجزة له، وما نعلم أحدا قال هذا قبل أبي حنيفة.

ومن لم يحفظ أم القرآن صلى كما هو، وعليه أن يتعلمها، لقول اللّه تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾(٥) فهو غير مكلف ما لا يقدر عليه، فإن حفظ شيئا من القرآن غيرها لزمه فرضا أن يصلي به، ويتعلم أم القرآن لقول رسول اللّه ﷺ: «لا صلاة إلا بقراءة»(٦) وقول اللّه تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾(٧)»(٨).

قال ابن المنذر: «وقال النعمان: «إن افتتح الصلاة بالفارسية وقرأ بها وهو يحسن العربية أجزأه.

قال أبو بكر: لا يجزئه؛ لأن ذلك خلاف ما أمر اللّه به، وخلاف ما علم الرسول ﷺ أمته، وما عليه جماعات أهل العلم، لا نعلم أحدا وافقه على مقالته هذه، ولا يكون قارئا بالفارسية القرآن أبدا؛ لأن اللّه تعالى أنزله قرآنا عربيا، فغير جائز أن يقرأ بغير ما أنزل الله»(٩).

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣١٤)، والبخاري (٢/ ٣٠١/ ٧٥٦)، ومسلم (١/ ٢٩٥/ ٣٩٤)، وأبو داود (١/ ٥١٤/ ٨٢٢)، والترمذي (٢/ ٢٥/ ٢٤٧) وقال: «حديث حسن صحيح». والنسائي (٢/ ٤٧٤/ ٩٠٩)، وابن ماجه (١/ ٢٧٣ / ٨٣٧) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ. (٢) يوسف: الآية (٢)، وطه: الآية (١١٣).

(٣) إبراهيم: الآية (٤). (٤) الشعراء: الآية (١٩٦).

(٥) البقرة: الآية (٢٨٦).

(٦) أخرجه أحمد (٢ / ٤٤٣)، مسلم (١ / ٢٩٧ / ٣٩٦[٤٢]) مرفوعا. وأخرجه النسائي (٢ / ٥٠٢-٩٦٩) والبخاري (٢ / ٣٢٠ / ٧٧٢) موقوفا عن أبي هريرة ﷺ.

(٧) المزمل: الآية (٢٠). (٨) المحلى (٤ / ١٥٩).

(٩) الأوسط (٣ / ٧٧-٧٨).

قوله تعالى: ﴿ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن شجرة الزقوم التي جعل ثمرتها طعام الكافر في جهنم، كالرصاص أو الفضة، أو ما يُذاب في النار إذا أُذيب بها، فتناهت حرارته، وشدّت حميته في شدّة السواد.. ﴿ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ يقول: يغلي ذلك في بطون هؤلاء الأشقياء كغلي الماء المحموم، وهو المسخن الذي قد أوقد عليه حتى تناهت شدّة حرّه»[1].

وقد فسر ابن عباس رضي الله عنهما المهل بقوله: «**أسود كمهل الزيت**»[2].، وقال الليث: المهل ضرب من القطران، إلا أنه رقيق شبيه بالزيت يضرب إلى الصفرة، وعن الأصمعي: هو عكر الزيت، وقال صاحب المحكم: إنه خبث الجواهر الذهب وغيره[3].

وقوله: ﴿فِى ٱلْبُطُونِ﴾ كقوله: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾﴾[4]»[5].

* * *

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٣١-١٣٣).

(٢) البخاري معلقا (٨ / ٧٣٢) ووصله ابن أبي حاتم كما في الفتح.

(٣) أفاده الحافظ في الفتح (٨ / ٥٧٠).

(٤) الهمزة: الأيتان (٦و٧).

(٥) محاسن التأويل (١٤ / ٣٨١).

قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿خُذُوهُ﴾ يعني هذا الأثيم بربه، الذي أخبر -جل ثناؤه- أن له شجرة الزقوم طعام ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فادفعوه وسوقوه»[١].

«والعتل: السوق بعنف وإهانة، ودفع قوي متصل، كما يساق أبدا مرتكب الجرائم»[٢].

«وقال الأعمش: معنى اعتلوه: اقصفوه كما يقصف الحطب إلى سواء الجحيم»[٣].

﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: وسط الجحيم. قاله ابن عباس والضحاك وقتادة، وقال الحسن: ﴿سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾: معظم الجحيم يصيبه الحر من جوانبها»[٤].

قال ابن جرير: «ومعنى الكلام: يقال يوم القيامة: خذوا هذا الأثيم فسوقوه دفعا في ظهره، وسحبا إلى وسط النار»[٥].

وقوله: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨﴾ قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ثم صبوا على رأس هذا الأثيم من عذاب الحميم؛ أي: من الماء المسخن الذي وصفنا صفته، وهو الماء الذي قال الله: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠﴾[٦]»[٧].

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٣٣).
(٢) المحرر الوجيز (٥ / ٧٧).
(٣) البحر المحيط (٨ / ٤٠).
(٤) حكاه الماوردي في النكت والعيون (٥ / ٢٥٧).
(٥) جامع البيان (٢٥ / ١٣٣).
(٦) الحج: الآية (٢٠).
(٧) جامع البيان (٢٥ / ١٣٤).

قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠)﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الماوردي: «معناه: إنك لست بعزيز ولا كريم.. قاله قتادة، وقال أيضًا: إنك أنت العزيز الكريم عند نفسك، وقال سعيد بن جبير: قيل له ذلك استهزاء على جهة الإهانة، وقيل: إنك أنت العزيز في قومك، والكريم على أهلك حكاه ابن عيسى»[1].

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة يتوهم من ظاهرها ثبوت العزة والكرم لأهل النار، مع أن الآيات القرآنية مصرحة بخلاف ذلك كقوله: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[2] أي صاغرين أذلاء. وكقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[3]، وكقوله هنا: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧)﴾. والجواب- أنها نزلت في أبي جهل لما قال: أيوعدني محمد ﷺ وليس بين جبليها أعز ولا أكرم مني، فلما عذبه اللَّه بكفره قال: ذق إنك أنت العزيز الكريم في زعمك الكاذب؛ بل أنت المهان الخسيس الحقير، فهذا التقريع نوع من أنواع العذاب»[4].

وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠)﴾ **قال ابن جرير**: «يقول -تعالى ذكره-: يقال له: إنَّ هذا العذاب الذي تعذّب به اليوم، هو العذاب الذي كنتم في الدنيا تَشُكُّون، فتختصمون فيه، ولا توقنون به فقد لقيتموه، فذوقوه»[5].

* * *

(١) النكت والعيون (٥ / ٢٥٨)، بتصرف واختصار.

(٢) غافر: الآية (٦٠).

(٣) آل عمران: الآية (١٧٨).

(٤) دفع إيهام الاضطراب (٢٢٢-٢٢٣).

(٥) جامع البيان (٢٥ / ١٣٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ۝٥٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء، ولهذا سمي القرآن مثاني فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: لله في الدنيا[١] بأداء طاعته، واجتناب معاصيه[٢].

وقوله: ﴿فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أي: «في منزل يأمنون فيه من الموت والزوال، قال علي: وأمنوا من الموت فطاب لهم العيش»[٣].

قال ابن كثير: «قد أمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيده، وسائر الآفات والمصائب»[٤].

وقوله: ﴿فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ قال ابن جرير: «الجنات والعيون ترجمة عن المقام الأمين، والمقام الأمين: هو الجنات والعيون، والجنات: البساتين، والعيون: عيون الماء المطرد في أصول أشجار الجنات»[٥].

قال السعدي: «أضاف الجنات إلى النعيم لأن كل ما اشتملت عليه كله نعيم وسرور، كامل من كل وجه، ما فيه منغص ولا مكدر بوجه من الوجوه»[٦].

قوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾:

قال ابن جرير: «يقول: يلبس هؤلاء المتقون في هذه الجنات من سندس، وهو ما رق من الديباج، وإستبرق وهو ما غلظ من الديباج»[٧].

قال ابن كثير: «السندس هو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو ما

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٦٠).
(٢) جامع البيان (٢٥ / ١٣٥).
(٣) تفسير السمعاني (٥ / ١٣٢).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٦٠).
(٥) جامع البيان (٢٥ / ١٣٥).
(٦) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ١٥).
(٧) جامع البيان (٢٥ / ١٣٥).

فيه بريق ولمعان، وذلك كالرياش وما يلبس على أعالي القماش»[١].

وحكى الماوردي أن السندس ما يلبسونه والإستبرق ما يفترشونه»[٢].

وقوله: ﴿مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ أي: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض، وقيل: متقابلين بالمحبة غير متدابرين بالعداوة»[٣].

قال السعدي: «في كمال الراحة والطمأنينة والمحبة والعشرة الحسنة، والآداب المستحسنة»[٤].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٦٠).

(٢) النكت والعيون (٥ / ٢٥٨).

(٣) تفسير السمعاني (٥ / ١٣٢).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ١٦).

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: كما أعطينا هؤلاء المتقين في الآخرة من الكرامة بإدخالناهم الجنات، وإلباسناهم فيها السندس والإستبرق، كذلك أكرمناهم بأن زوّجناهم أيضًا فيها حورا من النساء، وهن النقيات البياض، واحدتهنّ: حَوْراء.

وكان مجاهد يقول في معنى الحُور .. التي يحار فيهنّ الطرف، بادٍ مُخُّ سوقهنّ من وراء ثيابهنّ، ويرى الناظر وجهه في كبد إحداهنّ كالمرآة من رقة الجلد، وصفاء اللون. وهذا الذي قاله مجاهد من أن الحور إنما معناها: أنه يحار فيها الطرف، قول لا معنى له في كلام العرب؛ لأن الحُور إنما هو جمع حوراء، كالحمر جمع حمراء، والسود: جمع سوداء، والحوراء إنما هي فعلاء من الحور وهو نقاء البياض، كما قيل للنقيّ البياض من الطعام الحُوَّارِيُّ»[1].

وقال الشوكاني: «وقيل: هو من حور العين وهو: شدّة بياض العين في شدّة سوادها، كذا قال أبو عبيدة. وقال الأصمعي: ما أدري ما الحور في العين. قال أبو عمرو: الحور أن تسودّ العين كلها مثل أعين الظباء والبقر، قال: وليس في بني آدم حور، وإنما قيل للنساء حور: لأنهنّ شبهن بالظباء والبقر»[2].

وقال أيضًا: «وقيل المراد بقوله: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ قرناهم، وليس من عقد التزويج؛ لأنه لا يقال: زوّجته بامرأة. وقال أبو عبيدة: وجعلناهم أزواجًا لهنّ كما يزوّج البعل بالبعل أي: جعلناهم اثنين اثنين، وكذا قال الأخفش»[3].

* * *

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٣٦).
(٢) فتح القدير (٤ / ٨١١).
(٣) فتح القدير (٤ / ٨١١).

قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يدعو هؤلاء المتقون في الجنة بكلّ نوع من فواكه الجنة اشتهوه، آمنين فيها من انقطاع ذلك عنهم ونفاده وفنائه، ومن غائلة أذاه ومكروهه، يقول: ليست تلك الفاكهة هنالك كفاكهة الدنيا التي نأكلها، وهم يخافون مكروه عاقبتها، وغبّ أذاها مع نفادها من عندهم، وعدمها في بعض الأزمنة والأوقات»[1].

وقال السعدي: «﴿ءَامِنِينَ﴾ من انقطاع ذلك، وآمنين من مضرته، وآمنين من كل مكدر، وآمنين من الخروج منها والموت»[2].

* * *

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٣٧).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ١٦).

قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «أي: لا يذوقون فيها الموت البتة؛ لأنهم خالدون فيها، ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ على الاستثناء المنقطع؛ أي: لكن الموتة الأولى قد ذاقوها في الدنيا»[1].

قال أبو حيان: «وذلك تنبيه على ما أنعم به عليهم من الخلود السرمدي، وتذكير لهم بمفارقة الدنيا الفانية إلى هذه الدار الباقية»[2].

قال القرطبي: «وقيل: إن إلا بمعنى: بعد، كقولك: ما كلمت رجلا اليوم إلا رجلا عندك، أي بعد رجل عندك.

وقيل: إلا بمعنى سوى؛ أي: سوى الموتة التي ماتوها في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[3]. وهو كما تقول: ما ذقت اليوم طعاما سوى ما أكلت أمس»[4].

قال ابن عطية: «قدر قوم إلا بسوى، وضعف ذلك الطبري، وقدرها ببعد، وليس تضعيفه بصحيح؛ بل يصح المعنى بسوى ويتسق، وأما معنى الآية: فبين أنه نفى عنهم ذوق الموت، وأنه لا ينالهم من غير ذلك ما تقدم في الدنيا»[5].

وقوله: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾

قال ابن كثير: «أي: مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم، وسلمهم ونجاهم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٥٤).
(٢) البحر المحيط (٨ / ٤١).
(٣) النساء: الآية (٢٢).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٥٥).
(٥) المحرر الوجيز (٥ / ٧٨).

وزحزحهم من العذاب الأليم في دركات الجحيم، فحصل لهم المطلوب، ونجاهم من المرهوب»[١].

قال السعدي: «حصول النعيم واندفاع العذاب عنهم من فضل اللَّه عليهم وكرمه، فإنه تعالى هو الذي وفقهم للأعمال الصالحة التي بها نالوا خير الآخرة، وأعطاهم أيضًا ما لم تبلغه أعمالهم»[٢].

قال ابن جرير: «ووقى هؤلاء المتقين ربهم يومئذ عذاب النار تفضلا يا محمد من ربك عليهم، وإحسانًا منه عليهم بذلك، ولم يعاقبهم بجرم سلف منهم في الدنيا، ولولا تفضله عليهم بصفحه لهم عن العقوبة لهم على ما سلف منهم من ذلك، لم يقهم عذاب الجحيم، ولكن كان ينالهم ويصيبهم ألمه ومكروهه.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: هذا الذي أعطينا هؤلاء المتقين في الآخرة من الكرامة التي وصفت في هذه الآيات، هو الفوز العظيم: يقول: هو الظفر العظيم بما كانوا يطلبون من إدراكه في الدنيا بأعمالهم وطاعتهم لربهم، واتقائهم إياه، فيما امتحنهم به من الطاعات والفرائض، واجتناب المحارم»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذبح الموت وصفات أهل الجنة

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي مناد: يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت. وكلهم قد رآه. ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه. فيذبح ثم يقول: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت. ثم قرأ**: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ -وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا-

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٦٢).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ١٦-١٧).
(٣) جامع البيان (٢٥ / ١٣٨).

﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

★ **غريب الحديث:**

كبش أملح: أي: إذا كان شعره خليسا؛ أي: مختلط البياض بالسواد.

يشرئبون: بمعجمة وراء مفتوحة، ثم همزة مكسورة، ثم موحدة ثقيلة مضمومة؛ أي: يمدون أعناقهم ينظرون.

أنذرهم: من الإنذار وهو الإبلاغ، ولا يكون إلا في التخويف.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قال القرطبي: الحكمة في الإتيان بالموت هكذا الإشارة إلى أنهم حصل لهم الفداء به كما فدي ولد إبراهيم بالكبش، وفي الأملح الإشارة إلى صفتي أهل الجنة والنار؛ لأن الأملح ما فيه بياض وسواد»[(٣)].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذكره لحديث الباب وما في معناه: «هذه الأحاديث مع صحتها نص في خلود أهل الدارين فيها، لا إلى غاية ولا إلى أمد، مقيمين على الدوام والسرمد من غير موت ولا حياة ولا راحة ولا نجاة؛ بل كما قال في كتابه الكريم وأوضح فيه عن عذاب الكافرين ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ -إلى قوله- ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾[(٤)] وقال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾[(٥)] وقال: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾[(٦)] وقد تقدمت هذه المعاني كلها، فمن قال: إنهم يخرجون منها، وأن

---

(١) مريم: الآية (٣٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٣ / ٩)، البخاري (٨ / ٥٤٧ / ٤٧٣٠)، مسلم (٤ / ٢١٨٨ / ٢٨٤٩)، الترمذي (٤ / ٥٩٧ / ٢٥٥٨) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦ / ٣٩٣ / ١١٣١٦). وله شواهد من حديث أبي هريرة وغيره.

(٣) فتح الباري (١١ / ٥١٢).

(٤) فاطر: الآيتان (٣٦-٣٧).

(٥) النساء: الآية (٥٦).

(٦) الحج: الآيات (١٩-٢٢).

النار تبقى خالية بجملتها خاوية على عروشها، وأنها تفنى وتزول، فهو خارج عن مقتضى المعقول، ومخالف لما جاء به الرسول، وما أجمع عليه أهل السنة العدول ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾[1]»[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا الكبش والإضجاع والذبح ومعاينة الفريقين، ذلك حقيقة لا خيال ولا تمثيل، كما أخطأ فيه بعض الناس خطأً قبيحا، وقال: الموت عرض، والعرض لا يتجسم، فضلا عن أن يذبح، وهذا لا يصح، فإن اللَّه سبحانه ينشئ من الموت صورة كبش يذبح، كما ينشئ من الأعمال صورا معاينة يثاب بها ويعاقب، واللَّه تعالى ينشئ من الأعراض أجساما تكون الأعراض مادة لها، وينشئ من الأجسام أعراضا، كما ينشئ سبحانه وتعالى من الأعراض أعراضا، ومن الأجسام أجساما، فالأقسام الأربعة ممكنة مقدورة للرب تعالى، ولا يستلزم جمعا بين النقيضين، ولا شيئا من المحال، ولا حاجة إلى تكلف من قال: إن الذبح لملك الموت. فهذا كله من الاستدراك الفاسد على اللَّه ورسوله، والتأويل الباطل الذي لا يوجبه عقل ولا نقل، وسببه قلة الفهم لمراد الرسول ﷺ من كلامه، فظن هذا القائل أن لفظ الحديث يدل على أن نفس العرض يذبح، وظن غالط آخر أن العرض يعدم ويزول، ويصير مكانه جسم يذبح، ولم يهتد الفريقان إلى هذا القول الذي ذكرناه، وأن اللَّه سبحانه ينشئ من الأعراض أجساما ويجعلها مادة لها وكان يزيد الرقاشي يقول في كلامه: (أمن أهل الجنة من الموت فطاب لهم العيش، وأمنوا من الأسقام فهنأهم في جوار اللَّه طول المقام) ثم يبكي حتى تجري دموعه على لحيته»[3].

وقال أيضًا: «سأل سائل فقال: إذا كانت الجنة لا موت فيها، فكيف يأكلون فيها لحم الطير، وهو حيوان قد فارقته الروح؟ فأجيب بأنه يجوز أن لا يكون ميتا، وهذا جواب في غاية الغثاثة، قال ابن عقيل: وما الذي أحوجه إلى هذا، والجنة دار

(١) النساء: الآية (١١٥).
(٢) التذكرة (ص: ٤٣٦-٤٣٧).
(٣) حادي الأرواح (ص: ٢٨٣-٢٨٤).

لا يخلق فيها أذى ولا نصب، لا مطلقا؛ بل لا يدخل الداخل إليها ذلك على طريق الإكرام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾(١) وذلك مشروط بالطاعة، فإذا جاز ذلك في حق آدم، علم أنه ليس بواجب في حق الطير، ولا يمتنع في قدرة اللَّه تعالى أن يكون هذا الطائر مشويا لا عن روح خرجت منه، أو عن روح خرجت خارج الجنة، وولج الجنة وهو لحم مشوي، قلت: وما الذي أوجب هذا التكلف كله، فالجنة دار الخلود لأهلها وسكانها، وأما الطير فهو نوع من أنواع الأطعمة التي يحدثها اللَّه لهم شيئا بعد شيء، فهو دائم النوع، وإن آحاده منصرمة، كالفاكهة وغيرها، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن المؤمنين ينحر لهم يوم القيامة ثور الجنة الذي كان يأكل منها، فيكون نزلهم. رواه مسلم(٢) فهذا حيوان قد كان يأكل من الجنة فينحر نزلا لأهلها واللَّه أعلم»(٣).

* **عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ينادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا فذلك قوله ﷻ: ﴿وَنُودُوٓا أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٤)»(٥).**

★ **فوائد الحديث:**

فيه «أن أهل الجنة لا يموتون فيها لكمال حياتهم، وكمالهم في ازدياد من قوة الشباب، ونضرة الوجوه، وحسن الهيئة، وطيب العيش»(٦).

* **عن جابر ﷺ قال: سئل النبي ﷺ فقيل: يا رسول اللَّه أينام أهل الجنة؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون»(٧).**

---

(١) طه: الآيتان (١١٨-١١٩) (٢) أخرجه مسلم (١ / ٢٥٢-٢٥٣/ ٣١٥).
(٣) بدائع الفوائد (٣ / ١٧٦-١٧٧). (٤) الأعراف: الآية (٤٣).
(٥) أخرجه: أحمد (٢ / ٣١٩) ومسلم (٤ / ٢١٨٢ / ٢٨٣٧)، الترمذي (٥ / ٣٤٩ / ٣٢٤٦)، النسائي في الكبرى (٦ / ٣٤٥ / ١١١٨٤).
(٦) قاله ابن كثير في النهاية (٢ / ٤٦٨).
(٧) أخرجه: الطبراني في الأوسط (١ / ٥٠٢ / ٩٢٣)واللفظ له، وأيضا: (٩ / ٣٧٦-٣٧٧ / ٨٨١١)، البزار (كشف الأستار ٤ / ١٩٣ / ٣٥١٧)، وقال الهيثمي في المجمع (١٠ / ٤١٥): رواه الطبراني في الأوسط والبزار ورجال البزار رجال الصحيح وصحح السيوطي سنده في الدر المنثور وانظر الصحيحة (رقم: ١٠٨٧).

★ **فوائد الحديث:**

فيه أن النوم أخو الموت وأن أهل الجنة «لا ينامون كي لا ينشغلوا به عن الملاذ والحياة الهنية، جعلنا اللَّه منهم»[(١)].

* عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: قال رسول اللَّه ﷺ: «**سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يدخل الجنة أحدا عمله قالوا: ولا أنت؟ يا رسول الله! قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني اللَّه منه برحمة. واعلموا أن أحب العمل إلى اللَّه أدومه وإن قل**»[(٢)].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قال الرافعي: في الحديث أن العامل لا ينبغي أن يتكل على عمله في طلب النجاة، ونيل الدرجات؛ لأنه إنما عمل بتوفيق اللَّه، وإنما ترك المعصية بعصمة اللَّه، فكل ذلك بفضله ورحمته»[(٣)].

قال النووي رحمه الله: «ومذهب أهل السنة أيضًا: أن اللَّه تعالى لا يجب عليه شيء تعالى الله؛ بل العالم ملكه، والدنيا والآخرة في سلطانه، يفعل فيهما ما يشاء، فلوا عذب المطيعين والصالحين أجمعين وأدخلهم النار، كان عدلا منه، وإذا أكرمهم ونعمهم وأدخلهم الجنة، فهو فضل منه، ولو نعم الكافرين وأدخلهم الجنة، كان له ذلك، ولكنه أخبر وخبره صدق، أنه لا يفعل هذا؛ بل يغفر للمؤمنين ويدخلهم الجنة برحمته، ويعذب المنافقين ويخلدهم في النار عدلا منه. وأما المعتزلة فيثبتون الأحكام بالعقل، ويوجبون ثواب الأعمال، ويوجبون الأصلح، ويمنعون خلاف هذا في خبط طويل لهم تعالى اللَّه عن اختراعاتهم الباطلة، المنابذة لنصوص الشرع، وفي ظاهر هذه الأحاديث دلالة لأهل الحق أنه لا يستحق أحد الثواب والجنة بطاعته، وأما قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[(٤)] ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧٢﴾[(٥)] ونحوهما من الآيات الدالة على أن

(١) أفاده ابن كثير في النهاية (٢ / ٤٦٨).
(٢) أخرجه: أحمد (٦ / ١٢٥)، البخاري (١١ / ٣٥٥ / ٦٤٦٧)، مسلم (٤ / ٢١٧١ / ٢٨١٨) واللفظ له.
(٣) فتح الباري (١١ / ٣٥٩).
(٤) النحل: الآية (٣٢).
(٥) الزخرف: الآية (٧٢).

الأعمال يدخل بها الجنة، فلا يعارض هذه الأحاديث؛ بل معنى الآيات: أن دخول الجنة بسبب الأعمال، ثم التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها وقبولها برحمة اللَّه تعالى وفضله، فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل، وهو مراد الأحاديث، ويصح أنه دخل بالأعمال؛ أي: بسببها وهي من الرحمة، واللَّه أعلم»[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وحكمة الرب سبحانه مقتضية لعمارة هذه الدرجات كلها، وإنما تعمر ويقع التفاوت فيها بحسب الأعمال، كما قال غير واحد من السلف: ينجون من النار بعفو اللَّه ومغفرته، ويدخلون الجنة بفضله ونعمته ومغفرته، ويتقاسمون المنازل بأعمالهم، وعلى هذا حمل غير واحد ما جاء من إثبات دخول الجنة بالأعمال كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3] قالوا: وأما نفي دخلوها بالأعمال كما في قوله ﷺ: «**لن يدخل الجنة أحد بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا»**. فالمراد منه نفي أصل الدخول، وأحسن من هذا أن يقال: الباء المقتضية للدخول غير الباء التي نفى معها الدخول، فالمقتضية هي باء السببية الدالة على أن الأعمال سبب للدخول، مقتضية له كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها، والباء التي نفى بها الدخول هي باء المعاوضة والمقابلة التي في نحو قولهم: اشتريت هذا بهذا، فأخبر النبي ﷺ أن دخول الجنة ليس في مقابلة عمل أحد، وأنه لولا تغمد اللَّه سبحانه لعبده برحمته، لما أدخله الجنة، فليس عمل العبد وإن تناهى موجبا بمجرده لدخول الجنة، ولا عوضا لها، فإن أعماله وإن وقعت منه على الوجه الذي يحبه اللَّه ويرضاه، فهي لا تقاوم نعمة اللَّه التي أنعم بها عليه في دار الدنيا، ولا تعادلها؛ بل لو حاسبه لوقعت أعماله كلها في مقابلة اليسير من نعمه، وتبقى بقية النعم مقتضية لشكرها، فلو عذبه في هذه الحالة لعذبه وهو غير ظالم له، ولو رحمه لكانت رحمته خيرا له من عمله»[4].

وقال أيضًا بعد ذكره للآيات المتقدم ذكرها وما في معناها: «وهذا في القرآن

(١) شرح مسلم (١٧ / ١٣١-١٣٣).
(٢) الزخرف: الآية (٧٢).
(٣) النحل: الآية (٣٢).
(٤) مفتاح دار السعادة (١ / ١١٩-١٢٠).

كثير، يبين أن الجنة ثوابهم وجزاؤهم، فكيف يقال: لا تكون نعمه ثوابا على الإطلاق، بل لا تكون نعمه تعالى في مقابلة الأعمال، والأعمال ثمنا لها، فإنه لن يدخل أحدا الجنة عمله، ولا يدخلها أحد إلا بمجرد فضل اللَّه ورحمته، وهذا لا ينافي ما تقدم من النصوص، فإنها إنما تدل على أن الأعمال أسباب، لا أعواض وأثمان، والذي نفاه النبي ﷺ في الدخول بالعمل، هو نفي استحقاق العوض ببذل عوضه، فالمثبت باء السببية، والمنفي باء المعاوضة والمقابلة، وهذا فصل الخطاب في هذه المسألة»[1].

* * *

(١) مفتاح دار السعادة (٢ / ٥١٤)

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

أي: إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلا واضحا بينا جليا، بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأغلاها[1]؛ ليتذكر هؤلاء المشركون الذين أرسلناك إليهم بعبره وحججه، ويتعظوا بعظاته، ويتفكروا في آياته إذا أنت تتلوه عليهم، فينيبوا إلى طاعة ربهم، ويذعنوا للحق عند تبينهموه[2].

قال القرطبي: ونظيره: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾[3] فختم السورة بالحث على اتباع القرآن وإن لم يكن مذكورا، كما قال في مفتتح السورة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[4]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾[5]»[6].

قال ابن كثير: «ثم لما كان مع هذا الوضوح والبيان من الناس من كفر وخالف وعاند، قال اللَّه تعالى لرسوله ﷺ مسليا له وواعدًا له بالنصر، ومتوعدًا لمن كذبه بالعطب والهلاك: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ أي: انتظر ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ أي: فسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر وعُلُو الكلمة في الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد ولإخوانك من النبيين والمرسلين، ومن اتبعكم من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾[7]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٦٢).
(٢) جامع البيان (٢٥ / ١٣٨).
(٣) القمر: الآية (١٧).
(٤) الدخان: الآية (٣).
(٥) القدر: الآية (١).
(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٠٣).
(٧) المجادلة: الآية (٢١).

ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾[١]»[٢].

قال القرطبي: «أي: انتظر ما وعدتك من النصر عليهم، إنهم منتظرون لك الموت. حكاه النقاش.

وقيل: انتظر الفتح من ربك إنهم منتظرون بزعمهم قهرك. وقيل: انتظر أن يحكم اللَّه بينك وبينهم، فإنهم ينتظرون بك ريب الحدثان. والمعنى متقارب. وقيل: ارتقب ما وعدتك من الثواب، فإنهم كالمنتظرين لما وعدتهم من العقاب. وقيل: ارتقب يوم القيامة فإنه يوم الفصل، وإن لم يعتقدوا وقوع القيامة، جعلوا كالمرتقبين لأن عاقبتهم ذلك. واللَّه تعالى أعلم»[٣].

* * *

(١) غافر: الآيتان (٥١-٥٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٦٢).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٠٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجاثية

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قد تقدم بياننا في معنى قوله: (حم). وأما قوله: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ فإن معناه: هذا تنزيل القرآن من عند الله ﴿الْعَزِيزِ﴾ في انتقامه من أعدائه ﴿الْحَكِيمِ﴾ في تدبيره أمر خلقه.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن في السموات السبع اللاتي منهنّ نزول الغيث، والأرض التي منها خروج الخلق أيها الناس ﴿لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: لأدلة وحججا للمصدّقين بالحجج إذا تبيّنوها ورأوها..

قوله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وفي خلق الله إياكم أيها الناس، وخلقه ما تفرّق في الأرض من دابة تدّب عليها من غير جنسكم ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعني: حججا وأدلة لقوم يوقنون بحقائق الأشياء، فيقرّون بها، ويعلمون صحتها..

قوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾ يقول -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أيها الناس، وتعاقبهما عليكم، هذا بظلمته وسواده، وهذا بنوره وضيائه ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ وهو الغيث الذي به تخرج الأرض أرزاق العباد وأقواتهم، وإحيائه الأرض بعد موتها: يقول: فأنبت ما أنزل من السماء من الغيْث ميت الأرض، حتى اهتزّت بالنبات والزرع من بعد موتها؛ أي: من بعد جدوبها وقحوطها ومصيرها دائرة لا نبت فيها ولا زرع.

وقوله: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ يقول: وفي تصريفه الرياح لكم شمالا مرّة، وجنوبا أخرى، وصبًّا أحيانا، ودبورا أخرى لمنافعكم. وقد قيل: عنى بتصريفها: بالرحمة مرّة، وبالعذاب أخرى. .

وقوله: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: في ذلك أدلة وحجج لله على خلقه، لقوم يعقلون عن الله حججه، ويفهمون عنه ما وعظهم به من الآيات والعبر»[(١)].

قال ابن كثير: «يرشد تعالى خلقه إلى التفكر في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع من الملائكة والجن والإنس، والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار في تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضيائه، وما أنزل الله تعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماه رزقًا؛ لأن به يحصل الرزق، ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء.

وقوله: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي: جنوبا وشآما، ودبورًا وصبًا، بحرية وبرية، ليلية ونهارية. ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقاح، ومنها ما هو غذاء للأرواح، ومنها ما هو عقيم لا ينتج.

وقال أولًا: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ثم ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وهو ترقٍّ من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى، وهذه الآيات شبيهة بآية البقرة وهي قوله:

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٣٩-١٤١).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[1]»[2].

قال السعدي: «يخبر تعالى خبرا يتضمن الأمر بتعظيم القرآن والاعتناء به، وأنه ﴿تَنزِيلُ﴾ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ المألوه المعبود، لما اتصف به من صفات الكمال، وانفرد به من النعم، الذي له العزة الكاملة، والحكمة التامة.

ثم أيد ذلك بما ذكره من الآيات الأفقية والنفسية، من خلق السموات والأرض، وما بث فيهما من الدواب، وما أودع فيهما من المنافع، وما أنزل اللَّه من الماء الذي يحيي به اللَّه البلاد والعباد.

فهذه كلها آيات بينات، وأدلة واضحات على صدق هذا القرآن العظيم، وصحة ما اشتمل عليه من الحكم والأحكام، ودالات أيضًا على ما لله تعالى من الكمال وعلى البعث والنشور»[3].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآيات الكريمة، من أول سورة الجاثية ستة براهين من براهين التوحيد، الدالة على عظمته وجلاله، وكمال قدرته، وأنه المستحق للعبادة وحده تعالى.

الأول منها: خلقه السماوات والأرض. الثاني: خلقه الناس. الثالث: خلقه الدواب. الرابع: اختلاف الليل والنهار. الخامس: إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به. السادس: تصريف الرياح.

وذكر أن هذه الآيات والبراهين، إنما ينتفع بها المؤمنون، الموقنون الذين يعقلون عن اللَّه حججه وآياته، فكأنهم هم المختصون بها دون غيرهم، ولذا قال: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم قال: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، ثم قال: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وهذه البراهين الستة المذكورة في أول هذه السورة الكريمة، جاءت موضحة في آيات كثيرة جدًا كما هو معلوم.

---

(١) البقرة: الآية (١٦٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٤٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ١٨).

أما الأول منها: وهو خلقه السموات والأرض، المذكور في قوله: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾، فقد جاء في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾[1] وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2] الآية، وقوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١﴾[3] الآية، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[4] الآية، وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[5]، وقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾[6]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝٤٨﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾ إلى قوله: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢﴾[9] والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًّا معروفة.

وأما الثاني منها: وهو خلقه الناس المذكور في قوله: ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ﴾، فقد جاء موضحًا في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾[10]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾[11] الآية، وقوله تعالى عن نبيه نوح: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾[12]، وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[13]، وقوله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾[14]، والآيات بمثل ذلك كثيرة ومعلومة.

وأما الثالث منها: وهو خلقه الدواب المذكور في قوله: ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾، فقد

---

(١) ق: الآيات (٦-٨).
(٢) سبأ: الآية (٩).
(٣) يونس: الآية (١٠١).
(٤) الأعراف: الآية (١٨٥).
(٥) الروم: الآية (٢٢) والشورى: الآية (٢٩).
(٦) البقرة: الآية (٢٢).
(٧) غافر: الآية (٦٤).
(٨) الذاريات: الآيتان (٤٧-٤٨).
(٩) النبأ: الآيات (٦-١٢).
(١٠) الروم: الآية (٢٠).
(١١) البقرة: الآية (٢١).
(١٢) نوح: الآيتان (١٣-١٤).
(١٣) الزمر: الآية (٦).
(١٤) الذاريات: الآية (٢١).

جاء أيضًا موضحًا في آيات كثيرة أيضًا من كتاب اللَّه، كقوله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾[١]، وقوله تعالى في البقرة: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾[٢] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾[٤] والآيات بمثل ذلك كثيرة ومعلومة.

وأما الرابع منها: وهو اختلاف الليل والنهار المذكور في قوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، فقد جاء موضحًا أيضًا في آيات كثيرة من كتاب اللَّه، كقوله تعالى في البقرة: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٥]. وقوله تعالى في آل عمران: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾[٦]، وقوله تعالى في فصلت: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُۚ﴾[٧] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾[٨] الآية. وقوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾[٩]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾[١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾[١١] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

---

(١) الشورى: الآية (٢٩).
(٢) البقرة: الآية (١٦٤).
(٣) النور: الآية (٤٥).
(٤) الزمر: الآية (٦).
(٥) البقرة: الآية (١٦٤).
(٦) آل عمران: الآية (١٩٠).
(٧) فصلت: الآية (٣٧).
(٨) يس: الآيتان (٣٧-٣٨).
(٩) النور: الآية (٤٤).
(١٠) القصص: الآيات (٧١-٧٣).
(١١) المؤمنون: الآية (٨٠).

وأما الخامس منها وهو: إنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض به، وإنبات الرزق فيها المذكور في قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، فقد جاء موضحًا أيضًا في آيات كثيرة من كتاب اللّه كقوله تعالى في البقرة: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، إلى قوله: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا﴾ إلى قوله: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾[2] وإيضاح هذا البرهان باختصار: أن قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ أمر من اللّه تعالى لكل إنسان مكلف، أن ينظر ويتأمل في طعامه كالخبز الذي يأكله، ويعيش به من خلق الماء الذي كان سببًا لنباته، هل يقدر أحد غير اللّه أن يخلقه؟ الجواب: لا. ثم هب أن الماء قد خلق بالفعل، هل يقدر أحد غير اللّه أن ينزله إلى الأرض، على هذا الوجه الذي يحصل به النفع، من غير ضرر بإنزاله على الأرض رشًا صغيرًا، حتى تروى به الأرض تدريجًا، من غير أن يحصل به هدم، ولا غرق، كما قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾[3]؟ الجواب: لا. ثم هب أن الماء قد خلق فعلًا، وأنزل في الأرض على ذلك الوجه الأتم الأكمل، هل يقدر أحد غير اللّه أن يشق الأرض، ويخرج منها مسمار النبات؟ الجواب: لا. ثم هب أن النبات خرج من الأرض، وانشقت عنه، فهل يقدر أحد غير اللّه أن يخرج السنبل من ذلك النبات؟ الجواب: لا. ثم هب أن السنبل خرج من النبات، فهل يقدر أحد غير اللّه أن ينمي حبه، وينقله من طور إلى طور حتى يدرك ويكون صالحًا للغذاء والقوت؟ الجواب: لا.

وقد قال تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[4]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾[6]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

---

(١) البقرة: الآية (١٦٤).
(٢) عبس: الآيات (٢٤-٣٢).
(٣) النور: الآية (٤٣)، والروم: الآية (٤٩).
(٤) الأنعام: الآية (٩٩).
(٥) النبأ: الآيات (١٤-١٦).
(٦) يس: الآية (٣٣).

واعلم أن إطلاقه تعالى الرزق على الماء، في آية الجاثية هذه، قد أوضحنا وجهه في سورة المؤمن في الكلام على قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾[1] الآية.

وأما السادس منها: وهو تصريف الرياح المذكور في قوله: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ﴾، فقد جاء موضحًا أيضًا في آيات من كتاب اللَّه، كقوله في البقرة: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه: اعلم أن هذه البراهين العظيمة، المذكورة في أول سورة الجاثية، هذه ثلاثة منها من براهين البعث، التي يكثر في القرآن العظيم الاستدلال بها على البعث كثرة مستفيضة. وقد أوضحناها في مواضع من هذا الكتاب المبارك، في سورة البقرة وسورة النحل وغيرهما، وأحلنا عليها مرارًا كثيرة من هذا الكتاب المبارك وسنعيد طرفًا منها هنا لأهميتها إن شاء اللَّه تعالى.

والأول من البراهين المذكورة هو: خلق السماوات والأرض، المذكور هنا في سورة الجاثية هذه ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ لأن خلقه -جل وعلا- للسماوات والأرض، من أعظم البراهين على بعث الناس بعد الموت؛ لأن من خلق الأعظم الأكبر، لا شك في قدرته على خلق الأضعف الأصغر.

والآيات الدالة على هذا كثيرة كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[5] أي: ومن قدر على خلق الأكبر فلا شك أنه قادر على خلق الأصغر، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٣﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ

---

(١) غافر: الآية (١٣).
(٢) البقرة: الآية (١٦٤).
(٣) الروم: الآية (٤٦).
(٤) الحجر: الآية (٢٢).
(٥) غافر: الآية (٥٧).
(٦) يس: الآية (٨١).
(٧) الأحقاف: الآية (٣٣).

مِثْلَهُمْ﴾[1] الآية، وقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾[2].

ونظير آية النازعات هذه قوله تعالى في أول الصافات: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾[3] الآية، لأن قوله: ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ يشير به إلى خلق السماوات والأرض، وما ذكر معهما المذكور في قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[4].

وأما الثاني من البراهين المذكورة: فهو خلقه تعالى للناس المرة الأولى، لأن من ابتدع خلقهم على غير مثال سابق، لا شك في قدرته على إعادته خلقهم مرة أخرى كما لا يخفى.

والاستدلال بهذا البرهان على البعث كثير جدًا في كتاب اللَّه، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾[5] إلى آخر الآيات، وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾[7] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[8] الآية، وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[9]، وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[10]، وقوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾[11]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾[12] وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ

(١) الإسراء: الآية (٩٩).
(٢) النازعات: الآيات (٢٧-٣٣).
(٣) الصافات: الآية (١١).
(٤) الصافات: الآيات (٥-١٠).
(٥) الحج: الآية (٥).
(٦) يونس: الآية (٧٨-٧٩).
(٧) مريم: الآيات (٦٦-٦٨).
(٨) الروم: الآية (٢٧).
(٩) الإسراء: الآية (٥١).
(١٠) الأنبياء: الآية (١٠٤).
(١١) ق: الآية (١٥).
(١٢) الواقعة: الآية (٦٢).

﴿٤٧﴾﴾[١] وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾﴾[٣] يعني أي شيء يحملك على التكذيب بالدين؛ أي: بالبعث والجزاء، وقد علمت أني خلقتك الخلق الأول في أحسن تقويم، وأنت تعلم أنه لا يخفى على عاقل أن من ابتدع الإيجاد الأول، لا شك في قدرته على إعادته مرة أخرى، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما البرهان الثالث منها: وهو إحياء الأرض بعد موتها المذكور في قوله تعالى في سورة الجاثية هذه: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ فإنه يكثر الاستدلال به أيضًا على البعث في القرآن العظيم؛ لأن من أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الناس بعد موتهم، لأن الجميع أحياء بعد موت. فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾[٧].

فقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: نبعثهم من قبورهم أحياء، كما أخرجنا تلك الثمرات بعد عدمها، وأحيينا بإخراجها ذلك البلد الميت، وقوله

(١) النجم: الآيات (٤٥-٤٧).
(٢) القيامة: الآيات (٣٦-٤٠).
(٣) التين: الآيات (١-٧).
(٤) فصلت: الآية (٣٩).
(٥) الحج: الآيات (٥-٧).
(٦) الروم: الآية (٥٠).
(٧) الأعراف: الآية (٥٧).

تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾[1]؛ أي: تخرجون من قبوركم أحياء بعد الموت، وقوله تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات»[3].

* * *

(١) الروم: الآية (١٩).

(٢) ق: الآية (١١).

(٣) أضواء البيان (٧ / ٣٢٩-٣٣٧).

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: هذه الآيات والحجج يا محمد من ربك على خلقه نتلوها عليك بالحقّ: يقول: نخبرك عنها بالحقّ لا بالباطل، كما يخبر مشركو قومك عن آلهتهم بالباطل، أنها تقرّبهم إلى اللّه زُلْفَى، ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾: يقول -تعالى ذكره- للمشركين به: فبأيّ حديث أيها القوم بعد حديث اللّه هذا الذي يتلوه عليكم، وبعد حججه عليكم، وأدلته التي دلكم بها على وحدانيته، من أنه لا ربّ لكم سواه، تصدّقون، إن كنتم كذّبتم لحديثه وآياته. وهذا التأويل على مذهب قراءة من قرأ (تُؤْمِنُونَ) على وجه الخطاب من اللّه بهذا الكلام للمشركين، وذلك قراءة عامة قرّاء الكوفيين.

وأما على قراءة من قرأه ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالياء، فإن معناه: فبأيّ حديث يا محمد بعد حديث اللّه الذي يتلوه عليك، وآياته هذه التي نبه هؤلاء المشركين عليها، وذكرهم بها، يؤمن هؤلاء المشركون»[1].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى: هذه آيات اللّه -يعني القرآن بما فيه من الحجج والبينات- ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: متضمنة الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها، فبأي حديث بعد اللّه وآياته يؤمنون؟!»[2].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أشار -جل وعلا- لنبيه ﷺ إلى آيات هذا القرآن العظيم، وبين لنبيه أنه يتلوها عليه، متلبسة بالحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه.

وما ذكره -جل وعلا- في آية الجاثية هذه، ذكره في آيات أخر بلفظه كقوله تعالى

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٤١) بتصرف.
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٥٠).

في البقرة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[١] وقوله تعالى في آل عمران: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[٢] وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿تِلْكَ﴾ بمعنى هذه.

ومن أساليب اللغة العربية إطلاق الإشارة إلى البعيد على الإشارة إلى القريب كقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾[٣] بمعنى هذا الكتاب. كما حكاه البخاري عن أبي عبيدة معمر بن المثنى، ومن شواهده قول خفاف بن ندبة السلمي:

فإن تك خيلي قد أصيب صميمها ... فعمدًا على عيني تيممت مالكا

أقول له والرمح يأطر متنه ... تأمل خفافًا إنني أنا ذلكا

يعني: أنا هذا. وقد أوضحنا هذا المبحث وذكرنا أوجهه في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في أول سورة البقرة.

وقوله تعالى: ﴿نَتْلُوهَا﴾ أي نقرؤها عليك. وأسند -جل وعلا- تلاوتها إلى نفسه؛ لأنها كلامه الذي أنزله على رسوله بواسطة الملك، وأمر الملك أن يتلوه عليه مبلغًا عنه -جل وعلا-. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾[٤]، فقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي: قرأه عليك المرسل به، من قبلنا مبلغًا عنا، وسمعته منه، ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي: فاتبع قراءته واقرأه كما سمعته يقرؤه، وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾[٥]. وسماعه ﷺ القرآن من الملك المبلغ عن الله كلام الله، وفهمه له، هو معنى تنزله إياه على قلبه في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[٧].

---

(١) البقرة: الآيتان (٢٥١-٢٥٢).
(٢) آل عمران: الآيتان (١٠٧-١٠٨).
(٣) البقرة: الآية (٢).
(٤) القيامة: الآيات (١٦-١٩).
(٥) طه: الآية (١١٤).
(٦) البقرة: الآية (٩٧).
(٧) الشعراء: الآيات (١٩٢-١٩٥).

وقوله تعالى في هذه الآية : ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ يعني آياته الشرعية الدينية . واعلم أن لفظ الآية ، يطلق في اللغة العربية إطلاقين ، وفي القرآن العظيم إطلاقين أيضًا . أما إطلاقاه في اللغة العربية ، فالأول منهما وهو المشهور في كلام العرب ، فهو إطلاق الآية بمعنى العلامة ، وهذا مستفيض في كلام العرب ، ومنه قول نابغة ذبيان :

توهمت آيات لها فعرفتها ... لستة أعوام وذا العام سابع

ثم بين أن مراده بالآيات علامات الدار في قوله بعده :

رماد ككحل العين لأيا أبينه ... ونؤى كجذم الحوض أثلم خاشع

وأما الثاني منهما فهو إطلاق الآية بمعنى الجماعة ، يقولون : جاء القوم بآيتهم ؛ أي : بجماعتهم . ومنه قول برج بن مسهر :

خرجنا من النقبين لا حي مثلنا ... بآياتنا نزجي اللقاح المطافلا

وقوله : بآياتنا يعني بجماعتنا .

وأما إطلاقاه في القرآن العظيم ، فالأول منهما إطلاق الآية الشرعية الدينية ، كآيات هذا القرآن العظيم ، ومنه قوله تعالى هنا : ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآية .

وأما الثاني منهما ؛ فهو إطلاق الآية على الآية الكونية القدرية ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾[1] . أما الآية الكونية القدرية ، فهي بمعنى الآية اللغوية التي هي العلامة ، لأن الآيات الكونية علامات قاطعة ، على أن خالقها هو الرب المعبود وحده ، وأما الآية الشرعية الدينية ، فقال بعض العلماء : إنها أيضًا من الآية التي هي العلامة ، لأن آيات هذا القرآن العظيم ، علامات على صدق من جاء بها ، لما تضمنته من برهان الإعجاز ، أو لأن فيها علامات يعرف بها مبدأ الآيات ومنتهاها . وقال بعض العلماء : إنها من الآية بمعنى الجماعة ، لتضمنها جملة وجماعة من كلمات القرآن وحروفه»[2] .

(١) آل عمران : الآية (١٩٠) .

(٢) أضواء البيان (٧ / ٣٣٧-٣٣٨) .

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: الوادي السائل من صديد أهل جهنم، لكلّ كذّاب ذي إثم بربه، مفتر عليه ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ يقول: يسمع آيات كتاب اللَّه تُقرأ عليه ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ على كفره وإثمه فيقيم عليه غير تائب منه، ولا راجع عنه ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ على ربه أن يذعن لأمره ونهيه ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ يقول: كأن لم يسمع ما تلي عليه من آيات اللَّه بإصراره على كفره ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يقول: فبشر يا محمد هذا الأفَّاك الأثيم الذي هذه صفته بعذاب من اللَّه له. ﴿أَلِيمٍ﴾: يعني موجع في نار جهنم يوم القيامة»[1].

قال ابن كثير: «ثم قال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾ أي: أفاك في قوله كذاب، حلاف مهين أثيم في فعله وقيله، كافر بآيات الله؛ ولهذا قال: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تقرأ عليه ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ أي: على كفره وجحوده استكبارًا وعنادا ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي: كأنه ما سمعها، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: فأخبره أن له عند اللَّه يوم القيامة عذابا أليما موجعا»[2].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ ما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من أن من كفر باللَّه وبآيات اللَّه ولم يؤمن بذلك مع ظهور الأدلة والبراهين على لزوم الإيمان باللَّه وآياته أنه يستبعد، أن يؤمن بشيء آخر؛ لأنه لو كان يؤمن بحديث لآمن باللَّه وبآياته لظهور الأدلة على ذلك، وأن من لم يؤمن بآيات اللَّه متوعد بالويل، وأنه أفاك أثيم، والأفاك كثير الإفك وهو أسوأ الكذب، والأثيم: هو مرتكب الإثم بقلبه وجوارحه، فهو مجرم بقلبه ولسانه

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٤٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٥٠).

وجوارحه، قد ذكره تعالى في غير هذا الموضع فتوعد المكذبين لهذا القرآن، بالويل يوم القيامة، وبين استبعاد إيمانهم بأي حديث بعد أن لم يؤمنوا بهذا القرآن، وذلك بقوله في آخر المرسلات: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ۝٤٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٩ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[1] فقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٩﴾ كقوله هنا: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾. وقد كرر تعالى وعيد المكذبين بالويل في سورة المرسلات كما هو معلوم. وقوله في آخر المرسلات: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ كقوله هنا في الجاثية: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾.

ومعلوم أن الإيمان بالله على الوجه الصحيح يستلزم الإيمان بآياته، وأن الإيمان بآياته كذلك يستلزم الإيمان به تعالى، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾ يدل على أن من يسمع القرآن يتلى، ثم يصر على الكفر والمعاصي، في حالة كونه متكبرًا عن الانقياد إلى الحق، الذي تضمنته آيات القرآن كأنه لم يسمع آيات الله، له البشارة يوم القيامة بالعذاب الأليم وهو الخلود في النار.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحًا في غير هذا الموضع كقوله تعالى في لقمان: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾[2]، وقوله تعالى في الحج: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٧٢﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۝١٦﴾[4]، فقوله تعالى عنهم: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ يدل على أنهم ما كانوا يبالون بما يتلو عليهم النبي ﷺ من الآيات والهدى.

وقد ذكرنا كثيرًا من الآيات المتعلقة بهذا المبحث في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ

(١) المرسلات: الآيات (٤٨-٥٠).
(٢) لقمان: الآية (٧).
(٣) الحج: الآية (٧٢).
(٤) محمد: الآية (١٦).

﴿إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[1] الآية.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ خففت فيه لفظة كأن، ومعلوم أن كأن إذا خففت كان اسمها مقدرًا وهو ضمير الشأن، والجملة خبرها كما قال في الخلاصة:

وخففت كأن أيضًا فنوي   منصوبها وثابتًا أيضًا روي

وقد قدمنا في أول سورة الكهف: أن البشارة تطلق غالبًا على الإخبار بما يسر، وأنها ربما أطلقت في القرآن وفى كلام العرب على الإخبار بما يسوء أيضًا، وأوضحنا ذلك بشواهده العربية.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾، قال بعض العلماء: وَيْلٌ واد في جهنم، والأظهر أن لفظة وَيْلٌ كلمة عذاب وهلاك، وأنها مصدر لا لفظ له من فعله، وأن المسوغ للابتداء بها مع أنها نكرة كونها في معرض الدعاء عليهم بالهلاك»[2].

* * *

(١) فصلت: الآيتان (٤-٥).

(٢) أضواء البيان (٧ / ٣٤٠-٣٤٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَإِذَا عَلِمَ﴾ هذا الأفاك الأثيم مِن آيات اللَّه ﴿شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ﴾: يقول: اتخذ تلك الآيات التي علمها هزوا، يسخر منها، وذلك كفعل أبي جهل حين نزلت ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤﴾[1]؛ إذ دعا بتمر وزبد فقال: تزقموا من هذا، ما يعدكم محمد إلا شهدا، وما أشبه ذلك من أفعالهم.

وقوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يقول -تعالى ذكره-: هؤلاء الذين يفعلون هذا الفعل، وهم الذين يسمعون آيات اللَّه تُتلى عليهم ثم يصرّون على كفرهم استكبارًا، ويتخذون آيات اللَّه التي علموها هزوا، لهم يوم القيامة من اللَّه عذاب مهين، يهينهم ويذلهم في نار جهنم، بما كانوا في الدنيا يستكبرون عن طاعة اللَّه واتباع آياته، وإنما قال -تعالى ذكره-: ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ فجمع. وقد جرى الكلام قبل ذلك [على الإفراد] ردّا للكلام إلى معنى الكلّ في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾»[2].

وقال ابن كثير: «﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ﴾ أي: إذا حفظ شيئًا من القرآن كفر به واتخذه سخريا وهزوا، ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به»[3].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة توعد الأفاك الأثيم بالويل، والبشارة بالعذاب الأليم، وقد قدمنا قريبًا أن من صفاته، أنه إذا سمع آيات اللَّه تتلى عليه أصر مستكبرًا كأن لم يسمعها، وذكر في هذه الآية الكريمة أنه إذا علم من آيات اللَّه شيئًا اتخذها هزوًا؛ أي: مهزوءًا بها، مستخفًا بها، ثم توعده على

(١) الدخان: الآيتان (٤٣-٤٤).

(٢) جامع البيان (٢٥ / ١٤٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٥٠).

ذلك بالعذاب المهين.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الكفار يتخذون آيات اللَّه هزوًا، وأنهم سيعذبون على ذلك يوم القيامة، قد بينه تعالى في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في آخر الكهف: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾[1]، وقوله تعالى في الكهف أيضًا: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾[2] الآية، وقوله تعالى في سورة الجاثية هذه: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾[3] الآية»[4].

وقال أيضًا: وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: لأن عذاب الكفار الذين كانوا يستهزئون بآيات اللَّه لا يراد به إلا إهانتهم وخزيهم، وشدة إيلامهم بأنواع العذاب، وليس فيه تطهير ولا تمحيص لهم، بخلاف عصاة المسلمين، فإنهم وإن عذبوا فسيصيرون إلى الجنة بعد ذلك العذاب.

فليس المقصود بعذابهم مجرد الإهانة؛ بل ليؤولوا بعده إلى الرحمة ودار الكرامة»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو

* عن عبد اللَّه بن عمر عن رسول اللَّه ﷺ أنه كان ينهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو[6].

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «يعني بالقرآن: المصحف، وقد جاء مفسرا في بعض الطرق.

---

(١) الكهف: الآية (١٠٦).
(٢) الكهف: الآيتان (٥٦-٥٧).
(٣) الجاثية: الآيتان (٣٤-٣٥).
(٤) أضواء البيان (٧/ ٣٤٣).
(٥) أضواء البيان (٧/ ٣٤٤).
(٦) أخرجه أحمد (٢/ ٦-٧-١٠-٥٥-٦٣-٧٦-١٢٨)، والبخاري (٦/ ١٦٤/ ٢٩٩٠)، ومسلم (٣/ ١٨٦٩/ ١٤٩١[٩٣]) واللفظ له، وأبو داود (٣/ ٨٢/ ٢٦١٠)، وابن ماجه (٢/ ٩٦١/ ٢٨٧٩-٢٨٨٠).

وظاهر هذا النهي: تحريم السفر به مطلقا، فتستوي فيه الجيوش والسرايا، وهو مذهب مالك، وقدماء أصحابه، وسحنون، وابن حبيب. وذهب أبو حنيفة وغيره: إلى الفرق بين الجيوش العظام فيجاز ذلك فيها، وبين الصغار فيمنع ذلك فيها؛ نظرا إلى العلة التي نص عليها في الحديث، حيث قال: «**فإني لا آمن أن يناله العدو**» ونيل العدو له في الجيوش العظام نادر. ولأصحاب القول الأول بعد تسليم العلة المذكورة التمسك بسد الذريعة، وبأن نسيانه وسقوطه ليس نادرا»[(١)].

قال أبو عمر: «وأجمع الفقهاء أن لا يسافر بالقرآن إلى أرض العدو في السرايا والعسكر الصغير المخوف عليهم»[(٢)].

قال البخاري: «وقد سافر النبي ﷺ وأصحابه في أرض العدو وهم يعلمون القرآن».

قال الحافظ: «أشار البخاري بذلك إلى أن المراد بالنهي عن السفر بالقرآن، السفر بالمصحف، خشية أن يناله العدو، لا السفر بالقرآن نفسه، وقد تعقبه الإسماعيلي بأنه: لم يقل أحد إن من يحسن القرآن لا يغزو العدو في دارهم، وهو اعتراض من لم يفهم مراد البخاري، وادعى المهلب أن مراد البخاري بذلك تقوية القول بالتفرقة بين العسكر الكثير والطائفة القليلة، فيجوز في تلك دون هذه والله أعلم»[(٣)].

قال أبو عمر: «واختلفوا في جواز ذلك في العسكر الكبير المأمون عليه؛ قال مالك: لا يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، ولم يفرق بين العسكر الكبير والصغير. وقال أبو حنيفة: يكره أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، إلا في العسكر العظيم، فإنه لا بأس بذلك»[(٤)].

قال النووي: «قوله: «**نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو**» وفي الرواية الأخرى: «**مخافة أن يناله العدو**»، وفي الرواية الأخرى: «**فإني لا آمن أن يناله العدو**» فيه النهي عن المسافرة بالمصحف إلى أرض الكفار للعلة المذكورة

---

(١) المفهم (٣ / ٦٩٨-٦٩٩).
(٢) فتح البر (١١ / ٥٧).
(٣) الفتح (٦ / ١٦٤-١٦٥).
(٤) فتح البر (١١ / ٥٧-٥٨).

في الحديث، وهي خوف أن ينالوه فينتهكوا حرمته، فإن أمنت هذه العلة بأن يدخل في جيش المسلمين الظاهرين عليهم، فلا كراهة ولا منع منه حينئذ لعدم العلة، هذا هو الصحيح، وبه قال أبو حنيفة والبخاري وآخرون»[١].

قال ابن بطال: «وقد أخبر اللَّه أنه: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾[٢] وهم الملائكة، وقال تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾[٣]، وهم الملائكة أيضًا، ففهم من هذا الندب إلى أن لا يمسه عندنا إلا طاهر، وأن نهيه ﷺ عن السفر به إلى أرض العدو، ليس على وجه التحريم والفرض، وإنما هو على معنى الندب للإكرام للقرآن؛ لأن النبي ﷺ قد كتب إلى قيصر بآية إلى آخرها وهو يعلم أنهم نجس، وعلم أنهم يقرءونها، فصح أن نهيه عن ذلك في حال دون حال، وفي العساكر التي ليست مأمونة»[٤].

قال ابن بطال: «. . لأن بعض الناس زاد في الحديث: **«مخافة أن يناله العدو»**، وجعله من لفظ النبي ﷺ، ولم تصح هذه الزيادة عند مالك ولا عند البخاري، وإنما هي من قول مالك[٥].

قال النووي: «وهذه العلة المذكورة في الحديث هي من كلام النبي ﷺ، وغلط بعض المالكية فزعم أنها من كلام مالك»[٦].

قال القاضي عياض: «وما ذكر مسلم في الروايات الأخر عنه ﷺ: **«إني لا آمن أن يناله العدو»** في الروايات الأخر، من قول النبي ﷺ لا من قول مالك، كما ظنه بعضهم وصححه، وإن كان جاء في الموطأ من رواية يحيى ابن يحيى الأندلسي، ويحيى بن بكير، وجماعة من قول مالك، فيحتمل أنه شك، هل هي من قول النبي ﷺ؟ فجعل بتحريه هذه الزيادة من كلامه على التفسير، وإلا فهي صحيحة من قول النبي ﷺ من رواية الثقات: إسماعيل بن أمية، وليث بن أبي سليمان، والضحاك بن عثمان، وعبد اللَّه العمري، وأيوب وغيرهم. وقد رويت عن مالك متصلة من كلام النبي ﷺ، كرواية غيره من رواية عبد الرحمن بن مهدي، ومن رواية

---

(١) شرح مسلم (١٣ / ١٣).
(٢) عبس: الآيات (١٣-١٦).
(٣) الواقعة: الآية (٧٩).
(٤) شرح ابن بطال (٥ / ١٥٠).
(٥) شرح ابن بطال (٥ / ١٤٩).
(٦) شرح مسلم (١٣/ ١٣).

ابن وهب عنه»[١].

قال ابن عبد البر: «ومعلوم أن من تنزيه القرآن وتعظيمه إبعاده عن الأقذار والنجاسات، وفي كونه عند أهل الكفر تعريض له لذلك وإهانة له؛ وكلهم أنجاس لا يغتسلون من الجنابة، ولا يعافون الميتة»[٢].

قال الكرماني: «فإن قلت: قد كتب رسول اللَّه ﷺ إلى هرقل بالقرآن، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾[٣] فما وجه التوفيق بينه وبين النهي عن المسافرة بالقرآن؟ قلت: النهي إنما هو عن السفر بالكل؛ إذ ذلك المكتوب لم يكن إلا مختلطا من القرآن وغيره»[٤].

قال النووي: «واتفق العلماء على أنه يجوز أن يكتب إليهم كتاب فيه آية أو آيات، والحجة فيه كتاب النبي ﷺ إلى هرقل»[٥].

* * *

(١) الإكمال (٦ / ٢٨٢-٢٨٣).
(٢) فتح البر (١١ / ٥٨).
(٣) آل عمران: الآية (٦٤).
(٤) شرح البخاري (١٣ / ١٠-١١).
(٥) شرح مسلم (١٣ / ١٣).

قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ومن وراء هؤلاء المستهزئين بآيات اللَّه، يعني من بين أيديهم. وقد بينَّا العلة التي من أجلها قيل لما أمامك هو وَرَاءك، فيما مضى بما أغنى عن إعادته؛ يقول: من بين أيديهم نار جهنم هم واردوها، ولا يغنيهم ما كسبوا شيئًا: يقول: ولا يغني عنهم من عذاب جهنم إذا هم عُذّبوا به ما كسبوا في الدنيا، من مال وولد شيئا.

وقوله: ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ يقول: ولا آلهتهم التي عبدوها من دون اللَّه، ورؤساؤهم، وهم الذين أطاعوهم في الكفر باللَّه، واتخذوهم نُصراء في الدنيا، تغني عنهم يومئذ من عذاب جهنم شيئا، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يقول: ولهم من اللَّه يومئذ عذاب في جهنم عظيم»[1].

قال ابن كثير: «ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة، ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون اللَّه شيئًا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾»[2].

وقال السعدي: «ثم قسم تعالى الناس بالنسبة إلى الانتفاع بآياته وعدمه إلى قسمين: قسم يستدلون بها ويتفكرون بها، وينتفعون فيرتفعون، وهم المؤمنون باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، إيمانا تاما وصل بهم إلى درجة اليقين، فزكى منهم العقول، وازدادت به معارفهم وألبابهم وعلومهم.

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٤٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٥٠).

وقسم يسمع آيات اللّه سماعا تقوم به الحجة عليه، ثم يعرض عنها ويستكبر، كأنه ما سمعها لأنها لم تزك قلبه ولا طهرته؛ بل بسبب استكباره عنها ازداد طغيانه، وأنه إذا علم من آيات اللّه شيئا اتخذها هزوا، فتوعده اللّه تعالى بالويل فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾ أي: كذاب في مقاله، أثيم في فعاله.

وأخبر أن له عذابا أليما، وأن ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ تكفي في عقوبتهم البليغة، وأنه ﴿لَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا﴾ من الأموال ﴿شَيْـًٔا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ يستنصرون بهم، فخذلوهم أحوج ما كانوا إليهم لو نفعوا»[1].

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ قد قدمنا الآيات الموضحة له مع الشواهد العربية في سورة إبراهيم في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥ مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ﴾[2] الآية. وبينا هناك أن أصح الوجهين أن وراء بمعنى أمام. فمعنى ﴿مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي: أمامه جهنم يصلاها يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[3]؛ أي: أمامهم ملك. وذكر هناك الشواهد العربية على إطلاق وراء بمعنى أمام، وبينا أن هذا هو التحقيق في معنى الآية، وكذلك آية الجاثية هذه، فقوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: أمامهم جهنم يصلونها يوم القيامة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْـًٔا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾، أوضح فيه أن ما كسبه الكفار في دار الدنيا من الأموال والأولاد لا يغنى عنهم شيئًا يوم القيامة؛ أي: لا ينفعهم بشيء، فلا يجلب لهم بسببه نفع، ولا يدفع عنهم بسببه ضر، وإنما اتخذوه من الأولياء في دار الدنيا من دون اللّه، كالمعبودات التي كانوا يعبدونها، ويزعمون أنها شركاء لله، لا ينفعهم يوم القيامة أيضًا بشيء.

وهاتان المسألتان اللتان تضمنتهما هذه الآية الكريمة، قد أوضحهما اللّه في آيات كثرة من كتابه.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٨-١٩).

(٢) إبراهيم: الآيتان (١٥-١٦).

(٣) الكهف: الآية (٧٩).

أما الأولى منهما: وهي كونهم لا يغني عنهم ما كسبوا شيئًا، فقد أوضحها في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤﴾[٣] الآية، وقوله تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٥٠﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ۝٢٨﴾[٥] الآية، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[٦]، وقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾[٨] الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝١٠﴾[٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١٦﴾[١٠]، وقوله تعالى في المجادلة: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٦ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ﴾[١١] الآية، والآيات بمثل هذا كثيرة جدًّا، وقد قدمنا كثيرًا منها في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك.

وأما الثانية منهما، وهي كونهم لا تنفعهم المعبودات، التي اتخذوها أولياء من دون الله؛ فقد أوضحها تعالى في آيات كثيرة، كقوله تعالى في هود: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝١٠١﴾[١٢]، وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٢٨﴾[١٣]، وقوله

(١) المسد: الآيتان (١-٢).
(٢) الليل: الآية (١١).
(٣) الهمزة: الآيات (٢-٤).
(٤) الزمر: الآية (٥٠).
(٥) الحاقة: الآيتان (٢٧-٢٨).
(٦) الأعراف: الآية (٤٨).
(٧) الشعراء: الآيتان (٨٧-٨٨).
(٨) سبأ: الآية (٣٧).
(٩) آل عمران: الآية (١٠).
(١٠) آل عمران: الآية (١١٦).
(١١) المجادلة: الآيتان (١٦-١٧).
(١٢) هود: الآية (١٠١).
(١٣) الأحقاف: الآية (٢٨).

تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾[3] الآية وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾[6].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ﴾، الأولياء جمع ولي، والمراد بالأولياء هنا: المعبودات التي يوالونها بالعبادة من دون الله»[7].

* * *

(١) القصص: الآية (٦٤).

(٢) الكهف: الآية (٥٢).

(٣) الأحقاف: الآيتان (٥-٦).

(٤) فاطر: الآيتان (١٣-١٤).

(٥) مريم: الآيتان (٨١-٨٢).

(٦) العنكبوت: الآية (٢٥).

(٧) أضواء البيان (٧ / ٣٤٤-٣٤٧).

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: هذا القرآن الذي أنزلناه على محمد هدى، يقول: بيان ودليل على الحقّ، يهدي إلى صراط مستقيم من اتبعه وعمل بما فيه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ يقول: والذين جحدوا ما في القرآن من الآيات الدالات على الحقّ، ولم يصدقوا بها، ويعملوا بها، لهم عذاب أليم يوم القيامة موجع»[١].

قال السعدي: «لما بين آياته القرآنية والعيانية، وأن الناس فيها على قسمين؛ أخبر أن القرآن المشتمل على هذه المطالب العالية أنه هدى فقال: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾، وهو وصف عام لجميع القرآن، فإنه يهدي إلى معرفة اللّه تعالى بصفاته المقدسة، وأفعاله الحميدة، ويهدي إلى معرفة رسله وأوليائهم وأعدائهم وأوصافهم، ويهدي إلى الأعمال الصالحة ويدعو إليها، ويبين الأعمال السيئة وينهى عنها، ويهدي إلى بيان الجزاء على الأعمال، ويبين الجزاء الدنيوي والأخروي، فالمهتدون اهتدوا به فأفلحوا وسعدوا، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الواضحة القاطعة، التي لا يكفر بها إلا من اشتد ظلمه وتضاعف طغيانه، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾»[٢].

وقال الشنقيطي: «الإشارة في قوله: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ راجعة للقرآن العظيم، المعبر عنه بآيات اللّه في قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾[٣]، وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ﴾[٤] الآية، وقوله: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾[٥]، وقوله: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا﴾[٦].

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٤٣).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٢٠).
(٣) البقرة: الآية (٢٥٢).
(٤) الجاثية: الآية (٦).
(٥) الجاثية: الآية (٨).
(٦) الجاثية: الآية (٩).

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن هذا القرآن هدى، وأن من كفر بآياته له العذاب الأليم، جاء موضحًا في غير هذا الموضع.

أما كون القرآن هدى؛ فقد ذكره تعالى في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾[1]، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[4]، وقوله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[6]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وأما كون من كفر بالقرآن يحصل له بسبب ذلك العذاب الأليم؛ فقد جاء موضحًا في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾[7] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾[9]، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.

وقد قدمنا في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾[10] الآية، وغير ذلك من المواضع أن الهدى يطلق في القرآن إطلاقًا عامًا، بمعنى: أن الهدى هو البيان والإرشاد وإيضاح الحق، كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي: بينا لهم الحق وأوضحناه وأرشدناهم إليه وإن لم يتبعوه، وكقوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾، وقوله هنا: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾، وأنه يطلق أيضًا في القرآن بمعناه الخاص، وهو التفضل بالتوفيق إلى طريق الحق والاصطفاء، كقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾[11]، وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[12]، إلى غير

---

(١) الأعراف: الآية (٥٢).
(٢) النحل: الآية (٨٩).
(٣) الإسراء: الآية (٩).
(٤) البقرة: الآية (١٨٥).
(٥) البقرة: الآيتان (١-٢).
(٦) فصلت: الآية (٤٤).
(٧) هود: الآية (١٧).
(٨) طه: الآيات (٩٩-١٠١).
(٩) الكهف: الآية (١٠٦).
(١٠) فصلت: الآية (١٧).
(١١) محمد: الآية (١٧).
(١٢) الأنعام: الآية (٩٠).

ذلك من الآيات.

وقد أوضحنا في سورة فصلت أن معرفة إطلاقي الهدى المذكورين، يزول بها الإشكال الواقع في آيات من كتاب اللّٰه.

والهدى: مصدر هداه على غير قياس، وهو هنا من جنس النعت بالمصدر، وبينا فيما مضى مرارًا أن تنزيل المصدر منزلة الوصف إما على حذف مضاف، وإما على المبالغة. وعلى الأول فالمعنى هذا القرآن ذو هدى؛ أي: يحصل بسببه الهدى لمن اتبعه كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ .

وعلى الثاني فالمعنى أن المراد المبالغة في اتصاف القرآن بالهدى، حتى أطلق عليه أنه هو نفس الهدى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أصح القولين فيه أن المراد بالرجز العذاب، ولا تكرار في الآية؛ لأن العذاب أنواع متفاوتة، والمعنى: لهم عذاب من جنس العذاب الأليم، والأليم: معناه المؤلم؛ أي: الموصوف بشدة الألم وفظاعته.

والتحقيق إن شاء الله: أن العرب تطلق الفعيل وصفًا بمعنى المفعل، فما يذكر عن الأصمعي من أنه أنكر ذلك إن صح عنه فهو غلط منه؛ لأن إطلاق الفعيل بمعنى المفعل معروف في القرآن العظيم وفي كلام العرب، ومن إطلاقه في القرآن العظيم قوله تعالى: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1] أي: مؤلم، وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2]؛ أي: مبدعهما، وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾[3] الآية؛ أي: منذر لكم، ونظير ذلك من كلام العرب قول عمرو بن معد يكرب:

أمن ريحانة الداعي السميع ... يؤرقني وأصحابي هجوع

فقوله (الداعي السميع) يعني: الداعي المسمع. وقوله أيضًا:

وخيل قد دلفت لها بخيل ... تحية بينهم ضرب وجيع

أي: موجع»[4].

---

(١) البقرة: الآية (١٠).
(٢) البقرة: الآية (١١٧).
(٣) سبأ: الآية (٤٦).
(٤) أضواء البيان (٧/ ٣٤٨-٣٥٠).

قوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: اللَّه أيها القوم، الذي لا تنبغي الألوهة إلا له، الذي أنعم عليكم هذه النعم، التي بيَّنها لكم في هذه الآيات، وهو أنه ﴿سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ﴾ السفن ﴿فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ لمعايشكم وتصرّفكم في البلاد لطلب فضله فيها، ولتشكروا ربكم على تسخيره ذلك لكم فتعبدوه وتطيعوه فيما يأمركم به، وينهاكم عنه»[1].

قال ابن كثير: «يذكر تعالى نعمه على عبيده فيما سخر لهم من البحر ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾، وهي السفن فيه بأمره تعالى، فإنه هو الذي أمر البحر أن يحملها ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: في المتاجر والمكاسب، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: على حصول المنافع المجلوبة إليكم من الأقاليم النائية، والآفاق القاصية»[2].

وقد تقدمت الآيات الموضحة لهذه الآية الكريمة في سورة النحل الآية (١٤) وفي سورة الزخرف الآية (١٢-١٣).

* * *

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٤٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٥٠).

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من شمس وقمر ونجوم ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من دابة وشجر، وجبل وجماد وسفن، لمنافعكم ومصالحكم ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾، يقول -تعالى ذكره-: جميع ما ذكرت لكم أيها الناس من هذه النعم، نعم عليكم من اللَّه أنعم بها عليكم، وفضل منه تفضّل به عليكم، فإياه فاحمدوا لا غيره؛ لأنه لم يشركه في إنعام هذه النعم عليكم شريك؛ بل تفرّد بإنعامها عليكم وجميعها منه، ومن نعمه فلا تجعلوا له في شكركم له شريكا؛ بل أفردوه بالشكر والعبادة، وأخلصوا له الألوهة، فإنه لا إله لكم سواه. .

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن في تسخير اللَّه لكم ما أنبأكم أيها الناس أنه سخره لكم في هاتين الآيتين ﴿لَآيَٰتٍ﴾ يقول: لعلامات ودلالات على أنه لا إله لكم غيره، الذي أنعم عليكم هذه النعم، وسخر لكم هذه الأشياء التي لا يقدر على تسخيرها غيره، لقوم يتفكرون في آيات اللَّه وحججه وأدلته، فيعتبرون بها ويتعظون إذا تدبروها، وفكَّروا فيها»[١].

وقال ابن كثير: «ثم قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: من الكواكب والجبال، والبحار والأنهار، وجميع ما تنتفعون به؛ أي: الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه؛ ولهذا قال: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي: من عنده وحده لا شريك له في ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾[٢]»[٣].

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٤٣-١٤٤).

(٢) النحل: الآية (٥٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٥١).

قال السعدي: «وهذا شامل لأجرام السماوات والأرض، ولما أودع الله فيهما من الشمس والقمر والكواكب والثوابت والسيارات، وأنواع الحيوانات وأصناف الأشجار والثمرات، وأجناس المعادن وغير ذلك مما هو معد لمصالح بني آدم، ومصالح ما هو من ضروراته، فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته، وأن تتغلغل أفكارهم في تدبر آياته وحكمه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وجملة ذلك أن خلقها وتدبيرها وتسخيرها دال على نفوذ مشيئة الله وكمال قدرته، وما فيها من الإحكام والإتقان، وبديع الصنعة وحسن الخلقة دال على كمال حكمته وعلمه، وما فيها من السعة والعظمة والكثرة، دال على سعة ملكه وسلطانه، وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات دليل على أنه الفعال لما يريد، وما فيها من المنافع والمصالح الدينية والدنيوية دليل على سعة رحمته، وشمول فضله وإحسانه، وبديع لطفه وبره، وكل ذلك دال على أنه وحده المألوه المعبود، الذي لا تنبغي العبادة والذل والمحبة إلا له، وأن رسله صادقون فيما جاءوا به، فهذه أدلة عقلية واضحة لا تقبل ريبًا ولا شكًا»[1].

* * *

---

(١) تيسر الكريم الرحمن (٧ / ٢١-٢٢).

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد للذين صدّقوا اللَّه واتبعوك، يغفروا للذين لا يخافون بأس اللَّه ووقائعه ونقمه، إذا هم نالوهم بالأذى والمكروه ﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ يقول: ليجزي اللَّه هؤلاء الذين يؤذونهم من المشركين في الآخرة، فيصيبهم عذابه بما كانوا في الدنيا يكسبون من الإثم، ثم بأذاهم أهل الإيمان باللَّه.. وهذه الآية منسوخة بأمر اللَّه بقتال المشركين، وإنما قلنا: هي منسوخة؛ لإجماع أهل التأويل على أن ذلك كذلك»[١].

وقال ابن كثير: «أي: يصفحوا عنهم ويحملوا الأذى منهم. وهذا كان في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك لتأليف قلوبهم، ثم لما أصروا على العناد شرع اللَّه للمؤمنين الجلاد والجهاد. هكذا روي عن ابن عباس، وقتادة. وقال مجاهد في قوله: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ لا يبالون نعم اللَّه.

وقوله: ﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي: إذا صفحوا عنهم في الدنيا، فإن اللَّه مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة»[٢].

قال السعدي: «يأمر تعالى عباده المؤمنين بحسن الخلق والصبر على أذية المشركين به، الذين لا يرجون أيام اللَّه؛ أي: لا يرجون ثوابه ولا يخافون وقائعه في العاصين، فإنه تعالى سيجزي كل قوم بما كانوا يكسبون. فأنتم يا معشر المؤمنين يجزيكم على إيمانكم وصفحكم وصبركم، ثوابا جزيلا، وهم إن استمروا على تكذيبهم فلا يحل بكم ما حل بهم من العذاب الشديد والخزي»[٣].

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٤٤). (٢) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٥١).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٢٣).

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: من عمل من عباد اللَّه بطاعته فانتهى إلى أمره، وانزجر لنهيه، فلنفسه عمل ذلك الصالح من العمل، وطلب خلاصها من عذاب اللَّه، أطاع ربه لا لغير ذلك؛ لأنه لا ينفع ذلك غيره، واللَّه عن عمل كل عامل غنيّ ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾، يقول: ومن أساء عمله في الدنيا بمعصيته فيها ربه، وخلافه فيها أمره ونهيه، فعلى نفسه جنى؛ لأنه أوبقها بذلك، وأكسبها به سخطه، ولم يضرّ أحدا سوى نفسه. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾، يقول: ثم أنتم أيها الناس أجمعون إلى ربكم تصيرون من بعد مماتكم، فيجازي المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته، فمن ورد عليه منكم بعمل صالح، جوزي من الثواب صالحا، ومن ورد عليه منكم بعمل سيئ، جوزي من الثواب سيئا»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٤٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ يا محمد ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التوراة والإنجيل، ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ يعني الفهم بالكتاب، والعلم بالسنن التي لم تنزل في الكتاب، ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ يقول: وجعلنا منهم أنبياء ورسُلا إلى الخلق، ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يقول: وأطعمناهم من طيبات أرزاقنا، وذلك ما أطعمهم من المنّ والسلوى ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول: وفضلناهم على عالمي أهل زمانهم في أيام فرعون وعهده في ناحيتهم بمصر والشام»[1].

قال ابن كثير: «يذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل من إنزال الكتب عليهم، وإرسال الرسل إليهم، وجعله الملك فيهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: من المآكل والمشارب، ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: في زمانهم»[2].

وقال السعدي: «ولقد أنعمنا على بني إسرائيل نعما لم تحصل لغيرهم من الناس، وآتيناهم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: التوراة والإنجيل ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ بين الناس ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ التي امتازوا بها وصارت النبوة في ذرية إبراهيم ﷺ، أكثرهم من بني إسرائيل، ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من المآكل والمشارب والملابس، وإنزال المن والسلوى عليهم ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: على الخلق بهذه النعم، ويخرج من هذا العموم اللفظي هذه الأمة، فإنهم خير أمة أخرجت للناس.

والسياق يدل على أن المراد غير هذه الأمة، فإن اللّه يقص علينا ما امتن به على بني إسرائيل وميزهم عن غيرهم، وأيضًا فإن الفضائل التي فاق بها بنو إسرائيل من

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٤٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٥٢).

الكتاب والحكم والنبوة وغيرها من النعوت قد حصلت كلها لهذه الأمة، وزادت عليهم هذه الأمة فضائل كثيرة، فهذه الشريعة شريعة بني إسرائيل جزء منها، فإن هذا الكتاب مهيمن على سائر الكتب السابقة، ومحمد ﷺ مصدق لجميع المرسلين»[1].

وقال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه فضل بني إسرائيل على العالمين، وذكر هذا المعنى في موضع آخر من كتابه، كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٧﴾[2] في الموضعين، وقوله في الدخان: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٢﴾[3]، وقوله في الأعراف: ﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٤٠﴾[4].

ولكن اللَّه -جل وعلا- بين أن أمة محمد ﷺ خير من بني إسرائيل وأكرم على اللَّه، كما صرح بذلك في قوله: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾[5] الآية. فخير صيغة تفضيل، والآية نص صريح في أنهم خير من جميع الأمم، بني إسرائيل وغيرهم.

ومما يزيد ذلك إيضاحًا حديث معاوية بن حيدة القشيري ﷺ أن النبي ﷺ قال في أمته: «**أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله**»[6] وقد رواه عنه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم وهو حديث مشهور. وقال ابن كثير: حسنه الترمذي، ويروى من حديث معاذ بن جبل وأبي سعيد نحوه.

قال مقيده عفا اللَّه عنه وغفر له: ولا شك في صحة معنى حديث معاوية بن حيدة المذكور رضي اللَّه عنه؛ لأنه يشهد له النص المعصوم المتواتر في قوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾، وقد قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[7]، وقوله: ﴿وَسَطٗا﴾ أي: خيارًا عدولًا.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٢٣-٢٤) وانظر تفسير أبي السعود (٨ / ٧١).

(٢) البقرة: الآية (٤٧). (٣) الدخان: الآية (٣٢).

(٤) الأعراف: الآية (١٤٠). (٥) آل عمران: الآية (١١٠).

(٦) أخرجه أحمد (٤ / ٤٤٦-٤٤٧)، والنسائي في الكبرى (٦ / ٤٣٩ / ١١٤٣١)، والترمذي (٥ / ١١ / ٣٠٠١) وحسنه، وابن ماجه (٢ / ١٤٣٣ / ٤٢٨٧) والحاكم (٤ / ٨٤ / ٦٩٨٧) وصححه ووافقه الذهبي.

(٧) البقرة: الآية (١٤٣).

واعلم أن ما ذكرنا من كون أمة محمد ﷺ أفضل من بني إسرائيل، كما دلت عليه الآية والحديث المذكوران وغيرهما من الأدلة، لا يعارض الآيات المذكورات آنفًا في تفضيل بني إسرائيل؛ لأن ذلك التفضيل الوارد في بني إسرائيل ذكر فيهم حال عدم وجود أمة محمد ﷺ، والمعدوم في حال عدمه ليس بشيء حتى يفضل أو يفضل عليه، ولكنه تعالى بعد وجود أمة محمد ﷺ صرح بأنها هي خير الأمم، وهذا واضح؛ لأن كل ما جاء في القرآن من تفضيل بني إسرائيل، إنما يراد به ذكر أحوال سابقة؛ لأنهم في وقت نزول القرآن كفروا به وكذبوا كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[١].

ومعلوم أن اللَّه لم يذكر لهم في القرآن فضلًا إلا ما يراد به أنه كان في زمنهم السابق، لا في وقت نزول القرآن. ومعلوم أن أمة محمد ﷺ لم تكن موجودة في ذلك الزمن السابق الذي هو ظرف تفضيل بني إسرائيل، وأنها بعد وجودها، صرح اللَّه بأنها هي خير الأمم كما أوضحنا، والعلم عند اللَّه تعالى»[٢].

* * *

(١) البقرة: الآية (٨٩).

(٢) أضواء البيان (٧ / ٣٥١-٣٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وأعطينا بني إسرائيل واضحات من أمرنا، بتنزيلنا إليهم التوراة فيها تفصيل كل شيء ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ طلبا للرياسات، وتركا منهم لبيان الله -تبارك وتعالى- في تنزيله.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: إن ربك يا محمد يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل بغيا بينهم يوم القيامة، فيما كانوا فيه في الدنيا يختلفون بعد العلم الذي آتاهم، والبيان الذي جاءهم منه، فيفلج المحقّ حينئذ على المبطل بفصل الحكم بينهم»[1].

وقال ابن كثير: «﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: حججا وبراهين وأدلة قاطعات، فقامت عليهم الحجج، ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة، وإنما كان ذلك بغيا منهم على بعضهم بعضا، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: سيفصل بينهم بحكمه العدل، وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم»[2].

وقال ابن عاشور: «وفُرع على ذلك قولُه: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ تفريعَ إدماج لمناسبته للحالة التي أريد تنظيرها، وتقدير الكلام: فاختلفوا، وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم، فحذف المفرَّع لدلالة ما بعده عليه على طريقة الإيجاز؛ إذ المقصود هو التعجيب من حالهم كيف اختلفوا حينَ لا مظنة

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٤٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٥٢-٢٥٣).

للاختلاف؛ إذ كان الاختلاف بينهم بعدما جاءهم العلم المعهود بالذكر آنفًا، من الكتاب والحُكم والنبوءة والبينات من الأمر، ولو اختلفوا قبل ذلك لكان لهم عذر في الاختلاف، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[1]. وهذا الكلام كناية عن عدم التعجيب من اختلاف المشركين مع المؤمنين، حيث إن المشركين ليسوا على علم ولا هدى ليعلم رسول اللَّه ﷺ أنه ملطوف به في رسالته.

والبغي: الظلم. والمراد: أن اختلافهم عن عمد ومكابرة بعضهم لبعض، وليس عن غفلة أو تأويل، وهذا الظلم هو ظلم الحسد، فإن الحسد من أعظم الظلم؛ أي: فكذلك حال نظرائهم من المشركين، ما اختلفوا على النبي ﷺ إلا بغيًا منهم عليه، مع علمهم بصدقه بدلالة إعجاز القرآن لفظًا ومعاني.

وانتصب بغيًا إمّا على المفعول لأجله، وإمّا على الحال بتأويل المصدر باسم الفاعل، وعلى كلا الوجهين فالعامل فيه فعل: ﴿ٱخْتَلَفُوٓا۟﴾، وإن كان منفيًا في اللفظ لأن الاستثناء أبطل النفي؛ إذ ما أريد إلا نفي أن يكون الاختلاف في وقت قبل أن يحثهم العلم، فلما استفيد ذلك بالاستثناء صار الاختلاف ثابتًا، وما عدا ذلك غير منفي.

وجملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مستأنفة استئنافًا بيانيًا، لأن خبرَهم العجيب يثير سؤالًا في نفس سامعه عن جزاء اللَّه إياهم على فعلهم، وهذا جواب فيه إجمال لتهويل ما سيُقضَى به بينهم في الخير والشر، لأن الخلاف يقتضي محقًّا ومبطلًا.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾[2]»[3].

وقال السعدي: «﴿وَءَاتَيْنَـٰهُم﴾ أي: آتينا بني إسرائيل ﴿بَيِّنَـٰتٍ﴾ أي: دلالات تبين الحق من الباطل ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ القدري الذي أوصله اللَّه إليهم. وتلك الآيات هي المعجزات التي رأوها على يد موسى ﵇، فهذه النعم التي أنعم اللَّه بها على

---

(١) الجاثية: الآية (٢٣).

(٢) يونس: الآية (٩٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣٤٦-٣٤٧).

بني إسرائيل، تقتضي الحال أن يقوموا بها على أكمل الوجوه، وأن يجتمعوا على الحق الذي بينه اللّٰه لهم، ولكن انعكس الأمر فعاملوها بعكس ما يجب.

وافترقوا فيما أمروا بالاجتماع به ولهذا قال: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: الموجب لعدم الاختلاف، وإنما حملهم على الاختلاف البغي من بعضهم على بعض والظلم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز المحق من المبطل، والذي حمله على الاختلاف الهوى أو غيره»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٢٤-٢٥).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ثم جعلناك يا محمد من بعد الذي آتينا بني إسرائيل، الذين وصفت لك صفتهم ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ يقول: على طريقة وسنة ومنهاج من أمرنا الذي أمرنا به من قبلك من رسلنا ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ يقول: فاتبع تلك الشريعة التي جعلناها لك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول: ولا تتبع ما دعاك إليه الجاهلون بالله، الذين لا يعرفون الحقّ من الباطل، فتعمل به، فتهلك إن عملت به. .

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن هؤلاء الجاهلين بربهم، الذين يدعونك يا محمد إلى اتباع أهوائهم، لن يغنوا عنك إن أنت اتبعت أهواءهم، وخالفت شريعة ربك التي شرعها لك من عقاب الله شيئا، فيدفعوه عنك إن هو عاقبك، وينقذوك منه.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يقول: وإن الظالمين بعضهم أنصار بعض، وأعوانهم على الإيمان بالله وأهل طاعته ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: والله يلي من اتقاه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه بكفايته، ودفاع من أراده بسوء، يقول -جل ثناؤه- لنبيه عليه الصلاة والسلام فكن من المتقين، يكفك الله ما بغاك وكادك به هؤلاء المشركون، فإنه وليّ من اتقاه، ولا يعظم عليك خلاف من خالف أمره وإن كثر عددهم، لأنهم لن يضرّوك ما كان الله وليك وناصرك»[1].

وقال ابن كثير: «﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ أي: اتبع ما أوحي

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٤٦-١٤٧).

إليك من ربك لا إله إلا هو، وأعرض عن المشركين، وقال هاهنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ﴾ أي: وماذا تغني عنهم ولايتهم لبعضهم بعضا، فإنهم لا يزيدونهم إلا خسارا ودمارا وهلاكا، ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات»[١].

وقال ابن عاشور: «ثم للتراخي الرتبي كما هو شأنها في عطف الجمل، ولولا إرادة التراخي الرتبي لكانت الجملة معطوفة بالواو، وهذا التراخي يفيد أن مضمون الجملة المعطوفة بحرف ثم، أهم من مضمون الجملة المعطوفِ عليها أهمية الغرض على المقدمة والنتيجةِ على الدليل، وفي هذا التراخي تنويه بهذا الجعل، وإشارة إلى أنه أفضل من إيتاء بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوءة والبّيناتِ من الأمر، فنبوءة محمد ﷺ وكتابُه وحُكمه وبَيناته أفضل وأهدى مما أوتيه بنو إسرائيل من مثل ذلك..

وقد بلغت هذه الجملة من الإيجاز مبلغًا عظيمًا؛ إذ أفادت أن شريعة الإسلام أفضل من شريعة موسى، وأنها شريعة عظيمة، وأن الرسول ﷺ متمكن منها لا يزعزعه شيء عن الدَأب في بيانها والدعوة إليها، ولذلك فرع عليه أمره باتباعها بقوله: ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾ أي دُم على اتباعها، فالأمر لطلب الدوام مثل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[٢].

وبين قوله: ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ محسِّن المطابقة بين الأمر بالاتباع والنهي عن اتباع آخر. و﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هم المشركون وأهواؤهم دين الشرك قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[٣].

والأهواء: جمع هوى، وهو المحبة والميل. والمعنى: أن دينهم أعمال أحبوها لم يأمر اللَّه بها ولا اقتضتها البراهين. والخطاب للنبي ﷺ والمقصود منه: إسماع المشركين لئلا يطمعوا بمصانعة الرسول ﷺ إيَّاهم حين يرون منه الإغضاء

(١) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٥٢).
(٢) النساء: الآية (١٣٦).
(٣) الجاثية: الآية (٢٣).

عن هفواتهم وأذاهم، وحِينَ يسمعون في القرآن بالصفح عنهم كما في الآية السالفة ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾[١]. وفيه أيضًا تعريض للمسلمين بأن يحذروا من أهواء الذين لا يعلمون..

وجملة ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ تعليل للنهي عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، ويتضمن تعليلَ الأمر باتباع شريعة اللَّه، فإن كونهم لا يغنون عنه من اللَّه شيئًا؛ يستلزم أن في مخالفة ما أمر اللَّه من اتباع شريعته ما يوقع في غضب اللَّه وعقابه، فلا يغني عنه اتباع أهوائهم من عقابه..

وعُطف على هذا التعليل تعليل آخر، وهو ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: إنهم ظالمون وأنت لست من الظالمين في شيء، فلا يجوز أن تتبعهم في شيء، وإنما يتبعهم من هم أولياؤهم. وذُيل ذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وهو يفيد أن النبي ﷺ اللَّه وليُّه؛ لأن النبي ﷺ أول المتقين»[٢].

قال الشنقيطي: «نهى اللَّه -جل وعلا- نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون.

وقد قدمنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾[٣] أنه -جل وعلا- يأمر نبيه محمدًا ﷺ وينهاه، ليشرع بذلك الأمر والنهي لأمته، كقوله هنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ومعلوم أنه ﷺ لا يتبع أهواء الذين لا يعلمون، ولكن النهي المذكور فيه التشريع لأمته كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾[٥]، وقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾[٦]. وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾[٧]، وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[٨] والآيات بمثل ذلك كثيرة. وقد بينا الأدلة القرآنية على أنه ﷺ يخاطب، والمراد به التشريع لأمته في آية بني إسرائيل المذكورة.

---

(١) الجاثية: الآية (١٤).
(٢) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣٤٧-٣٤٨).
(٣) الإسراء: الآية (٢٢).
(٤) الإنسان: الآية (٢٤).
(٥) القلم: الآية (٨).
(٦) القلم: الآية (١٠).
(٧) الإسراء: الآية (٣٩).
(٨) الزمر: الآية (٦٥).

وما تضمنته آية الجاثية هذه، من النهي عن اتباع أهوائهم جاء موضحًا في آيات كثيرة، كقوله تعالى في الشورى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ﴾[١]، وقوله تعالى في الأنعام: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[٢]، وقوله تعالى في القصص: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥٠﴾[٣]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة. وقد بين تعالى في ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾[٤] أن الحق لو اتبع أهواءهم لفسد العالم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[٥]..

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، قد قدمنا في هذا الكتاب المبارك مرارًا أن الظلم في لغة العرب أصله وضع الشيء في غير موضعه، وأن أعظم أنواعه الشرك بالله؛ لأن وضع العبادة في غير من خلق ورزق هو أشنع أنواع وضع الشيء في غير موضعه، ولذا كثر في القرآن العظيم إطلاق الظلم بمعنى الشرك، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝١٠٦﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧﴾[٨]، وقوله تعالى عن لقمان: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٩]، وقد ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ فسر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[١٠]. «بأن معناه ولم يلبسوا إيمانهم بشرك»[١١].

---

(١) الشورى: الآية (١٥).
(٢) الأنعام: الآية (١٥٠).
(٣) القصص: الآية (٥٠).
(٤) المؤمنون: الآية (١).
(٥) المؤمنون: الآية (٧١).
(٦) البقرة: الآية (٢٥٤).
(٧) يونس: الآية (١٠٦).
(٨) الفرقان: الآية (٢٧).
(٩) لقمان: الآية (١٣).
(١٠) الأنعام: الآية (٨٢).
(١١) الحديث أخرجه أحمد (١ / ٣٧٨)، البخاري (٨ / ٣٧٣ / ٤٦٢٩)، مسلم (١ / ١١٤-١١٥ / ١٢٤)، الترمذي (٥ / ٢٤٥ / ٣٠٦٧). والنسائي في الكبرى (٦ / ٣٤١ / ١١١٦٦)، ولفظه: عن عبد الله قال: لما نزلت هذه: الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾، شق ذلك على الناس، وقالوا: يا رسول الله، فأينا لا يظلم نفسه؟ قال: (إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إنما هو الشرك»..

وما تضمنته آية الجاثية هذه من أن الظالمين بعضهم أولياء بعض، جاء مذكورًا في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في آخر الأنفال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[٤] الآية، وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾[٥] الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾[٦]، وقوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾[٧] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾، ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه ولي المتقين، وهم الذين يمتثلون أمره ويجتنبون نهيه، وذكر في موضع آخر أن المتقين أولياؤه، فهو وليهم وهم أولياؤه؛ لأنهم يوالونه بالطاعة والإيمان، وهو يواليهم بالرحمة والجزاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾[٨]، ثم بين المراد بأوليائه في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾[٩]، فقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ كقوله في آية الجاثية هذه: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ .

وقد بين تعالى في آيات من كتابه أنه ولي المؤمنين، وأنهم أولياؤه كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾[١٠] الآية، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾[١١] الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾[١٢]، وقوله تعالى في الملائكة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾[١٣] الآية»[١٤].

---

(١) الأنفال: الآية (٧٣).
(٢) الأنعام: الآية (١٢٩).
(٣) البقرة: الآية (٢٥٧).
(٤) الأعراف: الآية (٣٠).
(٥) النساء: الآية (٧٦).
(٦) آل عمران: الآية (١٧٥).
(٧) النحل: الآية (١٠٠).
(٨) يونس: الآية (٦٢).
(٩) يونس: الآية (٦٣).
(١٠) المائدة: الآية (٥٥).
(١١) محمد: الآية (١١).
(١٢) الأعراف: الآية (١٩٦).
(١٣) سبأ: الآية (٤١).
(١٤) أضواء البيان (٧/ ٣٥٣-٣٥٦).

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٢٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: هَذَا الكتاب الذي أنزلناه إليك يا محمد ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ يُبْصِرُون به الحقّ من الباطل، ويعرفون به سبيل الرشاد، والبصائر: جمع بصيرة.. وقوله: ﴿وَهُدًى﴾ يقول: ورشاد ﴿وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ بحقيقة صحة هذا القرآن، وأنه تنزيل من الله العزيز الحكيم. وخصّ -جل ثناؤه- الموقنين بأنه لهم بصائر وهدى ورحمة، لأنهم الذين انتفعوا به دون من كذب به من أهل الكفر، فكان عليه عمى وله حزنًا»[1].

وقال السعدي: «أي: هَذَا القرآن الكريم والذكر الحكيم ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ أي: تحصل به التبصرة في جميع الأمور للناس فيحصل به الانتفاع للمؤمنين.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فيهتدون به إلى الصراط المستقيم في أصول الدين وفروعه، ويحصل به الخير والسرور والسعادة في الدنيا والآخرة وهي الرحمة، فتزكو به نفوسهم، وتزداد به عقولهم، ويزيد به إيمانهم ويقينهم، وتقوم به الحجة على من أصر وعاند»[2].

قال ابن عاشور: «إن كانت الإشارة إلى الكلام المتقدم، وما فيه من ضرب المثل بموسى وقومه، ومن تفضيل شريعة محمد على شريعة موسى عليهما الصلاة والسلام، والأمر بملازمة اتباعها، والتحذير من اتباع رغائب الذين لا يعلمون، فهذه الجملة بمنزلة التذييل لما قبلها، والتهيئةِ لأغراضها، تنبيهًا لما في طيها من عواصمَ عن الشك والباطل، بمنزلة قوله تعالى بعد عدة آيات في آخر سورة الأحقاف ﴿بَلَٰغٌ﴾[3]، وقوله في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٤٧-١٤٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٢٦).

(٣) الأحقاف: الآية (٣٥).

ﵟٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦ﵞ[١]، وإن كانت الإشارة إلى القرآن إذ هو حاضر في الأذهان؛ كانت الجملة استئنافًا أعيد بها التنويه بشأن القرآن ومتبعيه، والتعريضُ بتحميق الذين أعرضوا عنه، وتكون مفيدة تأكيد قوله آنفًا: ﵟهَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ١١ﵞ[٢]، وتكون الجملة المتقدمة صريحة في وعيد الذين كفروا بآياته، وهذه تعريضًا بأنهم لم يَحْظَواْ بهذه البصائر، وكلا الاحتمالين رشيق، وكل بأن يكون مقصودًا حقيق..

وإنما كان هدى لأنه طريق نفع لمن اتبع إرشاده، فاتباعه كالاهتداء للطريق الموصلة إلى المقصود، وإنّما كان رحمة لأن في اتباع هديه نجاح الناس أفرادًا وجَماعاتٍ في الدنيا؛ لأنه نظام مجتمعهم ومناط أمنهم، وفي الآخرة لأنه سبب نوالهم درجات النعيم الأبدي، وكان بصائر لأنه يبين للناس الخير والشر، ويحَرضهم على الخير ويحذرهم من الشر، ويعدهم على فعل الخير، ويوعدهم على فعل الشرور، فعمله عمل البصيرة.

وجُعل البصائر للناس لأنه بيان للناس عامة، وجعل الهدى والرحمة لقوم يوقنون لأنه لا يهتدي ببيانه إلا الموقن بحقيقته، ولا يرحم به إلا من اتبعه المؤمن بحقيته»[٣].

وقال الشنقيطي: «الإشارة في قوله: ﵟهَٰذَاﵞ للقرآن العظيم، والبصائر جمع بصيرة، والمراد بها البرهان القاطع الذي لا يترك في الحق لبسًا كقوله تعالى: ﵟقُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍﵞ[٤]؛ أي: على علم ودليل واضح. والمعنى: أن هذا القرآن براهين قاطعة، وأدلة ساطعة، على أن اللّه هو المعبود وحده، وأن ما جاء به محمد ﷺ حق.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن القرآن بصائر للناس؛ جاء موضحًا في مواضع أخر من كتاب اللّه، كقوله تعالى في أخريات الأعراف: ﵟقُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا

---

(١) الأنبياء: الآيتان (١٠٥-١٠٦). (٢) الجاثية: الآية (١١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣٤٩-٣٥١).

(٤) يوسف: الآية (١٠٨).

يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[١]، وقوله تعالى في الأنـعـام: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾[٢]، وما تضمنته آية الجاثية من أن القرآن بصائر وهدى ورحمة؛ ذكر تعالى مثله في سورة القصص عن كتاب موسى الذي هو التوراة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾[٣]. وما تضمنته آية الجاثية هذه من كون القرآن هدى ورحمة جاء موضحًا في غير هذا الموضع. أما كونه هدى فقد ذكرنا الآيات الموضحة له قريبًا.

وأما كونه رحمة فقد ذكرنا الآيات الموضحة له في الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾[٤]، وفي أولها في الكلام على قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾[٥]، وفي فاطر في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾[٦]، وفي الزخرف في الكلام على قوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾[٧] الآية»[٨].

فائدة: قال الشنقيطي: «وفي هذه الآية الكريمة سؤال عربي معروف، وهو أن المبتدأ الذي هو قوله: ﴿هَٰذَا﴾ اسم إشارة إلى مذكر مفرد، والخبر الذي هو بصائر جمع مكسر مؤنث، فيقال: كيف يسند الجمع المؤنث المكسر إلى المفرد المذكر؟.

والجواب: أن مجموع القرآن كتاب واحد، تصح الإشارة إليه بهذا، وهذا الكتاب الواحد يشتمل على براهين كثيرة، فصح إسناد البصائر إليه لاشتماله عليها كما لا يخفى»[٩].

* * *

(١) الأعراف: الآية (٢٠٣).
(٢) الأنعام: الآية (١٠٤).
(٣) القصص: الآية (٤٣).
(٤) الكهف: الآية (٦٥).
(٥) الكهف: الآية (١).
(٦) فاطر: الآية (٢).
(٧) الزخرف: الآية (٣٢).
(٨) أضواء البيان (٧ / ٣٥٦-٣٥٧).
(٩) أضواء البيان (٧ / ٣٥٧).

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أم ظنّ الذين اجترحوا السيئات من الأعمال في الدنيا، وكذّبوا رسل اللّه، وخالفوا أمر ربهم، وعبدوا غيره، أن نجعلهم في الآخرة، كالذين آمنوا باللّه وصدّقوا رسله وعملوا الصالحات، فأطاعوا اللّه، وأخلصوا له العبادة دون ما سواه من الأنداد والآلهة، كلا، ما كان اللّه ليفعل ذلك، لقد ميز بين الفريقين، فجعل حزب الإيمان في الجنة، وحزب الكفر في السعير»[1].

قال السعدي: أي: أم حسب المسيئون المكثرون من الذنوب المقصرون في حقوق ربهم، ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بأن قاموا بحقوق ربهم، واجتنبوا مساخطه، ولم يزالوا مؤثرين رضاه على هوى أنفسهم؟ أي: أحسبوا أن يكونوا ﴿سَوَآءً﴾ في الدنيا والآخرة؟ ساء ما ظنوا وحسبوا، وساء ما حكموا به، فإنه حكم يخالف حكمة أحكم الحاكمين وخير العادلين، ويناقض العقول السليمة والفطر المستقيمة، ويضاد ما نزلت به الكتب وأخبرت به الرسل، بل الحكم الواقع القطعي أن المؤمنين العاملين الصالحات لهم النصر والفلاح، والسعادة والثواب في العاجل والآجل، كل على قدر إحسانه، وأن المسيئين لهم الغضب والإهانة، والعذاب والشقاء في الدنيا والآخرة»[2].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى: لا يستوي المؤمنون والكافرون، كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾[3]، وقال

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٤٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٢٧).
(٣) الحشر: الآية (٢٠).

هاهنا: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: عملوها وكسبوها ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أي: نساويهم بهم في الدنيا والآخرة! ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نُسَاوي بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة، وفي هذه الدار»[١].

وقال ابن القيم: «فأنكر سبحانه هذا الحسبان إنكار منبه للعقل على قبحه، وأنه حكم سيئ والحاكم به مسيء ظالم، ولو كان قبحه لكونه خلاف ما أخبر به؛ لم يكن الإنكار لما اشتمل عليه من القبح اللازم من التسوية بين المحسن والمسيء المستقر قبحه في فطر العالمين كلهم، ولا كان هنا حكم سيئ في نفسه ينكر على من حكم به»[٢].

وقال الألوسي: «قال ابن عطية: إن لفظها يعطي أن اجتراح السيئات هو اجتراح الكفر لمعادلته بالإيمان، ويحتمل أن تكون المعادلة بالاجتراح وعمل الصالحات، ويكون الإيمان في الفريقين، ولهذا بكى الخائفون عند تلاوتها.

ورأيت كثيرًا من المغرورين المستغرقين ليلهم ونهارهم بالفسق والفجور يقولون بلسان القال والحال: نحن يوم القيامة أفضل حالًا من كثير من العابدين، وهذا منهم والعياذ بالله تعالى ضلال بعيد وغرور ما عليه مزيد»[٣].

وقال ابن عطية: «وهذه الآية متناولة بلفظها حال العصاة من حال أهل التقوى، وهي موقف للعارفين فيكون عنده فيه، وروي عن الربيع بن خيثم أنه كان يرددها ليلة جمعاء، وكذلك عن الفضيل بن عياض، وكان يقول لنفسه: ليت شعري من أي الفريقين أنت، وقال الثعلبي: كانت هذه الآية تسمى مبكاة العابدين»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في خوف الصحابة من هذه الآية

* عن مسروق قال: قال لي رجل من أهل مكة: هذا مقام أخيك تميم الداري، لقد رأيته قام ليلة حتى أصبح أو قرب أن يصبح، يقرأ آية من كتاب الله ﷻ، فيركع ويسجد ويبكي ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

(١) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٥٢).
(٢) مدارج السالكين (١ / ٢٣٨).
(٣) روح المعاني (٢٥ / ١٥١).
(٤) المحرر الوجيز (٥ / ٨٥).

سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئا فرجاؤه يستلزم ثلاثة أمور: أحدها: محبة ما يرجوه. الثاني: خوفه من فواته. الثالث سعيه في تحصيله بحسب الإمكان. وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك؛ فهو من باب الأماني، والرجاء شيء والأماني شيء آخر، فكل راج خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات، وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة اللَّه غالية، ألا إن سلعة اللَّه الجنة**»[٢]، وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة، فعلم أن الرجاء والخوف النافع هو ما اقترن به العمل، قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[٣].

وقد روى الترمذي في جامعه عن عائشة رضى اللَّه عنها قالت: سألت رسول اللَّه ﷺ عن هذه الآية فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: «**لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، ويخافون أن لا يتقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات**»[٤]، وقد روى من حديث أبى هريرة أيضًا.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢ / ٥٠ / ١٢٥٠-١٢٥١)، وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة (١ / ٣٠٥) رواه البغوي في الجعديات بإسناد صحيح إلى مسروق.

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ (٢ / ١١١)، الترمذي (٤ / ٥٤٦ / ٢٤٥٠). وقال: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي النضر»، الحاكم (٤ / ٣٠٧-٣٠٨)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وانظر السلسلة الصحيحة رقم (٢٣٣٥).

(٣) المؤمنون: الآيات (٥٧-٦١).

(٤) أخرجه أحمد (٦ / ١٥٩ و٢٠٥)، الترمذي (٥ / ٣٠٦ / ٣١٧٥)، وقال: «وقد روي هذا الحديث عن عبد الرحمن بن سعيد عن أبي حازم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحو هذا». ابن ماجه (٢ / ١٤٠٤ / ٤١٩٨)، الحاكم (٢ / ٣٩٤) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن، ومن تأمل أحوال الصحابة ﷺ وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن. فهذا الصديق يقول: وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن. ذكره أحمد عنه.

وذكر عنه أيضًا أنه كان يمسك بلسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد. وكان يبكي كثيرًا ويقول: أبكوا فان لم تبكوا فتباكوا. وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله ﷻ. وأتي بطائر فقلبه ثم قال: ما صيد من صيد ولا قطعت من شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح. ولما احتضر قال لعائشة: يا بنية إني أصبت من مال المسلمين هذه العباءة، وهذه الحلاب وهذا العبد، فأسرعي به إلى ابن الخطاب، وقال: والله لوددت أني كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضد. وقال قتادة: بلغني أن أبا بكر قال: ليتني خضرة تأكلني الدواب.

وهذا عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور إلى أن بلغ قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾[1]، فبكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه. وقال لابنه وهو في الموت: ويحك ضع خدي على الأرض عساه أن يرحمني، ثم قال: ويل أمي إن لم يغفر الله لي ثلاثا ثم قضى. وكان يمر بالآية في ورده بالليل، فتخيفه فيبقى في البيت أياما ويعاد، ويحسبونه مريضا. وكان في وجهه ﷺ خطان أسودان من البكاء. وقال له ابن عباس: مصر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعل وفعل، فقال: وددت أني أنجو لا أجر ولا وزر.

وهذا عثمان بن عفان ﷺ كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبل لحيته وقال: لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي، لاخترت أن أكون رمادا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير.

وهذا علي بن أبي طالب ﷺ وبكاؤه وخوفه، وكان يشتد خوفه من اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوى، قال: فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة والآخرة مقبلة، ولكل واحدة بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا

(١) الطور: الآية (٧).

حساب ولا عمل .

وهذا أبو الدرداء ﷺ كان يقول : إن أشد ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لي : يا أبا الدرداء! قد علمت فكيف عملت فيما علمت؟ . وكان يقول : لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعاما على شهوة، ولا شربتم شرابا على شهوة، ولا دخلتم بيتا تستظلون فيه، ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم، ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل .

وهذا عبد اللّه بن عباس كان أسفل عينيه مثل الشراك البالي من الدموع . وكان أبو ذر يقول : ياليتني كنت شجرة تعضد، وودت أني لم أخلق، وعرضت عليه النفقة فقال : عندنا عنز نحلبها، وحمر ننقل عليها، ومحرر يخدمنا، وفضل عباءة، وإني أخاف الحساب فيها .

وقرأ تميم الداري ليلة سورة الجاثية فلما أتى على هذه الآية : ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ جعل يرددها ويبكي حتى أصبح . وقال أبو عبيدة بن الجراح وددت أني كبش فذبحني أهلي، وأكلوا لحمي، وحسوا مرقي، وهذا باب يطول تتبعه .

قال البخاري في صحيحه : باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر . وقال ابراهيم التيمي : ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذبا . وقال ابن أبي مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول : إنه على إيمان جبريل وميكائيل . ويذكر عن الحسن ما خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق . وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة : أنشدك اللّه، هل سماني لك رسول اللّه ﷺ؟ يعني : في المنافقين، فيقول : لا ولا أزكي بعدك أحدا»[1] .

* * *

(١) الداء والدواء (٥٩-٦٤).

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ للعدل والحقّ، لا لما حسب هؤلاء الجاهلون بالله، من أنه يجعل من اجترح السيئات، فعصاه وخالف أمره، كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، في المحيا والممات، إذ كان ذلك من فعل غير أهل العدل والإنصاف، يقول -جل ثناؤه-: فلم يخلق الله السموات والأرض للظلم والجور، ولكنا خلقناهما للحقّ والعدل، ومن الحق أن نخالف بين حكم المسيء والمحسن، في العاجل والآجل.

وقوله: ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وليثيب الله كلّ عامل بما عمل من عمل خلق السموات والأرض، المحسن بالإحسان، والمسيء بما هو أهله، لا لنبخس المحسن ثواب إحسانه، ونحمل عليه جرم غيره، فنعاقبه، أو نجعل للمسيء ثواب إحسان غيره فنكرمه، ولكن لنجزي كلا بما كسبت يداه، وهم لا يُظلمون جزاء أعمالهم»[1].

وقال الألوسي معلقًا على قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ كأنه دليل على إنكار حسبانهم السابق، أو دليل على تساوي محيا كل فريق ومماته، وبيان لحكمته على تقدير كون قوله تعالى: ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ استئنافًا، وذلك من حيث أن خلق العالم بالحق المقتضي للعدل يستدعي انتصاف المظلوم من الظالم، والتفاوت بين المسيء والمحسن، وإذا لم يكن في المحيا كان بعد الممات حتمًا ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ عطف على ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ لأنه في معنى العلة، سواء كانت الباء للسببية الغائية أو الملابسة، أما على الأول فظاهر، وأما على

(١) جامع البيان (٢٥/ ١٤٩-١٥٠).

الثاني فلأن المعنى خلقها ملتبسة ومقرونة بالحكمة والصواب دون العبث والباطل، وحاصله خلقها لأجل ذلك، أو عطف على علة محذوفة مثل ليدل سبحانه بها على قدرته أو ليعدل، وما موصولة أو مصدرية أي: ليجزي كل نفس بالذي كسبته أو بكسبها ﴿وَهُمْ﴾ أي: النفوس المدلول عليها بكل نفس ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب وتضعيف عذاب»[١].

وقال ابن عطية: واللام في قوله: ﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾ يظهر أن تكون لام كي، فكأن الجزاء من أسباب خلق السماوات، ويحتمل أن تكون لام الصيرورة؛ أي: صار الأمر فيها من حيث اهتدى بها قوم وضل عنها آخرون؛ لأن يجازى كل أحد بعمله وبما اكتسب من خير أو شر»[٢].

وقال ابن عاشور: «﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ضمير: ﴿وَهُمْ﴾ عائد إلى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾، فإن ذلك الجزاء مما اقتضاه العدل الذي جُعل سببًا أو ملابسًا لخلق السماوات والأرض وما فيهما، فهو عدل، فليس من الظلم في شيء، فالمُجازَى غير مظلوم، وبالجزاء أيضًا ينتفي أثر ظلم الظالم عن المظلوم، إذ لو ترك الجزاء لاستمر المظلوم مظلومًا»[٣].

وقال السعدي: «أي: خلق اللَّه السماوات والأرض بالحكمة، وليعبد وحده لا شريك له، ثم يحاسب بعد ذلك من أمرهم بعبادته، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، هل شكروا اللَّه تعالى وقاموا بالمأمور؟ أم كفروا فاستحقوا جزاء الكفور؟»[٤].

* * *

---

(١) روح المعاني (٢٥ / ١٥١).
(٢) المحرر الوجيز (٥ / ٨٦).
(٣) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣٥٧) بتصرف.
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٢٨).

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[(١)]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: إنما يأتمر بهواه، فمهما رآه حسنا فعله، ومهما رآه قبيحا تركه: وهذا قد يستدل به على المعتزلة في قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين»[(٢)].

قال ابن عاشور: «لما كان الذين حسبوا أن يكونوا في الآخرة في نعمة وعزة كما كانوا في الدنيا؛ قالوا ذلك عَنْ غير دليل ولا نظر، ولكن عن اتباع ما يشتهون لأنفسهم من دوام الحال الحسن، تفرع على حسبانهم التعجيب من حالهم، فعطف بالفاء الاستفهامُ المستعملُ في التعجيب.. والمعنى: أن حجاجهم المسلمين مركَّز على اتباع الهوى والمغالطةِ، فلا نهوض لحجتهم لا في نفس الأمر ولا فيما أرادوه، على فرض وقوع البعث من أن يكونوا آمنين من أهوال البعث، وأنهم لا يرجى لهم اهتداء؛ لأن اللَّه خلقهم غير قابلين للهدَى، فلا يستطيع غيره هداهم»[(٣)].

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ فقال بعضهم: معنى ذلك: أفرأيت من اتخذ دينه بهواه، فلا يهوى شيئا إلا ركبه، لأنه لا يؤمن باللَّه، ولا يحرِّم ما حَرَّمَ، ولا يحلل ما حَللَ، إنما دينه ما هويته نفسه يعمل به.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: أفرأيت من اتخذ معبوده ما هويت عبادته نفسه في شيء.. وأولى التأويلين في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: أفرأيت يا محمد من اتخذ معبوده هواه، فيعبد ما هوي من شيء دون إله الحقّ الذي له الألوهة من كلّ شيء، لأن ذلك هو الظاهر من معناه دون غيره»[(٤)].

وقال القرطبي: «قال ابن عباس والحسن وقتادة: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه، فلا يهوى شيئا إلا ركبه. وقال عكرمة: أفرأيت من جعل إلهه الذي يعبده ما

---

(١) الجاثية: الآية (٢٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٦٨).
(٣) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣٥٧-٣٥٨).
(٤) جامع البيان (٢٥ / ١٥٠).

يهواه أو يستحسنه، فإذا استحسن شيئا وهويه اتخذه إلها. قال سعيد بن جبير: كان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر.. وقيل: المعنى أفرأيت من ينقاد لهواه ومعبوده تعجيبا لذوي العقول من هذا الجهل. وقال الحسن بن الفضل: في هذه الآية تقديم وتأخير، مجازه: أفرأيت من اتخذ هواه إلهه. وقال الشعبي: إنما سمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه في النار. وقال ابن عباس: ما ذكر اللَّه هوى في القرآن إلا ذمه، قال اللَّه تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[5]. وقال ﷺ: «**إذا رأيت شحا مطاعا، وهوى متبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العامة**»[6]. وقال ﷺ: «**ثلاث مهلكات وثلاث منجيات: فالمهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه. والمنجيات خشية اللَّه في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضا والغضب**»[7].

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «**إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه، فإن كان عمله تبعا لهواه فيومه يوم سوء، وإن كان عمله تبعا لعلمه فيومه يوم صالح**.

وقال الأصمعي: سمعت رجلا يقول:

(١) الأعراف: الآية (١٧٦). (٢) الكهف: الآية (٢٨).
(٣) الروم: الآية (٢٩). (٤) القصص: الآية (٥٠).
(٥) ص: الآية (٢٦).
(٦) أخرجه أبو داود (٤ / ٥١٢ / ٤٣٤١)، والترمذي (٥ / ٢٤٠ / ٣٠٥٨) وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (٢ / ١٣٣٠-١٣٣١ / ٤٠١٤)، وصححه ابن حبان (٢ / ١٠٨-١٠٩ / ٣٨٥) من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه.
(٧) أخرجه البزار (١ / ٥٩ / ٨٠)، وأبو بكر الدينوري في المجالسة (٣ / ٢٥٦-٢٦٢ / ٨٩٩)، وأبو نعيم في الحلية (٢ / ٣٤٣)، والقضاعي في مسند الشهاب (١ / ٢١٤-٢١٥ / ٣٢٥)، والطبراني في الأوسط (٦ / ٢١٤ / ٥٤٤٨)، والبيهقي في الشعب (١ / ٤٧١ / ٧٤٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه وقد روي من حديث عبد اللَّه بن عباس، وأبي هريرة وعبد اللَّه بن أبي أوفى، وعبد اللَّه بن عمر، قال الشيخ الألباني عقب تخريجه لهذه الشواهد: «وبالجملة فالحديث بمجموع هذه الطرق حسن على أقل الدرجات إن شاء اللَّه تعالى، وبه جزم المنذري».

إن الهوان هو الهوى قلب اسمه فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وسئل ابن المقفع عن الهوى فقال: هوان سرقت نونه، فأخذه شاعر فنظمه وقال:

نون الهوان من الهوى مسروقة فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وقال آخر:

إن الهوى لهو الهوان بعينه فإذا هويت فقد كسبت هوانا

وإذا هويت فقد تعبدك الهوى فاخضع لحبك كائنا من كانا

ولعبد اللّٰه بن المبارك:

ومن البلايا للبلاء علامة ألا يرى لك عن هواك نزوع

العبد عبد النفس في شهواتها والحر يشبع تارة ويجوع»[١].

وقال: «قال سهل بن عبد الله: هواؤك داؤك، وحسبك بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[٢]»[٣].

ومعنى الهوى -يقول برهان الدين البقاعي- أنه يهوي بصاحبه في الهواء الممدود وهو الفضاء؛ أي: ينزل به عن درجة عليا إلى ما دونها، فهو في سفول ما دام تابعًا له، فلذلك هو يوجب الهوان»[٤].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٦٦-١٦٨).

(٢) النازعات: الآيتان (٤٠-٤١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٦٨-١٦٩).

(٤) نظم الدرر (١٨ / ٩٥).

قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وخذله عن محجة الطريق، وسبيل الرشاد في سابق علمه على علم منه بأنه لا يهتدي، ولو جاءته كل آية.. وقوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وطَبَع على سمعه أن يسمع مواعظ اللَّه وآي كتابه، فيعتبر بها ويتدبرها، ويتفكر فيها، فيعقل ما فيها من النور والبيان والهدى.

وقوله: ﴿وَقَلْبِهِۦ﴾ يقول: وطبع أيضًا على قلبه، فلا يعقل به شيئا، ولا يعي به حقا. وقوله: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ يقول: وجعل على بصره غشاوة أن يبصر به حجج اللَّه، فيستدّل بها على وحدانيته، ويعلم بها أن لا إله غيره»[2].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يحتمل قولين: أحدها: وأضله اللَّه لعلمه أنه يستحق ذلك. والآخر: وأضله اللَّه بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه. والثاني يستلزم الأول، ولا ينعكس»[3].

وقال ابن عاشور: «ومعنى: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أنهم أحاطت بهم أسباب الضلالة مع أنهم أهل علم؛ أي: عقول سليمةٍ، أوْ مع أنهم بلغهم العِلم بما يهديهم، وذلك بالقرآن ودعوة النبي ﷺ إلى الإسلام.. والمعنى: أنه ضال مع مَا له من صفة العلم، فالعلم هنا من وصف من اتخذ إلهه هواه، وهو متمكن من العلم لو خلع عن نفسه المكابرة، والميل إلى الهوى»[4].

* * *

(١) الجاثية: الآية (٢٣).
(٢) جامع البيان (٢٥ / ١٥٠-١٥١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٦٨).
(٤) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣٥٨).

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: لا أحد يهديه وقد سد اللَّه عليه أبواب الهداية، وفتح له أبواب الغواية، وما ظلمه اللَّه ولكن هو الذي ظلم نفسه، وتسبب لمنع رحمة اللَّه عليه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ما ينفعكم فتسلكوه، وما يضركم فتجتنبوه»[٢].

وقال ابن عاشور: «وهذه الآية أصل في التحذير من أن يكون الهوى الباعث للمؤمنين على أعمالهم، ويتركوا اتباع أدلة الحق، فإذا كان الحق محبوبًا لأحد، فذلك من التخلق بمحبة الحق تبعًا للدليل، مثل ما يهوى المؤمن الصلاة والجماعة وقيامَ رمضان وتلاوة القرآن، وفي الحديث: «أرِحْنا بها يا بلال»[٣] يعني الإقامة للصلاة.. وأما اتباع الأمر المحبوب لإرضاء النفس دون نظر في صلاحه أو فساده؛ فذلك سبب الضلال وسوء السيرة. قال عمرو بن العاصي:

إذا المرء لم يترك طعامًا يحبه ... ولم ينْه قلبًا غاويًا حيثُ يَمَّمَا

فيوشك أن تَلقَى له الدهرَ سبَّة ... إذا ذُكرت أمثالها تَمْلأ الفما»[٤].

* * *

(١) الجاثية: الآية (٢٣).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٢٩).
(٣) أخرجه أحمد (٥ / ٣٦٤)، وأبو داود (٢ / ٧١٥ / ٤٩٨٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود رقم (٤١٧١).
(٤) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣٥٩-٣٦٠).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار، ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة والرجعة، ويقوله الفلاسفة الدهرية الدورية، المنكرون للصانع، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول»[1].

وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ نموت نحن وتحيا أبناؤنا بعدنا، فجعلوا حياة أبنائهم بعدهم حياة لهم، لأنهم منهم وبعضهم، فكأنهم بحياتهم أحياء، وذلك نظير قول الناس: ما مات من خلف ابنا مثل فلان، لأنه بحياة ذكره به كأنه حيّ غير ميت، وقد يحتمل وجها آخر، وهو أن يكون معناه: نحيا ونموت على وجه تقديم الحياة قبل الممات، كما يقال: قمت وقعدت، بمعنى: قعدت وقمت؛ والعرب تفعل ذلك في الواو خاصة، إذا أرادوا الخبر عن شيئين أنهما كانا أو يكونان، ولم تقصد الخبر عن كون أحدهما قبل الآخر، تقدم المتأخر حدوثًا على المتقدم حدوثه منهما أحيانا، فهذا من ذلك، لأنه لم يقصد فيه إلى الخبر عن كون الحياة قبل الممات، فقدّم ذكر الممات قبل ذكر الحياة، إذ كان القصد إلى الخبر عن أنهم يكونون مرّة أحياء وأخرى أمواتا»[2].

وقال أبو حيان: والظاهر أن قولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ حكم على النوع بجملته من

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٣).

(٢) جامع البيان (٢٥ / ١٥١-١٥٢).

غير اعتبار تقديم وتأخير؛ أي: تموت طائفة وتحيا طائفة، وأن المراد بالموت مفارقة الروح للجسد»[١].

وقال الألوسي: «وقيل: أرادوا بالموت عدم الحياة السابق على نفخ الروح فيهم؛ أي: نكون نطفًا وما قبلها وما بعدها ونحيا بعد ذلك. وقيل: أرادوا بالحياة بقاء النسل والذرية مجازًا كأنهم قالوا: نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا وذرارينا. وقيل: أرادوا يموت بعضنا ويحيا بعض، على أن التجوز في الإسناد، وجوز أن يريدوا بالحياة على سبيل المجاز إعادة الروح لبدن آخر بطريق التناسخ، وهو اعتقاد كثير من عبدة الأصنام، ولا يخفى بعد ذلك»[٢].

وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن هؤلاء المشركين أنهم قالوا: وما يهلكنا فيفنينا إلا مرّ الليالي والأيام، وطول العمر، إنكارًا منهم أن يكون لهم ربّ يفنيهم ويهلكهم.. وذُكر أن هذه الآية نزلت من أجل أن أهل الشرك كانوا يقولون: الذي يهلكنا ويفنينا الدهر والزمان، ثم يسبون ما يفنيهم ويهلكهم، وهم يرون أنهم يسبون بذلك الدهر والزمان، فقال الله ﷻ لهم: أنا الذي أفنيكم وأهلككم، لا الدهر والزمان، ولا علم لكم بذلك.. ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وما لهؤلاء المشركين القائلين: ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر، بما يقولون من ذلك من علم: يعني من يقين علم، لأنهم يقولون ذلك تخرّصا بغير خبر أتاهم من الله، ولا برهان عندهم بحقيقته ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ يقول -جل ثناؤه-: ما هم إلا في ظنّ من ذلك، وشكّ يخبر عنهم أنهم في حيرة من اعتقادهم حقيقة ما ينطقون من ذلك بألسنتهم»[٣].

وقال القرطبي: «وكان المشركون أصنافا، منهم هؤلاء، ومنهم من كان يثبت الصانع وينكر البعث، ومنهم من كان يشك في البعث ولا يقطع بإنكاره. وحدث في الإسلام أقوام ليس يمكنهم إنكار البعث خوفا من المسلمين، فيتأولون ويرون القيامة موت البدن، ويرون الثواب والعقاب إلى خيالات تقع للأرواح بزعمهم،

---

(١) البحر المحيط (٨ / ٤٩).
(٢) روح المعاني (٢٥ / ١٥٣).
(٣) جامع البيان (٢٥ / ١٥٢-١٥٣).

فشر هؤلاء أضر من شر جميع الكفار، لأن هؤلاء يلبسون على الحق، ويغتر بتلبيسهم الظاهر، والمشرك المجاهر بشركه يحذره المسلم»[١].

وقال الشنقيطي: «ما تضمنته هذه الآية الكريمة من إنكار الكفار للبعث بعد الموت، جاء موضحًا في آيات كثيرة كقوله تعالى عنهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾[٢] وقوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧﴾[٣]، وقوله تعالى عنهم: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣﴾[٤]، وقوله تعالى عنهم: ﴿أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[٦]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة»[٧].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن من سب الدهر فقد آذى الله

* عن سفيان بن عيينة، قال: «كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، هو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا، قال تعالى: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ الآية، قال الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**يقول الله -جل وعلا-: «يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب ليله ونهاره، فإذا شئت قبضتهما**»[٨].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله عز وجل: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار**»[٩].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٦ / ١٧٢).
(٢) الدخان: الآية (٣٥).
(٣) المؤمنون: الآيات (٣٥-٣٧).
(٤) ق: الآية (٣).
(٥) النازعات: الآيات (١٠-١٢).
(٦) يس: الآية (٧٨).
(٧) أضواء البيان (٧ / ٣٥٨).
(٨) أخرجه البيهقي في الكبرى (٣/ ٣٦٥)، وابن حبان (١٣/ ٢٣-٢٤/ ٥٧١٥ الإحسان)، والحاكم (٢ / ٤٥٣) وقال: «صحيح على شرطهما» ووافقه الذهبي.
(٩) أخرجه أحمد (٢ / ٢٣٨)، البخاري (٨ / ٧٣٨ / ٤٨٢٦)، واللفظ له، مسلم (٤ / ١٧٦٢ / ٢٢٤٦ [٢-٣])، أبو داود (٥ / ٤٢٣ / ٥٢٧٤)، النسائي في الكبرى (٦ / ٤٥٧ / ١١٤٨٧).

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يقول الله: استقرضت عبدي فلم يقرضني، ويشتمني عبدي وهو لا يدري، يقول: وادهراه، وادهراه، وأنا الدهر»[١].

★ **فوائد الأحاديث:**

قال ابن عبد البر: «والمعنى: أن أهل الجاهلية كانوا يذمون الدهر في أشعارهم وأخبارهم، ويضيفون إليه كل ما يصنع اللَّه بهم. وقد حكى اللَّه عنهم قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾، فنهى اللَّه عن قولهم ذلك، ونهى رسول اللَّه ﷺ عنه أيضًا بقوله: «**لا تسبوا الدهر**» يعني: لأنكم إذا سببتموه وذممتموه لما يصيبكم فيه من المحن والآفات والمصائب، وقع السب والذم على الله؛ لأنه الفاعل ذلك وحده لا شريك له؛ وهذا ما لا يسع أحدا جهله، والوقوف على معناه؛ لا يتعلق به الدهرية أهل التعطيل والإلحاد، وقد نطق القرآن، وصحت السنة بما ذكرنا؛ وذلك أن العرب كان من شأنها ذم الدهر عندما ينزل بها من المكاره، فيقولون: أصابتنا قوارع الدهر، وأبادنا الدهر، وأتى علينا الدهر»[٢].

قال النووي: «أي لا تسبوا فاعل النوازل، فإنكم إذا سببتم فاعلها وقع السب على اللَّه تعالى، لأنه هو فاعلها ومنزلها، وأما الدهر الذي هو الزمان فلا فعل له؛ بل هو مخلوق من جملة خلق اللَّه تعالى، ومعنى «**فإن اللَّه هو الدهر**» أي: فاعل النوازل والحوادث، وخالق الكائنات واللَّه أعلم»[٣].

قال ابن القيم: «في هذا ثلاث مفاسد عظيمة:

إحداها: سبه من ليس بأهل أن يسب، فإن الدهر خلق مسخر من خلق اللَّه، منقاد لأمره، مذلل لتسخيره، فسابه أولى بالذم والسب منه.

الثانية: أن سبه متضمن للشرك، فإنه إنما سبه لظنه أنه يضر وينفع، وأنه مع ذلك ظالم قد ضر من لا يستحق الضرر، وأعطى من لا يستحق العطاء، ورفع من لا يستحق الرفعة، وحرم من لا يستحق الحرمان، وهو عند شاتميه من أظلم الظلمة، وأشعار

---

(١) أخرجه أحمد (٢ / ٣٠٠) واللفظ له، الحاكم (١ / ٤١٨) وصححه ووافقه الذهبي، ابن جرير في التفسير (٢٥ / ١٥٢).

(٢) فتح البر (١ / ٣٤٤-٣٤٥).

(٣) شرح مسلم (١٥/ ٣).

هؤلاء الظلمة الخونة في سبه كثيرة جدا، وكثير من الجهال يصرح بلعنه وتقبيحه.

الثالثة: أن السب منهم إنما يقع على من فعل هذه الأفعال التي لو اتبع الحق فيها أهواءهم لفسدت السماوات والأرض، وإذا وقعت أهواؤهم، حمدوا الدهر، وأثنوا عليه، وفي حقيقة الأمر، فرب الدهر تعالى هو المعطي المانع، الخافض الرافع، المعز المذل، والدهر ليس له من الأمر شيء، فمسبتهم للدهر مسبة لله ﷻ، ولهذا كانت مؤذية للرب تعالى، كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**قال اللَّه تعالى: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر**» فساب الدهر دائر بين أمرين لا بد له من أحدهما: إما سبه لله، أو الشرك به، فإنه إذا اعتقد أن الدهر فاعل مع اللَّه فهو مشرك، وان اعتقد أن اللَّه وحده هو الذي فعل ذلك وهو يسب من فعله، فقد سب الله»[١].

قال ابن عثيمين: «وسب الدهر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يقصد الخبر المحض دون اللوم، فهذا جائز مثل أن يقول: تعبنا من شدة حر هذا اليوم، أو برده وما أشبه ذلك؛ لأن الأعمال بالنيات، واللفظ صالح لمجرد الخبر، ومنه قول لوط عليه السلام: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[٢].

الثاني: أن يسب الدهر على أنه الفاعل، كأن يعتقد بسبه الدهر أن الدهر هو الذي يقلب الأمور إلى الخير والشر، فهذا شرك أكبر؛ لأنه اعتقد أن مع اللَّه إله يستحق أن يعبد فإنه كافر.

الثالث: أن يسب الدهر لا لاعتقاده أنه هو الفاعل؛ بل يعتقد أن اللَّه هو الفاعل لكن يسبه؛ لأنه محل لهذا الأمر المكروه عنده فهذا محرم، ولا يصل إلى درجة الشرك؛ وذلك لأن سبه إياه لا يخلو إما أن يعتقد أن اللَّه هو الفاعل، فتكون حقيقة السب لله ﷻ؛ لأن اللَّه تعالى هو الذي يصرفه ويكون فيه ما أراد من خير أو من شر، فليس للدهر فعل، فسبه في الحقيقة يعود إلى سب اللَّه ﷻ؛ فيكون هذا محرما، وليس بشرك؛ لأنه لم يسب اللَّه تعالى مباشرة»[٣].

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٥٤-٣٥٥).

(٢) هود: الآية (٧٧).

(٣) القول المفيد (٢ / ٣٥١-٣٥٢).

قال في تيسير العزيز الحميد: «ولفظ الأذى في اللغة لما خف أمره، وضعف أثره من الشرك والمكروه. ذكره الخطابي. قال شيخ الإسلام: وهو كما قال، وهذا بخلاف الضرر، فقد أخبر سبحانه أن العباد لا يضرونه كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾[١]»[٢].

* * *

(١) آل عمران: الآية (١٧٦).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص: ٦٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول -تعالى ذكره-: وإذا تُتلى على هؤلاء المشركين المكذّبين بالبعث آياتنا، بأن اللّه باعث خلقه من بعد مماتهم، فجامعهم يوم القيامة عنده للثواب والعقاب ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ يعني: واضحات جليات، تنفي الشكّ عن قلب أهل التصديق باللّه في ذلك ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يقول -جل ثناؤه-: لم يكن لهم حجة على رسولنا الذي يتلو ذلك عليهم إلا قولهم له: ائتنا بآبائنا الذين قد هلكوا أحياء، وانشرهم لنا إن كنت صادقا فيما تتلو علينا وتخبرنا، حتى نصدّق بحقيقة ما تقول بأن اللّه باعثنا من بعد مماتنا، ومحيينا من بعد فنائنا»[1].

قال برهان الدين البقاعي: «وذلك استبعاد منهم لأن يقدر على جمع الجسم بعد ما بلي، وهم يقرون بأنه الذي خلق ذلك الجسم ابتداء، ومن المعلوم قطعًا أن من قدر على إنشاء شيء من العدم؛ قدر على إعادته بطريق الأولى»[2].

وقال الزمخشري: «فإن قلت: لم سمى قولهم حجة وليس بحجة؟ قلت: لأنهم أدلوا به كما يدلي المحتج بحجته وساقوه مساقها، فسميت حجة على سبيل التهكم. أو لأنه في حسبانهم وتقديرهم حجة. أو لأنه في أسلوب قوله: تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ، كأنه قيل: ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة، والمراد: نفي أن تكون لهم حجة البتة»[3].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٥٣).

(٢) نظم الدرر (٢٥ / ١٠٠-١٠١).

(٣) الكشاف (٣ / ٥١٣).

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ ابتداءً ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عندَ انقضاءِ آجالِكم، لا كما تزعمونَ من أنَّكم تحيَونَ وتموتونَ بحُكمِ الدهرِ، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ بعدَ الموتِ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ للجزاءِ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في جمعِكم، فإنَّ مَنْ قدرَ علَى البدءِ قدرَ على الإعادةِ، والحكمة اقتضتْ الجمعَ للجزاءِ لا محالةَ، والوعدُ المصدقُ بالآياتِ دلَّ على وقوعِها حتمًا، والإتيانُ بآبائِهم حيثُ كانَ مُزاحمًا للحكمةِ التشريعيةِ امتنعَ إيقاعُه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استدراك من قولِه تعالَى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وهُو إمَّا من تمام الكلام المأمورِ بهِ، أو كلامٌ مسوقٌ من جهتِه تعالَى، تحقيقًا للحقِّ، وتنبيهًا على أنَّ ارتيابَهُم لجهلِهم وقُصُورِهم في النظرِ والتفكرِ، لا لأنَّ فيه شائبةَ رَيْبٍ مَا»[1].

وقال ابن كثير: «﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا ينكرون المعاد، ويستبعدون قيام الأجساد، قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾[2] أي: يرون وقوعه بعيدا، والمؤمنون يرون ذلك سهلا قريبا»[3].

* * *

(١) تفسير أبي السعود (٨ / ٧٤).
(٢) المعارج: الآيتان (٦-٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٥).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولله سلطان السموات السبع والأرض، دون ما تدعون له شريكا، وتعبدونه من دونه، والذي تدعونه من دونه من الآلهة والأنداد في مُلكه وسلطانه، جارٍ عليه حكمه، فكيف يكون ما كان كذلك له شريكا؟ أم كيف تعبدونه وتتركون عبادة مالككم، ومالك ما تعبدونه من دونه؟ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ويوم تجيء الساعة التي يُنْشِر اللَّه فيها الموتى من قبورهم، ويجمعهم لموقف العرض، ﴿يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾: يقول: يغبن فيها الذين أبطلوا في الدنيا في أقوالهم ودعواهم لله شريكا، وعبادتهم آلهة دونه بأن يفوز بمنازلهم من الجنة المحقون، ويبدّلوا بها منازل من النار كانت للمحقين، فجعلت لهم بمنازلهم من الجنة، ذلك هو الخسران المبين»(١).

وقال السعدي: «يوم تَقُومُ السَّاعَةُ ويجمع الخلائق لموقف القيامة، يحصل الخسار على المبطلين، الذين أتوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وكانت أعمالهم باطلة لأنها متعلقة بالباطل فبطلت في يوم القيامة، اليوم الذي تستبين به الحقائق، واضمحلت عنهم وفاتهم الثواب، وحصلوا على أليم العقاب»(٢).

وقال ابن كثير: «وقال ابن أبي حاتم: قدم سفيان الثوري المدينة، فسمع المَعافري يتكلم ببعض ما يضحك به الناس، فقال له: يا شيخ، أما علمت أن لله يومًا يخسر فيه المبطلون؟ قال: فما زالت تعرف في المعافري حتى لحق باللَّه ﷻ»(٣).

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٥٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٣١).

(٣) تفسير القرآن العظم (٦ / ٢٥٥).

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «الخطاب لكل من يصلح له، أو للنبيّ ﷺ، والأمة: الملة، ومعنى جاثية: مستوفزة، والمستوفز: الذي لا يصيب الأرض منه إلاّ ركبتاه وأطراف أنامله، وذلك عند الحساب. وقيل: معنى جاثية: مجتمعة، قال الفراء: المعنى وترى أهل كلّ ذي دين مجتمعين. وقال عكرمة: متميزة عن غيرها. وقال مؤرج: معناه بلغة قريش: خاضعة. وقال الحسن: باركة على الركب، والجثو: الجلوس على الركب، تقول: جثا يجثو ويجثي جثوًا وجثيًا: إذا جلس على ركبتيه، والأوّل أولى، ولا ينافيه ورود هذا اللفظ لمعنى آخر في لسان العرب، وقد ورد إطلاق الجثوة على الجماعة من كل شيء في لغة العرب، ومنه قول طرفة يصف قبرين:

ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صمّ من صفائح منضد

وظاهر الآية أن هذه الصفة تكون لكل أمة من الأمم، من غير فرق بين أهل الأديان المتبعين للرسل وغيرهم من أهل الشرك. وقال يحيى بن سلام: هو خاصّ بالكفار، والأوّل أولى»[1].

وقال السعدي: «﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي: إلى شريعة نبيهم الذي جاءهم من عند اللَّه، وهل قاموا بها فيحصل لهم الثواب والنجاة؟ أم ضيعوها فيحصل لهم الخسران؟ فأمة موسى يدعون إلى شريعة موسى، وأمة عيسى كذلك، وأمة محمد كذلك، وهكذا غيرهم، كل أمة تدعى إلى شرعها الذي كلفت به، هذا أحد الاحتمالات في الآية، وهو معنى صحيح في نفسه غير مشكوك فيه، ويحتمل أن

(١) فتح القدير (٥ / ١٤).

المراد بقوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي: إلى كتاب أعمالها وما سطر عليها من خير وشر، وأن كل أحد يجازى بما عمله بنفسه، كقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾[١] ويحتمل أن المعنيين كليهما مراد من الآية»[٢].

* * *

(١) الجاثية: الآية (١٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٣١-٣٢).

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٢٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾ أي: يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص، كقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ۝٤٩﴾[1]»[2].

قال الشوكاني: «هذا من تمام ما يقال لهم، والقائل بهذا: هم الملائكة، وقيل: هو من قول اللَّه سبحانه؛ أي: يشهد عليكم، وهو استعارة، يقال: نطق الكتاب بكذا؛ أي: بيّن، وقيل: إنهم يقرؤونه فيذكرون ما عملوا، فكأنه ينطق عليهم بالحق الذي لا زيادة فيه ولا نقصان، ومحل ﴿يَنطِقُ﴾ النصب على الحال، أو الرفع على أنه خبر آخر لاسم الإشارة، وجملة: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ تعليل للنطق بالحقّ؛ أي: نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم؛ أي: بكتبها، وتثبيتها عليكم.

قال الواحدي: وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ، فإن الملائكة تكتب منه كل عام ما يكون من أعمال بني آدم، فيجدون ذلك موافقًا لما يعملونه، قالوا: لأن الاستنساخ لا يكون إلاّ من أصل. وقيل المعنى: نأمر الملائكة بنسخ ما كنتم تعملون. وقيل: إن الملائكة تكتب كل يوم ما يعمله العبد، فإذا رجعوا إلى مكانهم نسخوا منه الحسنات والسيئات، وتركوا المباحات. وقيل: إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى اللَّه سبحانه أمر ﷻ أن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب، ويسقط منها ما لا ثواب فيه ولا عقاب»[3].

---

(١) الكهف: الآية (٤٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٧).
(٣) فتح القدير (٥ / ١٥).

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فأما الذين آمنوا بالله في الدنيا فوحدوه، ولم يشركوا به شيئا، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يقول: وعملوا بما أمرهم الله به، وانتهوا عما نهاهم الله عنه ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ يعني في جنته برحمته»[١].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: المفاز والنجاة والربح والفلاح الواضح البين، الذي إذا حصل للعبد حصل له كل خير، واندفع عنه كل شر»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الجنة من رحمة الله ﷻ

* عن أبي هريرة ﵁ قال: قال النبي ﷺ: «**تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم، قال الله -تبارك وتعالى- للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابٌ أعذب من أشاء من عبادي**»[٣].

★ **غريب الحديث:**

تحاجّت: أي: تخاصمت.

أُوثِرتُ: على صيغة المجهول، بمعنى: اختصصت، من الإيثار، وهو الانفراد بالشيء.

سقطهم: أي: أراذلهم وأدوانهم.

---

(١) جامع البيان (٢٩ / ١٥٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٣٢-٣٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢ / ٣١٤-٤٥٠)، (٣ / ٧٩)، البخاري (٨ / ٧٦٥ / ٤٨٥٠)، مسلم (٤ / ٢١٨٦ / ٢٨٤٦).

★ **فوائد الحديث:**

قوله في الجنة: «أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي» يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذه رحمة مخلوقة مضافة إليه إضافة المخلوق بالرحمة إلى الخالق تعالى، وسماها رحمة؛ لأنها خلقت بالرحمة وللرحمة، وخص بها أهل الرحمة، وإنما يدخلها الرحماء»[1].

* * *

(١) بدائع الفوائد (٢ / ١٨٣).

قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي : «﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بالله فيقال لهم توبيخا وتقريعا : ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وقد دلتكم على ما فيه صلاحكم ، ونهتكم عما فيه ضرركم ، وهي أكبر نعمة وصلت إليكم لو وفقتم لها ، فاستكبرتم عنها وأعرضتم وكفرتم بها ، فجنيتم أكبر جناية ، وأجرمتم أشد الجرم ، فاليوم تجزون ما كنتم تعملون»[١] .

وقال ابن جرير : «﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ يقول : وكنتم قوما تكسبون الآثام والكفر بالله ، لا تصدقون بمعاد ، ولا تؤمنون بثواب ولا عقاب»[٢] .

قال القرطبي : «فالمجرم من أكسب نفسه المعاصي ، وقد قال الله تعالى : ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾[٣] فالمجرم ضد المسلم ، فهو المذنب بالكفر إذن»[٤] .

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٣٣) .
(٢) جامع البيان (٢٥ / ١٥٧) .
(٣) القلم : الآية (٣٥) .
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٧٦) .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ويقال لهم حينئذ: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لكم ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ الذي وعد عباده، أنه محييهم من بعد مماتهم، وباعثهم من قبورهم ﴿حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ﴾ التي أخبرهم أنه يقيمها لحشرهم، وجمعهم للحساب والثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية، آتية ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ يقول: لا شكَّ فيها، يعني في الساعة، والهاء في قوله: ﴿فِيهَآ﴾ من ذكر الساعة. ومعنى الكلام: والساعة لا ريب في قيامها، فاتقوا اللَّه وآمنوا باللَّه ورسوله، واعملوا لما ينجيكم من عقاب اللَّه فيها ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ تكذيبًا منكم بوعد اللَّه -جل ثناؤه-، وردًا لخبره، وإنكارًا لقُدرته على إحيائكم من بعد مماتكم.

وقوله: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ يقول: وقلتم ما نظنّ أن الساعة آتية إلا ظنًّا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أنها جائية، ولا أنها كائنة»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾

أقول المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وبدا لهؤلاء الذين كانوا في الدنيا يكفرون بآيات اللّه سيئات ما عملوا في الدنيا من الأعمال، يقول: ظهر لهم هنالك قبائحها وشرارها لما قرؤوا كتب أعمالهم التي كانت الحفظة تنسخها في الدنيا ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يقول: وحاق بهم من عذاب اللّه حينئذ ما كانوا به يستهزئون إذ قيل لهم: إن اللّه مُحِلُّهُ بمن كذب به على سيئات ما في الدنيا عملوا من الأعمال»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٥٨).

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السمعاني: «أي: نترككم، ومعناه: نترككم من الرحمة وإعطاء الثواب، وقيل معناه: نترككم في العذاب، فلا نخرجكم منها كما نخرج المؤمنين. وقوله: ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: كما تركتم العمل ليومكم هذا، وقوله: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: من يمنع عذابنا منكم»[1].

وقال الشوكاني: «﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مسكنكم ومستقرّكم الذي تأوون إليه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرونكم فيمنعون عنكم العذاب»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ترك اللَّه الكافر يوم القيامة في عذاب النار

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**يقول اللَّه تعالى للعبد يوم القيامة: ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، أي ربي! فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني**» الحديث[3].

★ **فوائد الحديث:**

قال أبو عيسى الترمذي: «ومعنى قوله: «اليوم أنساك» يقول: اليوم أتركك في العذاب. هكذا فسروه. قال أبو عيسى: وقد فسر بعض أهل العلم هذه الآية ﴿فَٱلْيَوْمَ

(١) تفسير السمعاني (٥ / ١٤٦).
(٢) فتح القدير (٥ / ١٦).
(٣) أخرجه مسلم (٤ / ٢٢٧٩-٢٢٨٠ / ٢٩٦٨)، والترمذي (٤ / ٥٣٤-٥٣٥ / ٢٤٢٨).

نَنسَىٰهُمْ﴾[١] قالوا : إنما معناه اليوم نتركهم في العذاب»[٢] .

وقال النووي : «قوله تعالى «**فإني أنساك كما نسيتني**» أي : أمنعك الرحمة كما امتنعت من طاعتي»[٣] .

* * *

(١) الأعراف: الآية (٥١) .

(٢) سنن الترمذي (٤ / ٥٣٥) .

(٣) شرح مسلم (١٨ / ٨٢) .

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: أي: إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخريا، تسخرون وتستهزئون بها، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: خدعتكم فاطمأننتم إليها، فأصبحتم من الخاسرين؛ ولهذا قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أي: من النار ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يطلب منهم العتبى؛ بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب»[1].

وقال السعدي: «ذلكم الذي حصل لكم من العذاب بسبب ﴿أَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ مع أنها موجبة للجد والاجتهاد، وتلقيها بالسرور والاستبشار والفرح. ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزخارفها ولذاتها وشهواتها فاطمأننتم إليها، وعملتم لها، وتركتم العمل للدار الباقية. ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: ولا يمهلون ولا يردون إلى الدنيا ليعملوا صالحا»[2].

وقال السمعاني: «﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يرجعون ولا يردون إلى ما كانوا عليه من العافية، ويقال: يستقيلون فلا يقالون، ويقال: ولا هم يستعتبون؛ أي: لا يعطون العتبى، وهو طلب رضاهم ومرادهم»[3].

وقال الألوسي: «﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: يطلب منهم أن يعتبوا ربهم سبحانه؛ أي: يزيلوا عتبه -جل وعلا-، وهو كناية عن إرضائه تعالى؛ أي: لا يطلب منهم إرضاؤه ﷻ لفوات أوانه»[4].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٧).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٣٤-٣٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥ / ١٤٦).
(٤) روح المعاني (٢٦ / ٢).

قوله تعالى : ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ على نِعمه وأياديه عند خلقه، فإياه فاحمدوا أيها الناس، فإن كلّ ما بكم من نعمة فمنه دون ما تعبدون من دونه من آلهة ووثن، ودون ما تتخذونه من دونه ربا، وتشركون به معه ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: مالك السموات السبع، ومالك الأرضين السبع و﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول: مالك جميع ما فيهنّ من أصناف الخلق»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٥٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن له الكبرياء في السموات والأرض، يعني أنه المختص بالعظمة والكمال والجلال والسلطان في السماوات والأرض، لأنه هو معبود أهل السماوات والأرض، الذي يلزمهم تكبيره وتعظيمه، وتمجيده والخضوع والذل له.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء مبينًا في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٤ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾[1]، فقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ﴾ معناه أنه هو وحده الذي يعظم ويعبد في السموات والأرض، ويكبر ويخضع له ويذل، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2]، فقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ معناه: أن له الوصف الأكمل، الذي هو أعظم الأوصاف، وأكملها وأجلها في السماوات والأرض»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في اختصاص الله ﷻ بالكبرياء

* عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ: **«العز إزاره والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته»**[4].

(١) الزخرف: الآيتان (٨٤-٨٥).
(٢) الروم: الآية (٢٧).
(٣) أضواء البيان (٧ / ٣٦١).
(٤) أخرجه مسلم (٤ / ٢٠٢٣ / ٢٦٢٠)، من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما، وأخرجه أحمد (٢ / ٢٤٨)، أبو داود (٤ / ٣٥٠ / ٤٠٩٠)، ابن ماجه (٢ / ١٣٩٧ / ٤١٧٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

★ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «معنى هذا الكلام: أن الكبرياء والعظمة صفتان لله سبحانه اختص بهما لا يشركه أحد فيهما، ولا ينبغي لمخلوق أن يتعاطاهما؛ لأن صفة المخلوق التواضع والتذلل»[١].

ولمزيد من الشرح لهذا الحديث ينظر في أواخر سورة الحشر عند قوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾[٢].

* * *

(١) معالم السنن (٤ / ١٨٢).
(٢) الحشر: الآية (٢٣).



سورة الأحقاف

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «من الأغراض التي اشتملت عليها أنها افتتحت مثل سورة (الجاثية) بما يشير إلى إعجاز القرآن للاستدلال على أنه منزل من عند اللَّه.

والاستدلال بإتقان خلق السموات والأرض على التفرد بالإلهية، وعلى إثبات جزاء الأعمال.

والإشارة إلى وقوع الجزاء بعد البعث، وأن هذا العالم صائر إلى فناء.

وإبطال الشركاء في الإلهية. والتدليل على خلوّهم عن صفات الإلهية.

وإبطال أن يكون القرآن من صنع غير اللَّه.

وإثبات رسالة محمد ﷺ، واستشهاد اللَّه تعالى على صدق رسالته، واستشهاد شاهد بني إسرائيل، وهو عبداللَّه بن سلام.

والثناء على الذين آمنوا بالقرآن، وذكر بعض خصالهم الحميدة، وما يضادها من خصال أهل الكفر، وحسدهم الذي بعثهم على تكذيبه.

وذكرت معجزة إيمان الجن بالقرآن.

وختمت السورة بتثبيت الرسول ﷺ.

وأقحم في ذلك معاملة الوالدين والذرية مما هو من خلق المؤمنين، وما هو من خلق أهل الضلالة.

والعبرة بضلالهم مع ما كانوا عليه من القوة، وأن اللَّه أخذهم بكفرهم وأهلك أممًا أخرى فجعلهم عظة للمكذبين، وأن جميعهم لم تغن عنهم أربابهم المكذوبة.

وقد أشبهت كثيرًا من أغراض سورة (الجاثية) مع تفنن»[1].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٦-٧).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أنذروا: الإنذار: الإعلام المقترن بتهديد؛ فكل إنذار إعلام وليس كل إعلام إنذارًا.

معرضون: الإعراض عن الشيء: الصدود عنه، وعدم الإقبال إليه. وأصله: من العُرض، بالضم، وهو الجانب؛ لأن المعرض عن الشيء يولّيه بجانب عنقه، صادًّا عنه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يخبر تعالى أنه نزل الكتاب على عبده ورسوله محمد -صلوات اللَّه وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين- ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام، والحكمة في الأقوال والأفعال، ثم قال: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: لا على وجه العبث والباطل، ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: وإلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾؛ أي: لاهون عما يراد بهم، وقد أنزل إليهم كتاب وأرسل إليهم رسول، وهم معرضون عن ذلك كله؛ أي: وسيعلمون غبّ ذلك»[1].

وقال السعدي: «هذا ثناء منه تعالى على كتابه العزيز وتعظيم له، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى الاهتداء بنوره، والإقبال على تدبر آياته، واستخراج كنوزه.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٥٨).

ولما بين إنزال كتابه المتضمن للأمر والنهي، ذكر خلقه السموات والأرض، فجمع بين الخلق والأمر، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[١] كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾[٢]، وكما قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾[٣]، فالله تعالى هو الذي خلق المكلفين، وخلق مساكنهم، وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض، ثم أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وأمرهم ونهاهم، وأخبرهم أن هذه الدار دار أعمال، وممر للعمال، لا دار إقامة لا يرحل عنها أهلها، وأنهم سينتقلون منها إلى دار الإقامة والقرار، وموطن الخلود والدوام، وإنما أعمالهم التي عملوها في هذه الدار سيجدون ثوابها في تلك الدار كاملًا موفرًا.

وأقام تعالى الأدلة على تلك الدار، وأذاق العباد نموذجًا من الثواب والعقاب العاجل، ليكون أدعى لهم إلى طلب المحبوب، والهرب من المرهوب»[٤].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ما أحدثنا السموات والأرض فأوجدناهما خلقًا مصنوعًا، وما بينهما من أصناف العالم إلا بالحق؛ يعني: إلا لإقامة الحق والعدل في الخلق.

وقوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يقول: وإلا بأجل لكل ذلك معلوم عنده يفنيه إذا هو بلغه، ويعدمه بعد أن كان موجودًا بإيجاده إياه.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: والذين جحدوا وحدانية الله عن إنذار الله إياهم معرضون، لا يتعظون به، ولا يتفكرون»[٥].

وقال السعدي عند قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: «أي: لا عبثًا ولا سدىً، بل ليعرف العباد عظمة خالقهما، ويستدلوا على كماله، ويعلموا أن الذي خلقهما على عظمهما، قادر على أن يعيد العباد بعد موتهم للجزاء، وأن خلقهما وبقاءهما مقدر إلى ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

---

(١) الأعراف: الآية (٥٤).
(٢) الطلاق: الآية (١٢).
(٣) النحل: الآيتان (٢و٣).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٣٧-٣٨).
(٥) جامع البيان (٢٦/ ١).

فلما أخبر بذلك، وهو أصدق القائلين، وأقام الدليل، وأنار السبيل، أخبر مع ذلك أن طائفة من الخلق قد أبوا إلا إعراضًا عن الحق، وصدوفًا عن دعوة الرسل، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ﴾. وأما الذين آمنوا، فلما علموا حقيقة الحال قبلوا وصايا ربهم، وتلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالانقياد والتعظيم، ففازوا بكل خير، واندفع عنهم كل شر»[1].

قال الشنقيطي عند قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ﴾: ما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من أن الكفار معرضون عما أنذرتهم به الرسل جاء موضحًا في آيات كثيرة، كقوله تعالى في (البقرة): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾[2]، وقوله في (يس): ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝﴾[4]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة»[5].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٣٧-٣٨).
(٢) البقرة: الآية (٦).
(٣) يس: الآية (١٠).
(٤) الأنعام: الآية (٤)، يس: الآية (٤٦).
(٥) أضواء البيان (٧/ ٣٧١).

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾

* غريب الآية:

شرك : نصيب .

أثارة : الأثارة من الشيء : البقية منه .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول -تعالى ذكره- : قل يا محمد لهؤلاء المشركين باللّه من قومك : أرأيتم أيها القوم الآلهة والأوثان التي تعبدون من دون اللّه ، أروني أيّ شيء خلقوا من الأرض ؛ فإن ربي خلق الأرض كلها ، فدعوتموها من أجل خلقها ما خلقت من ذلك آلهة وأربابًا ، فيكون لكم بذلك في عبادتكم إياها حجة ؛ فإن من حجتي على عبادتي إلهي ، وإفرادي له الألوهة ، أنه خلق الأرض فابتدعها من غير أصل .

وقوله : ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يقول -تعالى ذكره- : أم لآلهتكم التي تعبدونها -أيها الناس- شرك مع اللّه في السموات السبع ، فيكون لكم أيضًا بذلك حجة في عبادتكموها ؛ فإن من حجتي على إفرادي العبادة لربي أنه لا شريك له في خلقها ، وأنه المنفرد بخلقها دون كلّ ما سواه .

وقوله : ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ يقول -تعالى ذكره- : بكتاب جاء من عند اللّه من قبل هذا القرآن الذي أُنزل عليّ ، بأن ما تعبدون من الآلهة والأوثان خلقوا من الأرض شيئًا ، أو أن لهم مع اللّه شركًا في السموات ، فيكون ذلك حجة لكم على عبادتكم إياها ؛ لأنها إذا صحّ لها ذلك صحت لها الشركة في النِّعم التي أنتم فيها ، ووجب لها عليكم الشكر ، واستحقت منكم الخدمة ؛ لأن ذلك لا يقدر

أن يخلقه إلا الله»[١].

قال ابن كثير: «﴿قُلْ﴾ أي: لهؤلاء المشركين العابدين مع اللَّه غيره: ﴿أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: ولا شرك لهم في السموات ولا في الأرض، وما يملكون من قطمير، إن المُلْك والتصرّف كله إلا اللَّه ﷻ، فكيف تعبدون معه غيره، وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أهو أمركم به؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾؛ أي: هاتوا كتابًا من كتب اللَّه المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة هذه الأصنام، ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: دليل بَيِّن على هذا المسلك الذي سلكتموه ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: لا دليل لكم نقليًّا ولا عقليًّا على ذلك؛ ولهذا قرأ آخرون: (أَوْ أَثْرَةٍ مِنْ عِلْمٍ) أي: أو علم صحيح يَأْثُرونه عن أحد ممن قبلهم، كما قال مجاهد في قوله: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: أو أحد يأثُر علمًا.

وقال العَوْفي، عن ابن عباس: أو بينة من الأمر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثنا صفوان بن سُلَيم، عن أبي سلمة بن عبدالرحمن، عن ابن عباس قال سفيان: لا أعلم إلا عن النبي ﷺ: (أَوْ أَثْرَةٍ مِنْ عِلْمٍ) قال: «**الخطّ**».

وقال أبو بكر بن عياش: أو بقية من علم. وقال الحسن البصري: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ﴾ شيء يستخرجه فيثيره.

وقال ابن عباس، ومجاهد، وأبو بكر بن عياش أيضًا: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: يعني الخطّ.

وقال قتادة: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: خاصة من علم.

وكل هذه الأقوال متقاربة، وهي راجعة إلى ما قلناه، وهو اختيار ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأكرمه، وأحسن مثواه»[٢].

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٥٨-٢٥٩).

قال ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: الأثرة: البقية من علم؛ لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب. . وإذا وجه ذلك إلى ما قلنا فيه من أنه بقية من علم، جاز أن تكون تلك البقية من علم الخط، ومن علم استثير من كُتب الأوّلين، ومن خاصة علم كانوا أوثروا به. وقد رُوي عن رسول اللَّه ﷺ في ذلك خبر بأنه تأوّله أنه بمعنى الخطّ، سنذكره إن شاء اللَّه تعالى، فتأويل الكلام إذن: ائتوني أيها القوم بكتاب من قبل هذا الكتاب، بتحقيق ما سألتكم تحقيقه من الحجة على دعواكم ما تدّعون لآلهتكم، أو ببقية من علم يوصل بها إلى علم صحة ما تقولون من ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم لها ما تدّعون؛ فإن الدعوى إذا لم يكن معها حجة لم تُغن عن المدّعي شيئًا»[1].

قال السعدي: «أي: قل لهؤلاء الذين أشركوا باللَّه أوثانًا وأندادًا، لا تملك نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

قل لهم -مبينًا عجز أوثانهم، وأنها لا تستحق شيئًا من العبادة-: أروني ماذا خلقوا من الأرض، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هل خلقوا من أجرام السموات شيئًا؟ هل خلقوا جبالًا؟ هل أجروا أنهارًا؟.

هل نشروا حيوانًا؟ هل أنبتوا أشجارًا؟

هل كان منهم معاونة على شيء من ذلك؟ لا شيء من ذلك، بإقرارهم على أنفسهم، فضلًا عن غيرهم. فهذا دليل عقلي قاطع، على أن كل من سوى اللَّه، فعبادته باطلة.

ثم ذكر انتفاء الدليل النقلي فقال: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ الكتاب يدعو إلى الشرك ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ موروث عن الرسل يأمر بذلك.

من المعلوم أنهم عاجزون أن يأتوا عن أحد من الرسل، بدليل يدل على ذلك.

بل نجزم ونتيقن أن جميع الرسل، دعوا إلى توحيد ربهم، ونهوا عن الشرك به.

وهي أعظم ما يؤثر عنهم من العلم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[2].

(١) جامع البيان (٢٦/ ٣-٤).

(٢) النحل: الآية (٣٦).

وكل رسول قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[١].

فعلم أن جدال المشركين في شركهم، غير مستندين على برهان ولا دليل، وإنما اعتمدوا على ظنون كاذبة، وآراء كاسدة، وعقول فاسدة. يدلك على فسادها، استقراء أحوالهم، وتتبع علومهم وأعمالهم، والنظر في حال من أفنوا أعمارهم بعبادته، هل أفادوا شيئًا في الدنيا أو في الآخرة. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[٢]»[٣].

قال الشنقيطي: «قد ذكرنا قريبًا أن قوله: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يتضمن البرهان القاطع على صحة معنى لا إله إلا اللَّه، وأن العلامة الفارقة بين المعبود بحق، وبين غيره هي كونه خالقًا؛ وأول سورة (الأحقاف) هذه يزيد ذلك إيضاحًا؛ لأنه ذكر من صفات المعبود بحق أنه خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق؛ وذكر من المعبودات الأخرى التى عبادتها كفر. مخلد فى النار أنها لا تخلق شيئًا.

فقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: هذه المعبودات التي تعبدونها من دون اللَّه، ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾.

فقوله: ﴿أَرُونِي﴾ يراد بها التعجيز والمبالغة في عدم خلقهم شيئًا، وعلى أن (ما) استفهامية، و(ذا) موصولة، فالمعنى أروني ما الذي خلقوه من الأرض. وعلى أن (ما) و(ذا) بمنزلة كلمة واحدة يراد بها الاستفهام، فالمعنى: أروني أي شيء خلقوه من الأرض؟

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن من لم يخلق شيئًا في الأرض ولم يكن له شرك في السموات، لا يصح أن يكون معبودًا بحال، جاء موضحًا في آيات كثيرة، كقوله تعالى في (فاطر): ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾[٤] الآية، وقوله في (لقمان): ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾[٥]، وقوله في (سبأ): ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم

---

(١) الأعراف: الآية (٥٩).
(٢) الأحقاف: الآية (٥).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٣٨-٤٠).
(٤) فاطر: الآية (٤٠).
(٥) لقمان: الآية (١١).

مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾[1]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة»[2].

وقوله تعالى: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ قد تقدمت الآيات الموضحة له في سورة (الزخرف) عند قوله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾ الآية (٢١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الأثارة بالخط والنهي عن ذلك

* عن ابن عباس عن النبي ﷺ: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ قال: «**الخط**»[3].

★ **غريب الحديث:**

الخطّ: قال الخطابي: «الخط عند العرب فيما فسره ابن الأعرابي: أن يأتي الرجل العراف وبين يديه غلام، فيأمر بأن يخط في الرمل خطوطًا كثيرة وهو يقول: ابني عيان أسرعا البيان، ثم يأمره أن يمحو منها اثنين اثنين، ثم ينظر إلى آخر ما يبقى من تلك الخطوط، فإن كان الباقي منها زوجًا فهو دليل الفلح والظفر، وإن كان فردًا فهو دليل الخيبة واليأس»[4].

* عن معاوية بن الحكم السلمي أن رسول الله ﷺ قال: «**كان نبي من الأنبياء يخطّ، فمن وافق خطّه فذاك**»[5].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «اختلف العلماء في معناه؛ فالصحيح أن معناه وافق خطه فهو

---

(١) سبأ: الآية (٢٢).
(٢) أضواء البيان (٧/ ٣٧٢-٣٧٣).
(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٦)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٦٣/ ١٠٧٢٥)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١٠٥) وقال: «رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط.. ورجال أحمد للحديث المرفوع رجال الصحيح»، وأخرجه الحاكم (٢/ ٤٥٤) موقوفاً عنه وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.
(٤) معالم السنن (١/ ١٩٢).
(٥) هذا جزء من حديث طويل أخرجه: أحمد (٥/ ٤٤٧)، ومسلم (١/ ٣٨١-٣٨٢/ ٥٣٧)، وأبو داود (١/ ٥٧٠-٥٧٣/ ٩٣٠)، والنسائي في الكبرى (١/ ٣٦٢/ ١١٤١).

مباح له؛ ولكن لا طريقة لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة، فلا يباح، والمقصود أنه حرام؛ لأنه لا يباح إلا بيقين الموافقة، وليس لنا يقين بها، وإنما قال النبي ﷺ: «**فمن وافق خطه فذاك**»، ولم يقل: هو حرام، بغير تعليق على الموافقة؛ لئلاّ يتوهّم متوهّم أن هذا النهي يدخل فيه ذاك النبي الذي كان يخطّ، فحافظ النبي ﷺ على حرمة ذاك النبي مع بيان الحكم في حقّنا، فالمعنى أن ذلك النبي لا منع في حقه، وكذا لو علمتم موافقته، ولكن لا علم لكم بها»[1].

قال الخطابي: قوله: «**فمن وافق خطه فذلك**» يشبه أن يكون أراد به الزجر عنه، وترك التعاطي له؛ إذ كانوا لا يصادقون معنى خط ذلك النبي؛ لأن خطه كان علمًا لنبوته، وقد انقطعت نبوته فذهبت معالمها»[2].

قال القرطبي في المفهم: «قال القاضي: الأظهر من اللفظ خلاف هذا، وتصويب خط من يوافق خطه؛ لكن من أين تعلم الموافقة؟ والشرع منع من التخرص وادعاء الغيب جملة، وإنما معناه: أن من وافق خطه فذلك الذي تجدون إصابته، لا أنه يريد إباحة ذلك لفاعله على ما تأوله بعضهم»[3].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فحصل من مجموع كلام العلماء فيه الاتفاق على النهي عنه الآن»[4].

* * *

(١) شرح صحيح مسلم (٥/ ٢١).
(٢) معالم السنن (١/ ١٩٢).
(٣) المفهم (٢/ ١٤٢).
(٤) شرح مسلم (٥/ ٢١).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦﴾

★ **غريب الآية:**

حُشر: الحَشر: إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها. ولا يقال الحشر إلا في جماعة، وسمّي يوم القيامة: يوم الحشر، كما سمّي: يوم البعث والنشر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وأيّ عبد أضلّ من عبد يدعو من دون اللَّه آلهة، ﴿لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يقول: لا تُجيب دعاءه أبدًا؛ لأنها حجر أو خشب أو نحو ذلك.

وقوله: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وآلهتهم التي يدعونهم عن دعائهم إياهم في غفلة؛ لأنها لا تسمع ولا تنطق، ولا تعقل. وإنما عنى بوصفها بالغفلة، تمثيلها بالإنسان الساهي عما يقال له؛ إذ كانت لا تفهم مما يقال لها شيئًا، كما لا يفهم الغافل عن الشيء ما غفل عنه. وإنما هذا توبيخ من اللَّه لهؤلاء المشركين لسوء رأيهم، وقُبح اختيارهم في عبادتهم من لا يعقل شيئًا ولا يفهم، وتركهم عبادة من جميع ما بهم من نعمته، ومن به استغاثتهم عندما ينزل بهم من الحوائج والمصائب.

وقيل: من لا يستجيب له، فأخرج ذكر الآلهة وهي جماد مخرج ذكر بني آدم، ومن له الاختيار والتميز؛ إذ كانت قد مثلتها عبدتها بالملوك والأمراء التي تخدم في خدمتهم إياها، فأجرى الكلام في ذلك على نحو ما كان جاريًا فيه عندهم»[1].

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٤).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾:

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإذا جُمع الناس يوم القيامة لموقف الحساب، كانت هذه الآلهة التي يدعونها في الدنيا لهم أعداءً؛ لأنهم يتبرّؤون منهم، ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وكانت آلهتهم التي يعبدونها في الدنيا بعبادتهم جاحدين؛ لأنهم يقولون يوم القيامة: ما أمرناهم بعبادتنا، ولا شعرنا بعبادتهم إيانا، تبرّأنا إليك منهم يا ربنا»[1].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾[2] أي: سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم، وقال الخليل: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[3]»[4].

* * *

(١) المصدر السابق.

(٢) مريم: الآيتان (٨١و٨٢).

(٣) العنكبوت: الآية (٢٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٥٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾

★ غريب الآية:

افتراه: أي: اختلقه وتقوّله وتخرّصه كذبًا.

تفيضون: تخوضون؛ أفاض في الشيء: خاض فيه واندفع.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإذا يقرأ على هؤلاء المشركين بالله من قومك آياتنا، يعني حججنا التي احتججناها عليهم، فيما أنزلناه من كتابنا على محمد ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ يعني: واضحات نيّرات، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ يقول -تعالى ذكره-: قال الذين جحدوا وحدانية الله، وكذّبوا رسوله للحق لما جاءهم من عند الله، فأنزله على رسوله ﷺ: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يعنون هذا القرآن خداع يخدعنا، ويأخذ بقلوب من سمعه فعل السحر ﴿مُّبِينٌ﴾، يقول: يُبين لمن تأمله ممن سمعه أنه سحر مبين»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن المشركين في كفرهم وعنادهم: أنهم إذا تتلى عليهم آيات الله بينات؛ أي: في حال بيانها ووضوحها وجلائها، يقول: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: سحر واضح، وقد كذبوا وافتروا وضلّوا وكفروا»[2].

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾:

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٥٩).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أم يقولون هؤلاء المشركون باللَّه من قريش، افترى محمد هذا القرآن، فاختلقه وتخرّصه كذبًا، قل لهم يا محمد إن افتريته وتخرّصته على اللَّه كذبًا ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي﴾ يقول: فلا تغنون عني من اللَّه إن عاقبني على افترائي إياه، وتخرّصي عليه شيئًا، ولا تقدرون أن تدفعوا عني سوءًا إن أصابني به.

وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ يقول: ربي أعلم من كل شيء سواه بما تقولون بينكم في هذا القرآن، والهاء من قوله: ﴿تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ من ذكر القرآن»[1].

قال ابن كثير: «﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يعنون محمدًا ﷺ. قال اللَّه: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني -وليس كذلك- لعاقبني أشد العقوبة، ولم يقدر أحد من أهل الأرض، لا أنتم ولا غيركم، أن يجيرني منه، كقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝٢٢ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۝٤٧﴾[3]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ هذا تهديد لهم، ووعيد أكيد، وترهيب شديد.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة؛ أي: ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم، تاب عليكم وعفا عنكم، وغفر ورحم. وهذه الآية كقوله في سورة (الفرقان): ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾[4]»[5].

* * *

(١) جامع البيان (٢٦/ ٥).
(٢) الجن: الآيتان (٢٢و٢٣).
(٣) الحاقة: الآيات (٤٤-٤٧).
(٤) الفرقان: الآيتان (٥و٦).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٥٩-٢٦٠).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾

★غريب الآية:

بدعًا: أي: أول رسول ليس قبلي أحد. قال عدي بن زيد:

فلا أنا بدع من حوادث تعتري رجالًا غدت من بعد بؤسى بأسعد

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي قومك من قريش: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ يعني: ماكنت أول رسل اللَّه التي أرسلها إلى خلقه، قد كان من قبلي له رسل كثيرة أُرسلت إلى أمم قبلكم»[(١)].

قال ابن كثير: «أي: لست بأول رسول طرق العالم، بل قد جاءت الرسل من قبلي، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكروني وتستبعدوا بعثتي إليكم؛ فإنه قد أرسل اللَّه قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾: ما أنا بأول رسول. ولم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم غير ذلك»[(٢)].

وقال الشنقيطي: «وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء موضحًا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾[(٣)]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾[(٤)] الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾[(٥)] الآية، وقوله تعالى: ﴿حم ۝١ عسق ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ

(١) جامع البيان (٢٦/ ٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٠).
(٣) الرعد: الآية (٣٨).
(٤) الروم: الآية (٤٧).
(٥) النساء: الآية (١٦٣).

ٱلْحَكِيمُ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾[٢] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾[٣] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾[٤] الآية، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة»[٥].

قال أبو عمر في «التمهيد»: «اختلف العلماء في معنى قول الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾، فقال منهم قائلون: ذلك في الدنيا وأحكامها، نحو الاختبار بالجهاد والفرائض من الحدود والقصاص وغير ذلك، وقالوا: لا يجوز غير هذا التأويل؛ لأن الله قد أعلم ما يفعل به وبالمؤمنين؛ وما يفعل بالمشركين بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾[٦]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾[٧]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[٨]، وقوله: ﴿إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾[٩]. وروى وكيع عن أبي بكر الهذلي عن الحسن في قوله: «وما أدري ما يفعل بي ولا بكم». قال: في الدنيا. وقال آخرون: بل ذلك على وجهه في أمر الدنيا وفي ذنوبه وما يختم له من عمله، حتى نزلت: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، ففرح رسول الله ﷺ. وقال: **هي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس**، وهذا معنى تفسير قتادة والضحاك والكلبي. وروى مثله يزيد بن إبراهيم التستري عن الحسن»[١٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال أبوبكر الهذلي عن الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾، قال: أما في الآخرة فمعاذ الله، وقد علم أنه في الجنة؛ ولكن قال: لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا، أخرج كما أخرجت الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من قبلي؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي؟ ولا أدري أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة؟ وهذا القول هو الذي عوّل عليه ابن

(١) الشورى: الآيات (١-٣).
(٢) فصلت: الآية (٤٣).
(٣) آل عمران: الآية (١٤٤).
(٤) الأنعام: الآية (٣٤).
(٥) أضواء البيان (٧/ ٣٧٧).
(٦) الانفطار: الآيتان (١٣و١٤).
(٧) المائدة: الآية (٧٢).
(٨) النساء: الآية (٤٨).
(٩) الأنعام: الآية (٥٧).
(١٠) فتح البر (٦/ ٣٩٣-٣٩٤).

جرير، وأنه لا يجوز غيره»[1].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأولى الأقوال في ذلك بالصحة وأشبهها بما دلّ عليه التنزيل: القول الذي قاله الحسن البصري، الذي رواه عنه أبو بكر الهُذَليّ.

وإنما قلنا ذلك أولاها بالصواب؛ لأن الخطاب من مبتدإ هذه السورة إلى هذه الآية، والخبر خرج من اللَّه عَزَّ وَجَلَّ خطابًا للمشركين وخبرًا عنهم، وتوبيخًا لهم، واحتجاجًا من اللَّه -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ عليهم.

فإذا كان ذلك كذلك، فمعلوم أن هذه الآية أيضًا سبيلها سبيل ما قبلها وما بعدها في أنها احتجاج عليهم، وتوبيخ لهم، أو خبر عنهم. وإذا كان ذلك كذلك، فمحال أن يقال للنبي ﷺ: قل للمشركين: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة، وآيات كتاب اللَّه عَزَّ وَجَلَّ في تنزيله ووحيه إليه متتابعة بأن المشركين في النار مخلّدون، والمؤمنون به في الجنان منعّمون، وبذلك يرهبهم مرّة، ويرغبهم أخرى، ولو قال لهم ذلك، لقالوا له: فعلام نتبعك إذن وأنت لا تدري إلى أيّ حال تصير غدًا في القيامة، إلى خفض ودعة، أم إلى شدّة وعذاب؛ وإنما اتباعنا إياك إن اتبعناك، وتصديقنا بما تدعونا إليه، رغبة في نعمة، وكرامة نصيبها، أو رهبة من عقوبة، وعذاب نهرب منه، ولكن ذلك كما قال الحسن، ثم بين اللَّه لنبيه ﷺ ما هو فاعل به، وبمن كذّب بما جاء به من قومه وغيرهم»[2].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التحقيق إن شاء اللَّه، أن معنى الآية الكريمة: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم فى دار الدنيا، فما أدري أأخرج من مسقط رأسي أو أقتل كما فعل ببعض الأنبياء، وما أدري ما ينالني من الحوادث والأمور فى تحمل أعباء الرسالة، وما أدري ما يفعل بكم أيخسف بكم، أو تنزل عليكم حجارة من السماء، ونحو ذلك. وهذا هو اختيار ابن جرير وغير واحد من المحققين.

وهذا المعنى في هذه الآية دلت عليه آيات من كتاب اللَّه كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾[3] الآية، وقوله تعالى آمرًا له ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾[4] الآية.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٠).

(٢) جامع البيان (٢٦/ ٨).

(٣) الأعراف: الآية (١٨٨).

(٤) الأنعام: الآية (٥٠).

وبهذا تعلم أن ما يروى عن ابن عباس وأنس وغيرهما من أن المراد، ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ أي: في الآخرة، فهو خلاف التحقيق، كما سترى إيضاحه إن شاء الله؛ فقد روي عن ابن عباس وأنس وقتادة والضحاك وعكرمة والحسن في أحد قوليه أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ فرح المشركون واليهود والمنافقون، وقالوا: كيف نتبع نبيًا لا يدري ما يفعل به ولا بنا؟ وأنه لا فضل له علينا، ولولا أنه ابتدع الذي يقوله من عند نفسه، لأخبره الذي بعثه بما يفعل به. فنزلت: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[1] فنسخت هذه الآية. وقالت الصحابة: هنيئًا لك يا رسول الله! لقد بيّن لك اللّه ما يفعل بك، فليت شعرنا ما هو فاعل بنا. فنزلت: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾[2] الآية، ونزلت: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ۝٤٧﴾[3].

فالظاهر أن هذا كله خلاف التحقيق، وأن النبي ﷺ لا يجهل مصيره يوم القيامة لعصمته صلوات اللّه وسلامه عليه، وقد قال له اللّه تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾[4]، وأن قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ في أمور الدنيا كما قدّمنا»[5].

قال ابن كثير: «ولا شك أن هذا هو اللائق به ﷺ؛ فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا؟ أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم؟»[6].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ يقول -تعالى ذكره-: قل لهم: ما أتبع فيما آمركم به، وفيما أفعله من فعل إلا وحي اللّه الذي يوحيه إليّ، ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ يقول: وما أنا لكم إلا نذير، أنذركم عقاب اللّه على كفركم به، ﴿مُّبِينٞ﴾ يقول: قد أبان لكم إنذاره، وأظهر لكم دعاءه إلى ما فيه نصيحتكم، يقول: فكذلك أنا»[7].

---

(١) الفتح: الآية (٢).
(٢) الفتح: الآية (٥).
(٣) الأحزاب: الآية (٤٧).
(٤) الضحى: الآيتان (٤و٥).
(٥) أضواء البيان (٧/ ٣٧٧-٣٧٩).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٠).
(٧) جامع البيان (٢٦/ ٨).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أنه لا يقطع لمعين بجنة ولا نار إلا ما نصّ الشارع على تعيينهم

* عن أم العلاء -امرأة من نسائهم بايعت النبي ﷺ- «أخبرته أن عثمان بن مظعون طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين. قالت أم العلاء: فاشتكى عثمان عندنا، فمرضته حتى توفي، وجعلناه في أثوابه. فدخل علينا النبي ﷺ، فقلت: رحمة اللّه عليك أبا السائب، شهادتي عليك لقد أكرمك اللّه. فقال النبي ﷺ: **وما يدريك أن اللّه أكرمه؟** قالت: قلت: لا أدري، بأبي أنت وأمي يا رسول اللّه، فمن؟ قال: **أما هو فقد جاءه واللّه اليقين، واللّه إني لأرجو له الخير، وما أدري واللّه -وأنا رسول الله- ما يفعل بي**. قالت: فواللّه لا أزكي أحدًا بعده. قالت: فأحزنني ذلك، فنمت فرأيت لعثمان عينا تجري، فجئت رسول اللّه ﷺ وأخبرته، فقال: **ذلك عمله**»[1].

★ غريب الحديث:

طار لهم: أي: خرج في القرعة لهم[2].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «وإنما قال رسول اللّه ﷺ ذلك موافقة لقوله تعالى في سورة (الأحقاف): ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾. وكان ذلك قبل نزول قوله تعالى: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾؛ لأن (الأحقاف) مكية، وسورة (الفتح) مدنية بلا خلاف فيهما، وقد ثبت أنه ﷺ قال: «**أنا أول من يدخل الجنة**»[3]، وغير ذلك من الأخبار الصريحة في معناه، فيحتمل أن يحمل الإثبات في ذلك على العلم المجمل، والنفي على الإحاطة من حيث التفصيل»[4].

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٣٦)، والبخاري (٧/ ٣٣٥-٣٣٦/ ٣٩٢٩) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٨٥/ ٧٦٣٤).

(٢) فتح الباري (٧/ ٣٣٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٤٤)، وابن منده في الإيمان (٢/ ٨٤٦-٨٤٧/ ٨٧٧)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٤٧٩-٤٨٠)، والدارمي (١/ ١٩٨-١٩٩/ ٥٣)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٠١/ ٧٦٩٠).

(٤) فتح الباري (٣/ ١٥٠).

وقال **شيخ الإسلام**: «وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ نفي لعلمه بجميع ما يُفعل به وبهم، وهذا لا يعلمه إلا اللَّه تبارك وتعالى، وهذا لا ينفي أن يكون عالمًا بأنه سعيد من أهل الجنة، وإن لم يدر تفاصيل ما يجري له من الدنيا من المحن والأعمال، وما يتجدد له من الشرائع، وما يُكرم به في الآخرة من أصناف النعيم، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول اللَّه تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[١]»[٢].

قال الشنقيطي: «فإن قيل: قد صح عن النبي ﷺ من حديث أم العلاء الأنصارية ما يدل على أن قوله: ﴿مَا يُفۡعَلُ بِي﴾ في الآخرة، فإن حديثها في قصة وفاة عثمان بن مظعون رضي الله عنه عندهم، ودخول رسول اللَّه ﷺ فيه، أنها قالت: رحمة اللَّه عليك، أبا السائب شهادتي عليك لقد أكرمك اللَّه عز وجل -تعني عثمان بن مظعون-، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**وما يدريك أن اللَّه أكرمه؟**» فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير، واللَّه ما أدري وأنا رسول اللَّه** ﷺ **ما يُفعل بي**» الحديث.

فالجواب هو ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله، فقد قال في تفسير هذه الآية الكريمة، بعد أن ساق حديث أم العلاء المذكور بالسند الذي رواه به أحمد رحمه الله انفرد به البخاري دون مسلم، وفي لفظ له: «**ما أدري وأنا رسول اللَّه** ﷺ **ما يُفعل به**»، وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ بدليل قولها: «**فأحزنني ذلك**» انتهى محل الغرض منه، وهو الصواب إن شاء اللَّه، والعلم عند اللَّه تعالى»[٣].

قال ابن بطال: «وقال المهلب: وفي حديث أم العلاء أنه لا يقطع على أحد من أهل القبلة بجنة ولا نار، ولكن يرجى للمحسن، ويخاف على المسيء، وأما قوله عليه السلام: «**واللَّه ما أدري وأنا رسول اللَّه ما يُفعل بي**» فيحتمل أن يكون قبل أن يعلمه اللَّه بأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وقد رُوي في هذا الحديث «**ما يُفعل به**» وهو الصواب؛ لأن رسول اللَّه ﷺ لا يعلم من ذلك إلا ما يوحى به إليه، واللَّه

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٣)، والبخاري (٦/ ٣٩١/ ٣٢٤٤)، ومسلم (٤/ ٢١٧٤)/ ٢٨٢٤)، والترمذي (٥/ ٣٢٣/ ٣١٩٧)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٧/ ٤٣٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الجواب الصحيح (٣/ ١٥٩-١٦٠).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٣٧٨-٣٧٩).

الموفق للصواب.

وقال عبدالواحد: فإن قيل: هذا المعنى يعارض قوله في حديث جابر: «**ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه**»[١]، قيل: لا تعارض بينهما، وذلك أن الرسول لا ينطق عن الهوى، فأنكر على أم العلاء قطعها على ابن مظعون؛ إذ لم يعلم هو من أمره شيئًا، وفي قصة جابر قال بما علمه من طريق الوحي؛ إذ لا يجوز أن يقطع ﷺ على مثل هذا إلا بوحي، فسقط التعارض»[٢].

قال ابن كثير: «وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نص الشارع على تعيينهم، كالعشرة، وابن سلام، والغميصاء، وبلال، وسراقة، وعبدالله بن عمرو بن حرام والد جابر، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة، وزيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة، وما أشبه هؤلاء»[٣].

قال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله شارحًا قول الطحاوي وهو يتحدث على أهل القبلة: «ولا ننزل أحدا جنة ولا نارًا، إنا لا نقول عن أحد معين من أهل القبلة: إنه من أهل الجنة أو من أهل النار، إلا من أخبر الصادق ﷺ أنه من أهل الجنة، كالعشرة رضي الله عنهم، وإن كنا نقول إنه لا بد أن يدخل النار من أهل الكبائر من شاء الله إدخاله النار، ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين؛ ولكنا نقف في الشخص المعين، فلا نشهد له بجنة ولا نار إلا عن علم؛ لأن الحقيقة باطنة، وما مات عليه لا نحيط به؛ لكن نرجو للمحسنين، ونخاف على المسيئين»[٤].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فلا ينبغي لأحد أن يشهد لواحد بعينه أنه في النار؛ لإمكان أن يتوب، أو يغفر له بحسنات ماحية، أو مصائب مكفرة، أو شفاعة مقبولة، أو غير ذلك، فهكذا الواحد من الملوك أو غير الملوك، وإن كان صدر منه ما هو ظلم فإن ذلك لا يوجب أن نلعنه ونشهد له بالنار، ومن دخل في ذلك كان من أهل البدع والضلال»[٥].

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٩٨)، والبخاري (٣/ ١٤٨/ ١٢٤٤)، ومسلم (٤/ ١٩١٨/ ٢٤٧١[١٣٠])، والنسائي (٤/ ٣١١/ ١٣٤٤).

(٢) شرح صحيح البخاري (٣/ ٢٤٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦١).

(٤) شرح الطحاوية (ص: ٤٢٦).

(٥) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٧٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قل -يا محمد لهؤلاء المشركين القائلين لهذا القرآن لما جاءهم: هذا سحر مبين-: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أيها القوم ﴿إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أنزله عليّ، ﴿وَكَفَرْتُم﴾ أنتم ﴿بِهِۦ﴾ يقول: وكذّبتم أنتم به»[1].

قال الشنقيطي: «جواب الشرط في هذه الآية محذوف.

وأظهر الأقوال في تقديره: إن كان هذا القرآن من عند اللّه وكفرتم به، وجحدتموه، فأنتم ظالمون. وكون جزاء الشرط في هذه الآية كونهم ضالين ظالمين، يبيّنه قوله تعالى في آخر (فصّلت): ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾[2]، وقوله في آية (الأحقاف) هذه: ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾»[3].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: وشهد شاهد من بني إسرائيل، وهو موسى بن عمران عليه السلام ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾، يعني على مثل القرآن، قالوا: ومثل القرآن الذي شهد عليه موسى بالتصديق: التوراة..

وقال آخرون: عنى بقوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ عبداللّه بن سلام، قالوا: ومعنى الكلام: وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثل هذا القرآن بالتصديق. قالوا: ومثل القرآن التوراة»[4].

وقال ابن كثير: «قال مسروق والشعبي: ليس بعبداللّه بن سلام؛ هذه الآية

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٩).
(٢) فصلت: الآية (٥٢).
(٣) أضواء البيان (٧/ ٣٧٩).
(٤) جامع البيان (٢٦/ ٩-١٠).

مكية، وإسلام عبدالله بن سلام كان بالمدينة»[١].

قال ابن جرير: «والصواب من القول في ذلك عندنا أن الذي قاله مسروق في تأويل ذلك أشبه بظاهر التنزيل؛ لأن قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ في سياق توبيخ الله -تعالى ذكره- مشركي قريش، واحتجاجًا عليهم لنبيه ﷺ، وهذه الآية نظيرة سائر الآيات قبلها، ولم يجر لأهل الكتاب ولا لليهود قبل ذلك ذكر، فتوجه هذه الآية إلى أنها فيهم نزلت، ولا دلّ على انصراف الكلام عن قصص الذين تقدّم الخبر عنهم معنى، غير أن الأخبار قد وردت عن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ بأن ذلك عنى به عبدالله بن سلام، وعليه أكثر أهل التأويل، وهم كانوا أعلم بمعاني القرآن، والسبب الذي فيه نزل، وما أريد به.

فتأويل الكلام إذ كان ذلك كذلك: وشهد عبدالله بن سلام، وهو الشاهد من بني إسرائيل، على مثله، يعني على مثل القرآن، وهو التوراة، وذلك شهادته أن محمدًا مكتوب في التوراة أنه نبيّ تجده اليهود مكتوبًا عندهم في التوراة، كما هو مكتوب في القرآن أنه نبيّ»[٢].

قال ابن كثير: «وهذا الشاهد اسم جنس يعمّ عبدالله بن سلام وغيره؛ فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبدالله بن سلام. وهذه كقوله: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣﴾[٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨﴾[٤]»[٥].

وقال الشنقيطي: «التحقيق -إن شاء الله- أن هذه الآية الكريمة جارية على أسلوب عربي معروف، وهو إطلاق المثل، على الذات نفسها، كقولهم: مثلك لا يفعل هذا، يعنون: لا ينبغي لك أنت أن تفعله.

وعلى هذا، فالمعنى: وشهد شاهد من بني إسرائيل على أن هذا القرآن وحي منزل حقًا من عند الله، لا أنه شهد على شيء آخر مماثل له. ولذا قال تعالى:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٢).
(٢) جامع البيان (٢٦/ ١٢).
(٣) القصص: الآية (٥٣).
(٤) الإسراء: الآيتان (١٠٧و١٠٨).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٢).

﴿فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾.

ومما يوضح هذا: تكرر إطلاق المثل في القرآن مرادًا به الذات؛ كقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾(١) الآية. فقوله: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ أي: كمن هو نفسه في الظلمات. وقوله تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ﴾(٢)؛ أي: فإن آمنوا بما آمنتم به، لا بشيء آخر مماثل له على التحقيق.

ويستأنس له بالقراءة المروية عن ابن عباس وابن مسعود: (فإن آمنوا بما آمنتم به) الآية.

والقول بأن لفظة (ما) في الآية مصدرية، وأن المراد تشبيه الإيمان بالإيمان؛ أي: فإن آمنوا بإيمان مثل إيمانكم فقد اهتدوا، لا يخفى بعده.

والشاهد في الآية هو عبدالله بن سلام ﷺ، كما قال الجمهور، وعليه فهذه الآية مدنية في سورة مكية.

وقيل: إن الشاهد موسى بن عمران عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وقيل غير ذلك»(٣).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ يقول: ﴿فَـَٔامَنَ﴾ عبدالله بن سلام، وصدّق بمحمد ﷺ، وبما جاء به من عند الله، ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ أنتم على الإيمان بما آمن به عبدالله بن سلام معشر اليهود، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يقول: إن الله لا يوفّق لإصابة الحق، وهدى الطريق المستقيم، القوم الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بإيجابهم لها سخط الله بكفرهم به»(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية ومنقبة عبدالله بن سلام ﷺ

* عن عوف بن مالك الأشجعي ﷺ قال: «انطلق النبي ﷺ يومًا وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيد لهم، فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم

---

(١) الأنعام: الآية (١٢٢).
(٢) البقرة: الآية (١٣٧).
(٣) أضواء البيان (٧/ ٣٨٠-٣٨١).
(٤) جامع البيان (٢٦/ ١٢).

رسول اللَّه ﷺ: **يا معشر اليهود! أروني اثني عشر رجلًا يشهدون أنه لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه يحبط اللَّه عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي غضب عليه**. قال: فأسكتوا ما أجابه منهم أحد، ثم رد عليهم فلم يجبه أحد، ثم ثلث فلم يجبه أحد، فقال: **أبيتم فواللَّه إني لأنا الحاشر وأنا العاقب وأنا النبي المصطفى آمنتم أو كذبتم**. ثم انصرف وأنا معه حتى إذا كدنا أن نخرج نادى رجل من خلفنا: كما أنت يا محمد! قال: فأقبل فقال ذلك الرجل: أيّ رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود؟ قالوا: واللَّه ما نعلم أنه كان فينا رجل أعلم بكتاب اللَّه منك، ولا أفقه منك، ولا من أبيك، ولا من جدك قبل أبيك، قال: فإني أشهد له باللَّه إنه نبي اللَّه الذي تجدونه في التوراة. قالوا: كذبت، ثم ردوا عليه قوله، وقالوا فيه شرًّا. قال رسول اللَّه ﷺ: **كذبتم لن يقبل قولكم. أما آنفًا فتثنون عليه من الخير ما أثنيتم، ولما آمن أكذبتموه وقلتم فيه ما قلتم، فلن يقبل قولكم**، قال: فخرجنا ونحن ثلاثة: رسول اللَّه ﷺ وأنا وعبداللَّه بن سلام. وأنزل اللَّه ﷻ فيه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾»[1].

★ **غريب الحديث:**

أديم السماء: أديم كل شيء: ظاهر جلده، وأديم السماء: ما ظهر منها.

الحاشر: الذي يحشر الناس خلفه وعلى ملته دون ملة غيره.

العاقب: يعني آخر الأنبياء. والعاقب والعقوب: الذي يخلف من كان قبله.

* عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: «ما سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبداللَّه بن سلام، قال: وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾»[2].

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٥)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٤٦-٤٧/ ٨٣)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٦/ ١١٩-١٢٠/ ٧١٦٢)، والحاكم (٣/ ٤١٥-٤١٦) على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١٠٥-١٠٦) وقال: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح».

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ١٦٩)، والبخاري (٧/ ١٦٢/ ٣٨١٢) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٩٣٠/ ٢٤٨٣)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٧٠/ ٨٢٥٢).

★ **غريب الحديث:**

عبد اللَّه بن سلام: بتخفيف اللام: أي: ابن الحارث من بني قينقاع، وهم من ذرية يوسف الصديق، وكان اسم عبداللَّه بن سلام في الجاهلية: الحصين، فسماه النبي ﷺ عبداللَّه، أخرجه ابن ماجه، وكان من حلفاء الخزرج من الأنصار، أسلم أول ما دخل النبي ﷺ المدينة.. وزعم الداودي أنه كان من أهل بدر، وسبقه إلى ذلك أبو عروبة وتفرد بذلك ولا يثبت، وغلط من قال: إنه أسلم قبل وفاة النبي ﷺ بعامين، ومات عبداللَّه بن سلام سنة ثلاث وأربعين[١].

وقال الذهبي: عبداللَّه بن سلام بن الحارث، الإمام الحبر، المشهود له بالجنة، أبو الحارث الإسرائيلي، حليف الأنصار، من خواص أصحاب النبي ﷺ[٢].

★ **فوائد الحديثين:**

في هذين الحديثين من الفوائد: التصريح بأن هذه الآية نزلت في عبداللَّه بن سلام رضي الله عنه.

قال المباركفوري: «حديث عبداللَّه بن سلام هذا صريح في أن هذه الآية نزلت فيه، وحديث عوف بن مالك عند ابن حبان وحديث ابن عباس عند ابن مردويه أيضًا يدلآن على أن هذه الآية نزلت في عبداللَّه بن سلام كما في «فتح الباري»، وهو القول الراجح»[٣].

وقال العيني في قول سعد بن أبي وقاص في وصف عبداللَّه بن سلام: ««وفيه نزلت» أي: وفي عبداللَّه بن سلام نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾»[٤].

قال صديق حسن خان: «والراجح أنه عبداللَّه بن سلام، وأن هذه الآية مدنية، لا مكية»[٥].

---

(١) فتح الباري (٧/ ١٦٣).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤١٣).
(٣) تحفة الأحوذي (٩/ ٩٩).
(٤) عمدة القاري (١١/ ٥٢٥).
(٥) فتح البيان (١٣/ ١٧).

قال ابن كثير: «وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعكرمة، ويوسف بن عبدالله بن سلام، وهلال بن يساف، والسدي، والثوري، ومالك بن أنس وابن زيد أنهم كلهم قالوا: إنه عبدالله بن سلام»[١].

وقال العيني: «وأنكره مسروق والشعبي، وقالا: السورة مكية، يعني سورة (الأحقاف)، يعني السورة التي فيها الآية المذكورة. قال الشعبي: وأسلم عبدالله ابن سلام قبل موته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعامين. واختلفا في المراد بالآية، فقال مسروق: الشاهد: موسى عليه الصلاة والسلام، وقال الشعبي: هو رجل من أهل الكتاب. وأجيب: بأنه يجوز أن تكون الآية مدنية من سورة مكية. وقال صاحب (مقامات التنزيل): هذه السورة -يعني سورة (الأحقاف)- مكية، إلا آيتان مدنيتان، منهما هذه الآية. وقال ابن عباس ومقاتل: الشاهد ابن يامين، وروى السدي عن ابن عباس: أنها نزلت في عبدالله بن سلام وابن يامين، واسمه: عمير بن وهب النضري، وروى عبد بن حميد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن اسمه ميمون بن يامين، وفيه نزلت هذه الآية. وقال الذهبي في «تجريد الصحابة»: يامين بن يامين الإسرائيلي أسلم وكان من بني النضر، وقيل: يامين بن عمر، وقال في باب الميم: ميمون بن يامين، قال سعيد بن جبير: كان رأس اليهود بالمدينة فأسلم»[٢].

قال الحافظ: «ولا مانع أن تكون نزلت في الجميع»[٣].

قال الشوكاني: «وفيه دليل على أن هذه الآية مدنية، فيخصص بها عموم قولهم: إن سورة (الأحقاف) كلها مكية»[٤].

قال ابن هبيرة: «في هذا الحديث -حديث سعد- من الفقه ما يدل على فضل عبدالله بن سلام، وما يحض على قبول أخباره؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «**إنه من أهل الجنة**»، وإنما نال الجنة لأنه أقبل على الحق حين ارتدّ عنه أهل الكتاب، فكان في معنى شخص يكون في صف المسلمين فينكسرون فيثبت وحده، أو في صف المشركين فيُصرّون على كفرهم، ويثبت بمفرده»[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٢).
(٢) عمدة القاري (١١/ ٥٢٥).
(٣) فتح الباري (٧/ ١٦٥).
(٤) فتح القدير (٥/ ٢٧).
(٥) الإفصاح (١/ ٣٢٨-٣٢٩).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾

★ غريب الآية:

إفك: كذب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقال الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ من يهود بني إسرائيل للذين آمنوا به، لو كان تصديقكم محمدًا على ما جاءكم به خيرًا، ما سبقتمونا إلى التصديق به، وهذا التأويل على مذهب من تأوّل قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أنه معنيّ به عبدالله بن سلام، فأما على تأويل من تأوّل أنه عني به مشركو قريش، فإنه ينبغي أن يوجه تأويل قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ﴾ أنه عُني به مشركو قريش، وكذلك كان يتأوّله قتادة»[1].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: قالوا عن المؤمنين بالقرآن: لو كان القرآن خيرًا ما سبقنا هؤلاء إليه، يعنون بلالًا وعمّارًا وصُهَيبًا وخبابًا وأشباههم وأقرانهم من المستضعفين والعبيد والإماء؛ وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية. وقد غلطوا في ذلك غلطًا فاحشًا، وأخطؤوا خطأً بيّنًا، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ﴾[2] أي: يتعجبون: كيف اهتدى هؤلاء دوننا؟! ولهذا قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ﴾. وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيرًا لسبقونا إليه؛ لأنهم لم يتركوا خصلة من

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٢-١٣).

(٢) الأنعام: الآية (٥٣).

خصال الخير إلا وقد بادروا إليها»[١].

وقال السعدي: «فأي دليل يدل على أن علامة الحق سبق المكذبين به للمؤمنين؟ هل هم أزكى نفوسًا؟ أم أكمل عقولًا؟ أم الهدى بأيديهم؟ ولكن هذا الكلام الذي صدر منهم، يُعزّون به أنفسهم بمنزلة من لم يقدر على الشيء، ثم طفق يذمه، ولهذا قال: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي: هذا السبب الذي دعاهم إليه، أنهم لما لم يهتدوا بهذا القرآن، وفاتهم أعظم المواهب، وأجل الرغائب، قدحوا فيه بأنه كذب، وهو الحق الذي لا شك فيه، ولا امتراء يعتريه»[٢].

قال الشنقيطي: «أظهر أقوال العلماء في هذه الآية الكريمة: أن الكافرين الذين قالوا للمؤمنين: لو كان خيرًا ما سبقونا إليه، أنهم كفار مكة، وأن مرادهم أن فقراء المسلمين وضعفاءهم كبلال وعمار وصهيب وخباب ونحوهم، أحقر عند الله من أن يختار لهم الطريق التي فيها الخير، وأنهم هم الذين لهم عند الله عظمة وجاه واستحقاق السبق لكل خير؛ لزعمهم أن الله أكرمهم في الدنيا بالمال والجاه، وأن أولئك الفقراء لا مال لهم ولا جاه، وأن ذلك التفضيل في الدنيا يستلزم التفضيل في الآخرة.

وهذا المعنى الذي استظهرناه في هذه الآية الكريمة تدل له آيات كثيرة من كتاب الله، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

أما ادعاؤهم أن ما أعطوا من المال والأولاد والجاه في الدنيا دليل على أنهم سيعطون مثله في الآخرة، وتكذيب الله لهم في ذلك، فقد جاء موضحًا في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾[٤] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾[٥]، مع قوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾[٦] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٢).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٤).
(٣) المؤمنون: الآيتان (٥٥و٥٦).
(٤) مريم: الآيات (٧٧-٧٩).
(٥) سبأ: الآية (٣٥).
(٦) سبأ: الآية (٣٧).

﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾[1].

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا في سورة (الكهف) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[2].

وأما احتقار الكفار لضعفاء المؤمنين وفقرائهم، وزعمهم أنهم أحقر عند اللَّه من أن يصيبهم بخير، وأنما هم عليه لو كان خيرًا لسبقهم إليه أصحاب الغنى والجاه والولد من الكفار، فقد دلت عليه آيات أخر، كقوله تعالى في (الأنعام): ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾[3].

فهمزة الإنكار في قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾، تدل على إنكارهم أن اللَّه يمنّ على أولئك الضعفاء بخير.

وقد رد اللَّه عليهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾[4] الآية، وقوله تعالى في (الأعراف): ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[5]، وقوله تعالى في (ص): ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾[6]؛ فقد قال غير واحد: إن الرجال الذين كانوا يعدونهم من الأشرار هم ضعفاء المسلمين الذين كانوا يسخرون منهم في دار الدنيا، ويزعمون أنهم أحقر من أن ينالهم اللَّه بخير؛ ويدل له قوله: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾، وسيسخر ضعفاء المسلمين في الجنة من الكفار الذين كانوا يسخرون منهم في الدنيا وهم في النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟

---

(١) فصلت: الآية (٥٠).
(٢) الكهف: الآية (٣٦).
(٣) الأنعام: الآية (٥٣).
(٤) الأنعام: الآيتان (٥٣و٥٤).
(٥) الأعراف: الآيتان (٤٨و٤٩).
(٦) ص: الآيتان (٦٢و٦٣).
(٧) المطففين: الآيات (٢٩-٣٦).

﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[1]»[2].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وإذ لم يبصروا بمحمد وبما جاء به من عند الله من الهدى، فيرشدوا به الطريق المستقيم ﴿فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ يقول: فسيقولون هذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ أكاذيب من أخبار الأولين قديمة، كما قال -جل ثناؤه- مخبرًا عنهم: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾[3]»[4].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ﴾ أي: كذب ﴿قَدِيمٌ﴾ أي: مأثور عن الأقدمين، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله ﷺ»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تحريم الكبر وبيانه

* عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**». قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، قال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[6].

★ **غريب الحديث:**

الجمال: لغة: هو الحسن؛ يقال: جمل الرجل، يجمُل بالضم، فهو جميل، والمرأة جميلة، ويقال: جملاء، عن الكسائي[7].

بطر الحق: دفعه وإنكاره ترفعًا وتجبّرًا[8]. وقال القرطبي في «المفهم»: وبطر الحق: إبطاله، من قول العرب: ذهب دمه بطرًا وبطرًا؛ أي: باطلًا، وقال الأصمعي: البطر: الحيرة؛ أي: يتحير عند الحق فلا يراه حقًّا[9].

---

(١) البقرة: الآية (٢١٢).
(٢) أضواء البيان (٧/ ٣٨١-٣٨٣).
(٣) الفرقان: الآية (٥).
(٤) جامع البيان (٢٦/ ١٣).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٢).
(٦) أخرجه: أحمد (١/ ٣٩٩)، ومسلم (١/ ٩٣/ ٩١)، وأبوداود (٤/ ٣٥١/ ٤٠٩١)، والترمذي (٤/ ٣١٧-٣١٨/ ١٩٩٨-١٩٩٩) وقال في الموضع الأول: «حسن صحيح»، وفي الثاني: «حسن صحيح غريب».
(٧) المفهم (١/ ٢٨٨).
(٨) شرح مسلم للنووي (٢/ ٧٨).
(٩) المفهم (١/ ٢٨٨).

غمط الناس: احتقارهم واستصغارهم لما يرى من رفعته عليهم، وهو بالغين المعجمة والطاء المهملة، ويروى: غمص -بالصاد المهملة- في كتاب الترمذي، ومعناهما واحد، يقال: غمط الناس وغمصهم: إذا احتقرهم[1].

ذرة: تقدم.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «هذا الحديث ورد في سياق النهي عن الكبر المعروف، وهو الارتفاع على الناس واحتقارهم ودفع الحق»[2].

قال الغزالي: «قد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه، وذم كل جبار متكبر فقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[3]، وقال ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥﴾[5]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[7]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[8]، وذم الكبر في القرآن كثير. وقد قال رسول الله ﷺ: **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر»**، و**«لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»**[9]، وقال أبو هريرة ﷺ: قال رسول الله ﷺ: **«يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي»**[10]، وعن أبي سلمة بن عبدالرحمن قال: التقى عبدالله بن عمرو وعبدالله بن عمر على الصفا فتواقفا،

(١) المفهم (١/ ٢٨٩).
(٢) شرح مسلم (٢/ ٧٢).
(٣) الأعراف: الآية (١٤٦).
(٤) غافر: الآية (٣٥).
(٥) إبراهيم: الآية (١٥).
(٦) النحل: الآية (٢٣).
(٧) الفرقان: الآية (٢١).
(٨) غافر: الآية (٦٠).
(٩) أخرجه: أحمد (١/ ٤١٢)، ومسلم (١/ ٩٣/ ٩١[٤٨])، وأبو داود (٤/ ٣٥١/ ٤٠٩١)، والترمذي (٤/ ٣١٧/ ١٩٩٨)، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٧/ ٤١٧٣).
(١٠) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٨)، وأبو داود (٤/ ٣٥٠-٣٥١/ ٤٠٩٠)، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٧/ ٤١٧٤)، وابن حبان (الإحسان: ٢/ ٣٥-٣٦/ ٣٢٨)، والحاكم (١/ ٦١) وصححه على شرط مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه: مسلم (٤/ ٢٠٢٣/ ٢٦٢٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٥٢) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ﷺ.

فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يبكي، فقالوا: ما يبكيك يا أبا عبدالرحمن؟ فقال: هذا -يعني عبدالله بن عمرو- زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبّه الله في النار على وجهه»[١]، وقال ﷺ: «تحاجّت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم؟ فقال الله للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها»[٢]، وقوله ﷺ: «يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذر تطؤهم الناس، ذرًا في مثل صور الرجال يعلوهم كل شيء من الصغار، ثم يساقون إلى سجن في جهنم يقال له: بولس، يعلوهم نار الأنيار، يسقون من طين الخبال عصارة أهل النار»[٣].

الآثار: قال أبو بكر الصديق ﷺ: «لا يحقرن أحد أحدًا من المسلمين؛ فإن صغير المسلمين عند الله كبير». وقال وهب: لما خلق الله جنة عدن نظر إليها فقال: أنت حرام على كل متكبر. وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره، فجاء يومًا ومصعب مادّ رجليه فلم يقبضهما، وقعد الأحنف فزحمه بعض الزحمة، فرأى أثر ذلك في وجهه فقال: عجبًا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين! وقال الحسن: العجب من ابن آدم، يغسل الخرء بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يعارض جبار السموات! وقد قيل في: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾[٤]: هو سبيل الغائط والبول. وقد قال محمد بن الحسين بن علي: ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك، قل أو كثر. وسئل سليمان عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة، فقال: الكبر. وقال النعمان بن

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢١٥)، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٩٨): «رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح». وأخرجه البيهقي في الشعب (٦/ ٢٨٠/ ٨١٥٤) وقال المنذري في الترغيب (٣/ ٣٦٦): رواه أحمد ورواته رواة الصحيح»، وصحح إسناده العراقي في تخريج الإحياء ٣/ ٣٣٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٤)، والبخاري (٨/ ٧٦٥/ ٤٨٥٠)، ومسلم (٤/ ٢١٨٦/ ٢٨٤٦)، والترمذي (٤/ ٥٩٨-٥٩٩/ ٢٥٦١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٦٨/ ١١٥٢٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٧٩)، والترمذي (٤/ ٥٦٥/ ٢٤٩٢)، وقال: «حسن صحيح»، والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٥٥٧)، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٣٩٨/ ١١٨٢٧).

(٤) الذاريات: الآية (٢١).

بشير على المنبر: إن للشيطان مصالي وفخوخًا، وإن من مصالي الشيطان وفخوخه البطر بأنعم اللَّه، والفخر بإعطاء اللَّه، والكبر على عباد اللَّه، واتباع الهوى في غير ذات اللَّه. نسأل اللَّه تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة بمنه وكرمه»[1].

* * *

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٣٦-٣٣٩).

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ١٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ومن قبل هذا الكتاب، كتاب موسى، وهو التوراة، ﴿إِمَامٗا﴾ لبني إسرائيل يأتمّون به، ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾ لهم أنزلناه عليهم. وخرج الكلام مخرج الخبر عن الكتاب بغير ذكر تمام الخبر اكتفاءً بدلالة الكلام على تمامه؛ وتمامه: ومن قبله كتاب موسى إمامًا ورحمةً أنزلناه عليه، وهذا كتاب أنزلناه لسانًا عربيًّا»[1].

وقال ابن كثير: «ثم قال: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ وهو التوراة ﴿إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ﴾، يعني القرآن ﴿مُّصَدِّقٞ﴾؛ أي: لما قبله من الكتب ﴿لِّسَانًا عَرَبِيّٗا﴾؛ أي: فصيحًا بيّنًا واضحًا، ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾»[2].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ يقول: لينذر هذا الكتاب الذي أنزلناه إلى محمد عليه الصلاة والسلام الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله بعبادتهم غيره.

وقوله: ﴿وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يقول: وهو بشرى للذين أطاعوا الله فأحسنوا في إيمانهم وطاعتهم إياه في الدنيا، فحسن الجزاء من الله لهم في الآخرة على طاعتهم إياه»[3].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٣).

(٣) جامع البيان (٢٦/ ١٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

استقاموا: الاستقامة: الاعتدال على أمر اللَّه. واستقام: أي: اعتدل واستوى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: يقول -تعالى ذكره-: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ الذي لا إله غيره، ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ على تصديقهم بذلك، فلم يخلطوه بشرك، ولم يخالفوا اللَّه في أمره ونهيه، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من فزع يوم القيامة وأهواله، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا وراءهم بعد مماتهم.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: هؤلاء الذين قالوا هذا القول، واستقاموا أهل الجنة وسكانها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يقول: ماكثين فيها أبدًا، ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ يقول: ثوابًا منّا لهم آتيناهم ذلك على أعمالهم الصالحة التي كانوا في الدنيا يعملونها»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٥).

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾

★ غريب الآية:

كُرهًا: أي: بكره ومشقّة.

فصاله: فطامه.

أوزعني: ألهمني؛ أصله من وزعتُ الرجل على كذا: إذا دفعته عليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «هذا من لطفه تعالى بعباده وشكره للوالدين، أن وصّى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف، والكلام اللين، وبذل المال والنفقة، وغير ذلك من وجوه الإحسان.

ثم نبّه على ذكر السبب الموجب لذلك، فذكر ما تحملته الأم من ولدها وما قاسته من المكاره وقت حملها، ثم مشقة ولادتها الكبيرة، ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانة، وليست المذكورات مدة يسيرة، ساعة أو ساعتين، وإنما ذلك مدة طويلة قدرها ﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾: للحمل تسعة أشهر ونحوها، والباقي للرضاع، هذا هو الغالب»[1].

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين، كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن، كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٦).

﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[١]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. وقال ههنا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾؛ أي: أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما»[٢].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: وحمل أمه إياه جنينًا في بطنها، وفصالها إياه من الرضاع، وفطمها إياه، شرب اللبن ثلاثون شهرًا»[٣].

وقال ابن كثير: «﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾ أي: قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعبًا، من وحام وغشيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي: بمشقة أيضًا من الطلق وشدته، ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾.

وقد استدل علي رضي الله عنه بهذه الآية مع التي في (لقمان): ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾[٤]، وقوله: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوي صحيح، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم»[٥].

قوله: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾: **قال الشنقيطي**: «هذه الآية الكريمة ليس فيها بانفرادها تعرض لبيان أقل مدة الحمل، ولكنها بضميمة بعض الآيات الأخرى إليها يعلم أقل أمد الحمل؛ لأن هذه الآية الكريمة من سورة (الأحقاف) صرحت بأن أمد الحمل والفصال معًا ثلاثون شهرًا.

وقوله تعالى في (لقمان): ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، وقوله في (البقرة): ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾[٦]، يبين أن أمد الفصال عامان، وهما أربعة وعشرون شهرًا، فإذا طرحتها من الثلاثين بقيت ستة أشهر، فتعين كونها أمدًا للحمل، وهي أقله، ولا خلاف في ذلك بين العلماء.

ودلالة هذه الآيات على أن ستة أشهر أمد للحمل هي المعروفة عند علماء

---

(١) لقمان: الآية (١٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٣).
(٣) جامع البيان (٢٦/ ١٦).
(٤) لقمان: الآية (١٤).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٣-٢٦٤).
(٦) البقرة: الآية (٢٣٣).

الأصول بدلالة الإشارة»[1].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ اختلف أهل التأويل في مبلغ حد ذلك من السنين، فقال بعضهم: هو ثلاث وثلاثون سنة.. وقال آخرون: هو بلوغ الحلم..

وقد بيّنّا فيما مضى الأشدّ جمع شدّ، وأنه تناهي قوته واستوائه. وإذا كان كذلك كانت الثلاث والثلاثون به أشبه من الحلم، لأن المرء لا يبلغ في حال حلمه كمال قواه، ونهاية شدته، فإن العرب إذا ذكرت مثل هذا من الكلام، فعطفت ببعض على بعض جعلت كلا الوقتين قريبًا أحدهما من صاحبه، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ﴾[2]، ولا تكاد تقول: أنا أعلم أنك تقوم قريبًا من ساعة من الليل وكله، ولا أخذت قليلًا من مال أو كله، ولكن تقول: أخذت عامة مالي أو كله، فكذلك ذلك في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ لا شك أن نسق الأربعين على الثلاث والثلاثين أحسن وأشبه، إذ كان يراد بذلك تقريب أحدهما من الآخر من النسق على الخمس عشرة أو الثماني عشرة.

وقوله: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ ذلك حين تكاملت حجة اللّه عليه، وسير عنه جهالة شبابه، وعرف الواجب لله من الحق في بر والديه»[3].

قال ابن كثير: «﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: قوي وشبّ وارتجل، ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾؛ أي: تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه، ويقال: إنه لا يتغير غالبًا عما يكون عليه ابن الأربعين.. ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ أي: ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ أي: في المستقبل، ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ أي: نسلي وعقبي، ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى اللّه ﷻ، ويعزم عليها»[4].

قال الشنقيطي: «ومعنى حملته ﴿كُرْهًا﴾ أنها في حال حملها به تلاقي مشقة شديدة. ومن المعلوم ما تلاقيه الحامل من المشقة والضعف إذا أثقلت وكبر الجنين

(١) أضواء البيان (٧/ ٣٨٦).
(٢) المزمل: الآية (٢٠).
(٣) جامع البيان (٢٦/ ١٦-١٧).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٤-٢٦٥).

في بطنها .

ومعنى ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ : أنها في حالة وضع الولد، تلاقي من ألم الطلق وكربه مشقة شديدة، كما هو معلوم .

وهذه المشاق العظيمة التي تلاقيها الأم في حمل الولد ووضعه، لا شك أنها يعظم حقها بها، ويتحتم برها، والإحسان إليها كما لا يخفى .

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من المشقة التي تعانيها الحامل، دلت عليه آية أخرى، وهي قوله تعالى في (لقمان) : ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي : تهن به وهنًا على وهن؛ أي : ضعفًا على ضعف؛ لأن الحمل كلما تزايد وعظم في بطنها، ازدادت ضعفًا على ضعف»[1] .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بر الوالدين ومنقبة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه

* عن سعد رضي الله عنه أنه نزلت فيه آيات من القرآن قال : «**حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبدًا حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب، قالت : زعمت أن الله وصاك بوالديك، وأنا أمك، وأنا آمرك بهذا . قال : مكثت ثلاثًا حتى غشي عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له عمارة، فسقاها، فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله عز وجل** في القرآن هذه الآية : ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى﴾[2]، وفيها : ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾»[3] .

★ غريب الحديث:

تقدم ما فيه من الغريب في سورة (العنكبوت) .

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي : «وصية الله تعالى بمبرة الوالدين المشركين، والإحسان إليهما

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٣٨٥). (٢) العنكبوت: الآية (٨).

(٣) هذا جزء من حديث طويل أخرجه: أحمد (١/ ١٨١و١٨٥-١٨٦)، ومسلم (٤/ ١٨٧٧-١٧٤٨) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٣١٩/ ٣١٨٩) مختصراً، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

وإن كانا كافرين وحريصين على حمل الولد على الكفر، يدل دلالة قاطعة على عظيم حرمة الآباء وتأكد حقوقهم»[١].

قال ابن هبيرة في «الإفصاح»: «هذا الحديث يدل على شرف سعد وعلو منزلته؛ لأن اللَّه تعالى أنزل هذه الآيات في شأنه، فاستمرت أحكامها باقية إلى يوم القيامة تعود عليه بركتها، ويناله من خيرها. فمن بركة هذه القصة أن اللَّه تعالى أفتى فيها حيث كانت الوصاة قد تقدمت منه سبحانه ببر الوالدين وتتابعت، وكان حق اللَّه ﷻ أولى في عبادته، فلما اعترض هذا الحق المؤكد ما هو أوكد منه لم يكن له فضل إلا ما أنزل اللَّه ﷻ؛ لأنه شرح الحال فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾[٢]، فأخبر سبحانه أن وصاته سبقت»[٣].

وقد سبق شيء من هذا المعنى في سورة (العنكبوت) و(لقمان) وغيرهما.

* * *

(١) المفهم (٦/ ٢٨٢).
(٢) العنكبوت: الآية (٨).
(٣) الإفصاح (١/ ٣٦٠).

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: يقول -تعالى ذكره-: هؤلاء الذين هذه الصفة صفتهم، هم الذين يُتقبل عنهم ﴿أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ في الدنيا من صالحات الأعمال، فيجازيهم به ويثيبهم عليه ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ يقول: ويصفح لهم عن سيئات أعمالهم التي عملوها في الدنيا، فلا يعاقبهم عليها ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ يقول: نفعل ذلك بهم فعلنا مثل ذلك في أصحاب الجنة وأهلها الذين هم أهلها..

وقوله: ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ يقول: وعدهم اللَّه هذا الوعد، وعد الحق لا شك فيه أنه موفىً لهم به، الذي كانوا إياه في الدنيا يعدهم اللَّه تعالى، ونُصب قوله: ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ﴾ لأنه مصدر خارج من قوله: ﴿نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾، وإنما أُخرج من هذا الكلام مصدر وَعَدَ وعدًا؛ لأن قوله: ﴿نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ﴾، ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾ وعد من اللَّه لهم، فقال: ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ﴾، على ذلك المعنى»[1].

قال ابن كثير: «أي: هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى اللَّه، المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ويتجاوز عن سيئاتهم، فيغفر لهم الكثير من الزلل، ويتقبل منهم اليسير من العمل، ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ أي: هم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند اللَّه كما وعد اللَّه من تاب إليه وأناب، ولهذا قال: ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾»[2].

* * *

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٨-١٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٥).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾

★ غريب الآية:

أفّ: اسم فعل بمعنى: أتضجّر؛ أي: قذرًا لكما ونتنًا.

خلت: تقدّمت ومضت.

يستغيثان: يطلبان الغوث من الله؛ والغوث يقال في النصرة؛ أي: يدعوان اللَّه له بالهداية، أو يستغيثان باللَّه من كفره.

أساطير: جمع أسطورة، وهي القصة. وغلب إطلاقها على القصة الباطلة أو المكذوبة، كما يقال: خرافة، والمعنى: أحاديثهم وما سطروه مما لا أصل له.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «هذا نعت من اللَّه -تعالى ذكره- نعت ضالّ به كافر، وبوالديه عاقّ، وهما مجتهدان في نصيحته ودعائه إلى اللَّه، فلا يزيده دعاؤهما إياه إلى الحق، ونصيحتهما له إلا عتوًّا وتمرّدًا على اللَّه، وتماديًا في جهله، يقول اللَّه -جل ثناؤه-: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ﴾ أن دعواه إلى الإيمان باللَّه، والإقرار ببعث اللَّه خلقه من قبورهم، ومجازاته إياهم بأعمالهم: ﴿أُفٍّ لَّكُمَا﴾ يقول: قذرًا لكما ونتنًا ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ يقول: أتعدانني أن أخرج من قبري من بعد فنائي وبلائي فيه حيًّا»[1].

وقال ابن كثير: «لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارّين بهما، وما لهم عنده من الفوز والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ -وهذا عام في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٩).

عبدالرحمن بن أبي بكر فقوله ضعيف؛ لأن عبدالرحمن بن أبي بكر أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه.

وروى العَوْفي، عن ابن عباس: أنها نزلت في ابن لأبي بكر الصديق. وفي صحة هذا نظر، والله أعلم.

وقال ابن جُرَيْج، عن مجاهد: نزلت في عبدالله بن أبي بكر. وهذا أيضًا قاله ابن جريج.

وقال آخرون: عبدالرحمن بن أبي بكر. وقاله السدي. وإنما هذا عام في كل من عقّ والديه، وكذّب بالحق، فقال لوالديه: ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ عقّهما»[1].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ يقول: أتعدانني أن أبعث وقد مضت قرون من الأمم قبلي، فهلكوا، فلم يبعث منهم أحدًا، ولو كنت مبعوثًا بعد وفاتي كما تقولان، لكان قد بعث من هلك قبلي من القرون، ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾، يقول -تعالى ذكره-: ووالداه يستصرخان الله عليه، ويستغيثانه عليه أن يؤمن بالله ويقرّ بالبعث، ويقولان له: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾؛ أي: صدّق بوعد الله، وأقرّ أنك مبعوث من بعد وفاتك؛ ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ الذي وعد خلقه أنه باعثهم من قبورهم، ومخرجهم منها إلى موقف الحساب لمجازاتهم بأعمالهم ﴿حَقٌّ﴾ لا شكّ فيه، فيقول عدوّ الله مجيبًا لوالديه، وردًّا عليهما نصيحتهما، وتكذيبًا بوعد الله: ما هذا الذي تقولان لي وتدعواني إليه من التصديق بأني مبعوث من بعد وفاتي من قبري، إلا ما سطره الأوّلون من الناس من الأباطيل، فكتبوه، فأصبتماه أنتما فصدّقتما»[2].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ أي: أبعث ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾؛ أي: قد مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر، ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾؛ أي: يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. قال الله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾[3]؛ أي: دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة»[4].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٦).
(٢) جامع البيان (٢٦/ ١٩-٢٠).
(٣) الأحقاف: الآية (١٨).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٧).

وقال الشنقيطي: «التحقيق إن شاء الله أن (الذي) في قوله: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾ بمعنى (الذين)، وأن الآية عامة في كل عاقّ لوالديه مكذّب [بالبعث].

والدليل من القرآن على أن (الذي) بمعنى (الذين)، وأن المراد به العموم، أن (الذي) في قوله: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾ مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ الآية؛ والإخبار عن لفظة (الذين) في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ بصيغة الجمع، صريح في أن المراد بـ(الذي) العموم، لا الإفراد؛ وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

وبهذا الدليل القرآني تعلم أن قول من قال في هذه الآية الكريمة: إنها نازلة في عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، ليس بصحيح، كما جزمت عائشة رضي الله عنها ببطلانه.

وفي نفس آية (الأحقاف) هذه دليل آخر واضح على بطلانه، وهو أن الله صرح بأن الذين قالوا تلك المقالة حق عليهم القول، وهو قوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1].

ومعلوم أن عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أسلم وحسن إسلامه، وهو من خيار المسلمين وأفاضل الصحابة، رضي الله عنهم.

وغاية ما في هذه الآية الكريمة هو إطلاق (الذي) وإرادة (الذين)، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب؛ لأن لفظ (الذي) مفرد، ومعناها عام لكل ما تشمله صلتها، وقد تقرر في علم الأصول أن الموصلات كـ(الذي) و(التي) وفروعهما من صيغ العموم، كما أشار له في مراقي السعود بقوله:

صيغة كل أو الجميع ... وقد تلا الذي التي الفروع

فمن إطلاق (الذي) وإرادة (الذين) في القرآن هذه الآية الكريمة من سورة (الأحقاف)، وقوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾[2] الآية؛ أي: كمثل الذين استوقدوا؛ بدليل قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ بصيغة الجمع في الضمائر الثلاثة التي هي: ﴿بِنُورِهِمْ﴾، ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾،

---

(١) السجدة: الآية (١٣).
(٢) البقرة: الآية (١٧).

والواو في ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾، وقوله تعالى في البقرة أيضًا: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾[١]، وقوله في (الزمر): ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾[٢]، وقوله في (التوبة): ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾[٣]؛ أي: كالذين خاضوا؛ بناءً على أنها موصولة لا مصدرية، ونظير ذلك من كلام العرب قول أشهب بن رميلة:

فإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

وقول عديل بن الفرخ العجلي:

وبت أساقي القوم إخوتي الذي غوايتهم غيي ورشدهم رشدي

وقول الراجز:

يا رب عبس لا تبارك في أحد في قائم منهم ولا في من قعد

إلا الذي قاموا بإطراف المسد»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في نفي نزول الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه

* **عن يوسف بن ماهك قال: «كان مروان على الحجاز استعمله معاوية، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبدالرحمن بن أبي بكر شيئًا، فقال: خذوه فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي﴾، فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئًا من القرآن، إلا أن الله أنزل عذري»[٥].**

★ **فوائد الحديث:**

أفاد الحديث ادعاء مروان ومحاولته إنزال الآية في عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما وإلصاقها به كرد فعل منه لما واجهه عبدالرحمن وأسمعه ما يكره، فأكذبته عائشة رضي الله عنها

---

(١) البقرة: الآية (٢٦٤).
(٢) الزمر: الآية (٣٣).
(٣) التوبة: الآية (٦٩).
(٤) أضواء البيان (٧/ ٣٨٧-٣٨٨).
(٥) أخرجه البخاري (٨/ ٧٤٠/ ٤٨٢٧).

ونفت نفيًا قاطعًا أن تكون الآية نزلت في عبدالرحمن؛ قال ابن حجر في «الفتح»: «نفي عائشة أن تكون نزلت في عبدالرحمن وآل بيته أصح إسنادًا، وأولى بالقبول»[١].

والعجب -**يقول ابن حجر**- «مما أورده الطبري من طريق العوفي عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في عبدالرحمن بن أبي بكر، وقد تعقبه الزجاج فقال: الصحيح أنها نزلت في الكافر العاقّ، وإلا فعبدالرحمن قد أسلم فحسن إسلامه وصار من خيار المسلمين، وقد قال اللّه في هذه الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾[٢] إلى آخر الآية، فلا يناسب ذلك عبدالرحمن»[٣].

* * *

(١) فتح الباري (٨/ ٧٤٢).
(٢) الأحقاف: الآية (١٨).
(٣) فتح الباري (٨/ ٧٤٢).

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ۝١٨ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝١٩﴾

★ **غريب الآية:**

حَقَّ: أي: وجب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: هؤلاء الذين هذه الصفة صفتهم، الذين وجب عليهم عذاب اللَّه، وحلّت بهم عقوبته وسخطه، فيمن حلّ به عذاب اللَّه على مثل الذي حلّ بهؤلاء من الأمم الذين مضوا قبلهم من الجن والإنس، الذين كذّبوا رسل اللَّه، وعتوا عن أمر ربهم.

وقوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: إنهم كانوا المغبونين ببيعهم الهدى بالضلال، والنعيم بالعقاب»(١).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بعد قوله: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ﴾ دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك. وقال الحسن وقتادة: هو الكافر الفاجر العاق لوالديه المكذب بالبعث»(٢).

قال السعدي: «والخسران: فوات رأس مال الإنسان. وإذا فقد رأس ماله، فالأرباح من باب أولى وأحرى.

فهم قد فاتهم الإيمان، ولم يحصلوا شيئًا من النعيم، ولا سلموا من عذاب الجحيم»(٣).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾ يقول -تعالى ذكره-:

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٢٠). (٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٦١).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٠).

ولكل هؤلاء الفريقين: فريق الإيمان بالله واليوم الآخر، والبرّ بالوالدين، وفريق الكفر بالله واليوم الآخر، وعقوق الوالدين اللذين وصف صفتهم ربنا ﷻ في هذه الآيات منازل ومراتب عند الله يوم القيامة، ﴿مِّمَّا عَمِلُوا۟ۖ﴾ يعني من عملهم الذي عملوه في الدنيا من صالح وحسن وسيء يجازيهم الله به..

قال ابن زيد في قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ۖ﴾ قال: درج أهل النار يذهب سفالًا، ودرج أهل الجنة يذهب علوًّا، ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يقول -جل ثناؤه-: وليعطي جميعهم أجور أعمالهم التي عملوها في الدنيا، المحسن منهم بإحسانه ما وعد الله من الكرامة، والمسيء منهم بإساءته ما أعدّه من الجزاء، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يقول: وجميعهم لا يظلمون: لا يجازى المسيء منهم إلا عقوبة على ذنبه، لا على ما لم يعمل، ولا يحمل عليه ذنب غيره، ولا يبخس المحسن منهم ثواب إحسانه»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٦/ ٢٠).

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

★ غريب الآية:

الهُون: الهوان والذل والصغار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا. وقد تورّع عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن كثير من طيبات المآكل والمشارب، وتنزّه عنها، ويقول: أخاف أن أكون كالذين قال اللّه تعالى لهم وقرّعهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾.

وقال أبو مجلز: ليتفقّدنّ أقوام حسنات كانت لهم في الدنيا، فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾.

وقوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾، فجوزوا من جنس عملهم، فكما نعّموا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصي، جازاهم اللّه بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجعة، والحسرات المتتابعة، والمنازل في الدركات المفظعة، أجارنا اللّه من ذلك كله»[1].

وقال الشنقيطي: «معنى الآية الكريمة أنه يقال للكفار يوم يعرضون على النار: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾.

فقوله: يعرضون على النار: قال بعض العلماء: معناه: يباشرون حرها؛ كقول العرب: عرضهم على السيف: إذا قتلهم به، وهو معنى معروف في كلام العرب.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٨).

وقد ذكر تعالى مثل ما ذكر هنا في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ وهذا يدل على أن المراد بالعرض مباشرة العذاب لقوله: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[2]؛ لأنه عرض عذاب.

وقال بعض العلماء: معنى عرضهم على النار هو تقريبهم منها، والكشف لهم عنها، حتى يروها، كما قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾[3] الآية، وقال تعالى: ﴿وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾[4].

وقال بعض العلماء: في الكلام قلب، وهو مروي عن ابن عباس وغيره.

قالوا: والمعنى: ويوم تعرض النار على الذين كفروا قالوا؛ وهو كقول العرب: عرضت الناقة على الحوض، يعنون: عرضت الحوض على الناقة؛ ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ عَرْضًا ۝١٠٠﴾[5].

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: هذا النوع الذي ذكروه من القلب في الآية، كقلب الفاعل مفعولًا، والمفعول فاعلًا، ونحو ذلك اختلف فيه علماء العربية، فمنعه البلاغيون إلا في التشبيه، فأجازوا قلب المشبه مشبهًا به والمشبه به مشبهًا بشرط أن يتضمن ذلك نكتة وسرًّا لطيفًا، كما هو المعروف عندهم في مبحث التشبيه المقلوب. وأجازه كثير من علماء العربية.

والذي يظهر لنا أنه أسلوب عربي نطقت به العرب في لغتها، إلا أنه يحفظ ما سمع منه، ولا يقاس عليه، ومن أمثلته في التشبيه قول الراجز:

ومنهل مغبرة أرجاؤه ... كأن لو أرضه سماؤه

أي: كأن سماءه لون أرضه، وقول الآخر:

وبدا الصباح كأن غرته ... وجه الخليفة حين يمتدح

لأن أصل المراد تشبيه وجه الخليفة بغرة الصباح، فقلب التشبيه؛ ليوهم أن

---

(١) الأحقاف: الآية (٣٤).
(٢) غافر: الآيتان (٤٥و٤٦).
(٣) الكهف: الآية (٥٣).
(٤) الفجر: الآية (٢٣).
(٥) الكهف: الآية (١٠٠).

الفرع أقوى من الأصل في وجه الشبه.

وقالوا: ومن أمثلته في القرآن: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾[1]؛ لأن العصبة من الرجال هي التي تنوء بالمفاتيح؛ أي: تنهض بها بمشقة وجهد؛ لكثرتها وثقلها، وقوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾[2] أي: عموا عنها. ومن أمثلته في كلام العرب قول كعب بن زهير:

كأن أوب ذراعيها إذا عرقت ... وقد تلفع بالقور العساقيل

لأن معنى قوله: تلفع: لبس اللفاع، وهو اللحاف، والقور: الحجارة العظام، والعساقيل: السراب. والكلام مقلوب؛ لأن القور هي التي تلتحف بالعساقيل، لا العكس، كما أوضحه لبيد في معلقته بقوله:

فبتلك إذ رقص اللوامع بالضحى ... واجتاب أردية السراب إكامها

فصرح بأن الإكام التي هي الحجارة اجتابت؛ أي: لبست أردية السراب.

والأردية: جمع رداء؛ وهذا النوع من القلب وإن أجازه بعضهم فلا ينبغي حمل الآية عليه؛ لأنه خلاف الظاهر، ولا دليل عليه يجب الرجوع إليه.

وظاهر الآية جارٍ على الأسلوب العربي الفصيح، كما أوضحه أبو حيان في «البحر المحيط»»[3].

قال أبو حيان: «﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ﴾ أي: يعذب بالنار، كما يقال: عرض على السيف: إذا قتل به، والعرض: المباشرة، كما تقول: عرضت العود على النار؛ أي: باشرت به النار. وقال الزمخشري: ويجوز أن يراد عرض النار عليهم؛ من قولهم: عرضت الناقة على الحوض، يريدون عرض الحوض عليها، فقلبوا. ويدل عليه تفسير ابن عباس: «**يجاء بهم إليها، فيكشف لهم عنها**» انتهى.

ولا ينبغي حمل القرآن على القلب؛ إذ الصحيح في القلب أنه مما يضطر إليه في الشعر. وإذا كان المعنى صحيحًا واضحًا مع عدم القلب، فأيّ ضرورة تدعو إليه؟ وليس في قولهم: عرضت الناقة على الحوض، ولا في تفسير ابن عباس ما يدل

(١) القصص: الآية (٧٦). (٢) القصص: الآية (٦٦).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٣٩٠-٣٩٢).

على القلب؛ لأن عرض الناقة على الحوض، وعرض الحوض على الناقة، كل منهما صحيح؛ إذ العرض أمر نسبي يصح إسناده لكل واحد من الناقة والحوض»[1].

قال السعدي: «يذكر تعالى حال الكفار عند عرضهم على النار حين يوبخون ويقرعون، فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ حيث اطمأننتم إلى الدنيا، واغتررتم بلذاتها، ورضيتم بشهواتها، وألهتكم طيباتها عن السعي لآخرتكم، وتمتعتم تمتع الأنعام السارحة، فهي حظكم من آخرتكم، ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: العذاب الشديد، الذي يهينكم ويفضحكم بما كنتم تقولون على اللَّه غير الحق؛ أي: تنسبون الطريق الضالة التي أنتم عليها إلى اللَّه، وإلى حكمه، وأنتم كذبة في ذلك، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي: تتكبرون عن طاعته، فجمعوا بين قول الباطل، والعمل بالباطل، والكذب على اللَّه بنسبته إلى رضاه، والقدح في الحق، والاستكبار عنه، فعوقبوا أشد العقوبة»[2].

قال الشنقيطي: «واعلم أن للعلماء كلامًا كثيرًا في هذه الآية قائلين: إنها تدل على أنه ينبغي التقشف والإقلال من التمتع بالمآكل والمشارب والملابس ونحو ذلك، وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يفعل ذلك خوفًا منه أن يدخل في عموم من يقال لهم يوم القيامة: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ الآية. والمفسرون يذكرون هنا آثارًا كثيرة فى ذلك، وأحوال أهل الصفة وما لاقوه من شدة العيش.

قال مقيده عفا اللَّه عنه وغفر له: التحقيق إن شاء اللَّه في معنى هذه الآية: هو أنها في الكفار، وليست في المؤمنين الذين يتمتعون باللذات التي أباحها اللَّه لهم؛ لأنه تعالى ما أباحها لهم ليذهب بها حسناتهم.

وإنما قلنا: إن هذا هو التحقيق؛ لأن الكتاب والسنة الصحيحة دالآن عليه، واللَّه تعالى يقول: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[3] الآية.

أما كون الآية في الكفار، فقد صرح اللَّه تعالى به في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾ الآية.

والقرآن والسنة الصحيحة قد دلاّ على أن الكافر إن عمل عملًا صالحًا مطابقًا

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٦٣).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥١).
(٣) النساء: الآية (٥٩).

للشرع، مخلصًا فيه لله، كالكافر الذي يبرّ والديه، ويصل الرحم، ويقري الضيف، وينفس عن المكروب، ويعين المظلوم، يبتغي بذلك وجه اللَّه، يثاب بعمله في دار الدنيا، خاصة بالرزق والعافية ونحو ذلك، ولا نصيب له في الآخرة.

فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[(١)]، وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾[(٢)].

وقد قيّد تعالى هذا الثواب الدنيوي المذكور في الآيات بمشيئته وإرادته، في قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾[(٣)].

وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أنس أن النبي ﷺ قال: «**إن اللَّه لا يظلم مؤمنًا حسنة يعطي بها في الدنيا ويجزي بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسناته ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزي بها**» هذا لفظ مسلم في صحيحه. وفي لفظ له عن رسول اللَّه ﷺ: «**إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة في الدنيا، وأما المؤمن فإن اللَّه يدخر له حسناته في الآخرة، ويعقبه رزقًا في الدنيا على طاعته**»[(٤)]. فهذا الحديث الثابت عن النبي ﷺ فيه التصريح بأن الكافر يجازى بحسناته في الدنيا فقط، وأن المؤمن يجازى بحسناته في الدنيا والآخرة معًا. وبمقتضى ذلك يتعين تعيينًا لا محيص عنه أن الذي أذهب طيباته في الدنيا واستمتع بها هو الكافر؛ لأنه لا يجزى بحسناته إلا في الدنيا خاصة.

وأما المؤمن الذي يجزى بحسناته في الدنيا والآخرة معًا، فلم يذهب طيباته في الدنيا؛ لأن حسناته مدخرة له في الآخرة، مع أن اللَّه تعالى يثيبه بها في الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[(٥)]، فجعل المخرج من الضيق له ورزقه من حيث لا يحتسب ثوابًا في الدنيا، وليس

---

(١) هود: الآيتان (١٥و١٦). (٢) الشورى: الآية (٢٠).
(٣) الإسراء: الآية (١٨).
(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ١٢٣)، ومسلم (٤/ ٢١٦٢/ ٢٨٠٨).
(٥) الطلاق: الآيتان (٢و٣).

ينقص أجر تقواه في الآخرة.

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وعلى كل حال فالله جل وعلا أباح لعباده على لسان نبيه ﷺ الطيبات في الحياة الدنيا، وأجاز لهم التمتع بها، ومع ذلك جعلها خاصة بهم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[1].

فدل هذا النص القرآني أن تمتع المؤمنين بالزينة والطيبات من الرزق في الحياة الدنيا لم يمنعهم من اختصاصهم بالتنعم بذلك يوم القيامة، وهو صريح في أنهم لم يذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا.

ولا ينافي هذا أن من كان يعاني شدة الفقر في الدنيا كأصحاب الصفة، يكون لهم أجر زائد على ذلك؛ لأن المؤمنين يؤجرون، بما يصيبهم في الدنيا من المصائب والشدائد، كما هو معلوم»[2].

قال أبو حيان: «وهذه الآية محرضة على التقلل من الدنيا، وترك التنعم فيها، والأخذ بالتقشف، وما يجتزي به رمق الحياة عن رسول الله في ذلك ما يقتضي التأسي به. وعن عمر في ذلك أخبار تدل على معرفته بأنواع الملاذ، وعزة نفسه الفاضلة عنها. أتظنون أنا لا نعرف خفض العيش؟ ولو شئت لجعلت أكبادًا وصلاءً وصلائق، ولكن أستبقي حسناني؛ فإن الله ﷻ وصف أقوامًا فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم﴾، والصلاء: الشواء، والصفار: المتخذ من الخردل والزبيب، والصلائق: الخبز الرقاق العريض. قال ابن عباس: وهذا من باب الزهد، وإلا فالآية نزلت في كفار قريش»[3].

وقال الشنقيطي: «وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: عذاب الهون، وهو الذل والصغار.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾، (الباء) في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ سببية، و(ما) مصدرية؛ أي: تجزون عذاب الهون بسبب كونكم مستكبرين في الأرض، وكونكم فاسقين.

---

(١) الأعراف: الآية (٣٢).
(٢) أضواء البيان (٧/ ٣٩٣-٣٩٥).
(٣) البحر المحيط (٨/ ٦٣).

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من كون الاستكبار في الأرض والفسق من أسباب عذاب الهون، وهو عذاب النار، جاء موضحًا في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾[2] الآية»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن كل لذة وشهوة قضاها المرء في الدنيا في ما له مندوحة عنها فهو استعجال له من نعيم الآخرة وأنه لو ترك ذلك لادخر له في الآخرة

* عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «.. ثم رفعت بصري في بيته، فوالله ما رأيت فيه شيئًا يرد البصر غير أهبة ثلاث، فقلت: ادع الله فليوسع على أمتك؛ فإن فارس والروم وسع عليهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله. وكان متكئًا، فقال: **أوفي شك أنت يا بن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا ..**»[4].

★ غريب الحديث:

أهبة: الأهبة، بفتح الهمزة والهاء وبضمهما أيضًا، بمعنى الأهب، والهاء فيه للمبالغة، وهو جمع إهاب على غير قياس، وهو الجلد قبل الدباغ. وقيل: هو الجلد مطلقًا دبغ أو لم يدبغ. والذي يظهر أن المراد به هنا جلد شرع في دبغه ولم يكمل؛ لقوله في رواية سماك بن الوليد: «فإذا أفيق معلق»، والأفيق بوزن عظيم: الجلد الذي لم يتم دباغه[5].

★ فوائد الحديث:

قال الطبري: «وفيه الإبانة عن أن كل لذة وشهوة قضاها المرء في الدنيا فيما له مندوحة عنها، فهو استعجال بذلك من نعيم الآخرة الذى لو لم يستعجله فى الدنيا

---

(١) الزمر: الآية (٦٠).
(٢) السجدة: الآية (٢٠).
(٣) أضواء البيان (٧/ ٣٩٥-٣٩٦).
(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٤)، والبخاري (٥/ ١٤٦/ ٢٤٦٨) واللفظ له، ومسلم (٢/ ١١٠٥-١١١٣/ ١٤٧٩)، والترمذي (٥/ ٣٩١/ ٣٣١٨) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٦٦/ ٩١٥٧)، وهو جزء من حديث طويل.
(٥) فتح الباري (٩/ ٣٦٠).

كان مدخورًا له في الآخرة، وذلك لقوله ﷺ لعمر: «**أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا**»، فأخبر أن ما أوتيه فارس والروم من نعيم الدنيا تعجيل من اللَّه لهم نظير ما ادخر لأهل ولايته عنده؛ فكره لأمته أن تؤتى مثل ما أوتي فارس والروم على سبيل التلذذ والتنعم، فأما على صرفه في وجهه وتفريقه في سبله التي أمر اللَّه بوضعه فيها، فلا شك في فضل ذلك وشرف منزلته؛ إذ هو من منازل الامتحان والصبر على المحن، مع أن الشكر على النعم أفضل من الصبر على الضراء وحدها»[1].

قال ابن العربي: «من حسن معاش المرء ألا يسترسل على الشهوة دائمًا؛ فإنه إذا اعتادها ففقدها لم يستطع الصبر عنها، فإما أن يتكلف ما لا يجوز، وإما أن يقيم معذب النفس، هذا إذا قام بحقها، وأما إن قصر فيه مثل أن يشبع، فلا يطيع أو يبيت شبعانًا أو جاره طيانًا، فقد صار ذلك في حد المعصية وخرج عن باب المباح وفي مثله يقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ يريد: فلم تطيعوا ولم تواسوا»[2].

قال البيهقي: «قال الحليمي رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا الوعيد من اللَّه تعالى وإن كان للكفار الذين يقدمون على الطيبات المحظورة، ولذلك قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾، فقد يحسن مثله على المنهمكين في الطيبات المباحة؛ لأن من تعودها مالت نفسه إلى الدنيا فلم يؤمن أن يرتكب في الشهوات والملاذ، وكلما أجاب نفسه إلى واحدة منها دعته إلى غيرها، فيصير إلى أن لا يمكنه عصيان نفسه في هوى قط، وينسد باب العبادة دونه، فإذا آل الأمر به إلى هذا لم يبعد أن يقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾، فلا ينبغي أن تعود النفس ما يميل بها إلى الشره ثم يصعب تداركها، ولترضَ من أول الأمر على السداد؛ فإن ذلك أهون من أن يضرب على الفساد، ثم يجتهد في إعادتها إلى الصلاح»[3].

وقد تقدم هذا المعنى في سورة (الزخرف) الآية (٣٥).

* * *

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٧/ ٣١٣-٣١٤).

(٢) القبس (٣/ ١١٢٢).

(٣) شعب الإيمان (٥/ ٣٥). وانظر الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٢٠٢-٢٠٣) و(٧/ ١٩٨)، وجامع العلوم الحكم (٢/ ١٨٦-٢٠٢)، والاستذكار (٢٦/ ٣٤٦-٣٥١).

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣)﴾

★ غريب الآية:

لِتأفكنا: لِتصرفنا وتزيلنا. قال عروة بن أذينة:

إن تك عن أحسن الصنعة مأ فوكًا ففي آخرين قد أفكوا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: «واذكر يا محمد لقومك الرادّين عليك ما جئتهم به من الحق هودًا أخا عاد؛ فإن اللَّه بعثك إليهم كالذي بعثه إلى عاد، فخوّفهم أن يحلّ بهم من نقمة اللَّه على كفرهم ما حلّ بهم إذ كذّبوا رسولنا هودًا إليهم، إذ أنذر قومه عادًا بالأحقاف. والأحقاف: جمع حقف، وهو من الرمل ما استطال، ولم يبلغ أن يكون جبلًا..

واختلف أهل التأويل في الموضع الذي به هذه الأحقاف؛ فقال بعضهم: هي جبل بالشام.. وقال آخرون: بل هي واد بين عُمان ومَهْرة.. وقال آخرون: هي أرض.. وقال آخرون: هي رمال مشرفة على البحر بالشِّحْر.. وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن اللَّه تبارك وتعالى أخبر أن عادًا أنذرهم أخوهم هود بالأحقاف، والأحقاف ما وصفت من الرمال المستطيلة المشرفة.. قال ابن زيد: الأحقاف: الرمل الذي يكون كهيئة الجبل تدعوه العرب الحقف، ولا يكون أحقافًا إلا من الرمل، قال: وأخو عاد هود. وجائز أن يكون ذلك جبلًا بالشأم. وجائز أن يكون واديًا بين عمان وحضرموت. وجائز أن يكون الشحر وليس في العلم به أداء

فرض، ولا في الجهل به تضييع واجب، وأين كان فصفته ما وصفنا من أنهم كانوا قومًا منازلهم الرمال المستعلية المستطيلة»[١].

قال الشنقيطي: «أبهم جل وعلا في هذه الآية الكريمة أخا عاد ولم يعينه، ولكنه بين في آيات أخرى أنه هود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[٢] في سورة (الأعراف)، وسورة (هود) وغير ذلك من المواضع»[٣].

قال ابن جرير: «﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وقد مضت الرسل بإنذار أممها (من بين يديه) يعني: من قبل هود (ومن خلفه) يعني: ومن بعد هود.. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يقول: لا تشركوا مع اللّه شيئًا في عبادتكم إياه، ولكن أخلصوا له العبادة، وأفردوا له الألوهة، إنه لا إله غيره، وكانوا فيما ذكر أهل أوثان يعبدونها من دون اللّه..

وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن قيل هود لقومه: إني أخاف عليكم أيها القوم بعبادتكم غير اللّه عذاب اللّه في يوم عظيم، وذلك يوم يعظم هوله، وهو يوم القيامة»[٤].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾:

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن النبي هودًا نهى قومه أن يعبدوا غير اللّه، وأمرهم بعبادته تعالى وحده، وأنه خوفهم من عذاب اللّه إن تمادوا في شركهم به.

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية جاءا موضحين في آيات أخر.

أما الأول منهما ففي قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ في سورة (الأعراف) وسورة (هود) ونحو ذلك من الآيات.

وأما خوفه عليهم العذاب العظيم فقد ذكره في (الشعراء) في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٥] وهو يوم القيامة»[٦].

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٢٢-٢٤) بتصرف.

(٢) الأعراف: الآية (٦٥)، هود: الآية (٥٠).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٣٩٦).

(٤) جامع البيان (٢٦/ ٢٤).

(٥) الشعراء: الآيات (١٣٢-١٣٥).

(٦) أضواء البيان (٧/ ٣٩٦-٣٩٧).

وقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ **قال ابن جرير**: «يقول -تعالى ذكره-: قالت عاد لهود -إذ قال لهم: لا تعبدوا إلا اللَّه إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم-: أجئتنا يا هود لتصرفنا عن عبادة آلهتنا إلى عبادة ما تدعونا إليه، وإلى اتباعك على قولك؟. . قال ابن زيد في قوله: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ قال: لتزيلنا، وقرأ: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَا﴾[1] قال: تضلّنا وتزيلنا وتأفكنا، ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب على عبادتنا ما نعبد من الآلهة إن كنت من أهل الصدق في قوله وعداته»[2].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾:

معنى قوله تعالى: ﴿لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ أي: لتصرفنا عن عبادتها إلى عبادة اللَّه وحده.

وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين:

أحدهما: إنكار عاد على هود أنه جاءهم، ليتركوا عبادة الأوثان، ويعبدوا اللَّه وحده.

والثاني: أنهم قالوا له: ائتنا بما تعدنا من العذاب وعجّله لنا إن كنت صادقًا فيما تقول؛ عنادًا منهم وعتوًّا.

وهذان الأمران جاءا موضحين في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في (الأعراف): ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾[3]»[4].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾ يعني: وقد أرسل اللَّه إلى من حَول بلادهم من القرى مرسلين ومنذرين، كقوله: ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا﴾[5]، وكقوله: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا

---

(١) الفرقان: الآية (٤٢).
(٢) جامع البيان (٢٦/ ٢٤-٢٥).
(٣) الأعراف: الآية (٧٠).
(٤) أضواء البيان (٢٦/ ٣٩٧).
(٥) البقرة: الآية (٦٦).

﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ١٤﴾[١] أي: قال لهم هود ذلك، فأجابه قومه قـائـلـيـن: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا﴾ أي: لـتـصـدّنـا ﴿عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ استعجلوا عذاب اللَّه وعقوبته، استبعادًا منهم وقوعه، كقوله: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ﴾[٢]»[٣].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٣﴾ قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال هود لقومه عاد: ﴿إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ﴾ بوقت مجيء ما أعدكم به من عذاب اللَّه على كفركم به عند اللَّه، لا أعلم من ذلك إلا ما علّمني ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ يقول: وإنما أنا رسول إليكم من اللَّه، مبلغ أبلغكم عنه ما أرسلني به من الرسالة ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ مواضع حظوظ أنفسكم، فلا تعرفون ما عليها من المضرة بعبادتكم غير اللَّه، وفي استعجال عذابه»[٤].

قال ابن كثير: «﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: اللَّه أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فيفعل ذلك بكم، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به، ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ أي: لا تعقلون ولا تفهمون»[٥].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾: ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن نبي اللَّه هودًا قال لقومه: إنه يبلغهم ما أرسل به إليهم؛ لأنه ليس عليه إلا البلاغ، وهذا المعنى جاء مذكورًا في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في (الأعـــراف): ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨﴾[٦]، وقوله تعالى في سورة (هود): ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾[٧] الآية»[٨].

* * *

(١) فصلت: الآيتان (١٣و١٤).
(٢) الشورى: الآية (١٨).
(٣) أضواء البيان (٧/ ٣٩٨).
(٤) جامع البيان (٢٦/ ٢٥).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٩).
(٦) الأعراف: الآيتان (٦٧و٦٨).
(٧) هود: الآية (٥٧).
(٨) أضواء البيان (٧/ ٣٩٨).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾

★ غريب الآية:

عارضًا: العارض: السحاب يأخذ في عرض السماء. والعرب تسمي السحاب الذي يُرى في بعض أقطار السماء عشيًّا، ثم يصبح من الغد قد استوى، وحبا بعضه إلى بعض: عارضًا؛ وذلك لعرضه في بعض أرجاء السماء حين نشأ؛ كما قال الأعشى:

يا من يرى عارضًا قد بتُّ أرمُقُهُ　　　كأنما البرق في حافاته الشُّعَلُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: لما رأوا العذاب مستقبلهم، اعتقدوا أنه عارض ممطر، ففرحوا واستبشروا، وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر، قال اللَّه تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: هو العذاب الذي قلتم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾»[1].

وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ﴾: يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن قيل نبيه ﷺ هود لقومه لما قالوا له عند رؤيتهم عارض العذاب، قد عرض لهم في السماء هذا عارض ممطرنا نحيا به، ما هو بعارض غيث، ولكنه عارض عذاب لكم، بل هو ما استعجلتم به: أي: هو العذاب الذي استعجلتم به، فقلتم: ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾»[2].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٩).

(٢) جامع البيان (٢٦/ ٢٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في خوفه ﷺ من الآيات التي عذبت بها الأمم السابقة أن تعذب بها أمته

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت رسول اللّه ﷺ مستجمعًا ضاحكًا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم، قالت: وكان إذا رأى غيمًا أو ريحًا عرف ذلك في وجهه. فقالت: يا رسول الله! أرى الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية. قالت: فقال: **يا عائشة! وما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا**»(١).

★ غريب الحديث:

مستجمعًا: المستجمع: المجدّ في الشيء القاصد له(٢).

لهواته: بالتحريك: جمع لهاة، وهي اللحمة الحمراء المعلقة على الحنك(٣).

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح قال: **اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به**. قالت: وإذا تخيلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سُرِّي عنه، فعرفت ذلك في وجهه، قالت عائشة: فسألته، فقال: **لعله يا عائشة كما قال قوم عاد**: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ »(٤).

★ غريب الحديث:

سُرِّي عنه: بضم المهملة وتشديد الراء بلفظ المجهول؛ أي: كشف عنه ما خالطه من الوجل(٥).

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٦٦)، والبخاري (٨/ ٧٤٢-٧٤٣/ ٤٨٢٨-٤٨٢٩)، ومسلم (٢/ ٦١٦-٦١٧/ ٨٩٩[١٦])، وأبو داود (٥/ ٣٢٩-٣٣٠/ ٥٠٩٨)، والترمذي (٥/ ٣٥٦/ ٣٢٥٧)، وابن ماجه (٢/ ١٢٨٠-١٢٨١/ ٣٨٩١).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ١٧٤).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ١٧٤).

(٤) أخرجه: مسلم (٢/ ٦١٦/ ٨٩٩[١٥]) واللفظ له وأخرج الشطر الأول منه: الترمذي (٥/ ٤٦٩/ ٣٤٤٩) وقال: «هذا حديث حسن»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٣٣/ ١٠٧٧٦).

(٥) عمدة القاري (١٠/ ٥٦١).

تخيلت السماء: السماء ههنا بمعنى السحاب. وتخيلت: إذا ظهر في السحاب أثر المطر[(١)].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**نُصرتُ بالصَّبا، وأُهلكت عاد بالدَّبور**»[(٢)].

★ غريب الحديث:

الصَّبا: بفتح الصاد مقصورة، وهي الريح الشرقية[(٣)].

الدَّبور: بفتح الدال، وهي الريح الغربية[(٤)].

* عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: «بعث علي رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بذهيبة، فقسمها بين الأربعة: الأقرع بن حابس الحنظلي ثم المجاشعي، وعيينة بن بدر الفزاري، وزيد الطائي ثم أحد بني نبهان، وعلقمة بن علاثة العامري أحد بني كلاب، فغضبت قريش والأنصار قالوا: يعطي صناديد أهل نجد ويدعنا، قال: **إنما أتألّفهم**، فأقبل رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناتئ الجبين، كث اللحية، محلوق، فقال: اتق اللَّه يا محمد! فقال: **من يطع اللَّه إذا عصيت؟ أيأمنني اللَّه على أهل الأرض، ولا تأمنوني؟!** فسأله رجل قتله -أحسبه خالد بن الوليد- فمنعه، فلما ولى قال: **إن من ضئضئ هذا -أو في عقب هذا- قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**»[(٥)].

* عن أبي وائل عن رجل من ربيعة قال: «قدمت المدينة فدخلت على رسول اللَّه ﷺ، فذكرت عنده وافد عاد، فقلت: أعوذ باللَّه أن أكون مثل وافد عاد، قال رسول اللَّه ﷺ: **وما وافد عاد؟** قال: فقلت: على الخبير سقطت، إن عادًا لما أقحطت بعثت قَيْلًا، فنزل على بكر بن معاوية، فسقاه الخمر، وغنته الجرادتان، ثم

---

(١) شرح الطيبي (٤/ ١٣٢٦).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٨)، والبخاري (٦/ ٣٧٦/ ٣٣٤٣)، ومسلم (٢/ ٦١٧/ ٩٠٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٧/ ١١٦١٧).

(٣) المنهاج للنووي (٦/ ١٧٣).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ٦٨)، والبخاري (٦/ ٤٦٣/ ٣٣٤٤)، ومسلم (٢/ ٧٤١/ ١٠٦٤)، وأبو داود (٥/ ١٢١-١٢٢/ ٤٧٦٤)، والنسائي (٧/ ١٣٤-١٣٥/ ٤١١٢).

خرج يريد جبال مهرة، فقال: اللهم إني لم آتك لمريض فأداويه، ولا لأسير فأفاديه، فاسق عبدك ما كنت مسقيه، واسق معه بكر بن معاوية، يشكر له الخمر التي سقاه، فرفع له سحابات، فقيل له: اختر إحداهنّ، فاختار السوداء منهن، فقيل له: خذها رمادًا رمددًا، لا تذر من عاد أحدًا، وذكر أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر هذه الحلقة يعني حلقة الخاتم، ثم قرأ: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾[1] الآية»[2].

★ غريب الحديث:

على الخبير سقطت: أي: على العارف بقصة وافد عاد وقعت، وهو مثل سائر للعرب[3].

أقحطت: بصيغة المجهول، يقال: أقحط القوم: إذا انقطع عنهم المطر[4].

قَيْلًا: بفتح القاف وسكون وباللام: اسم وافد عاد، كما في رواية أحمد[5]: **«فبعثوا وافدًا لهم يقال له: قَيْل»**[6].

الجرادتان: هما مغنيتان كانتا بمكة في الزمن الأول مشهورتان بحسن الصوت والغناء[7].

رمادًا رمددًا: بالكسر: المتناهي في الاحتراق والدقة، كما يقال: ليلٌ أَلْيَل ويوم أَيْوَم، إذا أرادوا المبالغة[8].

★ فوائد الأحاديث:

قد تقدم الكلام على هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ الآية (٥٧) من سورة (الأعراف).

وفيها من الفوائد غير ما تقدم:

---

(١) الذاريات: الآيتان (٤١و٤٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٨١/ ٤٨٢)، والترمذي (٥/ ٣٦٤/ ٣٦٥/ ٣٢٧٣) واللفظ له، وسكت عنه. قال الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٢٢٨) بعد أن ذكر الحديث: «وهذا سند حسن».

(٣) تحفة الأحوذي (٦/ ١١٣).

(٤) تحفة الأحوذي (٩/ ١١٣).

(٥) (٣/ ٤٨٢).

(٦) تحفة الأحوذي (٩/ ١١٣/ ١١٤).

(٧) المصدر نفسه (٩/ ١١٤).

(٨) المصدر نفسه (٩/ ١١٤).

- «ما كان عليه رسول اللَّه ﷺ من التعظيم لله ﷻ، والوجل من وقوع بأسه سبحانه على الناس، وشفقته ﷺ عليهم، وشدة اليقين بأن كل ما يقع في الكون إنما هو من أمر اللَّه تعالى، ولا شك أن القلب إذا كان عامرًا بالإيمان، مستنيرًا بالهداية، مملوءًا باليقين، كانت معرفته باللَّه تامة وخشيته من بأسه كبيرة، ووجله من تحول نعمته، وفجاءة نقمته عظيمة، وفيها أن تبدل الأحوال في الكون من الريح المفاجئة أو البرق والرعد ونحو ذلك إنما هو آيات يرسلها اللَّه تعالى لتخويف عباده، ليستقيموا على الطاعة، وينتبهوا من الغفلة، قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[1]»[2].

- جواز «الإخبار عن الأمم الماضية وأهلها»[3].

- قال أبو بكر بن العربي: «سؤال رسول اللَّه ﷺ عن خبر وافد عاد لهذا البكري، -ويقال الكلابي، والأول أصح- دليل على جواز سماع أخبار الأمم الماضية من غير الرسول ممن لا يتعلق في الشريعة من غير تحريف ولا تبديل»[4].

- وقال الحافظ معلّقًا على حديث أبي سعيد الخدري: «والغرض منه هنا قوله: «**لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**» أي: قتلًا لا يبقي منهم أحدًا؛ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ۝٨﴾[5]، ولم يرد أنه يقتلهم بالآلة التي قتلت بها عاد بعينها، ويحتمل أن يكون من الإضافة إلى الفاعل ويراد به القتل الشديد القوي، إشارة إلى أنهم موصوفون بالشدة والقوة ويؤيده أنه وقع في طريق أخرى: «**قتل ثمود**»»[6].

- قال ابن كثير معلّقًا على حديث وافد عاد: «هكذا أورد هذا الحديث وهذه القصة عند تفسير هذه القصة غير واحد من المفسرين، كابن جرير وغيره، وقد يكون هذا السياق لإهلاك عاد الآخرة؛ فإن فيما ذكره ابن إسحاق وغيره ذكر لمكة، ولم تُبن إلا بعد إبراهيم الخليل حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل، فنزلت جرهم

---

(١) الإسراء: الآية (٥٩).
(٢) قاله في إهداء الديباجة (٥/ ٢٣٦)، وانظر المفهم (٢/ ٥٤٧).
(٣) قاله ابن بطال في شرح صحيح البخاري (٣/ ٢٥).
(٤) عارضة الأحوذي (١٢/ ١٦٢-١٦٣).
(٥) الحاقة: الآية (٨).
(٦) فتح الباري (٦/ ٤٦٥).

عندهم، كما سيأتي، وعاد الأولى قبل الخليل، وفيه ذكر معاوية بن بكر وشعره، وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى، لا يشبه كلام المتقدمين، وفيه أن في تلك السحابة شرر نار، وعاد الأولى إنما أهلكوا بريح صرصر..

وأما قوله تعالى: ﴿۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾، فالظاهر أن عادًا هذه هي عاد الأولى؛ فإن سياقها شبيه بسياق قوم هود، وهم الأولى، ويحتمل أن يكون المذكورون في هذه القصة هم عاد الثانية، ويدل عليه ما ذكرنا وما سيأتي من الحديث عن عائشة ﵂، وأما قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾؛ فإن عادًا لما رأوا هذا العارض وهو الناشئ في الجو كالسحاب، ظنّوه سحاب مطر، فإذا هو سحاب عذاب، اعتقدوه رحمة فإذا هو نقمة، رجوا فيه الخير فنالوا منه غاية الشر؛ قال اللَّه تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ أي: من العذاب، ثم فسره بقوله: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة الهبوب، التي استمرت عليهم سبع ليال بأيامها الثمانية، فلم تبق منهم أحدًا، بل تتبعتهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والغيران، فتلفهم وتخرجهم وتهلكهم، وتدمر عليهم البيوت المحكمة، والقصور المشيدة، فكما منوا بقوتهم وشدتهم، وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[1]، سلّط اللَّه عليهم ما هو أشد منهم قوة وأقدر عليهم، وهو الريح العقيم، ويحتمل أن هذه الريح أثارت في آخر الأمر سحابة ظن من بقي منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم وغياث لمن بقي منهم، فأرسلها اللَّه عليهم شررًا ونارًا، كما ذكره غير واحد، ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظلة من أهل مدين، وجمع لهم بين الريح الباردة وعذاب النار، وهو أشد ما يكون من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة مع الصيحة التي ذكرها في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾، واللَّه أعلم.

.. وظاهر الآية أنهم رأوا عارضًا، والمفهوم منه لمعة السحاب، كما دل عليه حديث الحارث بن حسان البكري أن جعلناه مفسرًا لهذه القصة، وأصرح منه في ذلك ما رواه مسلم في صحيحه حيث قال: حدثنا أبو الطاهر حدثنا ابن وهب

---

(١) فصلت: الآية (١٥).

سمعت ابن جريج يحدثنا عن عطاء بن أبي رباح عن عائشة ﵂ قالت: «كان رسول اللَّه ﷺ إذا عصفت الريح قال: **اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به.** قالت: وإذا عَبَبَت[1] السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سُرّي عنه، فعرفت ذلك عائشة، فسألته فقال: **لعله يا عائشة كما قال قوم عاد:** ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾» رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ابن جريج.

طريق أخرى قال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف أنبأنا عبداللَّه بن وهب أنبأنا عمرو وهو ابن الحارث أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار عن عائشة أنها قالت: «**ما رأيت رسول اللَّه ﷺ** مستجمعًا ضاحكًا قط حتى أرى منه لهواته؛ إنما كان يتبسم. وقالت: كان إذا رأى غيمًا أو ريحًا عرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله! الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية، فقال: يا عائشة! ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؛ قد عذّب قوم نوح بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا»، فهذا الحديث كالصريح في تغاير القصتين كما أشرنا إليه أولًا، فعلى هذا تكون القصة المذكورة في سورة (الأحقاف) خبرًا عن قوم عاد الثانية، وتكون بقية السياقات في القرآن خبرًا عن عاد الأولى، والله أعلم بالصواب»[2].

* * *

(١) أي: انتشرت فيها السحب.

(٢) البداية والنهاية (١/ ١٢١-١٢٣).

قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

★ غريب الآية:

تدمّر: التدمير: الإهلاك؛ أي: تخرب كل شيء، وترمي بعضه على بعض فتهلكه؛ قال الشاعر:

وكان لهم كبكر ثمود لما   رغى ظهرًا فدمرهم دمارا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ يقول -تعالى ذكره-: تخرّب كل شيء، وترمي بعضه على بعض فتهلكه.. وإنما عنى بقوله: (تدمّر كل شيء بأمر ربها) مما أرسلت بهلاكه، لأنها لم تدمر هودًا ومن كان آمن به..

وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ يقول: فأصبح قوم هود وقد هلكوا وفنوا، فلا يُرى في بلادهم شيء إلا مساكنهم التي كانوا يسكنونها..

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: كما جزينا عادًا بكفرهم بالله من العقاب في عاجل الدنيا، فأهلكناهم بعذابنا، كذلك نجزي القوم الكافرين بالله من خلقنا، إذ تمادوا في غيّهم وطغوا على ربهم»[(١)].

قال ابن كثير: «أي: تخرب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من بلادهم مما من شأنه الخراب، ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: بإذن الله لها في ذلك، كقوله: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾[(٢)]؛ أي: كالشيء البالي. ولهذا قال: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾؛ أي: قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا، وخالف أمرنا»[(٣)].

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٢٧).
(٢) الذاريات: الآية (٤٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٩).

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾

★ غريب الآية:

مكّنّاهم: أي: ملّكناهم وقوّيناهم. والتمكين: إعطاء المَكِنة، وهي القدرة والقوة.

حاق بهم: أي: أحاط بهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: يقول -تعالى ذكره- لكفار قريش: «ولقد مكّنّا أيها القوم عادًا الذين أهلكناهم بكفرهم فيما لم نمكنكم فيه من الدنيا، وأعطيناهم منها الذي لم نعطكم منهم من كثرة الأموال، وبسطة الأجسام، وشدّة الأبدان..

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا﴾ يسمعون به مواعظ ربهم، ﴿وَأَبْصَـٰرًا﴾ يبصرون بها حجج اللّه، ﴿وَأَفْـِٔدَةً﴾ يعقلون بها ما يسرّهم وينفعهم، ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ يقول: فلم ينفعهم ما أعطاهم من السمع والبصر والفؤاد إذ لم يستعملوها فيما أعطوها له، ولم يعملوها فيما ينجيهم من عقاب اللّه، ولكنهم استعملوها فيما يقرّبهم من سخطه ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ يقول: إذ كانوا يكذّبون بحجج اللّه وهم رُسله، وينكرون نبوّتهم، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يقول: وعاد عليهم ما استهزؤوا به، ونزل بهم ما سخروا به، فاستعجلوا به من العذاب، وهذا وعيد من اللّه جلّ ثناؤه لقريش، يقول لهم: فاحذروا أن يحلّ بكم من العذاب على كفركم باللّه وتكذيبكم رسله، ما حلّ بعاد، وبادروا بالتوبة قبل النقمة»[١].

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٢٨).

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ولقد مكّنّا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريبًا منه، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: وأحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذّبون به ويستبعدون وقوعه؛ أي: فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم، فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة»[1].

قال السعدي: «﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ﴾ أي: مكناهم في الأرض، ينالون طيباتها، ويتمتعون بشهواتها، وعمّرناهم عمرًا، يتذكّر فيه من تذكّر، ويتعظ فيه المهتدي.

أي: ولقد مكنا عادًا كما مكناكم يا هؤلاء المخاطبون؛ أي: فلا تحسبوا أن ما مكناكم فيه، مختص بكم، وأنه سيدفع عنكم من عذاب اللّٰه شيئًا. بل غيركم أعظم منكم تمكينًا، فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا جنودهم من اللّٰه شيئًا.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ أي: لا قصور في أسماعهم ولا أبصارهم ولا أذهانهم، حتى يقال: إنهم تركوا الحق جهلًا منهم، وعدم تمكن من العلم به، ولا خلل في عقولهم، ولكن التوفيق بيد اللّٰه.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ لا قليل ولا كثير.

﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على توحيده، وإفراده بالعبادة.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: نزل بهم العذاب الذي يكذّبون بوقوعه، ويستهزئون بالرسل الذين حذروهم منه»[2].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ﴾.

لفظة (إن) في هذه الآية الكريمة فيها للمفسرين ثلاثة أوجه، يدل استقراء القرآن على أن واحدًا منها هو الحق، دون الاثنين الآخرين.

قال بعض العلماء: (إن) شرطية وجزاء الشرط محذوف، والتقدير: إن مكناكم فيه طغيتم وبغيتم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٧١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٥).

وقال بعضهم: (إن) زائدة بعد (ما) الموصولة حملًا لـ(ما) الموصولة على (ما) النافية؛ لأن (ما) النافية تزاد بعدها لفظة (إن) كما هو معلوم.

كقول تقيلة بنت الحرث والنضر العبدرية:

أبلغ بها ميتًا بأن تحية ما إن نزل بها النجائب تخفق

وقول دريد بن الصمة في الخنساء:

ما إن رأيت ولا سمعت به كاليوم طالى أينق جرب

فـ(إن) زائدة بعد (ما) النافية في البيتين، وهو كثير، وقد حملوا على ذلك (ما) الموصولة فقالوا: تزاد بعدها (إن) كآية (الأحقاف) هذه. وأنشد لذلك الأخفش:

يرجى المرء ما إن لا يراه وتعرض دون أدناه الخطوب

أي: يُرجى المرء الشيء الذي لا يراه، و(إن) زائدة، وهذان هما الوجهان اللذان لا تظهر صحة واحد منهما؛ لأن الأول منهما فيه حذف وتقدير، والثاني منهما فيه زيادة كلمة. وكل ذلك لا يصار إليه إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

أما الوجه الثالث الذي هو الصواب إن شاء اللّٰه، فهو أن لفظة (إن) نافية بعد (ما) الموصولة؛ أي: ولقد مكّنّاهم في الذي مكنّاكم فيه من القوة في الأجسام، وكثرة الأموال والأولاد، والعدد.

وإنما قلنا: إن القرآن يشهد لهذا القول لكثرة الآيات الدالة عليه، فإن اللّٰه جل وعلا في آيات كثيرة من كتابه يهدد كفار مكة بأن الأمم الماضية كانت أشد منهم بطشًا وقوة، وأكثر منهم عددًا، وأموالًا، وأولادًا، فلما كذبوا الرسل، أهلكهم اللّٰه ليخافوا من تكذيب النبي ﷺ أن يهلكهم اللّٰه بسببه، كما أهلك الأمم التي هي أقوى منهم، كقوله تعالى في المؤمن: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

وقوله فيها أيضًا: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾[2] الآية.

---

(١) غافر: الآية (٨٢). (٢) غافر: الآية (٢١).

وقوله تعالى في (الروم): ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾[1] الآية.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة (الزخرف) في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾[2][3].

* * *

(١) الروم: الآية (٩).

(٢) الزخرف: الآية (٨).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٣٩٨-٤٠٠).

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

★ غريب الآية:

صرّفنا : بيّنّا . وأصل معنى التصريف : التغيير والتبديل ؛ لأنه مشتق من الصرف ، وهو الإبعاد ، وكنّى به هنا عن التبيين والتوضيح ؛ لأن تعدد أنواع الأدلة يزيد المقصود وضوحًا .

قربانًا : القربان في الأصل : كل ما يتقرب به إلى اللَّه ﷻ من طاعة أو نسك . والجمع : قرابين .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول -تعالى ذكره- لكفار قريش محذرهم بأسه وسطوته ، أن يحل بهم على كفرهم ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ أيها القوم من القرى ما حول قريتكم ، كحجر ثمود وأرض سذوم ومأرب ونحوها ، فأنذرنا أهلها بالمثلات ، وخربنا ديارها ، فجعلناها خاوية على عروشها .

وقوله : ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ يقول : ووعظناهم بأنواع العظات ، وذكرناهم بضروب من الذكر والحجج ، وبينا لهم ذلك . . قال ابن زيد في قوله : ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ قال : بيّناها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يقول : ليرجعوا عمّا كانوا عليه مقيمين من الكفر باللَّه وآياته . وفي الكلام متروك ترك ذكره استغناءً بدلالة الكلام عليه ، وهو : فأبوا إلا الإقامة على كفرهم ، والتمادي في غيّهم ، فأهلكناهم ، فلن ينصرهم منّا ناصر ؛ يقول جلّ ثناؤه : فلولا نصر هؤلاء الذين أهلكناهم من الأمم الخالية قبلهم أوثانهم وآلهتهم التي اتخذوا عبادتها قربانًا يتقرّبون بها فيما زعموا إلى ربهم منّا إذ جاءهم بأسنا ، فتنقذهم من عذابنا إن كانت تشفع لهم عند ربهم كما يزعمون ، وهذا

احتجاج من اللَّه لنبيه محمد ﷺ على مشركي قومه، يقول لهم: لو كانت آلهتكم التي تعبدون من دون اللَّه تغني عنكم شيئًا، أو تنفعكم عند اللَّه كما تزعمون أنكم إنما تعبدونها، لتقرّبكم إلى اللَّه زلفى، لأغنت عمّن كان قبلكم من الأمم التي أهلكتُها بعبادتهم إياها، فدفعَتْ عنها العذاب إذا نزل، أو لشفعت لهم عند ربهم، فقد كانوا من عبادتها على مثل الذي عليه أنتم، ولكنها ضرتهم ولم تنفعهم: يقول -تعالى ذكره-: ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ يقول: بل تركتهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها، فأخذت غير طريقهم، لأن عبدتها هلكت، وكانت هي حجارة أو نحاسًا، فلم يصبها ما أصابهم، ودعوها فلم تجبهم ولم تغثهم، وذلك ضلالها عنهم، ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾، يقول ﷻ: هذه الآلهة التي ضلَّت عن هؤلاء الذين كانوا يعبدونها من دون اللَّه عند نزول بأس اللَّه بهم، وفي حال طمعهم فيها أن تغيثهم، فخذلتهم، هو إفكهم: يقول: هو كذبهم الذي كانوا يكذّبون، ويقولون به هؤلاء آلهتنا ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، يقول: وهو الذي كانوا يفترون، فيقولون: هي تقرّبنا إلى اللَّه زُلفى، وهي شفعاؤنا عند اللَّه. وأخرج الكلام مخرج الفعل، والمعنيّ المفعول به، فقيل: وذلك إفكهم، والمعنيّ فيه: المأفوك به لأن الإفك إنما هو فعل الآفك، والآلهة مأفوك بها»[1].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني أهل مكة، قد أهلك اللَّه الأمم المكذبة بالرسل مما حولها كعاد، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يمرّون بها أيضًا.

وقوله: ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾؛ أي: بيناها ووضّحناها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٧ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾؛ أي: فهلاّ نصروهم عند احتياجهم إليهم، ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾؛ أي: بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم، ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾؛ أي: كذبهم، ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: وافتراؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها، واعتمادهم عليها»[2].

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٢٨-٢٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٧١-٢٧٢).

وقال السعدي: «يحذر تعالى مشركي العرب وغيرهم، بإهلاك الأمم المكذبين، الذين هم حول ديارهم، بل كثير منهم في جزيرة العرب، كعاد وثمود ونحوهم، وأن اللَّه تعالى صرّف لهم الآيات؛ أي: نوّعها من كل وجه، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه من الكفر والتكذيب، فلما لم يؤمنوا، أخذهم اللَّه أخذ عزيز مقتدر، ولم تنفعهم آلهتهم التي يدعون من دون اللَّه من شيء، ولهذا قال هنا: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً﴾ أي: يتقربون إليهم، ويتألهونهم لرجاء نفعهم.

﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ فلم يجيبوهم، ولا دفعوا عنهم، ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الكذب، الذي يمنون به أنفسهم، حيث يزعمون أنهم على الحق، وأن أعمالهم ستنفعهم، فضلت وبطلت»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

★ غريب الآية:

صرفنا إليك: وجّهنا إليك وبعثنا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول -تعالى ذكره- مقرّعًا كفّار قريش بكفرهم بما آمنت به الجن: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ذكر أنهم صرفوا إلى رسول اللَّه ﷺ بالحادث الذي حدث من رجمهم بالشهب»[1].

قال السعدي: «كان اللَّه تعالى قد أرسل رسوله محمدًا ﷺ إلى الخلق، إنسهم وجنهم، وكان لا بد من إبلاغ الجميع لدعوة النبوة والرسالة.

فالإنس، يمكنه -عليه الصلاة والسلام- دعوتهم وإنذارهم، وأما الجن، فصرفهم اللَّه إليه بقدرته، وأرسل إليه ﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ أي: وصّى بعضهم بعضًا بذلك، ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ وقد وعوه، وأثّر ذلك فيهم، ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ نصحًا منهم لهم، وإقامة لحجة اللَّه عليهم، وقيّضهم اللَّه معونة لرسوله ﷺ في نشر دعوته في الجن»[2].

قال ابن كثير: «فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: طائفة من الجن

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٣٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٦-٥٧).

﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾؛ أي: استمعوا، وهذا أدب منهم..

وقوله: ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ أي: فرغ؛ كقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ﴾[1]، ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾[2]، ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾[3]، ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي: رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ، كقوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[4].

وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نُذُرٌ، وليس فيهم رسل: ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولًا؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰٓ﴾[5]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الْأَسْوَاقِ﴾[6]، وقال عن إبراهيم الخليل: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَٰبَ﴾[7].

فكل نبي بعثه الله بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته، فأما قوله تعالى في سورة (الأنعام): ﴿يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾[8]، فالمراد من مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما وهو الإنس، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾[9] أي: أحدهما[10]. ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبرًا عنهم: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى الْحَقِّ﴾، ولم يذكروا عيسى؛ لأن عيسى عليه السلام أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة؛ فلهذا قالوا: أنزل من بعد موسى. وهكذا قال ورقة بن نوفل، حين أخبره النبي ﷺ بقصة نزول جبريل عليه السلام عليه أول مرة، فقال: «بَخ بَخ، هذا الناموس الذي كان يأتي موسى، يا ليتني أكون فيها جَذَعًا»[11].

---

(١) الجمعة: الآية (١٠).
(٢) فصلت: الآية (١٢).
(٣) البقرة: الآية (٢٠٠).
(٤) التوبة: الآية (١٢٢).
(٥) يوسف: الآية (١٠٩).
(٦) الفرقان: الآية (٢٠).
(٧) العنكبوت: الآية (٢٧).
(٨) الأنعام: الآية (١٣٠).
(٩) الرحمن: الآية (٢٢).
(١٠) وقد تقدم هذا المعنى في سورة (الأنعام): الآية (١٣٠).
(١١) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٣٢-٢٣٣)، والبخاري (٨/ ٧١٥/ ٤٩٥٣-٤٩٥٤)، ومسلم (١/ ١٣٩-١٤٠/ ١٦٠).

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: من الكتب المنزلة قبله على الأنبياء. وقولهم: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ أي: في الاعتقاد والإخبار، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ في الأعمال؛ فإن القرآن يشتمل على شيئين: خبر وطلب، فخبره صدق، وطلبه عدل، كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[1]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾[2]، فالهدى هو: العلم النافع، ودين الحق: هو العمل الصالح. وهكذا قالت الجن: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ في الاعتقادات، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: في العمليات»[3].

قال الشنقيطي: «ذكر اللَّه جل وعلا في هذه الآية الكريمة من سورة (الأحقاف)، أنه صرف إلى النبي ﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، والنفر دون العشرة ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ وأنهم لما حضروه، قال بعضهم لبعض: ﴿أَنصِتُوا۟﴾ أي: اسكتوا مستمعين، وأنه لما قُضي؛ أي: انتهى النبي ﷺ من قراءته ﴿وَلَّوْا۟﴾ أي: رجعوا إلى قومهم من الجن في حال كونهم ﴿مُّنذِرِينَ﴾ أي: مخوفين لهم من عذاب اللَّه إن لم يؤمنوا باللَّه، ويجيبوا داعيه محمدًا ﷺ. وأخبروا قومهم أن هذا الكتاب الذي سمعوه يتلى، المنزل من بعد موسى، يهدي إلى الحق، وهو ضد الباطل، وإلى طريق مستقيم؛ أي: لا اعوجاج فيه.

وقد دل القرآن العظيم أن استماع هؤلاء النفر من الجن، وقولهم ما قالوا عن القرآن كله وقع ولم يعلم به النبي ﷺ، حتى أوحى اللَّه ذلك إليه، كما قال تعالى في القصة بعينها، مع بيانها وبسطها، بتفصيل الأقوال التي قالتها الجن، بعد استماعهم القرآن العظيم: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾[4] إلى آخر الآيات»[5].

قال ابن كثير: «﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمدًا صلوات اللَّه وسلامه عليه إلى الثقلين الإنس والجن حيث دعاهم إلى اللَّه، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم، وهي سورة (الرحمن)؛ ولهذا قال: ﴿أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾.

(١) الأنعام: الآية (١١٥).
(٢) التوبة: الآية (٣٣).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٨٥-٢٨٦).
(٤) الجن: الآيتان (١و٢).
(٥) أضواء البيان (٧/ ٤٠٠-٤٠١).

وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ قيل: إن (من) ههنا زائدة، وفيه نظر؛ لأن زيادتها في الإثبات قليل، وقيل: إنها على بابها للتبغيض، ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: ويقيكم من عذابه الأليم.

وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحيهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة؛ ولهذا قالوا هذا في هذا المقام، وهو مقام تبجح ومبالغة، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه. والحق أن مؤمنهم كمؤمني الإنس يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة من السلف، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله ﷻ: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾[1]، وفي هذا الاستدلال نظر، وأحسن منه قوله -جل وعلا-: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾[2]، فقد امتنّ تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولي أبلغ من الإنس فقالوا: «**ولا بشيء من آلائك ربنا نكذّب، فلك الحمد**»، فلم يكن تعالى ليمتنّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم، وأيضًا فإنه إذا كان يجازي كافرهم بالنار وهو مقام عدل فلأن يجازي مؤمنهم بالجنة، وهو مقام فضل، بطريق الأولى والأحرى. ومما يدل أيضًا على ذلك عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾[3] وما أشبه ذلك من الآيات. وقد أفردت هذه المسألة في جزء على حدة، ولله الحمد والمنة. وهذه الجنة لا يزال فيها فضل حتى ينشئ اللّه تعالى لها خلقًا، أفلا يسكنها من آمن به وعمل صالحًا، وما ذكروه ههنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجارة من العذاب الأليم هو يستلزم دخول الجنة؛ لأنه ليس في الآخرة إلا الجنة أو النار، فمن أجير من النار دخل الجنة لا محالة، ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع أن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة وإن أجيروا من النار، ولو صح لقلنا به، واللّه أعلم. وهذا نوح عليه السلام يقول لقومه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[4]، ولا خلاف أن مؤمني قومه في الجنة، فكذلك هؤلاء، وقد حكى فيهم أقوال غريبة، فعن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه أنهم لا يدخلون بحبوحة الجنة، وإنما يكونون في ربضها وحولها

(١) الرحمن: الآية (٥٦).
(٢) الرحمن: الآيتان (٤٦و٤٧).
(٣) الكهف: الآية (١٠٧).
(٤) نوح: الآية (٤).

وفي أرجائها. ومن الناس من زعم أنهم في الجنة يراهم بنو آدم ولا يرون بني آدم بعكس ما كانوا عليه في الدار الدنيا، ومن الناس من قال: لا يأكلون في الجنة ولا يشربون، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس عوضًا عن الطعام والشراب كالملائكة؛ لأنهم من جنسهم. وكل هذه الأقوال فيها نظر، ولا دليل عليها»[1].

قال السعدي: «لما مدحوا القرآن، وبيّنوا محله ومرتبته، دعوهم إلى الإيمان به، فقالوا: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ أي: الذي لا يدعو إلا إلى ربه، لا يدعوكم إلى غرض من أغراضه، ولا هوى، وإنما يدعوكم إلى ربكم ليثيبكم ويزيل عنكم كل شر ومكروه، ولهذا قالوا: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، وإذا أجارهم من العذاب الأليم فما ثم بعد ذلك إلا النعيم، فهذا جزاء من أجاب داعي اللَّه.

﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ فإن اللَّه على كل شيء قدير، فلا يفوته هارب ولا يغالبه مغالب، ﴿وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾، وأي ضلال أبلغ من ضلال من نادته الرسل ووصلت إليه النذر، بالآيات البينات والحجج المتواترات، فأعرض واستكبر؟!»[2].

قال ابن كثير: «ثم قال مخبرًا عنهم: ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: بل قدرة اللَّه شاملة له ومحيطة به، ﴿وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ﴾ أي: لا يجيرهم منه أحد، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ وهذا مقام تهديد وترهيب، فدَعَوا قومهم بالترغيب والترهيب، ولهذا نجع في كثير منهم، وجاؤوا إلى رسول اللَّه ﷺ وفودًا وفودًا»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر أخبار الجن

* عن معن بن عبدالرحمن قال: سمعت أبي قال: «سألت مسروقًا: من آذن النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثني أبوك -يعني عبدالله- أنه آذنت بهم شجرة»[4].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٨٦-٢٨٧).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٨٧).
(٤) أخرجه: البخاري (٧/ ٢١٦/ ٣٨٥٩)، ومسلم (١/ ٣٣٣/ ٤٤٩[١٥٣]).

★ غريب الحديث:

آذنته: أي: أعلمته بهم.

★ فوائد الحديث:

«في هذا الحديث دلالة على نبوته ﷺ، وأن الشجرة أعلمته باستماع الجن لقراءته، فهي في ذلك بعض أعوانه ﷺ»[١].

قال ابن العربي: «وقد كانت الحجارة تكلم النبي ﷺ والشجر وتسلم عليه، وكانت تلك فضيلة زاد بها على سليمان بن داود في تكلم الجن والبهائم»[٢].

* عن عامر قال: «سألت علقمة: هل كان ابن مسعود شهد مع رسول اللَّه ﷺ ليلة الجن؟ قال فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول اللَّه ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول اللَّه ﷺ ذات ليلة، ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: استطير أو اغتيل، قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، قال فقلنا: يا رسول الله! فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال: **أتاني داعي الجن، فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن**، قال: فانطلق بنا، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد، فقال: **لكم كل عظم ذُكِر اسم اللَّه عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحمًا، وكل بعرة علف لدوابكم**. فقال رسول اللَّه ﷺ: **فلا تستنجوا بهما؛ فإنهما طعام إخوانكم**»[٣].

★ غريب الحديث:

استطير: طارت به الجن.

اغتيل: قتل سرًّا. والغيلة: هي القتل في خفية.

★ فوائد الحديث:

قال ابن العربي: «في الحديث فوائد منها: أن الجن أسلمت حين سمعت

---

(١) الإفصاح (٢/ ٢٨).
(٢) عارضة الأحوذي (١٢/ ١٤٣).
(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٤٣٦)، ومسلم (١/ ٣٣٢/ ٤٥٠) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٣٥٦-٣٥٧/ ٣٢٥٨) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٩/ ١١٦٢٣)، وأبوداود (١/ ٦٧/ ٨٥) مختصراً.

القرآن، فدل ذلك على وجودهم، وحياتهم، وإيمانهم، وكفرهم، ودعائهم إلى الدين؛ خلافًا للفلاسفة والقدرية الذين أنكروا ذلك كله.

ومنها: وهي المسألة الغارة للأغمار وطائفة ممن ينتسب إلى أهل الأدب تنكر أكل الجن وإن أقروا بوجودهم، وأكلهم صحيح، وشربهم صحيح، ووطؤهم صحيح، فأما المؤمن منهم فطعامه ما ذكر اسم اللَّه عليه، والروث علف دوابهم، وأما الكافر فطعامه ما لم يذكر اسم اللَّه عليه»[١].

قال القرطبي: «وقوله: «**ذكر اسم اللَّه عليه**» أي: على تذكيته، ويحتمل على أكله، والأول أولى»[٢].

وقال أيضًا: «وقوله: «**وسألوه الزاد**» أي: ما يحل لهم من الزاد ولدوابهم، فأجابهم بقوله: «**لكم كل عظم، وكل بعرة لعلف دوابكم**» أي: هذان محلل لكم، ويحتمل أن يكونوا سألوه أن يدعو لهم بالبركة في أرزاقهم وفي علف دوابهم، ويدل على هذا قوله: «**يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحمًا**»، وفي كتاب مسلم: قال رسول اللَّه ﷺ: «**دعوت اللَّه ألا يمروا بعظم إلا وجدوه أوفر ما كان وأسمنه**» أي: بالنسبة إلى تغذيهم ونيلهم. وهل نيلهم من ذلك شم أو لحس؟ كل ذلك ممكن، وقد قيل بكل واحد منهما»[٣].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما قرأ رسول اللَّه ﷺ على الجن وما رآهم. انطلق رسول اللَّه ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة -وهو بنخل عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر- فلما سمعوا القرآن استمعوا له. وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا! ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ

---

(١) عارضة الأحوذي (١٢/ ١٤٣-١٤٤). (٢) المفهم (٧/ ٤٢١-٤٢٢).
(٣) المفهم (٧/ ٤٢١).

﴿إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ . فأنزل اللَّه ﷻ على نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾»[١] .

* عن ابن عباس ﵄ قال: «كان الجن يصعدون إلى السماء يسمعون فيها الوحي، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعًا، فأما الكلمة فتكون حقًّا، وأما ما زادوا فيكون باطلًا، فلما بعث رسول اللَّه ﷺ منعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك، فقال لهم إبليس: ما هذا إلا من أمر قد حدث في أرض، فبعث جنوده فوجدوا رسول اللَّه ﷺ قائما يصلي بين جبلين أراه قال بمكة فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الذي حدث في الأرض»[٢] .

★ فوائد الحديثين:

قال القرطبي: «قول ابن عباس ﵄: «ما قرأ رسول اللَّه ﷺ على الجن ولا رآهم» يعني: لم يقصدهم بالقراءة عليهم، وإنما قرأ النبي ﷺ في الصلاة لأصحابه، لكن لما تفرقت الشياطين في الأرض يطلبون السبب الحائل بينهم وبين ما كانوا يسترقون من السمع صادف هذا النفر من الجن النبي ﷺ بسوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه فاستمعوا له، فقالوا: ما أخبر اللَّه به عنهم: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾[٣] . وقيل: كان عدد هؤلاء النفر اثني عشرة، وقيل: تسعة، وقيل: سبعة. وعلى هذا فالنبي ﷺ ما علم باستماع الجن ولا رآهم ولا كلمهم، وإنما أوحى اللَّه تعالى إليه فعلم ذلك لما أنزل عليه القرآن بذلك، وهذا بخلاف حديث ابن مسعود؛ فإن مقتضاه أن النبي ﷺ خرج بعبداللَّه بن مسعود معه، فجاءه داعي الجن، فانطلق النبي ﷺ نحو حراء، فقرأ عليهم القرآن فآمنوا وأسلموا، فهذه قضية أخرى، وجن آخرون»[٤] .

قال ابن كثير: «رواية ابن عباس تقتضي أن رسول اللَّه ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة، وإنما استمعوا قراءته، ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٥٢)، والبخاري (٢/ ٣٢٢/ ٧٧٣)، ومسلم (١/ ٣٣١/ ٤٤٩) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٣٩٧/ ٣٣٢٣) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٩/ ١١٦٢٤).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧٤)، والترمذي (٥/ ٣٩٨/ ٣٣٢٤) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٠٠/ ١١٦٢٦).

(٣) الجن: الآيتان (١-٢).

(٤) المفهم (٧/ ٤١٨-٤١٩).

أرسالًا قومًا بعد قوم، وفوجًا بعد فوج.. وأما ما رواه البخاري ومسلم عن معن بن عبدالرحمن قال: سمعت أبي يقول: سألت مسروقًا: من آذن النبي ﷺ ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثني أبوك -يعني ابن مسعود رضي الله عنه- أنه آذنته بهم شجرة. فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى، ويكون إثباتًا مقدّمًا على نفي ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أن يكون في الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة؛ أي: أعلمته باجتماعهم، والله أعلم. ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات، والله أعلم. قال الحافظ البيهقي: وهذا الذي حكاه ابن عباس رضي الله عنهما إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم، ولم يرهم، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله عز وجل، كما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه»[1].

ثم قال بعد ذكر رواية ابن مسعود وطرقها: «فهذه الطرق كلها تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصدًا فتَلاَ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله عز وجل، وشرع الله تعالى لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت. وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم، كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود رضي الله عنه»[2].

قال ابن هبيرة: «في هذا الحديث دليل على أن رسول الله ﷺ بعث إلى الجن والإنس؛ وكذا ينبغي أن يعتقد»[3].

قال القرطبي: «والحاصل من الكتاب والسنة: العلم القطعي بأن الجن والشياطين موجودون متعبدون بالأحكام الشرعية على النحو الذي يليق بخلقتهم وأحوالهم، وأن نبينا محمدًا ﷺ رسول إلى الإنس والجن أجمعين، فمن دخل في دينه وآمن به فهو من المؤمنين ومعهم في الدنيا والآخرة، والجنة مستقر المؤمنين. ومن كذب وصد عنه فهو الشيطان المبعد عن المؤمنين في الدنيا والآخرة، والنار مستقر الكافرين أبد الآبدين»[4].

قال شيخ الإسلام: «ومما يجب أن يعلم أن الله بعث محمدًا ﷺ إلى جميع

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٦٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٦٩).
(٣) الإفصاح (٢/ ١٠٦).
(٤) المفهم (٧/ ٤٢٠).

الإنس والجن، فلم يبق إنسي ولا جني إلا وجب عليه الإيمان بمحمد ﷺ واتباعه، فعليه أن يصدقه فيما أخبر، ويطيعه فيما أمر، ومن قامت عليه الحجة برسالة فلم يؤمن به فهو كافر، سواء كان إنسيًّا أو جنيًّا. ومحمد ﷺ مبعوث إلى الثقلين باتفاق المسلمين، وقد استمعت الجن القرآن، وولّوا إلى قومهم منذرين، لما كان النبي ﷺ يصلي بأصحابه ببطن نخلة لما رجع من الطائف، وأخبره اللَّه بذلك في القرآن بقوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾»[(١)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الجن مأمورون منهيون، داخلون تحت شرائع الأنبياء، وهذا مما لا خلاف فيه بين الأمة، وأن نبينا بعث إليهم كما بعث إلى الإنس، كما لا خلاف بينهما أن مسيئهم مستحق للعقاب. وإنما اختلف علماء الإسلام في المسلم منهم، هل يدخل الجنة؟ فالجمهور على أن محسنهم في الجنة، كما أن مسيئهم في النار، وقيل: بل ثوابهم سلامتهم من الجحيم، وأما الجنة فلا يدخلها أحد من أولاد إبليس، وإنما هي لبني آدم وصالحي ذريته خاصة. وحكي هذا القول عن أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى»[(٢)].

قال ابن القيم: «وأما حكم مؤمنيهم في الدار الآخرة، فجمهور السلف والخلف على أنهم في الجنة. وترجم على ذلك البخاري في صحيحه فقال: (باب ثواب الجن وعقابهم لقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾[(٣)] الآية بخسًا نقصًا، قال مجاهد: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًاۚ﴾[(٤)] قال كفار قريش: الملائكة بنات اللَّه، وأمهاتهم بنات سروات الجن. قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ ستحضر للحساب. ثم ذكر حديث أبي سعيد: «**إذا كنتَ في غنمك أو باديتك فأذّنت بالصلاة، فارفع صوتك بالنداء؛ فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة**» سمعته

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٠٣-٣٠٤).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٩).

(٣) الأنعام: الآية (١٣٠).

(٤) الصافات: الآية (١٥٨).

من رسول الله ﷺ[1]. هذا ما ذكره في الباب.

وقد ذهب جمهور الناس إلى أن مؤمنيهم في الجنة. وحكي عن أبي حنيفة وغيره أن ثوابهم نجاتهم من النار، واحتج لهذا بقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ الآية، فجعل غاية ثوابهم إجارتهم من العذاب الأليم. وأما الجمهور فقالوا: مؤمنهم في الجنة كما أن كافرهم في النار. ثم اختلفوا فأطلق أكثر الناس دخول الجنة ولم يقيدوه. وقال سهل بن عبدالله: يكونون في ربض الجنة، يراهم المؤمنون من حيث لا يرونهم.

فهذه مذاهب الناس في أحكامهم في الآخرة، وأما أحكامهم في الدنيا فاختلف الناس هل هم مكلفون بالأمر والنهي، أم هم مضطرون على أفعالهم؟ على قولين حكاهما أبو الحسن الأشعري في كتاب «المقالات»[2] له فقال: واختلف الناس في الجن هل هم مكلفون، أم مضطرون؟ فقال قائلون من المعتزلة وغيرهم: هم مأمورون منهيون وقد أمروا ونهوا وهم مختارون. وزعم زاعمون أنهم مضطرون. قلت: الصواب الذي عليه جمهور أهل الإسلام أنهم: مأمورون منهيون مكلفون بالشريعة الإسلامية. وأدلة القرآن والسنة على ذلك أكثر من أن تحصر. فإضافة هذا القول إلى المعتزلة بمنزلة أن يقال: ذهبت المعتزلة إلى القول بمعاد الأبدان، ونحو ذلك مما هو من أقوال سائر أهل الإسلام. وقال الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾[3] الآية، فأخبر أن منهم من حق عليه القول؛ أي: وجب عليه العذاب وأنه خاسر، ولا يكون ذلك إلا في أهل التكليف المستوجبين العقاب بأعمالهم. ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ أي: في الخير والشر يوفونها ولا يظلمون شيئًا من أعمالهم، وهذا ظاهر جدًّا في ثوابهم وعقابهم، وأن مسيئهم كما يستحق العذاب بإساءته فمحسنهم يستحق الدرجات بإحسانه، ولكل درجات مما عملوا، فدل ذلك لا محالة أنهم كانوا مأمورين بالشرائع، متعبدين بها في الدنيا، ولذلك استحقوا الدرجات بأعمالهم في الآخرة في الخير والشر، وقال الله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٥)، والبخاري (٦/ ٤٢٢/ ٢٣٩٦)، والنسائي (٢/ ٢٣٩-٢٤٠/ ٦٤٣)، وابن ماجه (١/ ٢٣٩-٢٤٠/ ٧٢٣).

(٢) مقالات الإسلاميين (٢/ ١٢٧).

(٣) الأحقاف: الآية (١٨).

لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾[١] الآية، ومعنى الآية: إن اللَّه قيض للمشركين -أي سبّب لهم- قرناء من الشياطين يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من التكذيب بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب، وقيل عكس هذا وأن ما بين أيديهم هو ترغيبهم في الدنيا وحرصهم عليها، وما خلفهم هو التكذيب بالآخرة. وقال الحسن: ما بين أيديهم: هو حب ما كان عليه آباؤهم من الشرك وتكذيب الرسل، وما خلفهم: تكذيبهم بالبعث وما بعده. وفي الآية قول رابع: وهو أن التزيين كله راجع إلى أعمالهم فزينوا لهم ما بين أيديهم: أعمالهم التي عملوها، وما خلفهم: الأعمال التي هم عازمون عليها ولما يعملوها بعد، وكأن لفظ التزيين بهذا القول أليق. ومن جعل ما خلفهم: هو الآخرة، لم يستقم قوله إلا بإضمار؛ أي: زينوا لهم التكذيب بالآخرة، ومع هذا فهو قول مستقيم ظاهر؛ فإنهم زينوا لهم ترك العمل لها والاستعداد للقائها، ولهذا كان عليه جمهور أهل التفسير، حتى لم يذكر البغوي غيره، وحكاه عن الزجاج فقال الزجاج: سبّبنا لهم قرناء نظراء من الشياطين حتى أضلوهم فزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة، وما خلفهم من أمر الآخرة فدعوهم إلى التكذيب به وإنكار البعث.

والمقصود أن قوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ أي: وجب عليهم العذاب مع أمم قد مضت من قبلهم من الجن والإنس، ففي هذا أبين دليل على تكليف الثقلين وتعلق الأمر والنهي بهم، وكذلك تعلق الثواب والعقاب بهم، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾[٢] وهذا صريح في تكليفهم، فإن هذا القول يقال للجن في القيامة، فيذكر الإنس استمتاع بعضهم ببعض في الدنيا، وذلك الاستمتاع هو ما بين الجن والإنس من طاعتهم إياهم في معصية اللَّه، وعبادتهم لهم دون اللَّه، ليستعينوا بهم على شهواتهم وأغراضهم. فإنهم كانوا يستوحونهم ويعوذون بهم ويذبحون لهم وبأسمائهم ويوالونهم من دون اللَّه كما هو شأن أكثر

---

(١) فصلت: الآية (٢٥). (٢) الأنعام: الآية (١٢٨).

المشركين من أولياء الشيطان. فهذا هو استمتاع بعضهم ببعض، ولهذا يقول تعالى للملائكة يوم القيامة -وقد جمع العابدين والمعبودين-: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[1] فهؤلاء عباد الجن وأولياء الشياطين. وأكثرهم يعلم ذلك ويرضى به لما ينال به من المتعة بمعبوده. وكثير منهم ملبوس عليه، فهو يعبد الشيطان ولا يشعر. وقد أشار زيد بن عمرو بن نفيل في شعره إلى هذا الشرك بالجن فقال:

حنانيك إن الجن كانت رجاءهم ... وأنت إلهي ربنا ورجاؤنا

ولهذا يقولون في القيامة: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ﴾قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ﴾، فهذا خطاب للصنفين، وهو صريح في اشتراكهم في التكليف، كما هو صريح في اشتراكهم في العذاب. وهو كثير في القرآن. ومما يدل على تكليفهم أيضًا قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَٰفِرِينَ﴾[2] فلما اعترفوا بأنهم كانوا كافرين، وشهدوا على أنفسهم بالكفر، دل ذلك على تكليفهم وتوجه الخطاب إليهم.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فهذا يدل على تكليفهم من وجوه متعددة:

أحدها: أن الله سبحانه وتعالى صرفهم إلى رسوله يستمعون القرآن ليؤمنوا به ويأتمروا بأوامره وينتهوا عن نواهيه.

الثاني: أنهم ولوا إلى قومهم منذرين. والإنذار هو الإعلام بالخوف بعد انعقاد أسبابه، فعلم أنهم منذرون لهم بالنار إن عصوا الرسول.

الثالث: أنهم أخبروا أنهم سمعوا القرآن وعقلوه وفهموه وأنه يهدي إلى الحق، وهذا القول منهم يدل على أنهم عالمون بموسى وبالكتاب المنزل عليه، وأن القرآن مصدق له وأنه هاد إلى صراط مستقيم: وهذا يدل على تمكنهم من العلم الذي تقوم به الحجة، وهم قادرون على امتثال ما فيه، والتكليف إنما يستلزم العلم والقدرة.

---

(١) سبأ: الآيتان (٤٠و٤١).

(٢) الأنعام: الآية (١٣٠).

الرابع: إنهم قالوا لقومهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ وهذا صريح في أنهم مكلفون مأمورون بإجابة الرسول، وهي تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر.

الخامس: أنهم قالوا: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ والمغفرة لا تكون إلا عن ذنب وهو مخالفة الأمر.

السادس: أنهم قالوا: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ والذنب مخالفة الأمر.

السابع: أنهم قالوا: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهذا يدل على أن من لم يستجب منهم لداعي اللَّه لم يجره من العذاب الأليم. وهذا صريح في تعلق الشريعة الإسلامية بهم.

الثامن: أنهم قالوا: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ وهذا تهديد شديد لمن تخلف عن إجابة داعي اللَّه منهم. وقد استدل بها على أنهم كانوا متعبدين بشريعة موسى كما هم متعبدون بشريعة محمد وهذا ممكن. والآية لا تستلزمه ولكن قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الآية، يدل على أن الجن كانوا متعبدين بشرائع الرسل قبل محمد ﷺ، والآيات المتقدمة تدل على ذلك أيضًا.

وعلى هذا فيكون اختصاص النبي ﷺ بالبعثة إلى الثقلين هو اختصاصه بالبعثة إلى جميعهم لا إلى بعضهم، ومن قبله كان يُبعث إلى طائفة مخصوصة. وأيضًا فقد قال تعالى عن نبيه سليمان: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1] وهذا محض التكليف. وقد تقدم قوله حكاية عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[2] وقد صح أن رسول اللَّه ﷺ قرأ عليهم القرآن وأنهم سألوه الزاد لهم ولدوابهم، فجعل لهم كل عظم ذكر اسم اللَّه عليه، وكل بعرة علف لدوابهم. ونهانا عن الاستنجاء بهما. ولو لم يكن في هذا إلا قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[3]، وقد أخبر أنه يعذب كفرة الجن لكفى به حجة على أنهم مكلفون باتباع الرسل. ومما يدل على أنهم مأمورون منهيون بشريعة الإسلام ما تضمنته سورة (الرحمن)، فإنه سبحانه

(١) سبأ: الآية (١٢). (٢) الجن: الآيتان (١٤و١٥).
(٣) الإسراء: الآية (١٥).

وتعالى ذكر خلق النوعين في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[1] ثم خاطب النوعين بالخطاب المتضمن لاستدعاء الإيمان منهم، وإنكار تكذيبهم بالآية، وترغيبهم في وعده، وتخويفهم من وعيده، وتهديدهم بقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[2] وتخويفهم من عواقب ذنوبهم، وأنه لعلمه بها لا يحتاج أن يسألهم عنها سؤال استعلام، بل يُعرف المجرمون منهم بسيماهم فيؤخذ بنواصيهم والأقدام، ثم ذكر عقاب الصنفين وثوابهم. وهذا كله صريح في أنهم هم المكلفون المأمورون المنهيون المثابون المعاقبون. وفي الترمذي من حديث محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة (الرحمن) من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: **«لقد قرأتها على الجن ليلة الجن وكانوا أحسن مردودًا منكم: كنت كلما أتيت على آية ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا شيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد»**[3]. وهذا يدل على ذكائهم وفطنتهم ومعرفتهم بمؤنة الخطاب، وعلمهم أنهم مقصودون به. وقوله في هذه السورة: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ وعيد للصنفين المكلفين بالشرائع، قال قتادة: معناه: فراغ الدنيا وانقضاؤها، ومجيء الآخرة والجزاء فيها، والله سبحانه لا يشغله شيء عن شيء. والفراغ في اللغة على وجهين: فراغ من الشغل، وفراغ بمعنى القصد. وهو في هذا الموضع بالمعنى الثاني، وهو قصد لمجازاتهم بأعمالهم يوم الجزاء، وقوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾[4] فيها قولان: أحدهما: إن استطعتم أن تنفذوا ما في السموات والأرض علمًا -أي أن تعلموا ما فيهما- فاعلموه، ولن تعلموه إلا بسلطان؛ أي: إلا ببينة من الله. وعلى هذا فالنفوذ ههنا نفوذ علم الثقلين في السموات والأرض. الثاني: إن استطعتم أن تخرجوا عن قهر الله ومحل سلطانه ومملكته بنفوذكم من أقطار السموات والأرض وخروجكم عن محل حكم الله وسلطانه فافعلوا، ومعلوم أن هذا من الممتنع عليكم، فإنكم تحت

(١) الرحمن: الآيتان (١٤و١٥). (٢) الرحمن: الآية (٣١).
(٣) أخرجه: الترمذي (٥/ ٣٧٢-٣٧٣/ ٣٢٩١)، والحاكم (٢/ ٤٧٣) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وهو في السلسلة الصحيحة (٢١٥٠).
(٤) الرحمن: الآية (٣٣).

سلطاني وفي محل ملكي وقدرتي أين كنتم. وقال الضحاك: معنى الآية: إن استطعتم أن تهربوا عند الموت فاهربوا فإنه مدرككم. وهذه الأقوال على أن يكون الخطاب لهم بهذا القول في الدنيا. وفي الآية تقرير آخر، وهو أن يكون هذا الخطاب لهم بهذا القول في الآخرة إذا أحاطت الملائكة بأقطار الأرض وأحاط سرادق النار بالآفاق، فهرب الخلائق، فلا يجدون مهربًا ولا منفذًا كما قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾[1] قال مجاهد: فارّين غير معجزين، وقال الضحاك: إذا سمعوا زفير النار ندّوا هربًا، فلا يأتون قطرًا من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفًا، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَآۚ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ﴾ وهذا القول أظهر. واللَّه أعلم. فإذا بُدِهَ الخلائق ولوا مدبرين، يقال لهم: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ﴾ أي: إن قدرتم أن تتجاوزوا أقطار السموات والأرض فتُعجزوا ربكم حتى لا يقدر على عذابكم فافعلوا. وكأن ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على هذا القول، فإن قبلها: ﴿سَنَفۡرُغُ﴾ الآية، وهذا في الآخرة، وبعدها: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾[3] وهذا في الآخرة. وأيضًا فإن هذا خطاب لجميع الإنس والجن، فإنه أتى فيه بصيغة العموم وهي قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ فلا بد أن يشترك الكل في سماع هذا الخطاب ومضمونه. وهذا إنما يكون إذا جمعهم اللَّه في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر. وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ ولم يقل: إن استطعتما، لإرادة الجماعة كما في آية أخرى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا﴾[5] ولم يقل: يرسل عليكم؛ لإرادة الصنفين؛ أي: لا يختص به صنف، بل يرسل ذلك على الصنفين معًا. وهذا وإن كان مرادًا بقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ فخطاب الجماعة في ذلك بلفظ الجمع أحسن؛ أي: من استطاع منكم. وحسُن الخطاب بالتثنية في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡكُمَا﴾ أمر آخر، وهو موافقة رؤوس الآي، فاتصلت التثنية بالتثنية. وفيه التسوية بين

---

(١) غافر: الآيتان (٣٢و٣٣). (٢) الحاقة: الآية (١٧).
(٣) الرحمن: الآية (٣٧). (٤) الأنعام: الآية (١٣٠).
(٥) الرحمن: الآية (٣٥).

الصنفين في العذاب بالتنصيص عليهما فلا يحتمل اللفظ إرادة أحدهما. والله أعلم.
قال ابن عباس: «الشواظ: اللهب الذي لا دخان فيه، والنحاس: الدخان الذي لا لهب فيه». وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩﴾[1] فأضاف الذنوب إلى الثقلين، وهذا دليل على أنهما سُوّيا في التكليف.

واختلف في هذا السؤال المنفي؛ فقيل: هو وقت البعث والمصير إلى الموقف، لا يسألون حينئذ ويسألون بعد إطالة الوقوف واستشفاعهم إلى الله أن يحاسبهم ويريحهم من مقامهم ذلك. وقيل: المنفي سؤال الاستعلام والاستخبار، لا سؤال المحاسبة والمجازاة؛ أي: قد علم الله ذنوبهم فلا يسألهم عنها سؤال من يريد علمها، وإنما يحاسبهم عليها.

(فصل)

فإذا علم تكليفهم بشرائع الأنبياء ومطالبتهم بها، وحشرهم يوم القيامة للثواب والعقاب، علم أن محسنهم في الجنة كما أن مسيئهم في النار، وقد دل على ذلك قوله تعالى حكاية عن مؤمنهم: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾[2] الآية، وبهذه الحجة احتج البخاري. ووجه الاحتجاج بها أن البخس المنفي هو نقصان الثواب، والرهق: الزيادة في العقوبة على ما عمل، فلا ينقص من ثواب حسناته، ولا يزداد في سيئاته. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ۝١١٢﴾[3] أي: لا يخاف زيادة سيئاته ولا نقصان حسناته. وأيضًا قد قال تعالى في سورة (الرحمن): ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧﴾[4]، وذكر ما في الجنتين إلى قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾[5]، وهذا يدل على أن ثواب محسنهم الجنة من وجوه: أحدها: أن (مَنْ) من صيغ العموم، فتتناول كل خائف. الثاني: أنه رتب الجزاء المذكور على خوف مقامه، فدل على استحقاقه به. وقد اختلف في إضافة المقام إلى الرب: هل هي من إضافة المصدر إلى فاعله أو إلى مفعوله؟ على قولين:

---

(١) الرحمن: الآية (٣٩).
(٢) الجن: الآية (١٣).
(٣) طه: الآية (١١٢).
(٤) الرحمن: الآيتان (٤٦و٤٧).
(٥) الرحمن: الآية (٥٦).

أحدهما: أن المعنى: ولمن خاف مقامه بين يدي ربه، فعلى هذا هو إضافة المصدر إلى المفعول. والثاني: أن المعنى: ولمن خاف مقام ربه عليه واطلاعه عليه، فهو من باب إضافة المصدر إلى فاعله، وكذلك القولان في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾[1] ونظيره قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾[2]، فهذه ثلاثة مواضع. وقد يقال: الراجح هو الأول، وإن المعنى: خاف مقامه بين يدي ربه لوجوه:

أحدها: أن طريقة القرآن في التخويف أن يخوفهم بالله وباليوم الآخر، فإذا خوّفهم به علق الخوف به لا بقيامه عليهم؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٢﴾[6] ففي هذا كله لم يذكر خشية مقامه عليهم، وإنما مدحهم بخوفه وخشيته. وقد يذكر الخوف متعلقًا بعذابه كقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[7]، وأما خوف مقامه عليهم فهو وإن كان كذلك فليس طريقة القرآن.

والثاني: أن هذا نظير قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[8]، فخوفهم أن يحشروا إليه هو خوفهم من مقامهم بين يديه. والقرآن يفسر بعضه بعضًا.

الثالث: أن خوف مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة لا يكون إلا ممن يؤمن بلقائه وباليوم الآخر وبالبعث بعد الموت. وهذا هو الذي يستحق الجنتين المذكورتين، فإنه لا يؤمن بذلك حق الإيمان إلا من آمن بالرسل، وهو من الإيمان بالغيب الذي جاءت به الرسل. وأما مقام الله على عبده في الدنيا واطلاعه عليه وقدرته عليه فهذا يقرّ به المؤمن والكافر والبر والفاجر، وأكثر الكفار يخافون جزاء الله لهم في الدنيا لما عاينوه من مجازاة الظالم بظلمه والمحسن بإحسانه، وأما مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة فلا يؤمن به إلا المؤمن بالرسل.

---

(١) النازعات: الآية (٤٠).
(٢) إبراهيم: الآية (١٤).
(٣) آل عمران: الآية (١٧٥).
(٤) البينة: الآية (٨).
(٥) النحل: الآية (٥٠).
(٦) الملك: الآية (١٢).
(٧) الإسراء: الآية (٥٧).
(٨) الأنعام: الآية (٥١).

فإن قيل: إذا كان المعنى أنه خاف مقام ربه عليه في الآخرة بالجزاء فقد استوى التقديران، فمن أين رجحتم أحدهما؟ قيل: التخويف بمقام العبد بين يدي ربه أبلغ من التخويف بمقام الرب على العبد، ولهذا خوفنا تعالى في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾[1]، ولأنه مقام مخصوص مضاف إلى اللَّه وذلك في يوم القيامة، بخلاف مقام اللَّه على العبد فإنه كل وقت. وأيضًا فإنه لا يقال لقدرة اللَّه على العبد واطلاعه عليه وعلمه به: مقام اللَّه، ولا هذا من المألوف إطلاقه على الرب. وأيضًا فإن المقام في القرآن والسنة إنما يطلق على المكان كقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾[4]، والمقصود أن قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ يتناول الصنفين من وجوه، تقدم منها وجهان. الثالث: قوله عقيب هذا الوعد: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾. الرابع: أنه ذكر في وصف نسائهم أنهن ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾، وهذا -واللَّه أعلم- معناه: أنه لم يطمث نساء الإنس إنس قبلهم، ولا نساء الجن جن قبلهم. ومما يدل على أن ثوابهم الجنة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[5]، وأمثال هذه من العمومات، وقد ثبت أن منهم المؤمنين، فيدخلون في العموم، كما أن كافرهم يدخل في الكافرين المستحقين للوعيد. ودخول مؤمنهم في آيات الوعد أولى من دخول كافرهم في آيات الوعيد؛ فإن الوعد فضله، والوعيد عدله، وفضله من رحمته وهي تغلب غضبه. وأيضًا فإن دخول عاصيهم النار إنما كان لمخالفته أمر اللَّه، فإذا أطاع اللَّه أدخل الجنة. وأيضًا فإنه لا دار للمكلفين سوى الجنة والنار، وكل من لم يدخل النار من المكلفين فالجنة مثواه. وأيضًا فقد ثبت أنهم إذا أجابوا داعي اللَّه غفر لهم وأجارهم من عذابه، وكل من غفر له دخل الجنة ولا بد، وليس فائدة المغفرة إلا الفوز بالجنة والنجاة من النار. وأيضًا فإنه قد ثبت أن الرسول مبعوث إليهم، وأنهم مكلفون باتباعه، وأن مطيعهم لله ورسوله مع

---

(١) المطففين: الآية (٦).
(٢) الإسراء: الآية (٧٩).
(٣) الدخان: الآيتان (٢٥و٢٦).
(٤) مريم: الآية (٧٣).
(٥) الكهف: الآيتان (٣٠و٣١).

الذين أنعم اللَّه عليهم، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩﴾[1]، وقد أخبر سبحانه عن ملائكته حملة العرش ومن حولهم أنهم يستغفرون للذين آمنوا، وأنهم يقولون: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾[2]، فدل على أن كل مؤمن غفر اللَّه له ووقاه عذاب الجحيم فقد وعده الجنة. وقد ثبت في حق مؤمنهم الإيمان ومغفرة الذنب ووقاية النار كما تقدم، فتعين دخولهم الجنة، واللَّه أعلم. وإذا ثبت تكليفهم بانقسامهم إلى المسلمين والكفار والصالحين ودون ذلك، فهم في الموازنة على نحو طبقات الإنس المتقدمة، إلا أنهم ليس فيهم رسول، وأفضل درجاتهم درجة الصالحين؛ ولو كان لهم درجة أفضل منها لذكروها؛ فقد دل القرآن على انقسامهم إلى ثلاثة أقسام: صالحين، ودونهم، وكفار. وزاد عليهم الإنس بدرجة الرسالة والنبوة ودرجة المقربين، واللَّه أعلم»[3].

* * *

(١) النساء: الآية (٦٩).

(٢) غافر: الآيتان (٧و٨).

(٣) طريق الهجرتين (ص: ٤١٨-٤٢٧).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

★ غريب الآية:

لم يَعْيَ: لم يضعف ولم يعجز. وأصل الإعياء: العَجْزُ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أولم ينظر هؤلاء المنكرون إحياء اللَّه خلقه من بعد وفاتهم، وبعثه إياهم من قبورهم بعد بلائهم، القائلون لأبائهم وأمهاتهم: ﴿أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ فلم يبعثوا بأبصار قلوبهم، فيروا ويعلموا أن اللَّه الذي خلق السموات السبع والأرض، فابتدعهنّ من غير شيء، ولم يعي بإنشائهنّ، فيعجز عن اختراعهنّ وإحداثهنّ، ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ فيخرجهم من بعد بلائهم في قبورهم أحياء كهيئتهم قبل وفاتهم»[1].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد، ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾؛ أي: ولم يكرثه خلقُهنّ، بل قال لها: (كوني) فكانت، بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعة مجيبة خائفة وجلة، أفليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾[2]. ولهذا قال: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾»[3].

وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول -تعالى ذكره-: بلى، يقدر الذي خلق السموات والأرض على إحياء الموتى؛ أي: الذي خلق ذلك على كل شيء شاء خلقه، وأراد فعله، ذو قدرة لا يعجزه شيء أراده، ولا يعييه شيء

(١) جامع البيان (٢٦/ ٣٥).
(٢) غافر: الآية (٥٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٨٧-٢٨٨).

أراد فعله، فيعييه إنشاء الخلق بعد الفناء؛ لأن من عجز عن ذلك فضعيف، فلا ينبغي أن يكون إلهًا من كان عمّا أراد ضعيفًا»[١].

قال الشنقيطي: «قد قدمنا الآيات الموضحة لهذه الآية، وأنها من الآيات الدالة على البعث في (البقرة) و(النحل) و(الجاثية)، وغير ذلك من المواضع.. و(الباء) في قوله: ﴿بِقَـٰدِرٍ﴾ يسوغه أن النفي متناول لـ(أنّ) فما بعدها، فهو في معنى: أليس اللّه بقادر؟

ويوضح ذلك قوله بعد: ﴿بَلَىٰٓ﴾ مقررًا لقدرته على البعث وغيره»[٢].

* * *

(١) جامع البيان (٢٦/ ٣٦).

(٢) أضواء البيان (٧/ ٤٠٨).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ويوم يعرض هؤلاء المكذّبون بالبعث، وثواب اللَّه عباده على أعمالهم الصالحة، وعقابه إياهم على أعمالهم السيئة، على النار، نار جهنم، يقال لهم حينئذ: أليس هذا العذاب الذي تعذّبونه اليوم، وقد كنتم تكذّبون به في الدنيا بالحقّ؛ توبيخًا من اللَّه لهم على تكذيبهم به، كان في الدنيا، ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ يقول: فيجيب هؤلاء الكفرة من فورهم بذلك، بأن يقولوا: بلى، هو الحق واللَّه، ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ يقول: فقال لهم المقرّر بذلك: فذوقوا عذاب النار الآن بما كنتم تجحدونه في الدنيا، وتنكرونه، وتأبون الإقرار إذا دُعيتم إلى التصديق به»[1].

وقال ابن كثير: «ثم قال متهدّدًا ومتوعّدًا لمن كفر به: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: يقال لهم: أما هذا حق؟ أفسحر هذا؟ أم أنتم لا تبصرون؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أي: لا يسعهم إلا الاعتراف، ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾»[2].

وقال السعدي: «يخبر تعالى عن حال الكفار الفظيعة عند عرضهم على النار التي كانوا يكذّبون بها، وأنهم يوبّخون، ويقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ فقد حضرتموه وشاهدتموه عيانًا؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ فاعترفوا بذنبهم، وتبيّن كذبهم، ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: عذابًا لازمًا دائمًا، كما كان كفرهم صفة لازمة»[3].

* * *

(١) جامع البيان (٢٦/ ٣٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٨٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٩).

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ، مثبته على المضيّ لما قلّده من عبء الرسالة، وثقل أحمال النبوّة ﷺ، وآمره بالائتساء في العزم على النفوذ لذلك بأولي العزم من قبله من رسله الذين صبروا على عظيم ما لَقُوا فيه من قومهم من المكاره، ونالهم فيه منهم من الأذى والشدائد، ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمد على ما أصابك في اللَّه من أذى مكذّبيك من قومك الذين أرسلناك إليهم بالإنذار ﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ على القيام بأمر اللَّه، والانتهاء إلى طاعته من رسله الذين لم ينههم عن النفوذ لأمره، ما نالهم فيه من شدّة. وقيل: إن أولي العزم منهم، كانوا الذين امتُحِنوا في ذات اللَّه في الدنيا بِالمحَن، فلم تزدهم المحن إلا جدًّا في أمر اللَّه، كنوح وإبراهيم وموسى ومن أشبههم»[١].

وقال ابن كثير: «ثم قال تعالى آمرًا رسوله بالصبر على تكذيب من كذّبه من قومه: ﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾؛ أي: على تكذيب قومهم لهم. وقد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال، وأشهرها أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ، قد نصّ اللَّه على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سورتي (الأحزاب) و(الشورى). وقد يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميعَ الرسل، وتكون (مِن) في قوله: ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ لبيان الجنس، واللَّه أعلم»[٢].

قال الشنقيطي: «اختلف العلماء في المراد بأولي العزم من الرسل في هذه الآية

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٣٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٨٨).

الكريمة اختلافًا كثيرًا.

وأشهر الأقوال في ذلك أنهم خمسة، وهم الذين قدمنا ذكرهم في (الأحزاب) و(الشورى)، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

وعلى هذا القول فالرسل الذين أمر رسول اللَّه ﷺ أن يصبر كما صبروا أربعة، فصار هو ﷺ خامسهم.

واعلم أن القول بأن المراد بأولي العزم جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأن لفظة (مِن) في قوله: ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ بيانية يظهر أنه خلاف التحقيق، كما دل على ذلك بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾[1] الآية، فأمر اللَّه جل وعلا نبيه في آية (القلم) هذه بالصبر، ونهاه عن أن يكون مثل يونس؛ لأنه هو صاحب الحوت، وكقوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾[2] فآية (القلم) وآية (طه) المذكورتان كلتاهما تدل على أن أولي العزم من الرسل الذين أمر النبي ﷺ بأن يصبر كصبرهم ليسوا جميع الرسل، والعلم عند اللَّه تعالى»[3].

قال السعدي: «أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذِّبين المعادين له، وأن لا يزال داعيًا لهم إلى اللَّه، وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين، سادات الخلق، أولي العزائم والهمم العالية، الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم، والقفو لآثارهم، والاهتداء بمنارهم.

فامتثل ﷺ لأمر ربه، فصبر صبرًا لم يصبره نبي قبله، حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة، وقاموا جميعًا بصده عن الدعوة إلى اللَّه، وفعلوا ما يمكنهم من المعاداة والمحاربة، وهو ﷺ لم يزل صادعًا بأمر اللَّه، مقيمًا على جهاد أعداء اللَّه، صابرًا على ما يناله من الأذى، حتى مكّن اللَّه له في الأرض، وأظهر دينه على سائر الأديان، وأمته على الأمم، فصلى الله عليه وسلم تسليمًا»[4].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾:

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ يقول: ولا تستعجل عليهم

---

(١) القلم: الآية (٤٨).

(٢) طه: الآية (١١٥).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٤٠٨).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٩-٦٠).

بالعذاب، يقول: لا تعجل بمسألتك ربك ذلك لهم؛ فإن ذلك نازل بهم لا محالة»[١].

وقال ابن كثير: «أي: لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم؛ كقوله: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾[٢]، وكقوله: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾[٣]»[٤].

قال الشنقيطي: «نهى اللَّه نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يستعجل العذاب لقومه؛ أي: يدعو اللَّه عليهم بتعجيله لهم، فمفعول ﴿تَسْتَعْجِل﴾ محذوف، تقديره: العذاب؛ كما قاله القرطبي، وهو الظاهر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي عن طلب تعجيل العذاب لهم جاء موضحًا في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾، وقوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾؛ فإن قوله: ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾، وقوله: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾ موضح لمعنى قوله: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾.

والمراد بالآيات: نهيه ﷺ عن طلب تعجيل العذاب لهم؛ لأنهم معذبون، لا محالة عند انتهاء المدة المحددة للإمهال، كما يوضحه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ۝٨٤﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٢٤﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ﴾[٧] الآية، وقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٩٧﴾[٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝٦٩ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٧٠﴾[٩] إلى غير ذلك من الآيات»[١٠].

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ﴾:

قال ابن جرير: «يقول: كأنهم يوم يرون عذاب اللَّه الذي يعدهم أنه منزله بهم،

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٣٧).
(٢) المزمل: الآية (١١).
(٣) الطارق: الآية (١٧).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٨٨).
(٥) مريم: الآية (٨٤).
(٦) لقمان: الآية (٢٤).
(٧) البقرة: الآية (١٢٦).
(٨) آل عمران: الآيتان (١٩٦و١٩٧).
(٩) يونس: الآيتان (٦٩و٧٠).
(١٠) أضواء البيان (٧/ ٤٠٨-٤٠٩).

لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار؛ لأنه ينسيهم شدة ما ينزل بهم من عذابه، قدر ما كانوا في الدنيا لبثوا، ومبلغ ما فيها مكثوا من السنين والشهور، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ۝١١٣﴾[1]»[2].

قال ابن كثير: «﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾[3]، وكقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ۝٤٥﴾[4]»[5].

قوله تعالى: ﴿بَلَٰغٌ﴾:

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿بَلَٰغٌ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن يكون معناه: لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ذلك لبث بلاغ، بمعنى: ذلك بلاغ لهم في الدنيا إلى أجلهم، ثم حذفت (ذلك لبث)، وهي مرادة في الكلام؛ اكتفاءً بدلالة ما ذكر من الكلام عليها. والآخر: أن يكون معناه: هذا القرآن والتذكير بلاغ لهم وكفاية، إن فكّروا واعتبروا فتذكروا»[6].

قال الشنقيطي: «التحقيق إن شاء اللّه أن أصوب القولين في قوله: ﴿بَلَٰغٌ﴾ أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا بلاغ؛ أي: هذا القرآن بلاغ من اللّه إلى خلقه.

ويدل لهذا قوله تعالى في سورة (إبراهيم): ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾[7]، وقوله في (الأنبياء): ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ۝١٠٦﴾[8]، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

والبلاغ اسم مصدر، بمعنى التبليغ، وقد علم باستقراء اللغة العربية أن (الفَعَال) يأتي كثيرًا بمعنى (التفعيل)، كبلّغه بلاغًا: أي تبليغًا، وكلّمه كلامًا؛ أي: تكليمًا، وطلّقها طلاقًا، وسرّحها سراحًا، وبيّنه بيانًا. كل ذلك بمعنى (التفعيل)؛ لأن (فعّل) مضعفة العين، غير معتلة اللام ولا مهموزته، قياس مصدرها: التفعيل. وما جاء

---

(١) المؤمنون: الآيتان (١١٢-١١٣).
(٢) جامع البيان (٢٦/ ٣٧).
(٣) النازعات: الآية (٤٦).
(٤) يونس: الآية (٤٥).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٨٨).
(٦) جامع البيان (٢٦/ ٣٨).
(٧) إبراهيم: الآية (٥٢).
(٨) الأنبياء: الآية (١٠٦).

منه على خلاف ذلك يحفظ ولا يقاس عليه، كما هو معلوم في محله.

أما القول بأن المعنى: وذلك اللبث بلاغ، فهو خلاف الظاهر كما ترى، والعلم عند اللَّه تعالى»[١].

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾:

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فهل يهلك اللَّه بعذابه إذا أنزله إلا القوم الذين خالفوا أمره، وخرجوا عن طاعته وكفروا به. ومعنى الكلام: وما يهلك اللَّه إلا القوم الفاسقين»[٢].

وقال ابن كثير: «أي: لا يهلك على اللَّه إلا هالك؛ وهذا من عدله تعالى أنه لا يعذّب إلى من يستحقّ العذاب»[٣].

* * *

(١) أضواء البيان (٧/ ٤١٠).

(٢) جامع البيان (٢٦/ ٣٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٨٨).



سورة محمد

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «معظم ما في هذه السورة التحريض على قتال المشركين، وترغيب المسلمين في ثواب الجهاد. افتتحت بما يثير حنق المؤمنين على المشركين؛ لأنهم كفروا بالله، وصدوا عن سبيله؛ أي: دينه. وأعلم الله المؤمنين بأنه لا يسدد المشركين في أعمالهم، وأنه مصلح المؤمنين، فكان ذلك كفالة للمؤمنين بالنصر على أعدائهم. وانتقل من ذلك إلى الأمر بقتالهم، وعدم الإبقاء عليهم. وفيها وعد المجاهدين بالجنة، وأمر المسلمين بمجاهدة الكفار، وأن لا يَدْعوهم إلى السَّلْم، وإنذار المشركين بأن يصيبهم ما أصاب الأمم المكذبين من قبلهم. ووصف الجنة ونعيمها، ووصف جهنم وعذابها. ووصف المنافقين وحال اندهاشهم إذا نزلت سورة فيها الحض على القتال، وقلة تدبرهم القرآن، وموالاتهم المشركين.

وتهديد المنافقين بأن الله ينبئ رسوله ﷺ بسيماهم، وتحذير المسلمين من أن يروج عليهم نفاق المنافقين. وختمت بالإشارة إلى وعد المسلمين بنوال السلطان، وحذرهم إن صار إليهم الأمر من الفساد والقطيعة»[1].

ومن مقاصدها أيضًا **يقول البقاعي:** «التقدم إلى المؤمنين في حفظ حظيرة الدين، بإدامة الجهاد للكفار، حتى يلزموهم الصغار، أو يبطلوا ضلالهم، كما أضل الله أعمالهم، لاسيما أهل الردة الذين فسقوا عن محيط الدين إلى أودية الضلال المبين، والتزام هذا الخلق الشريف، إلى أن تضع الحرب أوزارها، بإسلام أهل الأرض كلهم، بنزول عيسى عليه السلام.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٧٢).

وعلى ذلك دل اسمها ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لأن من المعلوم أن من صدك عن سبيلك قاتلته، وأنك إن لم تقاتله كنت مثله.

واسمها (محمد) واضح في ذلك؛ لأن الجهاد كان خلقه ﷺ، إلى أن توفاه اللَّه تعالى، وهو نبي الملحمة؛ لأنه لا يكون حمد، وثم نوع ذم.. ومتى كان كفٌّ عن أعداء اللَّه، كان ذمّ.

وأوضح أسمائها في هذا المقصد: (القتال)، فإن من المعلوم أنه لأهل الضلال»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة سورة (محمد ﷺ)

* عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قرأ بهم في المغرب: «﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝١﴾»[2].

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث من الفوائد: «البيان بأن القراءة في صلاة المغرب ليس بشيء محصور لا تجوز الزيادة عليه»[3].

* * *

(١) مصاعد النظر (٢/ ٤٨٦-٤٨٧).

(٢) أخرجه: الطبراني في الكبير (١٢/ ٣٧٢/ ١٣٣٨٠)، وفي الصغير (١/ ٧٤/ ١١١)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٥/ ١٤٣/ ١٨٣٥)، وذكره الهيثمي في المجمع (٢/ ١١٨) وقال: «رواه الطبراني في الثلاثة، ورجاله رجال الصحيح».

(٣) من كلام ابن حبان في صحيحه (٥/ ١٤٣).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: الذين جحدوا توحيد اللَّه، وعبدوا غيره، وصدّوا من أراد عبادتَه والإقرار بوحدانيته، وتصديق نبيه محمد ﷺ عن الذي أراد من الإسلام والإقرار والتصديق ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ يقول: جعل اللَّه أعمالهم ضلالًا على غير هدى وغير رشاد؛ لأنها عملت في سبيل الشيطان، وهي على غير استقامة»[1].

قال ابن عاشور: «صُدِّر التحريض على القتال بتوطئة لبيان غضب اللَّه على الكافرين؛ لكفرهم وصدهم الناس عن دين اللَّه، وتحقير أمرهم عند اللَّه، ليكون ذلك مثيرًا في نفوس المسلمين حنقًا عليهم وكراهية، فتثور فيهم همة الإقدام على قتال الكافرين، وعدم الاكتراث بما هم فيه من قوة، حين يعلمون أن اللَّه يخذل المشركين وينصر المؤمنين، فهذا تمهيد لقوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[2]. وفي الابتداء بالموصول والصلة المتضمنة كُفر الذين كفروا ومناوأتهم لدين الله؛ تشويق لما يرد بعده من الحكم المناسب للصلة، وإيماء بالموصول وصلته إلى علة الحكم عليه بالخبر، أي لأجل كفرهم وصدهم، وبراعة استهلال للغرض المقصود. والكفر: الإشراك باللَّه كما هو مصطلح القرآن حيثما أطلق الكفر مجردًا عن قرينة إرادة غير المشركين. وقد اشتملت هذه الجملة على ثلاثة أوصاف للمشركين. وهي: الكفر، والصد عن سبيل اللَّه، وضلال الأعمال الناشئ عن إضلال اللَّه إياهم. والصد عن سبيل: هو صرف الناس عن متابعة دين الإسلام، وصرفهم أنفسهم عن سماع دعوة الإسلام بطريق الأولى. وأضيف السبيل إلى اللَّه

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٣٨).
(٢) محمد: الآية (٤).

لأنه الدين الذي ارتضاه اللَّه لعباده ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[١]. واستعير اسم السبيل للدين؛ لأن الدين يوصل إلى رضى اللَّه كما يوصل السبيل السائر فيه إلى بغيته. ومن الصد عن سبيل اللَّه صدهم المسلمين عن المسجد الحرام، قال تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[٢]. ومن الصد عن المسجد الحرام: إخراجهم الرسول ﷺ والمؤمنين من مكة، وصدهم عن العمرة عام الحديبية. ومن الصد عن سبيل الله: إطعامهم الناس يوم بدر ليثبتوا معهم ويكثروا حولهم. . ومن الصد عن سبيل اللَّه صدهم الناس عن سماع القرآن: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾[٣].

والإضلال: الإبطال والإضاعة، وهو يرجع إلى الضلال. وأصله: الخطأ للطريق المسلوك للوصول إلى مكان يراد وهو يستلزم المعاني الأخر. وهذا اللفظ رشيق الموقع هنا؛ لأن اللَّه أبطل أعمالهم التي تبدو حسنة، فلم يثبهم عليها من صلة رحم، وإطعام جائع، ونحوهما، ولأن من إضلال أعمالهم أن كان غالب أعمالهم عبثًا وسيئًا، ولأن من إضلال أعمالهم أن اللَّه خيَّب سعيهم، فلم يحصلوا منه على طائل، فانهزموا يوم بدر، وذهب إطعامهم الجيش باطلًا، وأفسد تدبيرهم وكيدهم للرسول ﷺ، فلم يشفُوا غليلهم يوم أحد، ثم توالت انهزاماتهم في المواقع كلها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾[٤]»[٥].

* * *

(١) آل عمران: الآية (١٩).

(٢) الحج: الآية (٢٥).

(٣) فصلت: الآية (٢٦).

(٤) الأنفال: الآية (٣٦).

(٥) التحرير والتنوير (٢٦/ ٧٢-٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾

★ غريب الآية:

كفّر: محا وأزال.

بالهم: البال: الشأن والحال. ويطلق على القلب؛ أي: العقل وما يخطر للمرء من التفكير.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: والذين صدّقوا اللَّه وعملوا بطاعته، واتبعوا أمره ونهيه، ﴿وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ يقول: وصدّقوا بالكتاب الذي أنزل اللَّه على محمد، ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يقول: محا اللَّه عنهم بفعلهم ذلك سيئ ما عملوا من الأعمال، فلم يؤاخذهم به، ولم يعاقبهم عليه، ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ يقول: وأصلح شأنهم وحالهم في الدنيا عند أوليائه، وفي الآخرة بأن أورثهم نعيم الأبد والخلود الدائم في جنانه»[1].

قال ابن عاشور: «هذا مقابل فريق الذين كفروا وهو فريق الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإيراد الموصول وصلته للإيماء إلى وجه بناء الخبر وعلته؛ أي: لأجل إيمانهم الخ كفر عنهم سيئاتهم. وقد جاء في مقابلة الأوصاف الثلاثة التي أثبتت للذين كفروا بثلاثة أوصاف ضدها للمسلمين وهي: الإيمان مقابل الكفر، والإيمان بما نزل على محمد ﷺ مقابل الصد عن سبيل اللَّه، وعمل الصالحات مقابل بعض ما تضمنه ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ و﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ مقابل بعض آخر مما تضمنه ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ مقابل بقية ما تضمنه ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾. وزيد في جانب المؤمنين التنويه بشأن القرآن بالجملة المعترضة قوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، وهو

(١) جامع البيان (٢٦/ ٣٨-٣٩).

نظير لوصفه بسبيل اللَّه في قوله: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وعبر عن الجلالة هنا بوصف الربّ زيادة في التنويه بشأن المسلمين على نحو قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[1]، فلذلك لم يقل: وصدوا عن سبيل ربهم. وتكفير السيئات غفرانها لهم، فإنهم لما عملوا الصالحات؛ كفّر اللَّه عنهم سيئاتهم التي اقترفوها قبل الإيمان، وكفر لهم الصغائر، وكفر عنهم بعض الكبائر بمقدار يعلمه إذا كانت قليلة في جانب أعمالهم الصالحات كما قال تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[2]. . وإصلاح البال يجمع إصلاح الأمور كلها؛ لأن تصرفات الإنسان تأتي على حسب رأيه، فالتوحيد أصل صلاح بال المؤمن، ومنه تنبعث القوى المقاومة للأخطاء والأوهام التي تلبس بها أهل الشرك، وحكاها عنهم القرآن في مواضع كثيرة. والمعنى: أقام أنظارهم وعقولهم، فلا يفكرون إلا صالحًا، ولا يتدبرون إلا ناجحًا»[3].

قال الشنقيطي: «ما ذكره -جل وعلا- هنا في أول هذه السورة الكريمة، من أنه يبطل أعمال الكافرين، ويبقي أعمال المؤمنين؛ جاء موضحًا في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾[6]»[7].

وقال أيضًا: «وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، قال فيه ابن كثير: هو عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان، بعد بعثته ﷺ، اهـ منه.

ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ

(١) محمد: الآية (١١).
(٢) التوبة: الآية (١٠٢).
(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٧٤-٧٦).
(٤) هود: الآيتان (١٥و١٦).
(٥) الشورى: الآية (٢٠).
(٦) الفرقان: الآيتان (٢٣و٢٤).
(٧) أضواء البيان (٧/ ٤١٤-٤١٥).

﴿مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[1].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ جملة اعتراضية تتضمن شهادة الله بأن هذا القرآن المنزل على هذا النبي الكريم ﷺ هو الحق من الله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ﴾[2]، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٥١﴾[3]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾[4] الآية، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾[5] الآية، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة»[6].

قال الرازي: «قد ذكرنا مرارًا أن الله تعالى كلما ذكر الإيمان والعمل الصالح، رتب عليهما المغفرة والأجر كما قال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَرِزۡقٌ كَرِيمٌ ۝٥٠﴾[7]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ﴾[8]، وقلنا بأن المغفرة ثواب الإيمان والأجر على العمل الصالح.. ؛ فنقول ههنا جزاء ذلك قوله: ﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ إشارة إلى ما يثيب على الإيمان، وقوله: ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ إشارة إلى ما يثيب على العمل الصالح»[9].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان صفة رد العاطس على من شمته

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وليقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، فإذا قال له: يرحمك الله، فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم**»[10].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «اختلف السلف أيضًا في الرد على المشمت، فقالت طائفة:

(١) هود: الآية (١٧).
(٢) الأنعام: الآية (٦٦).
(٣) الحاقة: الآيتان (٥٠و٥١).
(٤) يونس: الآية (١٠٨).
(٥) النساء: الآية (١٧٠).
(٦) أضواء البيان (٧/ ٤١٥-٤١٦).
(٧) الحج: الآية (٥٠).
(٨) العنكبوت: الآية (٧).
(٩) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٣٩).
(١٠) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٥٣)، والبخاري (١٠/ ٧٤١-٧٤٢/ ٦٢٢٤)، وأبو داود (٥/ ٢٩٠/ ٥٠٣٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٦٦-٦٧/ ١٠٠٦٠).

يقول: «**يهديكم اللَّه ويصلح بالكم**»، على حديث أبي هريرة، روي ذلك عن أبي هريرة. وكان الشعبي يقول: «**يهديكم الله**». وأنكرت طائفة أن يقول: «**يهديكم اللَّه ويصلح بالكم**»، واختارت أن يقول: «**يغفر اللَّه لنا ولكم**»، روي ذلك عن ابن مسعود وابن عمر وأبي وائل والنخعي وهو قول الكوفيين»[(١)].

قال الحافظ: «وذكر الطبري أن الذين منعوا من جواب التشميت بقول: «**يهديكم اللَّه ويصلح بالكم**» احتجوا بأنه تشميت اليهود كما تقدمت الإشارة إليه من تخريج أبي داود من حديث أبي موسى، قال: ولا حجة فيه؛ إذ لا تضاد بين خبر أبي موسى وخبر أبي هريرة -يعني حديث الباب-؛ لأن حديث أبي هريرة في جواب التشميت، وحديث أبي موسى في التشميت نفسه. وأما ما أخرجه البيهقي في الشعب عن ابن عمر قال: «**اجتمع اليهود والمسلمون، فعطس النبي ﷺ**، فشمته الفريقان جميعًا، فقال للمسلمين: يغفر اللَّه لكم ويرحمنا وإياكم. وقال لليهود: يهديكم اللَّه ويصلح بالكم»[(٢)]. فقال: تفرد به عبداللَّه بن عبدالعزيز بن أبي رواد عن أبيه عن نافع، وعبداللَّه ضعيف. واحتج بعضهم بأن الجواب المذكور مذهب الخوارج؛ لأنهم لا يرون الاستغفار للمسلمين، وهذا منقول عن إبراهيم النخعي، وكل هذا لا حجة فيه بعد ثبوت الخبر بالأمر به. قال البخاري بعد تخريجه في «الأدب المفرد»: وهذا أثبت ما يروى في هذا الباب»[(٣)].

وقال الطبري: «لا وجه لقول من أنكر «**يهديكم اللَّه ويصلح بالكم**»؛ لأن الأخبار بذلك عن النبي ﷺ أثبت من غيرها»[(٤)].

قال ابن بطال: «وقال مالك والشافعي: إن شاء أن يقول: «**يهديكم اللَّه ويصلح بالكم**»، أو «**يغفر اللَّه لكم**» لا بأس بذلك كله..

واحتج الطحاوي لقول مالك بقول اللَّه تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[(٥)]، فإذا قال جواب قوله «يرحمكم الله»: «**يغفر لكم**»، فقد رد مثل ما حياه به، وإذا قال: «**يهديكم اللَّه ويصلح بالكم**» فقد حياه بأحسن مما حياه؛ لأن

(١) شرح البخاري (٩/ ٣٦٨).
(٢) شعب الإيمان (٧/ ٣١/ ٩٣٥٢).
(٣) فتح الباري (١٠/ ٧٤٣).
(٤) شرح ابن بطال على البخاري (٩/ ٣٦٩).
(٥) النساء: الآية (٨٦).

المغفرة إنما هي ستر الذنوب، والرحمة ترك العقاب عليها، ومن حصلت له الهداية وكان مهديًا، كان بعيدًا من الذنوب، ومن أصلح باله فحاله فوق حال المغفور له، فكان ذلك أولى»[١].

قال ابن القيم: «وأمر العاطس أن يدعو لسامعه ويشمته بالمغفرة والهداية وإصلاح البال، فيقول: «**يغفر اللَّه لنا ولكم**» أو «**يهديكم اللَّه ويصلح بالكم**»، فأما الدعاء بالهداية فلما أنه اهتدى إلى طاعة الرسول، ورغب عما كان عليه أهل الجاهلية، فدعا له أن يثبته اللَّه عليها، ويهديه إليها. وكذلك الدعاء بإصلاح البال، وهي حكمة جامعة لصلاح شأنه كله، وهي من باب الجزاء على دعائه لأخيه بالرحمة، فناسب أن يجازيه بالدعاء له بإصلاح البال»[٢].

قال المناوي: «اعترض بأن الدعاء بالهداية للمسلم تحصيل الحاصل وهو محال، ومنع بأنه ليس المراد بالدعاء وبالهداية ما هو متلبس به من الإيمان، بل معرفة تفاصيل أجزائه وإعانته على أعماله، وكل مؤمن يحتاج إلى ذلك في كل طرفة عين، ومن ثم أمر اللَّه أن يسأله الهداية في كل ركعة من الصلاة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾»[٣].

* * *

(١) المصدر السابق.

(٢) مفتاح دار السعادة (٣/ ٣٥٧).

(٣) فيض القدير (١/ ٣٠٤).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: هذا الذي فعلنا بهذين الفريقين من إضلالنا أعمال الكافرين، وتكفيرنا عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ جزاء منا لكل فريق منهم على فعله. أما الكافرون فأضللنا أعمالهم، وجعلناها على غير استقامة وهدى؛ بأنهم اتبعوا الشيطان فأطاعوه، وهو الباطل..

وأما المؤمنون فكفّرنا عنهم سيئاتهم، وأصلحنا لهم حالهم؛ بأنهم اتبعوا الحق الذي جاءهم من ربهم، وهو محمد ﷺ، وما جاءهم به من عند ربه من النور والبرهان. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾، يقول ﷻ: كما بينت لكم أيها الناس فِعلي بفريق الكفر والإيمان، كذلك نمثل للناس الأمثال، ونشبه لهم الأشباه، فنلحق بكل قوم من الأمثال أشكالًا»[١].

وقال ابن عاشور: «والمعنى كهذا التبيين يبيّن اللّه للناس أحوالهم، فلا يبقوا في غفلة عن شؤون أنفسهم، محجوبين عن تحقق كنههم بحجاب التعود؛ لئلا يختلط الخبيث بالطيب، ولكي يكونوا على بصيرة في شؤونهم، وفي هذا إيماء إلى وجوب التوسم لتمييز المنافقين عن المسلمين حقًا، فإن من مقاصد السورة التحذير من المنافقين»[٢].

قال الشنقيطي: «وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن اختلاف الأعمال، يستلزم اختلاف الثواب، لا يتوهم استواءهما إلا الكافر الجاهل، الذي يستوجب الإنكار عليه، جاء موضحًا في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[٣].. وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٣٩-٤٠).
(٢) التحرير (٢٦/ ٧٧).
(٣) القلم: الآيتان (٣٥و٣٦).

ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾[٢]»[٣].

* * *

(١) ص: الآية (٢٨).

(٢) الجاثية: الآية (٢١).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٤١٦).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾

★ غريب الآية:

أثخنتموهم: أكثرتم فيهم القتل. يقال: أثخن في الأرض إثخانًا: سار إلى العدو وأوسعه قتلًا. وأثخنته الجراح: أضعفَتْهُ.

الوثاق: اسم لما يوثق به كالقيد والحبل.

أوزارها: أثقالها. وأصل الوزر: الثقل. وهي السلاح والآلات.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لفريق الإيمان به: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله من أهل الحرب، فاضربوا رقابهم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ يقول: حتى إذا غلبتموهم وقهرتم من لم تضربوا رقبته منهم، فصاروا في أيديكم أسرى ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ يقول: فشدّوهم في الوثاق كيلا يقتلوكم، فيهربوا منكم.

وقوله: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ يقول: فإذا أسرتموهم بعد الإثخان، فإما أن تمنُّوا عليهم بعد ذلك بإطلاقكم إياهم من الأسر، وتحرروهم بغير عوض ولا فدية، وإما أن يفادوكم فداءً بأن يعطوكم من أنفسهم عوضًا حتى تطلقوهم، وتخلوا لهم السبيل»[1].

قال الشنقيطي: «وما تضمنته هذه الآية من الأمر بقتل الكفار حتى يثخنهم المسلمون، ثم بعد ذلك يأسرونهم، جاء موضحًا في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾[2] الآية، وقد أمر

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٤٠).

(٢) الأنفال: الآية (٦٧).

تعالى بقتلهم في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[1] الآية، وقوله: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾[3] الآية، وقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾[4] الآية»[5].

قال ابن كثير: «والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر؛ فإن اللّٰه سبحانه عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء، والتقلّل من القتل يومئذ فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾[6]»[7].

قال ابن جرير: «واختلف أهل العلم في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾، فقال بعضهم: هو منسوخ نسخه قوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[8]، وقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾..

وقال آخرون: هي محكمة وليست بمنسوخة، وقالوا: لا يجوز قتل الأسير، وإنما يجوز المنّ عليه والفداء..

والصواب من القول عندنا في ذلك أن هذه الآية محكمة غير منسوخة؛ وذلك أن صفة الناسخ والمنسوخ ما قد بيّنّا في غير موضع في كتابنا أنه ما لم يجز اجتماع حكميهما في حال واحدة، أو ما قامت الحجة بأن أحدهما ناسخ الآخر. وغير مستنكر أن يكون جعل الخيار في المنّ والفداء والقتل إلى الرسول ﷺ، وإلى القائمين بعده بأمر الأمة، وإن لم يكن القتل مذكورًا في هذه الآية؛ لأنه قد أذن بقتلهم في آية أخرى، وذلك قوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.. الآية، بل ذلك كذلك؛ لأن رسول اللّٰه ﷺ كذلك كان يفعل فيمن صار أسيرًا في يده من أهل الحرب، فيقتل بعضًا، ويفادي ببعض، ويمنّ على بعض، مثل يوم بدر قتل عقبة بن

---

(١) التوبة: الآية (٥).
(٢) الأنفال: الآية (١٢).
(٣) التوبة: الآية (٣٦).
(٤) الأنفال: الآية (٥٧).
(٥) أضواء البيان (٧/ ٤١٨).
(٦) الأنفال: الآيتان (٦٧و٦٨).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٠٧).
(٨) التوبة: الآية (٥).

أبي مُعيط وقد أُتي به أسيرًا، وقتل بني قريظة، وقد نزلوا على حكم سعد، وصاروا في يده سلمًا، وهو على فدائهم والمن عليهم قادر، وفادى بجماعة أسارى المشركين الذين أُسروا ببدر، ومنّ على ثمامة بن أثال الحنفي، وهو أسير في يده، ولم يزل ذلك ثابتًا من سيره في أهل الحرب من لدن أذن اللّه له بحربهم إلى أن قبضه إليه ﷺ دائمًا ذلك فيهم، وإنما ذكر -جل ثناؤه- في هذه الآية المن والفداء في الأسارى، فخصّ ذكرهما فيها؛ لأن الأمر بقتلهما والإذن منه بذلك قد كان تقدم في سائر آي تنزيله مكرّرًا، فأعلم نبيه ﷺ بما ذكر في هذه الآية من المنّ والفداء ماله فيهم مع القتل. وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾: يقول -تعالى ذكره-: فإذا لقيتم الذين كفروا فاضربوا رقابهم، وافعلوا بأسراهم ما بيّنت لكم، حتى تضع الحرب آثامها وأثقال أهلها، المشركين باللّه لن يتوبوا إلى اللّه من شركهم، فيؤمنوا به وبرسله، ويطيعوه في أمره ونهيه، فذلك وضع الحرب أوزارها. وقيل: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ والمعنى: حتى تلقي الحرب أوزار أهلها. وقيل: معنى ذلك: حتى يضع المحارب أوزاره..

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾: يقول -تعالى ذكره-: هذا الذي أمرتكم به أيها المؤمنون من قتل المشركين إذا لقيتموهم في حرب، وشدّهم وثاقًا بعد قهرهم وأسرهم، والمنّ والفداء، ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ هو الحق الذي ألزمكم ربكم، ولو يشاء ربكم لانتصر من هؤلاء المشركين الذين بين هذا الحكم فيهم بعقوبة منه لهم عاجلة، وكفاكم ذلك كله، ولكنه -تعالى ذكره- كره الانتصار منهم، وعقوبتهم عاجلًا إلا بأيديكم أيها المؤمنون ﴿لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ يقول: ليختبركم بهم، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين، ويبلوهم بكم، فيعاقب بأيديكم من شاء منهم، ويتعظ من شاء منهم بمن أهلك بأيديكم من شاء منهم حتى ينيب إلى الحق»[١].

قال ابن عاشور: «لم يذكر في هذه الآية جواز الاسترقاق، وهو الأصل في الأسرى، وهو يدخل في المنّ إذا اعتبر المنّ شاملًا لترك القتل، ولأن مقابلة المنّ بالفداء تقتضي أن الاسترقاق مشروع. وقد روى ابن القاسم وابن وهب عن مالك: أن المنّ من العتق»[٢].

(١) جامع البيان (٢٦/ ٤٠-٤٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٨١).

قال الشنقيطي: «لم يختلف المسلمون في جواز الملك بالرق. ومعلوم أن سببه أسر المسلمين الكفار في الجهاد، والله تبارك وتعالى في كتابه يعبر عن الملك بالرق بعبارة هي أبلغ العبارات في توكيد ثبوت ملك الرقيق، وهي ملك اليمين؛ لأن ما ملكته يمين الإنسان فهو مملوك له تمامًا، وتحت تصرفه تمامًا، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[1] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝﴾[2] في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝﴾ و﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾[3] الآية، وقوله: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[4]، وقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾[5] الآية، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾[6] الآية، وقوله: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾[7]، وقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾[8]، وقوله: ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾[9]، وقوله: ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ﴾[10] الآية.

فالمراد بملك اليمين في جميع هذه الآيات كلها الملك بالرق، والأحاديث والآيات بمثل ذلك يتعذر حصرها، وهي معلومة، فلا ينكر الرق في الإسلام إلا مكابر أو ملحد، أو من لا يؤمن بكتاب الله ولا بسنة رسوله..

ومن المعلوم أن كثيرًا من أجلاء علماء المسلمين ومحدثيهم الكبار كانوا أرقاء مملوكين، أو أبناء أرقاء مملوكين، فهذا محمد بن سيرين كان أبوه سيرين عبدًا لأنس بن مالك، وهذا مكحول كان عبدًا لامرأة من هذيل فأعتقته. ومثل هذا أكثر

---

(١) النساء: الآية (٣).
(٢) المؤمنون: الآيتان (٥و٦)، المعارج: الآيتان (٢٩و٣٠).
(٣) النور: الآية (٣٣).
(٤) النساء: الآية (٣٦).
(٥) الأحزاب: الآية (٥٢).
(٦) الأحزاب: الآية (٥٠).
(٧) النور: الآية (٣١).
(٨) النساء: الآية (٢٥).
(٩) النحل: الآية (٧١).
(١٠) الروم: الآية (٢٨).

من أن يحصى كما هو معلوم.

واعلم أن ما يدعيه بعض من المتعصبين لنفي الرق في الإسلام من أن آية القتال هذه دلت على نفي الرق من أصله؛ لأنها أوجبت واحدًا من أمرين لا ثالث لهما، وهما المن والفداء فقط فهو استدلال ساقط من وجهين:

أحدهما: أن فيه استدلالًا بالآية على شيء لم يدخل فيها، ولم تتناوله أصلًا، والاستدلال إن كان كذلك فسقوطه كما ترى.

وإيضاح ذلك أن هذه الآية التي فيها تقسيم حكم الأسارى إلى منّ وفداء، لم تتناول قطعًا إلا الرجال المقاتلين من الكفار؛ لأن قوله: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ صريح في ذلك كما ترى. وعلى إثخان هؤلاء المقاتلين رتب بـ(الفاء) قوله: ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ الآية.

فظهر أن الآية لم تتناول أنثى ولا صغيرًا البتة.

ويزيد ذلك إيضاحًا أن النهي عن قتل نساء الكفار وصبيانهم ثابت عن النبي ﷺ، وأكثر أهل الرق في أقطار الدنيا إنما هو من النساء والصبيان. ولو كان الذي يدعي نفي الرق من أصله يعترف بأن الآية لا يمكن أن يستدل بها على شيء غير الرجال المقاتلين؛ لقصر نفي الرق الذي زعمه على الرجال الذين أسروا، في حال كونهم مقاتلين، ولو قصره على هؤلاء، لم يمكنه أن يقول بنفي الرق من أصله كما ترى.

الوجه الثاني: هو ما قدمنا من الأدلة على ثبوت الرق في الإسلام»[1].

قال ابن العربي: «اعلموا وفقكم الله: أن هذه الآية من أمهات الآيات ومحكماتها. أمر الله سبحانه فيها بالقتال، وبين كيفيته، كما بينه في قوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[2] حسبما تقدم بيانه في (الأنفال)؛ فإذا تمكّن المسلم من عنق الكافر أجهز عليه، وإذا تمكّن من ضرب يده التي يدفع بها عن نفسه ويتناول بها قتال غيرِه فعل ذلك به؛ فإن لم يتمكن إلا ضرب فرسه التي يتوصّل بها إلى مراده فيصير حينئذ راجلًا مثله أو دونه، فإن كان فوقه قصد مساواته،

(١) أضواء البيان (٧/ ٤١٩-٤٢١).
(٢) الأنفال: الآية (١٢).

وإن كان مثله قصد حظّه، والمطلوب نفسه، والمآل إعلاء كلمة اللَّه تعالى»[1].

قال القاسمي: «تُسنّ دعوة الكفار إلى الإسلام قبل القتال لمن بلغته الدعوة؛ قطعًا لحجته. ويحرم القتال قبلها لمن لم تبلغه الدعوة؛ لحديث بُريدة بن الحُصيب قال: «كان النبي ﷺ إذا بعث أميرًا على سرية أو جيش، أمره بتقوى اللَّه تعالى في خاصة نفسه، وبمن معه من المسلمين. وقال: **إذا لقيت عدوك من المشركين، فادعُهم إلى إحدى ثلاث، فإن هم أجابوك إليها فاقبل منهم، وكُفّ عنهم: ادعُهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكُفّ عنهم. فإن هم أبوا فادعُهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم وكُف عنهم. فإن أبوا فاستعن باللَّه وقاتلهم**»[2] رواه مسلم.

وقيد الإمام ابن القيم وجوب الدعوة واستحبابها بما إذا قصدهم المسلمون. أما إذا كان الكفار قاصدين المسلمين بالقتال؛ فللمسلمين قتالهم من غير دعوة، دفعًا عن نفوسهم وحريمهم. وأمرُ الجهاد موكول إلى الإمام واجتهاده؛ لأنه أعرف بحال الناس، وبحال العدوّ، ونكايتهم وقربهم وبعدهم -كما في «شرح الإقناع»»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان حكم أسير الحرب، والدلالة على أن الجهاد ماض إلى يوم القيامة تحت راية كل بر وفاجر من أهل القبلة

* عن أبي هريرة ﷺ قال: «بعث النبي ﷺ خيلًا قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه ﷺ فقال: **ماذا عندك يا ثمامة؟** فقال: عندي خير يا محمد! إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت. فترك حتى كان الغد، ثم قال له: **ما عندك يا ثمامة؟** فقال: ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر.

---

(١) أحكام القرآن (٤/ ١٧٠١-١٧٠٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٥٢)، ومسلم (٣/ ١٣٥٦-١٣٥٨/ ١٧٣١)، وأبو داود (٣/ ٨٣-٨٥/ ٢٦١٢)، والترمذي (٤/ ١٣٨-١٣٩/ ١٦١٧)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٣٢-٢٣٣/ ٨٧٦٥)، وابن ماجه (٢/ ٩٥٣-٩٥٤/ ٢٨٥٨) عن بريدة ﷺ.

(٣) محاسن التأويل (١٥/ ٤٥).

فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: **ما عندك يا ثمامة؟** فقال: عندي ما قلت لك، فقال: أطلقوا ثمامة. فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأشهد أن محمدًا رسول اللَّه، يا محمد! واللَّه ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي، واللَّه ما كان من دين أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إلي، واللَّه ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إلي، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول اللَّه ﷺ، وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟ قال: لا واللَّه، ولكن أسلمت مع محمد رسول اللَّه ﷺ، ولا واللَّه لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ»[(١)].

★ غريب الحديث:

صبوت: يقال: صبأ الرجل: إذا خرج من دين إلى دين.

★ فوائد الحديث:

قال البغوي: «فيه دليل على جواز المن على الكافر إطلاقه بغير مال»[(٢)].

قال الكرماني: «قال المهلب: السنة في مثل قصة ثمامة أن يقتل، أو يستعبد، أو يفادى به، أو يمن عليه، فحبسه النبي ﷺ حتى يرى أي الوجوه أصلح للمسلمين في أمره»[(٣)].

قال الخرقي: «وإذا سبى الإمام فهو مخير، إن رأى قتلهم، وإن رأى منّ عليهم وأطلقهم بلا عوض، وإن رأى أطلقهم على مال يأخذه منهم، وإن رأى فادى بهم، وإن رأى استرقهم، أي ذلك رأى فيه نكاية للعدو، وحظًّا للمسلمين، فعل»[(٤)].

قال ابن قدامة: «وجملته أن من أُسر من أهل الحرب على ثلاثة أضرب:

أحدها: النساء والصبيان، فلا يجوز قتلهم، ويصيرون رقيقًا للمسلمين بنفس

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٧-٢٥٢)، والبخاري (٨/ ١٠٩/ ٤٣٧٢)، ومسلم (٣/ ١٣٨٦/ ١٧٦٤)، وأبو داود (٣/ ١٢٩/ ٢٦٧٩)، والنسائي (١/ ١٠٩-١١٠/ ١٨٩).

(٢) شرح السنة (١١/ ٨٢).

(٣) شرح البخاري (١٠/ ٢٢٠).

(٤) المغني (١٣/ ٤٤).

السبي؛ لأن النبي ﷺ «نهى عن قتل النساء والولدان»[1] متفق عليه. وكان عليه الصلاة والسلام يسترقّهم إذا سباهم.

الثاني: الرجال من أهل الكتاب والمجوس الذين يُقَرّون بالجزية، فيتخير الإمام فيهم بين أربعة أشياء: القتل، والمنّ بغير عوض، والمفاداة بهم، واسترقاقهم.

الثالث: الرجال من عبدة الأوثان وغيرهم ممن لا يُقَرّ بالجزية، فيتخير الإمام فيهم بين ثلاثة أشياء: القتل، أو المن، والمفاداة، ولا يجوز استرقاقهم. وعن أحمد جواز استرقاقهم، وهو مذهب الشافعي.

وبما ذكرنا في أهل الكتاب قال الأوزاعي والشافعي وأبو ثور. وعن مالك كمذهبنا. وعنه: لا يجوز المن بغير عوض؛ لأنه لا مصلحة فيه، وإنما يجوز للإمام فعل ما فيه المصلحة. وحكي عن الحسن وعطاء وسعيد بن جبير كراهة قتل الأسرى. وقالوا: لو منّ عليه أو فاداه كما صُنع بأسارى بدر، ولأن الله تعالى قال: ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾، فخيّر بعد الأسر بين هذين لا غير. وقال أصحاب الرأي: إن شاء ضرب أعناقهم، وإن شاء استرقّهم لا غير، ولا يجوز منٌّ ولا فداء؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ بعد قوله: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾.

وكان عمر بن عبدالعزيز وعياض بن عقبة يقتلان الأسارى. ولنا على جواز المن والفداء قول الله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾، وأن النبي ﷺ منّ على ثمامة بن أثال، وأبي عزة الشاعر، وأبي العاص بن الربيع، وقال في أسارى بدر: «**لو كان مطعم بن عدي حيًّا، ثم سألني في هؤلاء النَّتْنى، لأطلقتهم له**»[2]. وفادى أسارى بدر، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلًا، كلُّ رجل منهم بأربعمائة، وفادى يوم بدر رجلًا برجلين، وصاحبَ العضباء برجلين. وأما القتل؛ فلأن النبي ﷺ قتل رجال بني

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٩١)، والبخاري (٦/ ١٨٣/ ٣٠١٤)، ومسلم (٣/ ١٣٦٤/ ١٧٤٤)، وأبو داود (٣/ ١٢١/ ٢٦٦٨)، والترمذي (٤/ ١١٦/ ١٥٦٩)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٨٥/ ٨٦١٨)، وابن ماجه (٢/ ٩٤٧/ ٢٨٤١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٨٠)، والبخاري (٦/ ٢٩٨-٢٩٩/ ٣١٣٩)، وأبو داود (٣/ ١٣٨/ ٢٦٨٩) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

قريظة، وهم بين الستمائة والسبعمائة، وقتل يوم بدر النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط صبرًا، وقتل أبا عَزّة يوم أحد. وهذه قصص عمّت واشتهرت، وفعلها النبي ﷺ مرات، وهو دليل على جوازها. ولأنّ كل خصلة من هذه الخصال قد تكون أصلح في بعض الأسرى، فإن منهم من له قوة ونكاية في المسلمين، وبقاؤه ضرر عليهم، فقتله أصلح، ومنهم الضعيف الذي له مال كثير، ففداؤه أصلح، ومنهم حسن الرأي في المسلمين، يُرجى إسلامه بالمنّ عليه، أو معونته للمسلمين بتخليص أسراهم، والدفع عنهم، فالمنّ عليه أصلح، ومنهم من يُنتفع بخدمته، ويُؤمَن شرّه، فاسترقاقه أصلح، كالنساء والصبيان، والإمام أعلم بالمصلحة، فينبغي أن يفوَّض ذلك إليه. وقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عامّ لا يُنسخ به الخاص، بل ينزَّل على ما عدا المخصوص، ولهذا لم يحرّموا استرقاقه، فأما عبدة الأوثان، ففي استرقاقهم روايتان: إحداهما: لا يجوز. وهو مذهب الشافعي. وقال أبو حنيفة: يجوز في العجم دون العرب، بناءً على قوله في أخذ الجزية منهم. ولنا أنه كافرٌ لا يُقَرّ بالجزية، فلم يُقَرّ بالاسترقاق كالمرتدّ، وقد ذكرنا الدليل عليه. إذا ثبت هذا، فإن هذا تخيير مصلحة واجتهاد، لا تخييرُ شهوة، فمتى رأى المصلحة في خصلة من هذه الخصال، تعيّنت عليه، ولم يجُز العدول عنها، ومتى تردّد فيها، فالقتل أولى. قال مجاهد في أميرين؛ أحدهما يقتل الأسرى: هو أفضل. وكذلك قال مالك. وقال إسحاق: الإثخان أحبّ إليّ، إلا أن يكون معروفًا يطمع به في الكثير»[1].

قال ابن الجوزي: «في هذا الحديث أن هذا الرجل لم يُسلم من تحت الأسر لعِزّة نفسه، وكأن رسول الله ﷺ أحسّ منه بذلك فقال: «**أطلقوه**»، فلما أُطلق أسلم»[2].

قال القاضي عياض: «وفي تكرار النبي ﷺ عليه السؤال أيامًا ثلاثة طمعًا في إسلامه، واستئلافًا لمثله من أشرف الناس؛ ليسلموا فيتبعهم من وراءهم، ثم تركه هو الإجابة حتى منّ عليه دليل على صحة يقينه وعلو همته، وأنه لم يسلم على القسر

(١) المغني (١٣/ ٤٤-٤٧).
(٢) كشف المشكل (٣/ ٤١٦).

والقهر، أو من اختياره وطيب نفسه»[١].

قال العيني: «فيه جواز ربط الأسير في المسجد. وقال القرطبي: يمكن أن يقال: ربطه بالمسجد لينظر حسن صلاة المسلمين واجتماعهم عليها فيأنس لذلك. قلت: يوضح هذا ما رواه ابن خزيمة في صحيحه عن عثمان بن أبي العاص: أن وفد ثقيف لما قدموا أنزلهم النبي ﷺ المسجد ليكون أرق لقلوبهم. وقال جبير بن مطعم فيما ذكره أحمد رحمه الله: «دخلت المسجد والنبي ﷺ يصلي المغرب، فقرأ بـ(الطور)، فكأنما صدع قلبي حين سمعت القرآن»[٢]. وقيل: يمكن أن يكون ربطه بالمسجد؛ لأنه لم يكن لهم موضع يربط فيه إلا المسجد»[٣].

* عن سلمة بن نفيل الكندي رضي الله عنه قال: «كنت جالسًا عند رسول الله ﷺ فقال رجل: يا رسول الله! أذال الناس الخيل ووضعوا السلاح وقالوا: لا جهاد، قد وضعت الحرب أوزارها. فأقبل رسول الله ﷺ بوجهه وقال: **كذبوا، الآن الآن جاء القتال، ولا يزال من أمتي أمة يقاتلون على الحق، ويزيغ الله لهم قلوب أقوام ويرزقهم منهم حتى تقوم الساعة، وحتى يأتي وعد الله، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وهو يوحي إلي أني مقبوض غير ملبث، وأنتم تتبعوني أفنادًا يضرب بعضكم رقاب بعض، وعقر دار المؤمنين الشام**»[٤].

★ غريب الحديث:

أذال الناس الخيل: الإذالة بالذال المعجمة: الإهانة؛ أي: هانوها واستخفوا بها بقلة الرغبة فيها. وقيل: أراد أنهم وضعوا أداة الحرب عنها وأرسلوها.

يزيغ: من أزاغ: إذا مال. والغالب استعماله في الميل عن الحق إلى الباطل.

ملبث: اسم مفعول من ألبثه غيره أو لبثه بالتشديد.

---

(١) الإكمال (٦/ ٩٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٨٣)، والبخاري (٨/ ٧٧٦/ ٤٨٥٤)، ومسلم (١/ ٣٣٨/ ٤٦٣)، وأبو داود (١/ ٥٠٨/ ٨١١)، والنسائي (٢/ ٥٠٩/ ٩٨٦)، وابن ماجه (١/ ٢٧٢/ ٨٣٢) عن جبير رضي الله عنه.

(٣) عمدة القاري (٣/ ٥١٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ١٠٤)، والنسائي (٦/ ٥٢٤-٥٢٥/ ٣٥٦٣)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٩٣٥) على شرط مسلم، وأخرجه: ابن حبان (الإحسان ١٦/ ٢٩٦-٢٩٧/ ٧٣٠٧) من حديث النواس بن سمعان. وذكره ابن كثير (٧/ ٢٩١) وقال: «والمحفوظ أنه من رواية سلمة بن نفيل».

أفنادًا: بالفاء والنون والدال المهملة؛ أي: جماعات متفرقين جمع فند.

عقر: بضم العين وفتحها؛ أي: أصلها وموضعها.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن كثير: «وهذا يقوي القول بعدم النسخ، كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلى أن لا يبقى حرب»[١].

قوله: «**الآن الآن جاء القتال**»:

قال السندي: «التكرار للتأكيد، والعامل في الظرف «**جاء القتال**» أي: شرع اللَّه القتال الآن، فكيف يرفع عنهم سريعًا. أو المراد: بل الآن اشتد القتال؛ فإنهم قبل ذلك كانوا في أرضهم، واليوم جاء وقت الخروج إلى الأرض البعيدة. ويحتمل أن الأول متعلق بمقدار؛ أي: افعلوا ما ذكرت الآن»[٢].

قوله: «**ويزيغ اللَّه لهم قلوب أقوام..**»:

قال السندي: «والمراد: يميل اللَّه تعالى لهم؛ أي: لأجل قتالهم وسعادتهم، قلوب أقوام عن الإيمان إلى الكفر؛ ليقاتلوهم ويأخذوا مالهم. ويحتمل على بعد أن المراد يميل اللَّه تعالى قلوب أقوام إليهم ليعينهم على القتال، ويرق اللَّه تعالى أولئك الأقوام المعينين من هؤلاء الأمة بسبب إحسان هؤلاء إلى أولئك، فالمراد بالأمة الرؤساء، وبالأقوام الأتباع، وعلى الأول المراد بالأمة المجاهدون من المؤمنين، وبالأقوام الكفرة، واللَّه تعالى أعلم»[٣].

قال ابن عبدالبر: «وقد استدل جماعة من العلماء بأن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة تحت راية كل بر وفاجر من الأئمة بهذا الحديث؛ لأنه قد ورد الذم فيمن ارتبطها واحتبسها رياءً وفخرًا، ونواءً لأهل الإسلام»[٤].

قال في «طرح التثريب»: «وفيه بشرى ببقاء الجهاد إلى يوم القيامة، والمراد قربها وأشراطها القريبة كيأجوج ومأجوج، وأنه لا يبقى بعد وفاة عيسى عليه الصلاة والسلام جهاد، واللَّه أعلم»[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٩١) طبعة دار الشعب.
(٢) حاشية سنن النسائي (٦/ ٥٢٤).
(٣) المصدر نفسه.
(٤) فتح البر (٨/ ٣٣)
(٥) (٧/ ٢٣٤-٢٣٥)

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين؛ قال: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: لن يذهبها؛ بل يكثرها وينميها ويضاعفها، ومنهم من يجري عليه عمله في طول برزخه»[١].

وقال ابن عاشور: «هذا من مظاهر بلوى بعضهم ببعض، وهو مقابل ما في قوله: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِمَّا فِدَاءً﴾[٢]؛ فإن ذلك من مظاهر إهانة الذين كفروا، فذكر هنا ما هو من رفعة الذين قاتلوا في سبيل الله من المؤمنين بعناية الله بهم.

وجملة: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلخ؛ عطف على جملة: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ الآية؛ فإنه لما أمرهم بقتال المشركين؛ أعقب الأمر بوعد الجزاء على فعله»[٣].

وقال السعدي: «﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لهم ثواب جزيل، وأجر جميل، وهم الذين قاتلوا من أمروا بقتالهم، لتكون كلمة الله هي العليا.

فهؤلاء لن يضل الله أعمالهم؛ أي: لن يحبطها ويبطلها، بل يتقبلها وينميها لهم، ويظهر من أعمالهم نتائجها، في الدنيا والآخرة»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل الشهادة في سبيل الله

* عن المقدام بن معد يكرب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«للشهيد عند الله ستُّ خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من**

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٩٢).
(٢) محمد: الآية (٤).
(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٨٣).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦٥).

الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه»[(١)].

★ **غريب الحديث:**

تاج: التاج: هو ما يصاغ للملوك من الذهب والجواهر، وقد توّجته: إذا ألبسته التاج.

الوقار: الحلم والرزانة.

★ **فوائد الحديث:**

قال أبو بكر بن العربي: «أما المغفرة له في أول دفعة، يعني ساعة يقتل، وقد تقدم وصف المغفرة. وأما قوله: «**ويرى مقعده**» صح أنه يصل إلى الجنة، ويعلق منها ويأكل ويشرب، فإما أن يكون في منزله فتكون الرؤية ساعة يقتل، والأكل منه ساعة يرفع ويصل إليه، وإما أن يأكل من غير درجة حتى ينتهي إليها يوم القيامة، وينجى من عذاب القبر، وهي فائدة عظمى. والمعنى فيه: أنه قد صدق الله بإهلاك نفسه، وثبت في موضع الزلل، فأغني عن ذلك التثبيت، وسائر ذلك فضل من الله»[(٢)].

قال القاري: «وينبغي أن يحمل قوله: «**ويرى مقعده**» على أنه عطف تفسير لقوله: «**يغفر له**» لئلاً تزيد الخصال على ستّ، ولئلاّ يلزم التكرار في قوله: «**ويجار من عذاب القبر**» أي: يحفظ ويؤمن؛ إذ الإجارة مندرجة في المغفرة إذا حملت على ظاهرها، «**ويأمن من الفزع الأكبر**» فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾[(٣)]، قيل: هو عذاب النار. وقيل: العرض عليها. وقيل: هو وقت يؤمر أهل النار بدخولها. وقيل: ذبح الموت، فييأس الكفار عن التخلص من النار بالموت. وقيل: وقت إطباق النار على الكفار. وقيل: النفخة الأخيرة لقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[(٤)]»[(٥)].

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٣١)، والترمذي (٤/ ١٦١/ ١٦٦٣) واللفظ له، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، وابن ماجه (٢/ ٩٣٥-٩٣٦/ ٢٧٩٩). وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٣٢١٣).

(٢) عارضة الأحوذي (٧/ ١٣٩).

(٣) الأنبياء: الآية (١٠٣).

(٤) النمل: الآية (٨٧).

(٥) المرقاة (٤/ ١٨٩) المكتبة الإسلامية.

وقوله: «ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين»:

قال القاري: «في التقييد بالثنتين والسبعين إشارة إلى أن المراد به التحديد لا التكثير، ويحمل على أن هذا أقل ما يعطى، ولا مانع من التفضيل بالزيادة عليها»[1].

وبالجملة ففي الحديث: «بيان عظيم منزلة الشهيد عند ربه، وبيان ما أعد اللّٰه له من النعيم والإكرام؛ فمغفرة ذنوبه عند قتله في سبيل اللّٰه، وتبشيره بمقامه ومكانته في الجنة، وإجارته من عذاب القبر، وأمنه من الفزع الأكبر يوم الحشر، وتحليته بحلة الإيمان، فيذوق من حلاوته أعظم وأتم مما كان يذوق من حلاوته في الدنيا، وتزويجه من الحور العين، وتشفيعه في سبعين من أقاربه: ألوان النعيم والتكريم وحسن الجزاء من اللّٰه الكريم لعباده المجاهدين في سبيله، فما أعظمها من منزلة، وما أكرمها من مرتبة»[2].

* عن عبداللّٰه بن عمرو بن العاص ﷺ أن رسول اللّٰه ﷺ قال: «يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّين»[3].

★ **فوائد الحديث:**

قال القاضي عياض: «وقوله: «إلا الدَّين» فيه تنبيه على أن حقوق الآدميين والتبعات التي للعباد لا تكفرها الأعمال الصالحة، وإنما تكفر ما بين العبد وربه، ويكون هذا فيمن له بقضاء ما عليه من الدَّين وأتلفه على ربه عن علم أو عزة من ذمته وملائه، واستدانه في غير واجب، وتحذيرًا وتشديدًا لمن يسارع لإتلاف أموال الناس بهذا الوجه»[4].

قال القرطبي: «وذكره الدَّين تنبيه على ما في معناه من تعلق حقوق الغير بالذمم، كالغصب وأخذ المال بالباطل وقتل العمد وجراحه، وغير ذلك من التبعات، فإن كل هذا أولى بأن لا يغفر بالجهاد من الدين، لكن هذا كله إذا امتنع من أداء الحقوق مع تمكنه منه، وأما إذا لم يجد للخروج من ذلك سبيلًا، فالمرجو من كرم اللّٰه تعالى إذا صدق في قصده، وصحت توبته أن يرضي اللّٰه تعالى خصومه عنه، كما قد جاء نصًا

---

(١) المصدر نفسه. (٢) إهداء الديباجة (٤/ ٧٢-٧٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٢٠)، ومسلم (٣/ ١٥٠٢/ ١٨٨٦).

(٤) إكمال المعلم (٦/ ٣٠٣).

في حديث أبي سعيد الخدري المشهور في هذا[١]، وقد دل على صحة ما ذكرناه قوله ﷺ: «**لتؤدنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة**. . »[٢] الحديث، وسيأتي إن شاء اللَّه تعالى. ولا يلتفت إلى قول من قال: إن هذا الذي ذكره من الدَّين إنما كان قبل قوله ﷺ: «**من ترك دينًا أو ضياعًا فعليّ**. . »[٣] الحديث. يشير بذلك إلى أن ذلك المعنى منسوخ، فإنه قول باطل مفسوخ؛ فإن المقصود من هذا الحديث بيان أحكام الديون في الدنيا، وذلك: أنه كان من أحكامها دوام المطالبة وإن كان الإعسار. وقال بعض الرواة: إن الحر كان يباع في الدين. وامتنع النبي ﷺ من الصلاة على من مات وعليه دينار ولم يجد وفاء له. فهذه الأحكام وأشباهها هي التي يمكن أن تنسخ، والحديث الأول لم يتعرض لهذه الأحكام. وإنما تعرض لمغفرة الذنوب فقط. هذا إذا قلنا: إن هذا ناسخ. فأما إذا حققنا النظر فيه فلا يكون ناسخًا، وإنما غايته: أن تحمل النبي ﷺ على مقتضى كرم خلقه عن المعسر دينه، وسد ضيعة الضائع. وقد دل على ذلك قوله ﷺ في هذا الحديث بعينه: «**أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، وأنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم**»[٤]، فعلى هذا يكون هذا التحمّل خصوصًا به، أو من جملة تبرعاته لما وسع اللَّه عليه، وعلى المسلمين. وقد قيل في معنى هذا الحديث: إن معنى ذلك: أن النبي ﷺ قام بذلك من مال الخمس والفيء ليبين أن للغارمين ولأهل الحاجة حقًّا في بيت مال المسلمين، وإن الناظر لهم يجب عليه القيام بذلك لهم، واللَّه تعالى أعلم»[٥].

---

(١) لعله يقصد الحديث الذي أخرجه أبو داود (٢/ ١٩٥-١٩٦/ ١٥٥٥) عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: «دخل رسول اللَّه ﷺ ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة، فقال: يا أبا أمامة! ما لي أراك جالساً في المسجد في غير وقت الصلاة؟ قال: هموم لزمتني وديون يا رسول الله! قال: أفلا أعلمك كلاماً إذا أنت قلته أذهب اللَّه ﷻ همك، وقضى عنك دينك؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله! قال: قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال. قال: ففعلت ذلك، فأذهب اللَّه ﷻ همي، وقضى عني ديني». وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف أبي داود (٣٣٣)، وضعيف الترغيب (١١٤١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٥)، ومسلم (٤/ ١٩٩٧/ ٢٥٨٢)، والترمذي (٤/ ٥٣٠/ ٢٤٢٠) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٩٦)، ومسلم (٢/ ٥٩٢/ ٨٦٧)، وأبو داود (٣/ ٣٦١-٣٦٢/ ٢٩٥٦)، والترمذي (٤/ ٣٦٧-٣٦٨/ ١٩٦١) من حديث جابر بن عبداللَّه ﷺ.

(٤) هو حديث جابر الذي تقدمت الإشارة إليه آنفاً.

(٥) المفهم (٣/ ٧١٣-٧١٤).

* عن أبي موسى ﷺ قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! ما القتال في سبيل الله؟ فإن أحدنا يقاتل غضبًا ويقاتل حمية، فرفع إليه رأسه -قال: وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائمًا- فقال: **من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله ﷻ**»[1].

★ فوائد الحديث:

تقدم شرح غريبه وبيان فوائده عند قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ الآية (٣٩) من سورة (الأنفال). والغرض منه هنا بيان: «أن الفضل الذي ورد في المجاهدين في سبيل الله يختص بمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا»[2].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٢)، والبخاري (١/ ٢٢٦/ ١٢٣)، ومسلم (٣/ ١٥١٢/ ١٩٠٤)، والترمذي (٤/ ١٥٣-١٥٤/ ١٦٤٦)، وابن ماجه (٢/ ٩٣١/ ٢٧٨٣).

(٢) قاله النووي في المنهاج (١٣/ ٤٣).

قوله تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أي: إلى الجنة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٩﴾[1]»[2].

قال السعدي: «﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الجنة، ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أي: حالهم وأمورهم، وثوابهم يكون صالحًا كاملًا لا نكد فيه، ولا تنغيص بوجه من الوجوه»[3].

قال ابن القيم: «فهذه هداية بعد قتلهم، فقيل: المعنى: سيهديهم إلى طريق الجنة، ويصلح حالهم في الآخرة بإرادة خصومهم وقبول أعمالهم.

وقال ابن عباس: سيهديهم إلى أرشد الأمور، ويعصمهم أيام حياتهم في الدنيا. واستُشكل هذا القول؛ لأنه أخبر عن المقتولين في سبيله بأنهم سيهديهم. واختاره الزجاج وقال: يصلح بالهم في المعاش وأحكام الدنيا. قال: وأراد به: يجمع لهم خير الدنيا والآخرة. وعلى هذا القول فلا بد من حمل قوله: ﴿قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ على معنى يصح معه إثبات الهداية وإصلاح البال»[4].

وقال -في معرض ذكره للآيات الدالة على أن الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الحسنة الأولى-: «وأما قوله: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ فيحتمل أن لا يكون من هذا، وتكون الهداية في الآخرة إلى طريق الجنة؛ فإنه رتب هذا الجزاء على قتلهم، ويحتمل أن يكون منه، ويكون قوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾ إخبارًا منه سبحانه عما يفعله بهؤلاء الذين قتلوا في سبيله

---

(١) يونس: الآية (٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٠٩).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦٥).
(٤) شفاء العليل (١/ ٢٢٣).

قبل أن قتلوا، وأتى به بصيغة المستقبل؛ إعلامًا منه بأنه يجدد له كل وقت نوعًا من أنواع الهداية وإصلاح البال شيئًا بعد شيء. فإن قلت: فكيف يكون ذلك المستقبل خبرًا عن الذين قتلوا؟ قلت: الخبر قوله: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أنه لا يبطلها عليهم، ولا يترهم إياها، هذا بعد أن قتلوا، ثم أخبر سبحانه خبرًا مستأنفًا عنهم أنه سيهديهم ويصلح بالهم؛ لما علم أنهم سيقتلون في سبيله، وأنهم بذلوا أنفسهم له، فلهم جزاآن: جزاء في الدنيا بالهداية على الجهاد، وجزاء في الآخرة بدخول الجنة، فيرد السامع كل جملة إلى وقتها لظهور المعنى وعدم التباسه، وهو في القرآن كثير، والله أعلم»[1].

* * *

(١) شفاء العليل (٢/ ٢٥).

قوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: عرّفهم بها، وهداهم إليها.

قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم اللَّه لهم منها، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحدًا. وروى مالك عن ابن زيد بن أسلم نحو هذا.

وقال محمد بن كعب: يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة، كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة»[(١)].

وقال ابن عاشور: «ومعنى ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾: أنه وصفها لهم في الدنيا، فهم يعرفونها بصفاتها، فالجملة حال من الجنة، أو المعنى: هداهم إلى طريقها في الآخرة، فلا يترددون في أنهم داخلونها، وذلك من تعجيل الفرح بها. وقيل: ﴿عَرَّفَهَا﴾: جعل فيها عرْفًا؛ أي: ريحًا طيبًا، والتطييب من تمام حسن الضيافة»[(٢)].

وقال الرازي: «وكأن اللَّه تعالى عند حشرهم يهديهم إلى طريق الجنة، ويلبسهم في الطريق خلع الكرامة، وهو إصلاح البال، ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾، فهو على ترتيب الوقوع»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في بيان أن معرفة المؤمن بمنزله في الجنة أكثر من معرفته بمنزله في الدنيا

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إذا خلص المؤمنون من النار، حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى**

---
(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣١٠).
(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٨٤).
(٣) تفسير الرازي (٢٨/ ٤٩).

إذا نقوا وهذبوا، أذن لهم بدخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده؛ لأحدهم بمسكنه في الجنة أدل بمنزله كان في الدنيا»[١].

★ غريب الحديث:

إذا خلص المؤمنون من النار: أي: نجوا من السقوط فيها بعد ما جازوا على الصراط.

حبسوا بقنطرة: قال الحافظ: «الذي يظهر أنها طرق الصراط مما يلي الجنة، ويحتمل أن تكون من غيره بين الصراط والجنة»[٢].

فيتقاصون: بتشديد المهملة: يتفاعلون من القصاص، المراد تتبع ما بينهم من المظالم وإسقاط بعضها ببعض.

حتى إذا نقوا وهذبوا: بضم النون وبضم الهاء وهما بمعنى التمييز والتخليص من السيئات.

أدل: من الدلالة؛ أي: الهداية والإرشاد.

★ فوائد الحديث:

قوله: «فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم بمسكنه في الجنة أدل بمنزله كان في الدنيا»:

قال ابن الملك: «وهذا من قبيل (الكحل في عين زيد أحسن منه في عين عمرو) يعني: عرفانه بمنزله في الجنة يكون أكثر من عرفان منزله في الدنيا»[٣].

قال ابن بطال: «وإنما عرفوا منازلهم في الجنة بتكرير عرضها عليهم بالغداة والعشي؛ فقد أخبرنا ﷺ: أن المؤمن إذا كان من أهل الجنة عرض عليه مقعده منها بالغداة والعشي. فيقال له: **«هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»**[٤]»[٥].

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٣)، البخاري (٥/ ١٢١/ ٢٤٤٠).

(٢) فتح الباري (٥/ ١٢٢).

(٣) مبارق الأزهار (٢/ ٦١٤).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦)، والبخاري (٦/ ٣٩١/ ٣٢٤٠)، ومسلم (٤/ ٢١٩٩/ ٢٨٦٦)، والترمذي (٣/ ٣٨٤/ ١٠٧٢)، والنسائي (٤/ ٤١٢-٤١٣/ ٢٠٦٩)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٧/ ٤٢٧٠) من حديث ابن عمر ﷺ.

(٥) شرح البخاري (٦/ ٥٦٩).

قال القرطبي: «لا تعارض بين قوله ﷺ: «**لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة**» وبين قول عبداللَّه بن سلام: إن الملائكة تدلهم على طريق الجنة يمينًا وشمالًا؛ فإن هذا يكون فيمن لم يحبس على قنطرة ولم يدخل النار، فيخرج منها فيطرح على باب الجنة. وقد يحتمل أن يكون ذلك في الجميع، فإذا وصلت بهم الملائكة إلى باب الجنة؛ كان كل أحد منهم أعرف بمنزله في الجنة وموضعه فيها منه بمنزله كان في الدنيا، واللَّه أعلم»[1].

* * *

(١) التذكرة (٢/ ٥٥)، وانظر الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٢٣٠-٢٣١).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يا أيها الذين صدّقوا اللَّه ورسوله! إن تنصروا اللَّه ينصركم بنصركم رسوله محمدًا ﷺ على أعدائه من أهل الكفر به، وجهادكم إياهم معه، لتكون كلمته العليا ينصركم عليهم، ويظفركم بهم؛ فإنه ناصرٌ دينه وأولياءه. . وقوله: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ يقول: ويقوّكم عليهم، ويجرّئكم حتى لا تولوا عنهم، وإن كثر عددهم، وقلّ عددكم»[١].

وقال ابن عاشور: «لما ذكر أنه لو شاء اللَّه لانتصر منهم عُلم منه أن ما أمر به المسلمين من قتال الكفار إنما أراد منه نصرَ الدين بخضد شوكة أعدائه الذين يصدون الناس عنه، أتبعه بالترغيب في نصر اللَّه والوعد بتكفل اللَّه لهم بالنصر إن نصروه، وبأنه خاذل الذين كفروا بسبب كراهيتهم ما شرعه من الدين.

فالجملة استئناف ابتدائي لهاته المناسبة. وافتتح الترغيب بندائهم بصلة الإيمان اهتمامًا بالكلام، وإيماءً إلى أن الإيمان يقتضي منهم ذلك، والمقصود تحريضهم على الجهاد في المستقبل بعد أن اجتنوا فائدته مشاهدة يوم بدر»[٢].

قال الشنقيطي: «ذكر اللَّه -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن المؤمنين إن نصروا ربهم، نصرهم على أعدائهم، وثبت أقدامهم؛ أي: عصمهم من الفرار والهزيمة.

وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، وبيّن في بعضها صفات الذين وعدهم بهذا النصر، كقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٣]، ثم بيّن صفات الموعودين بهذا النصر في قوله تعالى بعده: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٤٥). (٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٨٤).
(٣) الحج: الآية (٤٠).

ﱡﭐ ﭐ ﭐ ٱلۡأُمُورِﱠ[١]، وكقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾[٣] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[٤]، إلى غير ذلك من الآيات. وقوله تعالى في بيان صفات من وعدهم بالنصر في الآيات المذكورة: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ الآية، يدل على أن الذين لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة، ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر؛ ليس لهم وعد من الله بالنصر ألبتة، فمثلهم كمثل الأجير الذي لم يعمل لمستأجره شيئًا، ثم جاءه يطلب منه الأجرة.

فالذين يرتكبون جميع المعاصي ممن يتسمون باسم المسلمين، ثم يقولون: إن الله سينصرنا مغررون؛ لأنهم ليسوا من حزب الله الموعودين بنصره كما لا يخفى.

ومعنى نصر المؤمنين لله: نصرهم لدينه وكتابه، وسعيهم وجهادهم في أن تكون كلمته هي العليا، وأن تقام حدوده في أرضه، وتمتثل أوامره وتجتنب نواهيه، ويحكم في عباده بما أنزل على رسوله ﷺ»[٥].

* * *

(١) الحج: الآية (٤١).
(٢) الروم: الآية (٤٧).
(٣) غافر: الآية (٥١).
(٤) الصافات: الآيات (١٧١-١٧٣).
(٥) أضواء البيان (٧/ ٤٢٢-٤٢٣).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩﴾

★ **غريب الآية:**

تعسًا: أي: هلاكًا وشقاءً. وأصل التعس: السقوط والعثار. يقال: أتعسه الله؛ أي: كبّهُ: وهو أن يخرّ على وجهه. والنَّكْس خلافه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله، فجحدوا توحيده، ﴿فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾ يقول: فخزيًا لهم، وشقاءً، وبلاءً..

وقوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ يقول: وجعل أعمالهم معمولة على غير هدى ولا استقامة؛ لأنها عملت في طاعة الشيطان، لا في طاعة الرحمن..

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: هذا الذي فعلنا بهم من الإتعاس وإضلال الأعمال، من أجل أنهم كرهوا كتابنا الذي أنزلناه إلى نبينا محمد ﷺ وسخطوه، فكذّبوا به، وقالوا: هو سحر مبين.

وقوله: ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ يقول: فأبطل أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وذلك عبادتهم الآلهة، لم ينفعهم الله بها في الدنيا ولا في الآخرة، بل أوبقهم بها، فأصلاهم سعيرًا، وهذا حكم الله جل جلاله في جميع من كفر به من أجناس الأمم، كما قال قتادة»[1].

وقال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يريد القرآن. وقوله: ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ يقتضي أن أعمالهم في كفرهم التي هي بر مقيدة محفوظة، ولا خلاف أن الكافر له حفظة يكتبون سيئاته.

(١) جامع البيان (٢٦/ ٤٥-٤٦).

واختلف الناس في حسناتهم، فقالت فرقة: هي ملغاة يثابون عليها بنعم الدنيا فقط. وقالت فرقة: هي محصاة من أجل ثواب الدنيا، ومن أجل أنه قد يسلم فينضاف ذلك إلى حسناته في الإسلام، وهذا أحد التأويلين في قول النبي ﷺ لحكيم بن حزام: «**أسلمت على ما سلف لك من خير**»[1]. فقوم قالوا: تأويله: أسلمت على أن يعد لك ما سلف من خير، وهذا هو التأويل الذي أشرنا إليه. وقالت فرقة معناه: أسلمت على إسقاط ما سلف لك من خير؛ إذ قد ثوبت عليه بنعم دنياك. وذكر الطبري أن أعمالهم التي أخبر في هذه الآية بحبطها: عبادتهم الأصنام وكفرهم. ومعنى (أحبط): جعلها من العمل الذي لا يزكو ولا يعتد به، فهي لذلك كالذي أحبط»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وعيد من قصر عمله على الدنيا واشتغل بها عن الواجبات وإحباط أعمال الكافرين

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**تَعِس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أُعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض**»[3].

★ غريب الحديث:

عبد الدينار: أي: طالبه الحريص على جمعه، القائم على حفظه، فكأنه لذلك خادمه وعبده.

القطيفة: كساء له خمل؛ أي: الذي يعمل لها ويهتم بتحصيلها.

الخميصة: ثوب خز أو صوف معلم، وقيل: لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلمة، وكانت من لباس الناس قديمًا، وجمعها: الخمائص. وقيل: الخميصة: كساء مربع لها أعلام أو خطوط.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «فيه إشارة إلى الدعاء عليه بما يثبطه عن السعي والحركة، وسوغ

---

(١) يأتي تخريجه ضمن أحاديث الباب.
(٢) المحرر الوجيز (٥/ ١١٢).
(٣) أخرجه: البخاري (٦/ ١٠١/ ٢٨٨٦)، وابن ماجه (٢/ ١٣٨٥-١٣٨٦/ ٤١٣٥).

الدعاء عليه كونه قصر عمله على جمع الدنيا واشتغل بها عن الذي أمر به من التشاغل بالواجبات والمندوبات»[١].

قال **الطيبي**: «قيل: خص العبد بالذكر ليؤذن بانغماسه في محبة الدنيا وشهواتها، كالأسير الذي لا خلاص له عن أسره. ولم يقل: مالك الدينار أو جامع الدينار؛ لأن المذموم من الدنيا الزيادة على قدر الحاجة، لا قدر الحاجة»[٢].

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: «جماع الشر: الغفلة والشهوة، فالغفلة عن اللَّه والدار الآخرة تسد باب الخير الذي هو الذكر واليقظة. والشهوة تفتح باب الشر والسهو والخوف، فيبقى القلب مغمورًا فيما يهواه ويخشاه، غافلًا عن اللَّه، رائدًا غير اللَّه، ساهيًا عن ذكره، قد اشتغل بغير اللَّه، قد انفرط أمره، قد ران حب الدنيا على قلبه، كما روي في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: **«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، إن أعطي رضي، وإن منع سخط»** جعله عبد ما يرضيه وجوده ويسخطه فقده، حتى يكون عبد الدرهم وعبد ما وصف في هذا الحديث، والقطيفة هي التي يجلس عليها فهو خادمها كما قال بعض السلف: البس من الثياب ما يخدمك، ولا تلبس منها ما تكن أنت تخدمه، وهي كالبساط الذي تجلس عليه، والخميصة هي التي يرتدي بها، وهذا من أقل المال. وإنما نبه به النبي ﷺ على ما هو أعلى منه، فهو عبد لذلك: فيه أرباب متفرقون، وشركاء متشاكسون. ولهذا قال: **«إن أعطي رضي، وإن منع سخط»** فما كان يرضي الإنسان حصوله ويسخطه فقده فهو عبده؛ إذ العبد يرضى باتصاله بهما، ويسخط لفقدهما. والمعبود الحق الذي لا إله إلا هو، إذا عبده المؤمن وأحبه؛ حصل للمؤمن بذلك في قلبه إيمان، وتوحيد ومحبة وذكر وعبادة فيرضى بذلك، وإذا منع من ذلك غضب»[٣].

* عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! أرأيت أمورًا كنت أتحنث بها في الجاهلية من عتاقة وصلة رحم؛ هل لي فيها أجر؟ فقال النبي ﷺ: **«أسلمتَ**

---

(١) فتح الباري (١١/ ٣٠٧).
(٢) شرح الطيبي (١٠/ ٣٢٧٤).
(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٩٧-٥٩٨).

على ما أسلفتَ من خير»[1].

★ غريب الحديث:

التحنث: التعبد.

عتاقة: مصدر عتق يعتِق عِتْقًا وعَتاقًا وعَتاقة: العبد: خرج من الرق.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «وأما قوله ﷺ: «**أسلمت على ما أسلفت من خير**» فاختلف في معناه، فقال الإمام أبو عبداللَّه المازري رَحِمَهُ اللَّهُ: ظاهره خلاف ما تقتضيه الأصول؛ لأن الكافر لا يصح منه التقرب، فلا يثاب على طاعته، ويصح أن يكون مطيعًا غير متقرب؛ كنظيره في الإيمان، فإنه مطيع فيه من حيث كان موافقًا للأمر، والطاعة عندنا موافقة الأمر، ولكنه لا يكون متقربًا؛ لأن من شرط المتقرب أن يكون عارفًا بالمتقرب إليه، وهو في حين نظره لم يحصل له العلم باللَّه تعالى بعد. فإذا تقرر هذا علم أن الحديث متأول، وهو يحتمل وجوهًا: أحدها: أن يكون معناه: اكتسبت طباعًا جميلة، وأنت تنتفع بتلك الطباع في الإسلام، وتكون تلك العادة تمهيدًا لك ومعونة على فعل الخير.

والثاني: معناه: اكتسبت بذلك ثناءً جميلًا، فهو باق عليك في الإسلام.

والثالث: أنه لا يبعد أن يزداد في حسناته التي يفعلها في الإسلام، ويكثر أجره؛ لما تقدم له من الأفعال الجميلة. وقد قالوا في الكافر: إذا كان يفعل الخير فإنه يخفف عنه به، فلا يبعد أن يزاد هذا في الأجور. هذا آخر كلام المازري رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: وقيل: معناه: ببركة ما سبق لك من خير هداك اللَّه تعالى إلى الإسلام، وأن من ظهر منه خير في أول أمره؛ فهو دليل على سعادة آخره، وحسن عاقبته. هذا كلام القاضي.

وذهب ابن بطال وغيره من المحققين إلى أن الحديث على ظاهره، وأنه إذا أسلم الكافر ومات على الإسلام؛ يثاب على ما فعله من الخير في حال الكفر، واستدلوا بحديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا أسلم الكافر فحسن**

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٠٢)، والبخاري (٤/ ٥١٧/ ٢٢٢٠)، ومسلم (١/ ١١٣/ ١٢٣).

إسلامه؛ كتب اللَّه تعالى له كل حسنة زلفها، ومحا عنه كل سيئة زلفها، وكان عمله بعد الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسيئة بمثلها إلا أن يتجاوز اللَّه سبحانه وتعالى»[1]. ذكره الدارقطني في غريب حديث مالك، ورواه عنه من تسع طرق، وثبت فيها كلها أن الكافر إذا حسن إسلامه؛ يكتب له في الإسلام كل حسنة عملها في الشرك. قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى بعد ذكره الحديث: ولله تعالى أن يتفضل على عباده بما شاء، لا اعتراض لأحد عليه. قال: وهو كقوله ﷺ لحكيم بن حزام رضي الله عنه: **«أسلمت على ما أسلفت من خير»** واللَّه أعلم.

وأما قول الفقهاء: (لا يصح من الكافر عبادة، ولو أسلم لم يعتد بها)؛ فمرادهم: أنه لا يعتد له بها في أحكام الدنيا، وليس فيه تعرض لثواب الآخرة. فإن أقدم قائل على التصريح بأنه إذا أسلم لا يثاب عليها في الآخرة؛ رد قوله بهذه السنة الصحيحة، وقد يعتد ببعض أفعال الكفار في أحكام الدنيا؛ فقد قال الفقهاء: إذا وجب على الكافر كفارة ظهار أو غيرها، فكفر في حال كفره؛ أجزأه ذلك، وإذا أسلم لم تجب عليه إعادتها»[2].

* * *

(١) أخرجه: البخاري (١/ ١٣٣/ ٤١) تعليقاً بصيغة الجزم، والنسائي (٨/ ٤٨٠/ ٥٠١٣) موصولاً.
(٢) شرح صحيح مسلم (٢/ ١٢١-١٢٢).

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أفلم يسِر هؤلاء المكذبون محمدًا ﷺ، المنكرون ما أنزل عليه من الكتاب في الأرض سفرًا؟ وإنما هذا توبيخ من اللَّه لهم؛ لأنهم قد كانوا يسافرون إلى الشام، فيرون نقمة اللَّه التي أحلها بأهل حجر وثمود، ويرون في سفرهم إلى اليمن ما أحل اللَّه بسبأ، فقال لنبيه عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين به: أفلم يسِر هؤلاء المشركون سفرًا في البلاد، فينظروا كيف كان عاقبة تكذيب الذين من قبلهم؛ من الأمم المكذّبة رسلها، الرّادّة نصائحها، ألم نهلكها فندمّر عليها منازلها ونخرّبها، فيتعظوا بذلك، ويحذروا أن يفعل اللَّه ذلك بهم في تكذيبهم إياه، فينيبوا إلى طاعة اللَّه في تصديقك؟ ثم توعّدهم -جل ثناؤه-، وأخبرهم إن هم أقاموا على تكذيبهم رسوله، أنه مُحِلّ بهم من العذاب ما أحل بالذين كانوا من قبلهم من الأمم، فقال: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾، يقول: وللكافرين من قريش المكذبين رسول اللَّه ﷺ من العذاب العاجل، أمثال عاقبة تكذيب الأمم الذين كانوا من قبلهم رسلهم على تكذيبهم رسوله محمدًا ﷺ»[1].

وقال أبو السعود: «﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أقَعدوا في أماكنهم فلم يسيروا فيها ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ من الأمم المكذبة؛ فإن آثار ديارهم تنبئ عن أخبارهم.

وقوله تعالى: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من الكلام، كأنه قيل: كيف كان عاقبتهم؟ فقيل: استأصل اللَّه تعالى عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم. يقال: دمّره: أهلكه، ودمّر عليه: أهلك عليه ما يختص به.

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٤٦).

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: ولهؤلاء الكافرين السائرين بسيرتهم ﴿أَمْثَٰلُهَا﴾: أمثال عواقبهم أو عقوباتهم؛ لكن لا على أن لهؤلاء أمثال ما لأولئك وأضعافه؛ بل مثله، وإنما جمع باعتبار مماثلته لعواقب متعددة حسب تعدد الأمم المعذبة. وقيل: يجوز أن يكون عذابهم أشد من عذاب الأولين وقد قتلوا وأسروا بأيدي من كانوا يستخفونهم ويستضعفونهم، والقتل بيد المثل أشد ألمًا من الهلاك بسبب عام. وقيل: المراد بالكافرين: المتقدمون؛ بطريق وضع الظاهر موضع الضمير، كأنه قيل: دمر اللَّه عليهم في الدنيا ولهم في الآخرة أمثالها»[1].

* * *

(١) تفسير أبي السعود (٨/ ٩٤).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: هذا الفعل الذي فعلنا بهذين الفريقين: فريق الإيمان، وفريق الكفر، من نُصرتنا فريق الإيمان بالله، وتثبيتنا أقدامهم، وتدميرنا على فريق الكفر، ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يقول: من أجل أن الله وليّ من آمن به، وأطاع رسوله.. وقد ذُكر لنا أن ذلك في قراءة عبدالله: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ) وأن التي في (المائدة) التي هي في مصاحفنا ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾[1]: (إِنَّمَا مَوْلاَكُمُ اللهُ) في قراءته. وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ يقول: وبأن الكافرين بالله لا ولي لهم، ولا ناصر»[2].

قال ابن عاشور: «اسم الإشارة منصرف إلى مضمون قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ بتأويل: ذلك المذكور؛ لأنه يتضمن وعيدًا للمشركين بالتدمير، وفي تدميرهم انتصار للمؤمنين على ما لَقُوا منهم من الأضرار، فأفيد أن ما توعدهم الله به مسبب على أن الله نصير الذين آمنوا، وهو المقصود من التعليل، وما بعده تتميم..

قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أفاد شيئين: أن الله لا ينصرهم، وأنه إذا لم ينصرهم فلا ناصر لهم، وأما إثبات المولى للمشركين في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾[3] فذلك المولى بمعنى آخر، وهو معنى: المالك والرب، فلا تعارض بينهما»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في بيان أن من أسمائه سبحانه اسم (المولى)

* عن البراء رضي الله عنه قال: «لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جيشًا من

---

(١) المائدة: الآية (٥٥).
(٢) جامع البيان (٢٦/ ٤٧).
(٣) يونس: الآيات (٢٨-٣٠).
(٤) التحرير والتنوير (٢٦/ ٨٨-٨٩).

الرماة، وأمر عليهم عبدالله وقال: **لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا**، فلما لقينا هربوا، حتى رأيت النساء يشتدِدْنَ في الجبل، رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة، فقال عبدالله: عهد إلي النبي ﷺ أن لا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صرف وجوههم، فأصيب سبعون قتيلًا، وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: **لا تجيبوه**، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: **لا تجيبوه**، فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يخزيك، قال أبو سفيان: اعل هبل. فقال النبي ﷺ: **أجيبوه**، قالوا: ما نقول؟ قال: **قولوا: الله أعلى وأجلّ**. قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: أجيبوه، قالوا: ما نقول؟ قال: **قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم**. قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مثلة لم آمر بها ولم تسؤني»[(١)].

★ غريب الحديث:

لا تبرحوا: أي: لا تغادروا أماكنكم؛ يقال: برح برحًا وبراحًا وبروحًا: زال. ويقال في الاستمرار: ما برح يفعل كذا.

ظهرنا: الظهور: الظفر بالشيء، والاطلاع عليه.

يشتدِدْن: أي: يسرعن المشي؛ يقال: اشتدّ في مشيه: إذا أسرع.

صرف وجوههم: أي: تحيروا، فلم يدروا أين يتوجهون.

اعل هبل: أي: ظهر دينك. وقيل: زاد علوًّا. أو المراد: أعلى من كل شيء.

سِجال: بكسر المهملة وتخفيف الجيم؛ أي: مرة لنا ومرة علينا. وأصله أن المستقين بالسجل يكون لكل واحد منهم سجل.

مُثلة: بضم الميم وسكون المثلثة ويجوز فتح أوله. يقال: مثلت بالحيوان أمثّل به مثلًا: إذا قطعت أطرافه وشوهت به. ومثّلت بالقتيل: إذا جدعت أنفه أو أذنه أو

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٩٣)، والبخاري (٧/ ٤٤٣/ ٤٠٤٣) واللفظ له، وأبو داود (٣/ ١١٧/ ٢٦٦٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣١٥/ ١١٠٧٩).

مذاكيره أو شيئًا من أطرافه.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن الجوزي: «وقوله: «**اللَّه مولانا ولا مولى لكم**» فإن قيل: أليس اللَّه ﷻ مولى الخلق كلهم؟ فالجواب: أن المولى ههنا بمعنى الولي. فاللَّه سبحانه وتعالى يتولى المؤمنين بالنصرة والإعانة ويخذل الكفار»[1].

قال البيهقي في معرض ذكره للأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ﷻ: «ومنها (الولي)، قال اللَّه ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[2]. قال الحليمي: الولي هو الوالي: ومعناه: مالك التدبير، ولهذا يقال للمقيم على اليتيم: ولي اليتيم، وللأمير: الوالي. قال أبو سليمان: والولي أيضًا: الناصر ينصر عباده المؤمنين، قال اللَّه ﷻ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[3]، وقال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾، المعنى: لا ناصر لهم.. ومنها: (المولى)، قال اللَّه ﷻ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[4]. قال الحليمي: في معنى (المولى): إنه المأمول منه النصر والمعونة؛ لأنه هو المالك، ولا مفزع للمملوك إلا مالكه»[5].

قال في «النهج الأسنى»: «من آثار الإيمان بهذين الاسمين: أن اللَّه -جل وعلا- ولي الذين آمنوا؛ أي: نصيرهم وظهيرهم، ينصرهم على عدوهم، وكفى به وليًا ونصيرًا؛ فهو السميع لدعائهم وذكرهم، القريب منهم، يعتزون به، ويستنصرونه في قتالهم.

ثم ذكر حديث البراء وقال: وفي هذه الغزوة تنبيه للمسلمين، وتحذير لهم ولمن بعدهم، وعبرة لمن يعتبر على مر العصور؛ أنه بقدر ما يوافق المسلم كتاب ربه وسنة نبيه قولًا وعملًا واعتقادًا، تكون له النصرة والمعونة من اللَّه جل شأنه، وما حصلت تلك الهزيمة في أحد إلا بسبب معصية الرماة ومخالفتهم لأمر نبيهم ﷺ بترك

---

(١) كشف المشكل (٢/ ٢٥٥).
(٢) الشورى: الآية (٢٨).
(٣) البقرة: الآية (٢٥٧).
(٤) الحج: الآية (٧٨).
(٥) الأسماء والصفات (١/ ١٧٤-١٧٥) مكتبة السوادي.

أماكنهم على الجبل، بعد أن رأوا بشائر النصر وهرعوا إلى الغنيمة»[(١)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمقصود أن بحسب متابعة الرسول تكون العزة والكفاية والنصرة، كما أنه بحسب متابعته تكون الهداية والفلاح والنجاة، فاللَّه سبحانه علق سعادة الدارين بمتابعته، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته، فلأتباعه الهدى والأمن والفلاح والعزة، والكفاية والنصرة، والولاية والتأييد، وطيب العيش في الدنيا والآخرة، ولمخالفيه الذلة والصغار، والخوف والضلال، والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة»[(٢)].

وقال: «خص أهل السعادة بالهداية دون غيرهم، فهذه مسألة اختلف الناس فيها، وطال الحجاج من الطرفين، وهي أنه هل لله على الكافر نعمة أم لا؟ فمن ناف محتج بهذه وبقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾[(٣)]، فخص هؤلاء بالإنعام، فدل على أن غيرهم غير منعم عليه، ولقوله لعباده المؤمنين: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾[(٤)]، وبأن الإنعام ينافي الانتقام والعقوبة، فأي نعمة على من خلق للعذاب الأبدي؟ ومن مثبت محتج بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾[(٥)]، وقوله لليهود: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾[(٦)]، وهذا خطاب لهم في حال كفرهم، وبقوله في سورة (النحل) التي عدد فيها نعمه المشتركة على عباده من أولها إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٨٢ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[(٧)].

وهذا نص صريح لا يحتمل صرفًا، واحتجوا بأن البر والفاجر والمؤمن والكافر كلهم يعيش في نعمة اللَّه، وكل أحد مقر لله تعالى بأنه إنما يعيش في نعمته، وهذا معلوم بالاضطرار عند جميع أصناف بني آدم إلا من كابر وجحد حق اللَّه تعالى وكفر بنعمته.

---

(١) النهج الأسنى في شرح أسماء اللَّه الحسنى (٢/ ٤٧-٤٨).

(٢) زاد المعاد (١/ ٣٧).

(٣) النساء: الآية (٦٩).

(٤) البقرة: الآية (١٥٠).

(٥) إبراهيم: الآية (٣٤).

(٦) البقرة: الآية (٤٠).

(٧) النحل: الآيات (٨١-٨٣).

وفصل الخطاب في المسألة: أن النعمة المطلقة مختصة بأهل الإيمان، لا يشركهم فيها سواهم، ومطلق النعمة عام للخليقة كلهم برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فالنعمة المطلقة التامة هي المتصلة بسعادة الأبد وبالنعيم المقيم، فهذه غير مشتركة، ومطلق النعمة عام مشترك. فإذا أراد النافي سلب النعمة المطلقة للكافر أخطأ، وإن أراد إثبات مطلق النعمة أصاب. وبهذا تتفق الأدلة، ويزول النزاع، ويتبين أن كل واحد من الفريقين معه خطأ وصواب، والله الموفق للصواب»[١].

* * *

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٢-٢٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «لما ذكر تعالى أنه ولي المؤمنين؛ ذكر ما يفعل بهم في الآخرة، من دخول الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، التي تسقي تلك البساتين الزاهرة، والأشجار الناظرة المثمرة، لكل زوج بهيج، وكل فاكهة لذيذة.

ولما ذكر أن الكافرين لا مولى لهم؛ ذكر أنهم وُكِلوا إلى أنفسهم، فلم يتصفوا بصفات المروءة، ولا الصفات الإنسانية، بل نزلوا عنها دركات، وصاروا كالأنعام، التي لا عقل لها ولا فضل، بل جلّ همهم ومقصدهم التمتع بلذات الدنيا وشهواتها، فترى حركاتهم الظاهرة والباطنة دائرة حولها، غير متعدية لها إلى ما فيه الخير والسعادة، ولهذا كانت النار مثوى لهم؛ أي: منزلًا معدًا، لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم من عذابها»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ له الألوهة التي لا تنبغي لغيره، ﴿يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ورسوله بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار، يفعل ذلك بهم تكرمة على إيمانهم به وبرسوله. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ يقول -جل ثناؤه-: والذين جحدوا توحيد اللَّه، وكذّبوا رسوله ﷺ يتمتعون في هذه الدنيا بحطامها ورياشها وزينتها الفانية الدارسة، ويأكلون فيها غير مفكّرين في المعاد، ولا معتبرين بما وضع اللَّه لخلقه من الحجج المؤدّية لهم إلى علم توحيد اللَّه ومعرفة صدق رسله، فمثلهم في أكلهم ما يأكلون فيها من غير علم منهم بذلك وغير معرفة، مثل الأنعام من البهائم المسخرة التي لا همة لها إلا في الاعتلاف دون غيره، ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ يقول -جل ثناؤه-: والنار نار جهنم مسكن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦٩).

لهم ومأوى، إليها يصيرون من بعد مماتهم»[١].

قال ابن عاشور: «بيّن اللَّه أن من ولايته المؤمنين أن يعطيهم النعيم الخالد بعد النصر في الدنيا، وأنّ ما أعطاه الكافرين في الدنيا لا عبرة به؛ لأنهم مسلوبون من فهم الإيمان، فحظهم من الدنيا أكل وتمتع، كحظ الأنعام، وعاقبتهم في عالم الخلود العذاب، فقوله: ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ في معنى قوله في سورة (آل عمران): ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝١٩٧﴾[٢]»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم الأكول الذي لا يشبع

* عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**المؤمن يأكل في مِعىً واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء**»[٤].

★ غريب الحديث:

مِعىً: المِعى: مقصور، بكسر الميم والتنوين، ويجمع على أمعاء، وهي المصارين، وتثنيته معيان.

★ فوائد الحديث:

قال ابن عبدالبر: «هذا الحديث دليل على ذم الأكول الذي لا يشبع، وأنها خلة مذمومة، وصفة غير محمودة، وأن القلة من الأكل أحمد وأفضل، وصاحبها عليها ممدوح، وإن كان الأمر كله لله، وبيده وخلقه وصنعه لا شريك له، والحمد لله رب العالمين»[٥].

قال الحافظ: «واختلف في معنى الحديث، فقيل: ليس المراد به ظاهره، وإنما هو مثل ضرب للمؤمن وزهده في الدنيا، والكافر وحرصه عليها، فكان المؤمن لتقلله

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٤٧).
(٢) آل عمران: الآية (١٩٦و١٩٧).
(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٨٩).
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢١)، والبخاري (٩/ ٦٦٩/ ٥٣٩٤)، ومسلم (٣/ ١٦٣١/ ٢٠٦٠)، والترمذي (٤/ ٢٣٤-٢٣٥/ ١٨١٨)، والنسائي في الكبرى (٤/ ١٧٨/ ٦٧٧١)، وابن ماجه (٢/ ١٠٨٤/ ٣٢٥٧).
(٥) فتح البر (٩/ ٤٢٢).

من الدنيا يأكل في معى واحد، والكافر لشدة رغبته فيها واستكثاره منها يأكل في سبعة أمعاء، فليس المراد حقيقة الأمعاء ولا خصوص الأكل، وإنما المراد التقلل من الدنيا والاستكثار منها، فكأنه عبر عن تناول الدنيا بالأكل وعن أسباب ذلك بالأمعاء، ووجه العلاقة ظاهر. وقيل: المعنى: أن المؤمن يأكل الحلال، والكافر يأكل الحرام، والحلال أقل من الحرام في الوجود، نقله ابن التين. ونقل الطحاوي نحو الذي قبله عن أبي جعفر بن أبي عمران فقال: حمل قوم هذا الحديث على الرغبة في الدنيا، كما تقول: فلان يأكل الدنيا أكلًا؛ أي: يرغب فيها ويحرص عليها، فمعنى «**المؤمن يأكل في معى واحد**»؛ أي: يزهد فيها فلا يتناول منها إلا قليلًا، «**والكافر في سبعة**» أي: يرغب فيها فيستكثر منها. وقيل: المراد حض المؤمن على قلة الأكل إذا علم أن كثرة الأكل صفة الكافر؛ فإن نفس المؤمن تنفر من الاتصاف بصفة الكافر، ويدل على أن كثرة الأكل من صفة الكفار قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾.

وقيل: بل هو على ظاهره. ثم اختلفوا في ذلك على أقوال:

أحدها: أنه ورد في شخص بعينه، واللام عهدية لا جنسية، جزم بذلك ابن عبدالبر فقال: لا سبيل إلى حمله على العموم؛ لأن المشاهدة تدفعه، فكم من كافر أقل أكلًا من مؤمن وعكسه، وكم من كافر أسلم فلم يتغير مقدار أكله، قال: وحديث أبي هريرة يدل على أنه ورد في رجل بعينه، ولذلك عقب به مالك الحديث المطلق، وكذا البخاري، فكأنه قيل: هذا إذا كان كافرًا كان يأكل في سبعة أمعاء، فلما أسلم عوفي وبورك له في نفسه، فكفاه جزء من سبعة أجزاء مما كان يكفيه وهو كافر، اهـ.

وقد سبقه إلى ذلك الطحاوي في «مشكل الآثار» فقال: قيل: إن هذا الحديث كان في كافر مخصوص، وهو الذي شرب حلاب سبع شياه، قال: وليس للحديث عندنا محمل غير هذا الوجه، والسابق إلى ذلك أولًا أبو عبيدة، وقد تعقب هذا الحمل بأن ابن عمر راوي الحديث فهم منه العموم، فلذلك منع الذي رآه يأكل كثيرًا من الدخول عليه، واحتج بالحديث. ثم كيف يتأتى حمله على شخص بعينه مع ما تقدم من ترجيح تعدد الواقعة، ويورد الحديث المذكور عقب كل واحدة منها في حق الذي وقع له نحو ذلك.

القول الثاني: أن الحديث خرج مخرج الغالب، وليست حقيقة العدد مرادة، قالوا: تخصيص السبعة للمبالغة في التكثير؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾[1]، والمعنى: أن من شأن المؤمن التقلل من الأكل؛ لاشتغاله بأسباب العبادة، ولعلمه بأن مقصود الشرع من الأكل ما يسد الجوع، ويمسك الرمق، ويعين على العبادة، ولخشيته أيضًا من حساب ما زاد على ذلك، والكافر بخلاف ذلك كله؛ فإنه لا يقف مع مقصود الشرع، بل هو تابع لشهوة نفسه، مسترسل فيها، غير خائف من تبعات الحرام، فصار أكل المؤمن -لما ذكرته- إذا نسب إلى أكل الكافر كأنه بقدر السبع منه، ولا يلزم من هذا اطراده في حق كل مؤمن وكافر، فقد يكون في المؤمنين من يأكل كثيرًا، إما بحسب العادة، وإما لعارض يعرض له من مرض باطن أو لغير ذلك، ويكون في الكفار من يأكل قليلًا، إما لمراعاة الصحة على رأي الأطباء، وإما للرياضة على رأي الرهبان، وإما لعارض كضعف المعدة. قال الطيبي: ومحصل القول أن من شأن المؤمن الحرص على الزهادة والاقتناع بالبلغة، بخلاف الكافر، فإذا وجد مؤمن أو كافر على غير هذا الوصف لا يقدح في الحديث. ومن هذا قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾[2] الآية، وقد يوجد من الزاني نكاح الحرة، ومن الزانية نكاح الحر.

القول الثالث: أن المراد بالمؤمن في هذا الحديث التام الإيمان؛ لأن من حسن إسلامه وكمل إيمانه؛ اشتغل فكره فيما يصير إليه من الموت وما بعده، فيمنعه شدة الخوف وكثرة الفكر والإشفاق على نفسه من استيفاء شهوته، كما ورد في حديث لأبي أمامة رفعه: «**من كثر تفكّره قلّ طعمه، ومن قلّ تفكّره كثر طعمه، وقسا قلبه**»[3]، ويشير إلى ذلك حديث أبي سعيد الصحيح: «**إن هذا المال حلوة خضرة، فمن أخذه بإشراف نفس كان كالذي يأكل ولا يشبع**»[4]، فدل على أن المراد بالمؤمن من يقتصد في مطعمه، وأما الكافر فمن شأنه الشره، فيأكل بالنهم كما تأكل البهيمة، ولا يأكل بالمصلحة لقيام البنية، وقد رد هذا الخطابي وقال: قد ذكر عن

---

(١) لقمان: الآية (٢٧). (٢) النور: الآية (٣).

(٣) حديث موضوع ذكره ابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ٤٨-٤٩). وانظر السلسلة الضعيفة (٩٠).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٩١)، والبخاري (١١/ ٢٩٣/ ٦٤٢٧)، ومسلم (٢/ ٧٢٧/ ١٠٥٢)، والنسائي (٥/ ٩٤-٩٥/ ٢٥٨٠).

غير واحد من أفاضل السلف الأكل الكثير، فلم يكن ذلك نقصًا في إيمانهم.

الرابع: أن المراد أن المؤمن يسمي اللَّه تعالى عند طعامه وشرابه، فلا يشركه الشيطان، فيكفيه القليل، والكافر لا يسمي، فيشركه الشيطان كما تقدم تقريره قبل، وفي صحيح مسلم في حديث مرفوع: «**إن الشيطان يستحل الطعام إن لم يُذكر اسم اللَّه تعالى عليه**»[1].

الخامس: أن المؤمن يقل حرصه على الطعام، فيبارك له فيه، وفي مأكله فيشبع من القليل، والكافر طامح البصر إلى المأكل كالأنعام، فلا يشبعه القليل، وهذا يمكن ضمه إلى الذي قبله، ويجعلان جوابًا واحدًا مركبًا.

السادس: قال النووي: المختار: أن المراد أن بعض المؤمنين يأكل في معى واحد، وأن أكثر الكفار يأكلون في سبعة أمعاء، ولا يلزم أن يكون كل واحد من السبعة مثل معى المؤمن، اهـ. ويدل على تفاوت الأمعاء ما ذكره عياض عن أهل التشريح: أن أمعاء الإنسان سبعة: المعدة، ثم ثلاثة أمعاء بعدها متصلة بها: البواب، ثم الصائم، ثم الرقيق، والثلاثة رقاق، ثم الأعور، والقولون، والمستقيم، وكلها غلاظ. فيكون المعنى: أن الكافر لكونه يأكل بشراهة لا يشبعه إلا ملء أمعائه السبعة، والمؤمن يشبعه ملء معى واحد..

السابع: قال النووي: يحتمل أن يريد بالسبعة في الكافر صفات؛ هي الحرص والشره وطول الأمل والطمع وسوء الطبع والحسد وحب السمن، وبالواحد في المؤمن سد خلته.

الثامن: قال القرطبي: شهوات الطعام سبع: شهوة الطبع، وشهوة النفس، وشهوة العين، وشهوة الفم، وشهوة الأذن، وشهوة الأنف، وشهوة الجوع، وهي الضرورية التي يأكل بها المؤمن، وأما الكافر فيأكل بالجميع. ثم رأيت أصل ما ذكره في كلام القاضي أبي بكر بن العربي ملخصًا، وهو أن الأمعاء السبعة كناية عن الحواس الخمس والشهوة والحاجة. قال العلماء: يؤخذ من الحديث الحض على التقلل من الدنيا، والحث على الزهد فيها، والقناعة بما تيسر منها، وقد كان

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٨٣)، ومسلم (٣/ ١٥٩٧/ ٢٠١٧)، وأبو داود (٤/ ١٣٩/ ٣٧٦٦)، والنسائي في الكبرى (٤/ ١٧٣/ ٦٧٥٤) من حديث حذيفة ﵁.

العقلاء في الجاهلية والإسلام يتمدحون بقلة الأكل، ويذمون كثرة الأكل، كما تقدم في حديث أم زرع أنها قالت في معرض المدح لابن أبي زرع: «ويشبعه ذراع الجفرة»[1]، وقال حاتم الطائي:

فإنك إن أعطيت بطنك سؤله ... وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا»[2].

* * *

(١) أخرجه: البخاري (٩/ ٣١٧-٣١٨/ ٥١٨٩)، ومسلم (٤/ ١٨٩٦-١٩٠٢/ ٢٤٤٨)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٥٤-٣٥٦/ ٩١٣٨) عن عائشة رضي الله عنها في حديث أم زرع الطويل.

(٢) فتح الباري (٩/ ٦٧٢-٦٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد المرسلين وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله ﷻ قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى؟ فإنه رفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة، فإن العذاب يوفر على الكافرين به في معادهم، ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

قال ابن عاشور: «والمراد بالقرية: أهلها، بقرينة قوله: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾، وإنما أجري الإخبار على القرية وضميرها لإفادة الإحاطة بجميع أهلها وجميع أحوالهم، وليكون لإسناد إخراج الرسول إلى القرية كلها وقع من التبعة على جميع أهلها، سواء منهم من تولى أسباب الخروج ومن كان ينظر ولا ينهى، قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾[(٣)]. وهذا إطناب في الوعيد؛ لأن مقام التهديد والتوبيخ يقتضي الإطناب، فمفاد هذه الآية مؤكد لمفاد قوله: ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾، فحصل توكيد ذلك بما هو مقارب له من إهلاك الأمم ذوات القرى والمدن بعد أن شمل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من كان من أهل القرى، وزاد هنا التصريح بأن الذين من قبلهم كانوا أشد قوة منهم؛ ليفهموا أن إهلاك هؤلاء هيّن على الله؛ فإنه لما كان التهديد السابق تهديدًا بعذاب السيف من قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ الآيات، قد يلقي في نفوسهم غرورًا فتعذر استئصالهم بالسيف وهم ما هم من المنعة، وأنهم تمنعهم

---

(١) هود: الآية (٢٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣١١-٣١٢).
(٣) الممتحنة: الآية (٩).

قريتهم مكة وحرمتها بين العرب، فلا يقعدون عن نصرتهم، فربّما استخفّوا بهذا الوعيد، ولم يستكينوا لهذا التهديد، فأعلمهم اللَّه أن قرى كثيرة كانت أشد قوة من قريتهم؛ أهلكهم اللَّه فلم يجدوا نصيرًا. وبهذا يظهر الموقع البديع للتفريع في قوله: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ وزاد أيضًا إجراءُ الإضافة في قوله: ﴿قَرْيَتِكَ﴾، ووصفها بـ﴿الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ لما تفيده إضافة القرية إلى ضمير الرسول ﷺ من تعبير أهلها بمذمة القطيعة، ولما تؤذن به الصلة من تعليل إهلاكهم بسبب إخراجهم الرسول ﷺ من قريته، قال تعالى: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾[1]. وفُرع على الإخبار بإهلاك اللَّه إياهم الإخبارُ بانتفاء جنس الناصر لهم؛ أي: المنقذ لهم من الإهلاك. والمقصود: التذكير بأن أمثال هؤلاء المشركين لم يجدوا دافعًا يدفع عنهم الإهلاك، وذلك تعريض بتأييس المشركين من إلفاء ناصر ينصرهم في حربهم للمسلمين؛ قطعًا لما قد يخالج نفوس المشركين أنهم لا يغلبون لتظاهر قبائل العرب معهم، ولذلك حزبوا الأحزاب في وقعة الخندق. وضمير ﴿لَهُمْ﴾ عائد إلى ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾؛ لأن المراد بالقرى أهلها. والمعنى: أهلكناهم إهلاكًا لا بقاء معه لشيء منهم؛ لأن بقاء شيء منهم نصر لذلك الباقي بنجاته من الإهلاك»[2].

قال الشنقيطي: «وما تضمنته هذه الآية الكريمة من إخراج كفار مكة للنبي ﷺ منها؛ بينه في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾[3] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾[4].

وقد أخرجوه فعلًا بمكرهم المذكور، وبين -جل وعلا- أن النبي ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا من ديارهم لا ذنب لهم يستوجبون به الإخراج إلا الإيمان باللَّه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾[6] أي: يخرجون الرسول وإياكم لأجل إيمانكم بربكم.

---

(١) البقرة: الآية (١٩١).
(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٩٠-٩٢).
(٣) الممتحنة: الآية (١).
(٤) الأنفال: الآية (٣٠).
(٥) الحج: الآية (٤٠).
(٦) الممتحنة: الآية (١).

وقال تعالى في إخراجهم له: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾[1] الآية، إلى غير ذلك من الآيات»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الخروج من مكة وسكناها

* عن أبي سلمة بن عبدالرحمن أن عبدالله بن عدي بن الحمراء الزهري أخبره: أنه سمع النبي ﷺ وهو واقف بالحَزْوَرة في سوق مكة يقول: **«والله إنكِ لخير أرض الله، وأحبّ أرض الله إلى الله ﷻ، ولولا أني أُخرجتُ منكِ ما خرجتُ»**[3].

★ غريب الحديث:

الحَزْوَرة: على وزن القَسْوَرة: موضع بمكة، وقيل: بتشديد الراء، والحزورة في الأصل: التل الصغير؛ سميت بذلك لأنه كان هناك تل صغير. وقيل: سبب تسميتها بذلك غير هذا، والله أعلم.

* عن ابن عباس ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ لمكة: **«ما أطيبكِ من بلد، وأحبك إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيركِ»**[4].

* عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ لما أخبر ورقة بن نوفل بنزول الوحي قال ورقة: يا ليتني فيها جذعًا! ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: **«أو مخرجيّ هم؟»** قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا[5].

★ من فوائد الأحاديث:

قال القاري في قوله: «ولولا أني أُخرجتُ منكِ ما خرجتُ»: «فيه دلالة على أنه لا ينبغي للمؤمن أن يخرج من مكة إلا أن يخرج منها حقيقة أو حكمًا، وهو الضرورة

---

(١) التوبة: الآية (١٣). (٢) أضواء البيان (٧/ ٤٢٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٠٥)، والترمذي (٥/ ٦٧٩/ ٣٩٢٥) وقال: «حسن غريب صحيح»، والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٧٩/ ٤٢٥٢)، وابن ماجه (٢/ ١٠٣٧/ ٣١٠٨)، وصححه ابن حبان (٩/ ٢٢/ ٣٧٠٨)، والحاكم (٣/ ٧) ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه: الترمذي (٥/ ٦٧٩-٦٨٠/ ٣٩٢٦) وقال: «حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وصححه ابن حبان (٩/ ٢٣/ ٣٧٠٩)، والحاكم (١/ ٣٨٦) ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٣٢-٢٣٣)، والبخاري (١/ ٢٨-٢٩/ ٣)، ومسلم (١/ ١٣٩-١٤٢/ ١٦٠).

الدينية أو الدنيوية، ولذا قيل: الدخول فيها سعادة، والخروج منها شقاوة»[١].

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واستبعد النبي ﷺ أن يخرجوه؛ لأنه لم يكن فيه سبب يقتضي الإخراج؛ لما اشتمل عليه من مكارم الأخلاق التي تقدم من خديجة وصفها[٢]. وقد استدل ابن الدغنة بمثل تلك الأوصاف على أن أبا بكر لا يخرج[٣]»[٤].

انظر تتمة فوائده في سورة (الشورى) الآية (٧).

* * *

---

(١) المرقاة (٥/ ٦٠٣).

(٢) يعني قولها: والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ١٩٨)، والبخاري (٤/ ٥٩٩-٦٠٠/ ٢٢٩٧)، وأبو داود (٤/ ٣٤٣/ ٤٠٨٣) مختصراً عن عائشة رضي الله عنها، وفيه عند البخاري: أن ابن الدغنة وجد أبا بكر خارجاً فرده وقال لكفار قريش: إن أبا بكر لا يَخرج مثلُه ولا يُخرَج، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكلّ، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟!.

(٤) فتح الباري (١/ ٣٥).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿أَفَمَن كَانَ﴾ على برهان وحجة وبيان ﴿مِّن﴾ أمر ﴿رَّبِّهِۦ﴾ والعلم بوحدانيته، فهو يعبده على بصيرة منه، بأن له ربًّا يجازيه على طاعته إياه الجنة، وعلى إساءته ومعصيته إياه النار، ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ يقول: كمن حسّن له الشيطان قبيح عمله وسيئه، فأراه جميلًا، فهو على العمل به مقيم، ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ يقول: واتبعوا ما دعتهم إليه أنفسهم من معصية اللَّه وعبادة الأوثان، من غير أن يكون عندهم بما يعملون من ذلك برهان وحجة. وقيل: إن الذي عني بقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ نبينا عليه الصلاة والسلام، وإن الذي عُني بقوله: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ هم المشركون»[(١)].

قال ابن عاشور: «الاستفهام مستعمل في إنكار المماثلة التي يقتضيها حرف التشبيه.

والمقصود من إنكار المشابهة بين هؤلاء وهؤلاء هو تفضيل الفريق الأول، وإنكار زعم المشركين أنهم خير من المؤمنين؛ كما ظهر ذلك عليهم في مواطن كثيرة كقوله: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾[(٢)] ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾[(٣)] ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾[(٤)].

والمراد بالموصولين فريقان كما دل عليه قوله في أحدهما: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾.

وفي التعبير بوصف الرب وإضافته إلى ضمير الفريق تنبيه على زلفى الفريق الذي تمسك بحجة اللَّه.

---

(١) جامع البيان (٢٦/٤٨).

(٢) الأحقاف: الآية (١١).

(٣) المطففين: الآية (٣٢).

(٤) المؤمنون: الآية (١١٠).

ومعنى وصف البينة بأنها من الله : أن اللَّه أرشدهم إليها وحرّك أذهانهم فامتثلوا وأدركوا الحق ، فالحجة حجة في نفسها ، وكونها من عند اللَّه تزكية لها ، وكشف للتردد فيها وإتمام لدلالتها ، كما يظهر الفرق بين أخذ العلم عن متضلع فيه ، وأخذه عن مستضعف فيه وإن كان مصيبًا . .

وهذا الفريق هم المؤمنون ، وهم ثابتون على الدين واثقون بأنهم على الحق . فلا جرم يكون لهم الفوز في الدنيا ؛ لأن اللَّه يسّر لهم أسبابه ، فإن قاتلوا كانوا على ثقة بأنهم على الحق ، وأنهم صائرون إلى إحدى الحسنيين فقويت شجاعتهم ، وإن سالموا عُنوا بتدبير شأنه وما فيه نفع الأمة والدين ، فلم يألوا جهدًا في حسن أعمالهم ، وذلك من آثار أن اللَّه أصلح بالهم وهداهم .

والفريق الذي زيّن له سوء عمله هم المشركون ، فإنهم كانوا في أحوال السوأى من عبادة الأصنام والظلم والعدوان وارتكاب الفواحش ، فلما نبههم اللَّه لفساد أعمالهم بأن أرسل إليهم رسولًا بين لهم صالح الأعمال وسيئاتها ؛ لم يدركوا ذلك ورأوا فسادهم صلاحًا ، فتزينت أعمالهم في أنظارهم ولم يستطيعوا الإقلاع عنها ، وغلب إلفُهم وهواهم على رأيهم ، فلم يعبؤوا باتباع ما هو صلاح لهم في العاجل والآجل ، فذلك معنى قوله : ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ بإيجاز .

وبني فعل ﴿زُيِّنَ﴾ للمجهول ليشمل المزيّنين لهم من أيمة كفرهم ، وما سولته لهم أيضًا عقولهم الآفنة من أفعالهم السيئة اغترارًا بالإلف ، أو اتباعًا للذات العاجلة أو لجلب الرئاسة ؛ أي : زيّن له مزيّن سوء عمله ، وفي هذا البناء إلى المجهول تنبيه لهم أيضًا ليرجعوا إلى أنفسهم فيتأمّلوا فيمن زيّن لهم سوء أعمالهم .

ولما كان تزيين أعمالهم لهم يبعثهم على الدأب عليها ، كان يتولد من ذلك إلفهم بها وولعهم بها ، فتصير لهم أهواء لا يستطيعون مفارقتها ؛ أعقب بقوله : ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ .

والفرق بين الفريقين بيّن للعاقل المتأمل ، بحيث يحق أن يُسأل عن مماثلة الفريقين سؤال من يعلم انتفاء المماثلة ، ويُنكر على من عسى أن يزعمها .

والمراد بانتفاء المماثلة الكناية عن التفاضل ، والمقصود بالفضل ظاهر ، وهو الفريق الذي وقع الثناء عليه»[1] .

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٩٢-٩٤).

وقال أبو السعود: «﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تقرير لتباين حالي فريقي المؤمنين والكافرين، وكون الأولين في أعلى عليين، والآخرين في أسفل سافلين، وبيانٌ لعلة ما لكل منهما من الحال. والهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، وقد قرئ بدونها. و﴿مَن﴾ عبارة عن المؤمنين المتمسكين بأدلة الدين، وجعلُها عبارةً عن النبي عليه الصلاة والسلام، أو عنه وعن المؤمنين لا يساعده النظم الكريم، على أن الموازنة بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم مما يأباه منصبه الجليل. والتقدير: أليس الأمر كما ذُكِر، فمن كان مستقرًّا على حجة ظاهرة، وبرهان نير، من مالكِ أمرِه ومربّيه، وهو القرآن الكريم وسائر المعجزات والحجج العقلية، ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ من الشرك وسائر المعاصي، مع كونه في نفسه أقبحَ القبائح، ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ بسبب ذلك التزيين ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ الزائغة، وانهمكوا في فنون الضلالات، من غير أن يكون لهم شبهةٌ توهم صحةَ ما هم عليه، فضلًا عن حجة تدلّ عليه»[1].

قال ابن كثير: «يقول: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: على بصيرة ويقين في أمر اللّٰه ودينه، بما أنزل اللّٰه في كتابه من الهدى والعلم، وبما جبله اللّٰه عليه من الفطرة المستقيمة، ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ أي: ليس هذا كهذا، كقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾[2]، وكقوله: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾[3]»[4].

* * *

(١) تفسير أبي السعود (٨/ ٩٥).
(٢) الرعد: الآية (١٩).
(٣) الحشر: الآية (٢٠).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣١٢).

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾

★ غريب الآية:

مثل: المثَل والمِثْل: بمعنى واحد، كالشَّبَه والشِّبْه.

آسن: يقال: أَسَنَ الماءُ يَأْسِنُ ويَأْسُنُ أُسُونًا: إذا تغيرت رائحته.

حميمًا: حارًّا شديد الحرارة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: صفة الجنة التي وعدها المتقون، وهم الذين اتقوا في الدنيا عقابه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ يقول -تعالى ذكره- في هذه الجنة التي ذكرها أنهار من ماء غير متغير الريح. .

وقوله: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وفيها أنهار من لبن لم يتغير طعمه؛ لأنه لم يحلب من حيوان فيتغير طعمه بالخروج من الضروع، ولكنه خلقه اللَّه ابتداءً في الأنهار، فهو بهيئته لم يتغير عما خلقه عليه.

وقوله: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ يقول: وفيها أنهار من خمر لذة للشاربين يلتذّون بشربها. .

وقوله: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ يقول: وفيها أنهار من عسل قد صُفّي من القذى، وما يكون في عسل أهل الدنيا قبل التصفية، وإنما أعلم -تعالى ذكره- عباده بوصفه ذلك العسل بأنه مصفى أنه خلق في الأنهار ابتداءً سائلًا جاريًا سيل الماء واللبن المخلوقين فيها، فهو من أجل ذلك مصفّى، قد صفاه اللَّه من الأقذاء التي تكون في عسل أهل الدنيا الذي لا يصفو من الأقذاء إلا بعد التصفية؛ لأنه كان في شمع

فصُفّي منه. وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ولهؤلاء المتقين في هذه الجنة من هذه الأنهار التي ذكرنا من جميع الثمرات التي تتكون على الأشجار، ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يقول: وعفو من اللَّه لهم عن ذنوبهم في الدنيا، ثم تابوا منها، وصفحٌ منه لهم عن العقوبة عليها. وقوله: ﴿ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: أمّن هو في هذه الجنة التي صفتها ما وصفنا، كمن هو خالد في النار. وابتدئ الكلام بصفة الجنة، فقيل: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ ولم يقل: أمّن هو في الجنة. ثم قيل بعد انقضاء الخبر عن الجنة وصفتها: ﴿ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾. وإنما قيل ذلك كذلك، استغناءً بمعرفة السامع الكلام، ولدلالة قوله: ﴿ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ على معنى قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾. وقوله: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: وسُقي هؤلاء الذين هم خلود في النار ماءً قد انتهى حره، ﴿فَقَطَّعَ﴾ ذلك الماء من شدة حره ﴿أَمْعَآءَهُمْ﴾»[1].

قال ابن عاشور: «وهذه الأصناف الخمسة المذكورة في الآية كانت من أفضل ما يتنافسون فيه، ومن أعز ما يتيسر الحصول عليه، فكيف الكثير منها، فكيف إذا كان منها أنهار في الجنة. وتناول هذه الأصناف من التفكّه الذي هو تنعم أهل اليسار والرفاهية. وقد ذكر هنا أربعة أشربة هي أجناس أشربتهم، فكانوا يستجيدون الماء الصافي؛ لأن غالب مياههم من الغُدران والأحواض بالبادية تمتلئ من ماء المطر أو من مرور السيول، فإذا استقرت أيامًا أخذت تتغير بالطحلب، وبما يدخل فيها من الأيدي والدلاء وشرب الوحوش، وقليلٌ البلاد التي تكون مجاورة الأنهار الجارية. وكذلك اللبن كانوا إذا حلبوا وشربوا أبقوا ما استفضلوه إلى وقت آخر؛ لأنهم لا يحلبون إلا حَلبة واحدة أو حلبتين في اليوم، فيقع في طعم اللبن تغيير.

فأما الخمر فكانت قليلة عزيزة عندهم لقلة الأعناب في الحجاز إلا قليلًا في الطائف، فكانت الخمر تجتلب من بلاد الشام ومن بلاد اليمن، وكانت غالية الثمن، وقد ينقطع جلبها زمانًا في فصل الشتاء لعسر السير بها في الطرق، وفي أوقات الحروب أيضًا خوف انتهابها. والعسل هو أيضًا من أشربتهم، قال تعالى في النحل: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾[2] والعرب يقولون: سقاه عسلًا،

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٤٩-٥٠).

(٢) النحل: الآية (٦٩).

ويقولون: أطعمه عسلًا. وكان العسل مرغوبًا فيه يجتلب من بلاد الجبال ذات النبات المستمر. فأما الثمرات فبعضها كثير عندهم كالتمر، وبعضها قليل كالرمان»[١].

قال ابن القيم: «ذكر سبحانه هذه الأجناس الأربعة، ونفى عن كل واحد منها الآفة التي تعرض له في الدنيا، فآفة الماء أن يأسن ويأجن من طول مكثه، وآفة اللبن أن يتغير طعمه إلى الحموضة وأن يصير قارصًا، وآفة الخمر كراهة مذاقها المنافي في اللذة وشربها، وآفة العسل عدم تصفيته، وهذا من آيات الرب تعالى أن تجري أنهار من أجناس لم تجر العادة في الدنيا بإجرائها، ويجريها في غير أخدود، وينفي عنها الآفات التي تمنع كمال اللذة بها، كما ينفي عن خمر الجنة جميع آفات خمر الدنيا من الصداع والغول والإنزاف وعدم اللذة، فهذه خمس آفات من آفات خمر الدنيا..

فإن قيل: فقد وصف سبحانه الأنهار بأنها جارية، ومعلوم أن الماء الجاري لا يأسن، فما فائدة قوله: ﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾؟ قيل: الماء الجاري وإن كان لا يأسن، فإنه إذا أخذ منه شيء وطال مكثه أسن، وماء الجنة لا يعرض له ذلك ولو طال مكثه ما طال.

وتأمل اجتماع هذه الأنهار الأربعة التي هي أفضل أشربة الناس، فهذا لشربهم وطهورهم، وهذا لقوتهم وغذائهم، وهذا للذتهم وسرورهم، وهذا لشفائهم ومنفعتهم، والله أعلم»[٢].

قال الشنقيطي: «أنهار الماء وأنهار الخمر التي ذكرها الله في هذه الآية بين بعض صفاتها في آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾[٣] في آيات كثيرة، وقوله: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١﴾[٤]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١﴾[٥]، وقوله: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢﴾[٦]، وقد بيّن تعالى من صفات خمر الجنة أنها لا تسكر شاربها، ولا تسبب له الصداع الذي هو وجع الرأس في آيات من

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٩٦).
(٢) حادي الأرواح (ص: ١٢٢-١٢٣).
(٣) البقرة: الآية (٢٥).
(٤) الواقعة: الآية (٣١).
(٥) المرسلات: الآية (٤١).
(٦) الغاشية: الآية (١٢).

كتابه، كقوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝﴾[1]، وقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝﴾[2]»[3].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ كقوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ۝﴾[4] وقوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝﴾[5]»[6].

وقال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة تدل على تعدد الأنهار مع تعدد أنواعها. وقد جاءت آية أخرى يوهم ظاهرها أنه نهر واحد، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝﴾[7]»[8].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة أنهار الجنة

* عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار بعد**»[9].

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «يريد بالبحر مثل دجلة والفرات ونحوهما، وبالنهر مثل نهر معقل حيث تشقق من أحدهما، ثم تشقق منه الجداول»[10].

قال القاري: «الظاهر أن المراد بالبحار المذكورة هي أصول الأنهار المسطورة في القرآن، كما قال تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ . وقوله: «**ثم تشقّقُ**»، بحذف إحدى التاءين؛ أي: تفترق الأنهار إلى الجداول بعد تحقق الأنهار إلى بساتين الأبرار، وتحت قصور الأخيار، على أنه قد يقال: المراد بالبحار هي الأنهار، وإنما سميت أنهارًا لجريانها، بخلاف بحار الدنيا؛ فإن الغالب منها أنها في محل القرار»[11].

---

(١) الواقعة: الآية (١٩).
(٢) الصافات: الآية (٤٧).
(٣) أضواء البيان (٧/ ٤٢٥).
(٤) الدخان: الآية (٥٥).
(٥) الرحمن: الآية (٥٢).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣١٤).
(٧) القمر: الآية (٥٤).
(٨) دفع إيهام الاضطراب (ص: ٢٢٩).
(٩) أخرجه: أحمد (٥/ ٥)، والترمذي (٤/ ٦٠٣/ ٢٥٧١) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».
(١٠) شرح الطيبي (١١/ ٣٥٧٢).
(١١) المرقاة (٩/ ٦١٦).

قال المناوي: «وخص هذه الأنهار بالذكر لكونها أفضل أشربة النوع الإنساني؛ فالماء لرِيِّهم وطهورهم، والعسل لشفائهم ونفعهم، واللبن لقوتهم وغذائهم، والخمر للذتهم وسرورهم. وقدم الماء لأنه حياة النفوس، وثنّى بالعسل؛ لأنه شفاء للناس، وثلّث باللبن لأنه الفطرة، وختم بالخمر إشارة إلى أن من حرمه في الدنيا لا يحرمه في الآخرة»[١].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**من آمن باللَّه وبرسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، كان حقًّا على اللَّه أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل اللَّه، أو جلس في أرضه التي ولد فيها**. فقالوا: يا رسول الله! أفلا نبشر الناس؟ قال: **إن في الجنة مائة درجة أعدها اللَّه للمجاهدين في سبيل اللَّه، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم اللَّه فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة** -أراه قال: **وفوقه عرش الرحمن- ومنه تفجر أنهار الجنة**»[٢].

★ غريب الحديث:

الفردوس: الفردوس: هو البستان الذي فيه الكرم والأشجار، والجمع: فراديس، ومنه جنة الفردوس.

تفجر: بصيغة المجهول؛ أي: تشقق وتجري أنهار الجنة.

★ فوائد الحديث:

قوله: «وفوقه عرش الرحمن»:

قال الحافظ: «والضمير في قوله: «**وفوقه**» للفردوس. وقال ابن التين: بل هو راجع إلى الجنة كلها. وتعقب بما في آخر الحديث هنا، ومنه «**تفجر أنهار الجنة**»؛ فإن الضمير للفردوس جزمًا، ولا يستقيم أن يكون للجنان كلها، وإن كان وقع في رواية الكشميهني «**ومنها تفجر**» لأنها خطأ؛ فقد أخرج الإسماعيلي عن الحسن وسفيان عن إبراهيم بن المنذر شيخ البخاري فيه بلفظ: «**ومنه**»، بالضمير المذكر»[٣].

---

(١) فيض القدير (٢/ ٤٦٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٥)، والبخاري (٦/ ١٣/ ٢٧٩٠)، والترمذي (٤/ ٥٨٢/ ٢٥٢٩) مختصراً.

(٣) فتح الباري (١٣/ ٥٠٩).

قال القاري: «هذا يدل على أن الفردوس فوق جميع الجنان، ولذا قال ﷺ تعليمًا للأمة، وتعظيمًا للهمة: «فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس»»[١].

قوله: «ومنه تفجر أنهار الجنة»:

قال ابن الملك: «وهي أربعة مذكورة في قوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ المراد منها أصول أنهار الجنة»[٢].

وفي هذا الحديث من الفوائد: «الحث على ما يحصل به أقصى درجات الجنان، وهي الفردوس الأعلى؛ من المجاهدة مع العدو والنفس والشيطان، وإليه الإشار بقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ »[٣].

وفيه أن «أنهار الجنة تتفجر من أعلاها، ثم تنحدر نازلة إلى أقصى درجات»[٤].

وقال الحافظ: «وفيه عظم الجنة وعظم الفردوس منها»[٥].

قلت: وفي الحديث فوائد غير ما ذكر هنا قد تقدم استيفاء بيانها عند قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ الآية (٧٢) من سورة (التوبة) فلتراجع.

* عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: «جاء رجل يقال له نهيك بن سنان إلى عبدالله فقال: يا أبا عبدالرحمن! كيف تقرأ هذا الحرف؟ ألفًا تجده أم ياءً: من ماء غير آسن أو من ماء غير ياسن؟ قال فقال عبدالله: وكل القرآن قد أحصيت غير هذا؟ قال: إني لأقرأ (المفصل) في ركعة. فقال عبدالله: هذًا كهذِّ الشعر؟ إن أقوامًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع، إن أفضل الصلاة الركوع والسجود، إني لأعلم النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن: سورتين في كل ركعة، ثم قام عبدالله فدخل علقمة في إثره، ثم خرج فقال: قد

---

(١) المرقاة (٩/ ٥٨٤). (٢) مبارق الأزهار (١/ ٣١٤).
(٣) قاله الطيبي في الكاشف (٨/ ٢٦٢٣).
(٤) قاله ابن القيم في حادي الأرواح (ص: ١٢٣).
(٥) فتح الباري (٦/ ١٦).

أخبرني بها»[١].

★ **غريب الحديث:**

أحصيت: من أحصى الشيءَ: إذا عدّه.

هذًّا: بفتح الهاء وبالذال المعجمة المنونة، ومعناه: سرعة القراءة بغير تأمل كما ينشد الشعر. وأصل الهذّ: سرعة الدفع.

لا يجاوز تراقيهم: التراقي: جمع تَرقوة، وهي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق، وهما ترقوتان من الجانبين، ووزنها فعلوة بالفتح، والمعنى: أن قراءتهم لا يرفعها اللَّه ولا يقبلها، فكأنها لم تتجاوز حلوقهم. وقيل: المعنى أنهم لا يعملون بالقرآن، ولا يثابون على قراءته، فلا يحصل لهم غير القراءة.

النظائر: جمع نظيرة: وهي المثل والشبه في الأشكال والأخلاق والأفعال والأقوال. أراد اشتباه بعضها ببعض في الطول. والنظير: المثل في كل شيء.

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «قوله للذي سأل ابن مسعود عن آسن: «كل القرآن قد أحصيته غير هذا الحرف» هذا محمول على أنه فهم منه أنه غير مسترشد في سؤاله؛ إذ لو كان مسترشدًا لوجب جوابه، وهذا ليس بجواب»[٢].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٠)، والبخاري (٩/ ١٠٨-١٠٩/ ٥٠٤٣)، ومسلم (١/ ٥٦٣/ ٨٢٢) واللفظ له، والترمذي (٢/ ٤٩٨/ ٦٠٢)، والنسائي (٢/ ٥١٦-٥١٧/ ١٠٠٤).

(٢) شرح صحيح مسلم (٦/ ٩١).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾

⋆ غريب الآية:

أهواءهم: الأهواء: جمع هَوَى، وهو ما تميل إليه النفس من الباطل. سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في النار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ومن هؤلاء الكفار يا محمد ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، وهو المنافق، فيستمع ما تقول فلا يعيه ولا يفهمه؛ تهاونًا منه بما تتلو عليه من كتاب ربك، وتغافلًا عما تقوله وتدعو إليه من الإيمان، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ قالوا إعلامًا منهم لمن حضر معهم مجلسك من أهل العلم بكتاب الله، وتلاوتك عليهم ما تلوت، وقيلك لهم ما قلت إنه لن يُصغوا أسماعهم لقولك وتلاوتك: ﴿مَاذَا قَالَ﴾ لنا محمد ﴿ءَانِفًا﴾؟»[1].

قال ابن عاشور: «وسياق الكلام يدل على ذم هذا السؤال لقوله عقبه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، فهو سؤال ينبئ عن مذمة سائليه، فإن كان سؤالهم حقيقة أنبأ عن قلة وعيهم لما يسمعونه من النبي ﷺ، فهم يستعيدونه من الذين علموه، فلعل استعادتهم إياه لقصد أن يتدارسوه إذا خلوا مع إخوانهم؛ ليختلقوا مغامر يهيئونها بينهم، أو أن يجيبوا من يسألهم من إخوانهم عما سمعوه في المجلس الذي كانوا فيه. ويجوز أن يكون السؤال على غير حقيقته ناوين به الاستهزاء، يظهرون للمؤمنين اهتمامهم باستعادة ما سمعوه، ويقولون لإخوانهم: إنما نحن مستهزئون، أو أن يكون سؤالهم تعريضًا بأنهم سمعوا كلامًا لا يستبين المراد منه؛ لإدخال الشك في نفوس من يحسون منهم الرغبة في حضور مجالس النبي ﷺ؛

(١) جامع البيان (٢٦/ ٥٠).

تعريضًا لقلة جدوى حضورها .

ويجوز أن تكون الآية أشارت إلى حادثة خاصة ذكر فيها النبي ﷺ المنافقين وأحوالهم، وعَلِم الذين كانوا حاضرين منهم أنهم المعنيّون بذلك، فأرادوا أن يسألوا سؤال استطلاع؛ هل شعر أهل العلم بأن أولئك هم المعنيّون، فيكون مفعول ﴿يَسْتَمِعُ﴾ محذوفًا للعلم به عند النبي ﷺ»[1] .

قال ابن جرير : «وقوله : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ : يقول -تعالى ذكره- : هؤلاء الذين هذه صفتهم هم القوم الذين ختم اللَّه على قلوبهم، فهم لا يهتدون للحق الذي بعث اللَّه به رسوله عليه الصلاة والسلام، ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ يقول : ورفضوا أمر اللَّه، واتبعوا ما دعتهم إليه أنفسهم، فهم لا يرجعون مما هم عليه إلى حقيقة ولا برهان، وسوّى -جل ثناؤه- بين صفة هؤلاء المنافقين وبين المشركين، في أن جميعهم إنما يتبعون فيما هم عليه من فراقهم دين اللَّه، الذي ابتعث به محمدًا ﷺ أهواءهم، فقال في هؤلاء المنافقين : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ ، وقال في أهل الكفر به من أهل الشرك : ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾[2]»[3] .

وقال شيخ الإسلام : «إنه ذم من لم يكن حظه من السماع إلا سماع الصوت دون فهم المعنى واتباعه، فقال تعالى : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾[4]، وقال تعالى : ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾[5]، وقال تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ وأمثال ذلك»[6] .

* * *

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٠٠-١٠١).
(٢) محمد: الآية (١٤).
(٣) جامع البيان (٢٦/ ٥١).
(٤) البقرة: الآية (١٧١).
(٥) الفرقان: الآية (٤٤).
(٦) مجموع الفتاوى (٥/ ١٥٨).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «لما بين اللَّه تعالى أن المنافق يستمع ولا ينتفع، ويستعيد ولا يستفيد؛ بين أن حال المؤمن المهتدي بخلافه، فإنه يستمع فيفهم، ويعمل بما يعلم، والمنافق يستعيد، والمهتدي يفسر ويعيد، وفيه فائدتان:

إحداهما: ما ذكرنا من بيان التباين بين الفريقين.

وثانيهما: قطع عذر المنافق، وإيضاح كونه مذموم الطريقة، فإنه لو قال ما فهمته لغموضه وكونه معمى، يرد عليه ويقول: ليس كذلك، فإن المهتدي فهم واستنبط لوازمه وتوابعه، فذلك لعماء القلوب، لا لخفاء المطلوب»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وأما الذين وفقهم اللَّه لاتباع الحق، وشرح صدورهم للإيمان به وبرسوله؛ من الذين استمعوا إليك يا محمد؛ فإن ما تلوته عليهم وسمعوه منك ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ يقول: زادهم اللَّه بذلك إيمانًا إلى إيمانهم، وبيانًا لحقيقة ما جئتهم به من عند اللَّه إلى البيان الذي كان عندهم. وقد ذُكر أن الذي تلا عليهم رسول اللَّه ﷺ من القرآن، فقال أهل النفاق منهم لأهل الإيمان: ماذا قال آنفًا، زاد اللَّه أهل الهدى منهم هدى، كان بعض ما أنزل اللَّه من القرآن ينسخ بعض ما قد كان الحكم مضى به قبل. .

وقوله: ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وأعطى اللَّه هؤلاء المهتدين تقواهم، وذلك استعماله إياهم تقواهم إياه»[2].

وقال السعدي: «بين حال المهتدين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ بالإيمان والانقياد، واتباع ما يرضي اللَّه ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ شكرًا منه تعالى لهم على ذلك،

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٥٩-٦٠).

(٢) جامع البيان (٢٦/ ٥١-٥٢).

﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي: وفقهم للخير، وحفظهم من الشر، فذكر للمهتدين جزاءين: العلم النافع، والعمل الصالح»[١].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٧٢).

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ۝١٨﴾

★ غريب الآية:

أشراطها: علاماتها. واحدها: شَرَط، وأصله: الأعلام. وأَشْرَطَ فلان نفسَهُ لأمر كذا؛ أي: أَعْلَمَها له وأعدَّها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فهل ينظر هؤلاء المكذبون بآيات اللَّه من أهل الكفر والنفاق إلا الساعة التي وعد اللَّه خلقه بعثهم فيها من قبورهم أحياء؛ أن تجيئهم فجأة لا يشعرون بمجيئها»[1].

قال القرطبي: «وهذا وعيد للكفار»[2].

قال ابن كثير: «﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: أمارات اقترابها، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧﴾[3]، وكقوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾[4]، وقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[5]، وقوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾[6]، فبعثة رسول اللَّه ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل الذي أكمل اللَّه به الدين، وأقام به الحجة على العالمين، وقد أخبر صلوات اللَّه وسلامه عليه بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه مما لم يؤته نبي قبله، كما هو مبسوط في موضعه.

وقال الحسن البصري: بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة. وهو كما قال، ولهذا

(١) جامع البيان (٢٦/ ٥٢).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٢٤٠).
(٣) النجم: الآيتان (٥٦و٥٧).
(٤) القمر: الآية (١).
(٥) النحل: الآية (١).
(٦) الأنبياء: الآية (١).

جاء في أسمائه ﷺ: أنه نبي التوبة، ونبي الملحمة[١]، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه، والعاقب الذي ليس بعده نبي[٢]»[٣].

وقال الشنقيطي: « ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ التحقيق إن شاء اللَّه تعالى، في معنى هذه الآية الكريمة: أن الكفار يوم القيامة إذا جاءتهم الساعة؛ يتذكرون ويؤمنون باللَّه ورسوله، وأن الإيمان في ذلك الوقت لا ينفعهم لفوات وقته، فقوله: ﴿ذِكْرَاهُمْ﴾ مبتدأ خبره ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ﴾ أي: كيف تنفعهم ذكراهم وإيمانهم باللَّه وقد فات الوقت الذي يقبل فيه الإيمان. والضمير المرفوع في ﴿جَاءَتْهُمْ﴾ عائد إلى الساعة التي هي القيامة.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الكفار يوم القيامة يؤمنون ولا ينفعهم إيمانهم؛ جاء موضحًا في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٢٣﴾[٥]. وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة (الأعراف) في الكلام على قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾[٦].

فظهر أن قوله: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ على حذف مضاف؛ أي: أنى لهم نفع ذكراهم.

والذكرى اسم مصدر بمعنى الاتعاظ الحامل على الإيمان»[٧].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر أشراط الساعة

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين،

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٥)، ومسلم (٤/ ١٨٢٨-١٨٢٩/ ٢٣٥٥) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٨٠)، والبخاري (٦/ ٦٨٨/ ٣٥٣٢)، ومسلم (٤/ ١٨٢٨/ ٢٣٥٤)، والترمذي (٥/ ١٢٤/ ٢٨٤٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٨٩/ ١١٥٩٠) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣١٥).

(٤) سبأ: الآية (٥٢).

(٥) الفجر: الآية (٢٣).

(٦) الأعراف: الآية (٥٣).

(٧) أضواء البيان (٧/ ٤٢٦-٤٢٧).

قال: وضم السبابة والوسطى»[١].

★ فوائد الحديث:

قال الحليمي: «ومعنى قول النبي ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»؛ أي: أني أنا النبي الآخر، فلا يليني نبي آخر، وإنما تليني القيامة وهي مع ذلك دانية؛ لأن شرائطها متتابعة بيني وبينها، وذلك أنه أشار بإصبعيه المتجاورين إيماؤهما. إلا أن توليد الأنبياء عليهم السلام قد انقطع، فليس يتراخى الأمر بعده إلى أن تدرس شريعته ويبعث بعده نبي، وإنما تليه القيامة كما تلي السبابة الوسطى، وليست بينهما أصبع، وهذا لا يوجب أن يكون له علم بالساعة نفسها؛ لأن ما بين أول الأشراط وما بين آخر الأشراط والساعة غير معلوم، وإذا لم يكن معلومًا لم يوجب العلم بأول الأشراط ولا بدونها العلم بالساعة. والله أعلم.

وهذه الأشراط قد ذكرها الله جملة في القرآن فقال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: دنت، وأولها النبي ﷺ؛ لأنه نبي آخر الزمان، وقد بعث وليس بينه وبين القيامة نبي، ثم بين النبي ﷺ ما يليه من الأشراط»[٢].

قلت: وقد قام النبي ﷺ ببيان هذه الأشراط التي أجمل الله تعالى ذكرها في كتابه بيانًا شافيًا كافيًا، وفصل أمرها للأمة تفصيلًا بليغًا وافيًا، لتكون على حذر تام مستمر من أمر الساعة وقيامها، وحتى لا تصيبهم غفلة فتبغتهم وهم عنها ساهون.

وقبل الشروع في ذكر هذه الأشراط -التي أزاح النبي ﷺ النقاب عنها ورفع حجابها بتفصيل جملتها-؛ لا بد قبل الشروع في ذلك من التنبيه على بعض المسائل المهمة بين يدي هذا الموضوع، فنقول وبالله التوفيق:

المسألة الأولى: في بيان وجوب الإيمان والتصديق بكل ما أخبر به النبي ﷺ:

قال الموفق ابن قدامة المقدسي: «ويجب الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ، وصح به النقل عنه فيما شهدناه أو غاب عنا، نعلم أنه حق وصدق، وسواء في ذلك

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٣٠)، والبخاري (١١/ ٤٢٢/ ٦٥٠٤)، ومسلم (٤/ ٢٢٦٨-٢٢٦٩/ ٢٩٥١[١٣٥]) والسياق له، والترمذي (٤/ ٤٣٠/ ٢٢١٤).

(٢) المنهاج في شعب الإيمان (١/ ٣٤١).

ما عقلناه وجهلناه ولم نطلع على حقيقة معناه؛ مثل حديث الإسراء والمعراج، وكان يقظة لا منامًا، فإن قريشًا أنكرته وأكبرته، ولم تنكر المنامات. ومن ذلك أيضًا أن ملك الموت لما جاء إلى موسى عليه السلام ليقبض روحه لطمه ففقأ عينه، فرجع إلى ربه فرد عليه عينه[١].

ومن ذلك أشراط الساعة، مثل خروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام فيقتله، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها، وأشباه ذلك مما صح به النقل»[٢].

والتصديق بأشراط الساعة «داخل في الإيمان بأن محمدًا رسول الله ﷺ؛ لأن من الإيمان به ﷺ تصديقه فيما أخبر به، وداخل في الإيمان بالغيب الذي امتدح الله المؤمنين به بقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾[٣]، وداخل في الإيمان بالقدر، فإن سبيل علم الخلق بما قدره الله أمران:

أحدهما: وقوع الشيء، فكل ما كان ووقع علمنا أن الله قد شاءه؛ لأنه لا يكون ولا يقع إلا ما شاءه الله، وما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن.

الثاني: الإخبار بالشيء الماضي الذي وقع، وبالشيء المستقبل قبل وقوعه من الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ، فكل ما ثبت إخباره به من الأخبار في الماضي؛ علمنا بأنه كان على وفق خبره ﷺ، وكل ما ثبت إخباره عنه مما يقع في المستقبل؛ نعلم أن الله قد شاءه، وأنه لا بد وأن يقع على وفق خبره، كإخباره ﷺ بنزول عيسى عليه الصلاة والسلام في آخر الزمان، وإخباره بخروج المهدي، وبخروج الدجال، وغير ذلك من الأخبار»[٤].

فصل في بيان بعض ثمار وفوائد وقوع ما أخبر به ﷺ من المغيبات:

قال حمود التويجري: «وكل شيء أخبر النبي ﷺ أنه سيكون بعده فوقع الأمر فيه

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٩)، والبخاري (٣/ ٢٦٥/ ١٣٣٩)، ومسلم (٤/ ١٨٤٢-١٨٤٣/ ٢٣٧٢)، والنسائي (٤/ ٤٢٤-٤٢٥/ ٢٠٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) لمعة الاعتقاد (ص: ٢٨-٣١).

(٣) البقرة: الآيات (١-٣).

(٤) قاله عبدالمحسن العباد في «عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر» (ص: ٢٢٢).

طبق ما أخبر به ﷺ؛ فهو من معجزاته وأعلام نبوته، وظهور المعجزات بعد زمان النبوة -ولا سيما في هذه الأزمان البعيدة من زمنه ﷺ- مما يزيد المؤمنين إيمانًا به وتصديقًا بما أخبر به ﷺ من الغيوب الماضية والغيوب الآتية»[1].

المسألة الثانية: في بيان إفادة خبر الواحد العلم ووجوب الأخذ به في الإيمان بالغيبيات:

ليس التواتر في الإخبار عن المغيبات شرطًا لوجوب الإيمان بها، كما قد زعم ذلك بعض أهل البدع، ومن تبعهم من المتفقهة المقلدين وغيرهم من الجهلة العصريين وزنادقتهم؛ بل كل ما صح سنده إلى النبي ﷺ فالإيمان به واجب؛ سواء كان متواترًا، أو من أخبار الآحاد، وهذا قول أهل السنة والجماعة، وقد بسطنا القول في ذكر الحجج الدالة على إفادة أخبار الآحاد العلم القطعي اليقيني، والدالة على وجوب الأخذ بها في العقائد، والعمل بمقتضاها في الأحكام؛ في مقدمة كتابنا «المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات»[2] بما أغنى عن إعادة ذلك هنا، والله ولي التوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المسألة الثالثة: فيما ينبغي تجنبه من تنزيل النصوص على واقع معين:

قال محمد بن إسماعيل المقدم: «قد كان من هدي السلف الصالح رحمهم الله أنهم لا ينزلون أحاديث الفتن على واقع حاضر، وإنما يرون أصدق تفسير لها، وقوعها مطابقة لخبر النبي ﷺ، ولذلك نلاحظ أن عامة شارحي الأحاديث الشريفة كانوا يفيضون في شرحها، واستنباط الأحكام منها، حتى إذا أتوا على أبواب الفتن، وأشراط الساعة، أمسكوا أو اقتصدوا في شرحها للغاية، وربما اقتصروا على تحقيق الحديث، واكتفوا بشرح غريبه، بخلاف ما يحصل من بعض المتعجلين المتكلفين اليوم، بمجرد ظهور بوادر لأحداث معينة، سياسية كانت أو عسكرية، محلية أو عالمية؛ تستخفهم البُداءات، وتستفزهم الانفعالات، فيسقطون الأحاديث على أشخاص معينين، أو وقائع معينة، ثم لا تلبث الحقيقة أن تبين، ويكتشفوا أنهم تهوروا، وتعجلوا. وربما كان دافعهم نبيلًا، فهم يحسبون أن

---

(١) إتحاف الجماعة (١/ ٦-٧).

(٢) (١/ ٤٧٨-٥٠١).

إسقاط النبوءات على الواقع مما يزيد يقين المسلمين، ويقوي إيمانهم، ويمكنهم من إقامة الحجة على المكذبين بنبوة رسول اللَّه ﷺ وفي هذا تأييد لدين الحق، نقول: نعم، ولكن بالشرط المذكور آنفًا؛ لأن العجلة في مثل ذلك قد تأتي في عكس ما يشتهون؛ إذ لو خيبت الأحداث -إذا اكتملت- ظنهم، ربما كانت النتيجة عكسية عند الكفار، وعند ضعاف المسلمين»[١].

المسألة الرابعة: في تجنب تعيين التاريخ للملاحم والفتن التي جاءت النصوص بالإخبار عن وقوعها:

قال القرطبي: «والذي ينبغي أن يقال به في هذا الباب: أن ما أخبر به النبي ﷺ من الفتن والكوائن؛ أن ذلك يكون، وتعيين الزمان في ذلك من سنة كذا؛ يحتاج إلى طريق صحيح يقطع العذر، وإنما ذلك كوقت قيام الساعة، فلا يعلم أحد أي سنة هي، ولا أي شهر، أما أنها تكون في يوم الجمعة في آخر ساعة منه، وهي الساعة التي خلق اللَّه فيها آدم عليه السلام، ولكن أي جمعة؟ لا يعلم تعيين ذلك اليوم إلا اللَّه وحده لا شريك له، وكذلك ما يكون من الأشراط؛ تعيين الزمان لها لا يعلم، واللَّه أعلم»[٢].

المسألة الخامسة: في بيان أن كون الشيء من أشراط الساعة لا يعني أنه حرام أو ممنوع:

قال النووي: «ليس كل ما أخبر ﷺ بكونه من علامات الساعة، يكون محرمًا أو مذمومًا، فإن تطاول الرعاء في البنيان، وفشو المال، وكون خمسين امرأة لهن قيم واحد؛ ليس بحرام بلا شك، وإنما هذه علامات، والعلامة لا يشترط فيها شيء من ذلك، بل تكون بالخير والشر، والمباح والمحرم والواجب وغيره، واللَّه أعلم»[٣].

المسألة السادسة: في بيان حكمة تقديم الأشراط بين يدي الساعة:

قال السفاريني: «لما كان أمر الساعة شديدًا، وهولها مزيدًا، وأمرها بعيدًا؛ كان الاهتمام بشأنها أكثر من غيرها، ولهذا أكثر النبي ﷺ من بيان أشراطها

---

(١) المهدي وفقه أشراط الساعة (ص: ٧٠٥-٧٠٦).
(٢) التذكرة (٢/ ٤٧٧-٤٧٨).
(٣) شرح صحيح مسلم (١/ ١٤٣).

وأماراتها، وأخبر عما بين يديها من الفتن البعيدة والقريبة، ونبه أمته وحذرهم ليتأهبوا لتلك العقبة الشديدة»[١].

قال الحليمي: «ثم إن الحِكَم في تقديم الأشراط؛ دلالة الناس عليها، وإخبارهم بأن منها ما إذا وقع لم ينفع نفسا إيمانها، بتنبيه الناس عن رقداتهم، وحثهم على الاحتياط لأنفسهم بالتوبة والإنابة؛ لئلا يباغتوا بالحول بينهم وبين تدارك الفوارط منهم، وليكونوا عند ظهور هذه الأشراط شيئًا فشيئًا، كالمريض إذا صادف إشراف الموت عليه، شيئًا فشيئًا، فإنه لا يألوا في ذلك الوقت أن يتوب ويوصي، وينظر لنفسه ولورثته وسائر أصحاب الوسائل عنده، ولذلك ينبغي للناس أن يكونوا بعد ظهور أشراط الساعة قد نظروا لأنفسهم، وانقطعوا عن الدنيا، واستبقوا الساعة واستعدوا لها، وباللَّه التوفيق»[٢].

المسألة السابعة: في بيان جملة أقسام أشراط الساعة الواردة في الكتاب والسنة:

اعلم -رحمك الله- أنه قد اختلف العلماء في تقسيم الأشراط اختلافًا يسيرًا، فمنهم من اعتبر في تقسيمها نوعها، فذهب إلى أن منها ما هو معتاد الوقوع، ومنها ما هو مستغرب خارق للعادة غير معتاد، كخروج الدابة وطلوع الشمس من مغربها.
ومنهم من اعتبر في تقسيمها مكان ظهورها ووقوعها، فجعلها على قسمين: أشراط سماوية وهي المتعلقة بالأجرام السماوية كانشقاق القمر، وانتفاخ الأهلة، وطلوع الشمس من مغربها، وأخرى أرضية، وهي ما عدا الأولى، وهي كثيرة جدًّا. ومنهم من اعتبر في تقسيمها زمان ظهورها فذهب إلى أنها على ثلاثة أقسام: أشراط ظهرت وانقرضت؛ كموت النبي ﷺ، وقسم وقعت مبادئه أو ظهر الكثير منه ولم يستحكم؛ بل لا يزال ظهوره في تزايد حتى يستحكم، وقسم منها لم يقع شيء منه حتى الآن. ومنهم من ذهب إلى أنها على قسمين: صغرى وكبرى وهو أشهر التقسيمات، وعليه جرى عمل أكثر أهل العلم.

قال السخاوي: «والحاصل أن العلامات التي أخبر الشارع بأنها ستقع بعده قبل

---

(١) المسيح الدجال (ص: ٨).

(٢) المنهاج في شعب الإيمان (١/ ٣٤٢-٣٤٣)، وانظر التذكرة (ص: ٦٢٤-٦٢٥).

قيام الساعة مما في بعضها ما هو غير مذموم على أقسام:

أحدها: ما وقع على وفق ما قال: كتمني رؤيته ﷺ، واقتتال الفئتين العظيمتين، وقتال الترك، وكثرة الهرج، وظهور الفتن، وتطاول الناس في البنيان، وتمني بعض الناس الموت، وأخذ أمته بأخذ القرون قبلها، مما هو مندرج في علامات النبوة، حيث وقع طبقًا للخبر. وفي كتاب «دلائل النبوة» للبيهقي وغيره مما هو بالأسانيد المقبولة الكثيرة.

ثانيها: وقعت مبادئه أو ظهر الكثير منه ولم يستحكم، والمراد ما استحكم بحيث لم يبق مما يقابله إلا النادر، فهذا هو الذي يعقبه قيام الساعة. ومن هذا القسم تقارب الزمان، وكثرة الزلازل، وإلقاء الشح، وخروج الدجالين الكذابين، وتوسيد الأمر إلى غير أهله، وعدم قسم الميراث.

ثالثها: لم يقع منه إلى الآن شيء، كطلوع الشمس من مغربها، وإعلام الشجر وغيره باختفاء اليهود خلفه.

وهذا التقسيم أحسن من قول بعضهم: من العلامات ما هو أمارة لمجرد القرب كالدخان والخسف، ومنها ما هو أمارة للحصول كالدجال، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، والنار التي تحشر الناس، نسأل اللَّه السلامة والخلاص إلى انتهاء القيامة»[1].

المسألة الثامنة: ترتيب الأشراط:

وأما ترتيب هذه الأشراط والأمارات؛ فالقول فيها كالقول في أقسامها، بل هو تابع لها؛ فإن ترتيبها وتصنيفها عند العلماء فرع تقسيمها، وقد تبين أنه ليس لهذا ولا ذاك ضابط يعول عليه عند الرجوع إليه، وإنما هو النظر والاجتهاد، واللَّه ولي التوفيق. وحسبي هنا أن آتي على ذكر معظم ما صحت به الأحاديث من الأشراط، غير متقيد بتقسيم معين، متجنبًا للتكرار قدر الإمكان، مراعيًا للاختصار، مقتصرًا على ما لم يذكر من هذه الأشراط في حديث حذيفة بن أسيد، المتضمن لذكر الآيات العشر العظام، المتقدم ذكرها في مواضعها من كتابنا هذا، واللَّه ولي

(١) القناعة (ص: ١٣٢).

التوفيق. ودونك هذه الأشراط:

فمنها: ارتفاع الأسافل وغير ذوي الأقدار من الرجال والنساء:

* عن أبي هريرة ﷺ قال: «كان النبي ﷺ بارزًا يومًا للناس، فأتاه رجل فقال: ما الإيمان؟ قال: **الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وبلقائه ورسله، وتؤمن بالبعث**. قال: ما الإسلام؟ قال: **الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان**. قال: ما الإحسان؟ قال: **أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**. قال: متى الساعة؟ قال: **ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربها، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان، في خمس لا يعلمهن إلا الله**. ثم تلا النبي ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[1] الآية. ثم أدبر، فقال: ردوه، فلم يروا شيئًا. فقال: **هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم**»[2].

★ غريب الحديث:

الأمة: الأمة هنا: هي الجارية المستولدة، وربها سيدها.

رعاة: بالضم، جمع راعي الغنم.

البهم: بضم الباء، جمع بهيم، وهو الأسود الذي لا يخالطه لون آخر.

★ فوائد الحديث:

قوله: «متى الساعة؟»:

قال القرطبي: «مقصود هذا السؤال امتناع السامعين من السؤال عنها؛ إذ قد كانوا أكثروا السؤال عن تعيين وقتها، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾[3] و﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾[4]، وهو كثير في الكتاب والسنة، فلما أجابه

---

(١) لقمان: الآية (٣٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٢٦)، والبخاري (١/ ١٥٣/ ٥٠)، ومسلم (١/ ٣٩/ ٩)، وأبو داود (٥/ ٧٤/ ٤٦٩٨)، والنسائي (٨/ ٤٧٥-٤٧٦/ ٥٠٠٦)، وابن ماجه (١/ ٢٥/ ٦٤).

(٣) الأعراف: الآية (١٨٧).

(٤) الأحزاب: الآية (٦٣).

النبي ﷺ بأنه لا يعلمها إلا الله؛ يئس السائلون من معرفتها، فانكفوا عن السؤال عنها، وهذا بخلاف الأسئلة الأخر؛ فإن مقصودها استخراج الأجوبة عنها ليستعملها السامعون، ويعمل بها العاملون»[١].

قوله: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»:

قال ابن كثير: «يعني قد استوى فيها علم كل مسؤول، وسائل بطريق الأولى والأحرى؛ لأنه إن كانت الألف واللام في «**المسؤول**» و«**السائل**» للعهد عائدة عليه وعلى جبريل، فكل أحد ممن سواهما لا يعلم ذلك بطريق الأولى والأحرى، وإن كانت للجنس عمت بطريق اللفظ، والله أعلم»[٢].

قال ابن رجب: «وقوله: «**وسأخبرك عن أشراطها**»: لما كان العلم بوقت الساعة المسؤول عنه غير ممكن؛ انتقل منه إلى ذكر أشراطها، وهي علامتها الدالة على اقترابها، وهذا كما سأله الأعرابي: متى الساعة؟ فقال: «**ما أعددت لها؟**»[٣]، فأعرض عن الجواب عن الساعة إلى ذكر الاستعداد لها؛ لأنه هو المأمور به، وهو الذي يعني السائل وغيره، وينبغي الاهتمام به.

وأما جبريل؛ فالظاهر -والله أعلم- أنه أراد بسؤاله عن الساعة إظهار انفراد الله بعلمها دون خلقه حتى ينقطع السؤال عنها، فقد كان النبي ﷺ كثيرًا يسأل عنها حتى نزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾[٤]، ونزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾[٥].

وفي رواية عمر بن الخطاب لهذا الحديث: إن جبريل قال للنبي ﷺ: «**أخبرني عن أماراتها**» وقد ذكر لها النبي ﷺ في هذا الحديث علامتين: إحداهما: أن تلد الأمة ربها، والمراد بالرب: السيد، واختلف في معنى ذلك، فقيل: المراد أن يكثر فتوح بلاد الكفر والسبي، فيكثر السراري، فتلد الإماء الأولاد من سادتهن، وولد السيد بمنزلة السيد، فتصير الأمة ولدت ربها بهذا الاعتبار.

---

(١) المفهم (١/ ١٥٤-١٥٥). (٢) النهاية (١/ ٢٠٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٠)، والبخاري (١٠/ ٦٧٧/ ٦١٦٧)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٢/ ٢٦٣٩)، وأبو داود (٥/ ٣٤٥/ ٥١٢٧)، والترمذي (٤/ ٥١٣/ ٢٣٨٥) عن أنس رضي الله عنه.

(٤) النازعات: الآيات (٤٢-٤٤).

(٥) الأعراف: الآية (١٨٧).

ومن هؤلاء من قال: أريد أن الملوك يتخذون السراري، فتلد الإماء الملوك، وهم كالأرباب للناس.

ومنهم من قال: إن العجم تلد العرب، والعرب كالأرباب للعجم، قاله وكيع بن الجراح. .

وقيل: المراد بقوله: «**تلد الأمة ربها**» كثرة الفتوح في بلاد الكفار، وجلب الرقيق حتى تجلب المرأة من بلد الكفر صغيرة فتعتق في بلد الإسلام، ثم تجلب أمها بعدها فتشتريها البنت وتستخدمها جاهلة بكونها أمها، وقد وقع ذلك في الإسلام.

وهذا القول مثل الذي قبله؛ في أن من أشراط الساعة كثرة الفتوح وجلب الرقيق من بلاد الكفر.

وقيل: المراد بقوله «**أن تلد الأمة ربها**»: أن يكثر العقوق من الأولاد حتى يعامل الولد أمه معاملة أمته بالسب والإهانة، ويشهد لهذا: أنه جاء في رواية: «**أن تلد المرأة ربها**» فلم يخصه بالأمة.

وقيل: المراد بقوله «**أن تلد الأمة ربها**»: أن يكثر الجهل، ويقل العلم، حتى تباع أمهات الأولاد ولهن أولاد، فربما تداولها أيدي الملاك، وتطاولت المدد، حتى يشتريها بعض أولادها ويستخدمها جاهلًا بأنها أمه. وفي هذا القول نظر وبعد.

وعلى هذا القول والذي قبله: فالذي من أشراط الساعة هو كثرة الجهل وقلة العلم، وفساد الأعمال بظهور العقوق، والاستهانة ببيع ما لا يجوز بيعه.

وقيل: بل أراد بولادة الأمة ربها أنه يكثر عدول الناس عن النكاح إلى التسري فقط، والله أعلم.

والعلامة الثانية: أن يتطاول رعاة الإبل البهم في البنيان. . وتطاولهم في البنيان: هو بمصيرهم ملوكًا ذوي ثروة وأموال. .

وهذا وقع في زمن بني أمية حيث كانوا يستعملون الأعراب الحفاة على الناس، ويستعينون بهم على أعمالهم، ثم لما انتقل الملك عن العرب إلى غيرهم انتقل إلى من كان ببلاده كذلك.

وفي هذا إشارة إلى أن من أشراط الساعة فساد ولاة الأمور بجهلهم وجفائهم،

ويشهد لهذا الحديثُ الآخر: «**إذا وكل الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»[(١)].

والتطاول في البنيان من أشراط الساعة أيضًا. وقد خرج البخاري ومسلم من رواية أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يتطاول الناس في البنيان**»[(٢)]، وقد كان بناء النبي ﷺ للمساجد والبيوت قصيرًا»[(٣)].

قال القرطبي: «وقد اقتصر في هذا الحديث على ذكر بعض الأشراط التي يكون وقوعها قريبًا من زمانه، وإلا فالشروط كثيرة، وهي أكثر مما ذكر هنا، كما دل عليه الكتاب والسنة، ثم إنها منقسمة إلى ما يكون من نوع المعتاد، كهذه الأشراط المذكورة في هذا الحديث، وكرفع العلم، وظهور الجهل، وكثرة الزنى، وشرب الخمر، إلى غير ذلك، وأما التي ليست من النوع المعتاد: فكخروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم، وخروج يأجوج ومأجوج، ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، والدخان، والنار التي تسوق الناس وتحشرهم على ما يأتي»[(٤)].

ومنها: تكلم الرويبضة وتخوين الأمين وائتمان الخائن:

* عن أبي هريرة ﵁ قال: «بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم جاءه أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول اللَّه ﷺ يحدث. فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال. وقال بعضهم: بل لم يسمع. حتى إذا قضى حديثه قال: **أين أراه السائل عن الساعة؟** قال: ها أنا يا رسول الله! قال: **فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة**، قال: كيف إضاعتها؟ قال: **إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»[(٥)].

★ غريب الحديث:

وسد: معناه: أسند، وأصله: الوسادة.

* عن أنس بن مالك ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن بين يدي الساعة سنين خداعة، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويخون فيها الأمين، ويؤتمن فيها الخائن، ويتكلم فيها الرويبضة**. قالوا: يا رسول الله! وما الرويبضة؟ قال:

---

(١) سيأتي تخريجه قريباً.
(٢) سيأتي تخريجه قريباً.
(٣) فتح الباري (١/ ٢١٦-٢٢٠).
(٤) المفهم (١/ ١٥٥).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦١)، والبخاري (١/ ١٨٨/ ٥٩).

الفويسق يتكلم في أمر العامة»[1].

* عن حذيفة بن اليمان ﷺ أن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع»[2].

★ غريب الحديثين:

خوادعة: جمع خادعة؛ أي: قليلة الخير، فواسد.

الرويبضة: تصغير الرابضة، وهو العاجز الذي ربض عن معالي الأمور، وقعد عن طلبها، وزيادة التاء للمبالغة، والتافه الخسيس الحقير[3].

لكع: اللكع عند العرب: العبد، ثم استعمل في الحمق والذم، يقال للرجل: لُكَعُ، والمرأة: لَكاعِ. وقد لَكِعَ الرجلُ يلكَع لَكعًا، فهو ألكع؛ أي: اللئيم الوسخ[4].

★ فوائد الأحاديث:

قال ابن بطال: «وإنما قصد ﷺ بذلك الخبر: أن من أمارة قيام الساعة ارتفاع الأسافل وغير ذوي الأخطار من الرجال والنساء. . ومن ارتفاع وضعاء الرجال ومن لا خطر له منهم، يحول الذين كانوا حفاة عراة عالة من الغنم؛ رعاة أهل الشرف في البنيان من الغنى وكثرة المال من بعد العيلة والفاقة، وهذا نظير قوله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع**» يعني العبيد والسفلة من الناس»[5].

وقال: «وقوله: «**إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة**» هو كلام مجمل، أحب الأعرابي السائل النبي ﷺ شرحه له فقال له: «كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: إذا أسند الأمر إلى غير أهله». فأجابه ﷺ بجواب عام دخل فيه تضييع الأمانة، وما

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٢٠)، وأبو يعلى (٦/ ٣٧٨/ ٣٧١٥)، والبزار [كشف الأستار (٤/ ١٣٢/ ٣٣٧٣)]، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٨٤) وقال: «رواه البزار، وقد صرح ابن إسحاق بالسماع من عبدالله بن دينار، وبقية رجاله ثقات»، وجود إسناده الحافظ في الفتح (١٣/ ١٠٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٨٩)، والترمذي (٤/ ٤٢٧-٤٢٨/ ٢٢٠٩) وقال: «حديث حسن غريب». وصححه الألباني (صحيح الجامع [٧٤٣١])

(٣) النهاية (٢/ ١٨٥).

(٤) النهاية (٤/ ٢٦٨) بتصرف.

(٥) شرح ابن بطال (١/ ١١٥-١١٦).

كان في معناها مما لا يجري على طريق الحق، كاتخاذ العلماء الجهال عند موت أهل العلم، واتخاذ ولاة الجور وحكام الجور عند غلبة الباطل وأهله، وقد ذكر ابن أبي شيبة من حديث المقبري عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «**سيأتي على الناس سنوات خداعات، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق الرويبضة**. قيل: وما الرويبضة؟ قال: **الرجل التافه يتكلم في أمر العامة**»(١).

وقد رأينا أكثر هذه العلامات، وما بقي منها فغير بعيد، روى ابن عيينة عن عبدالعزيز بن رفيع قال: سمعت شداد بن معقل قال: سمعت ابن مسعود يقول: أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة(٢)»(٣).

وقال: «قوله: «**إذا وسد الأمر إلى غير أهله**» معناه: أن الأئمة قد ائتمنهم اللَّه على عباده، وفرض عليهم النصيحة لهم؛ لقوله ﷺ: «**كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته**»(٤). فينبغي لهم تولية أهل الدين والأمانة للنظر في أمر الأمة، فإذا قلدوا غير أهل الدين، واستعملوا من يعينهم على الجور والظلم؛ فقد ضيعوا الأمانة التي فرض اللَّه عليهم.

وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تقوم الساعة حتى يؤتمن الخائن ويستخون الأمين**»(٥). وهذا إنما يكون إذا غلب الجهال، وضعف أهل الحق عن القيام به

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩١)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٩/ ٤٠٣٦)، وصححه الحاكم (٤/ ٤٦٥-٤٦٦) ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: الطبراني (٩/ ١٤١/ ٨٧٠٠)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٦٠/ ٣٥٨٧٨)، وعبد الرزاق (٣/ ٣٦٣/ ٥٩٨١)، والبيهقي في الكبرى (٦/ ٢٨٩)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٣٠) وقال: «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير شداد بن معقل وهو ثقة»، وصححه الحاكم (٤/ ٥٠٤) ووافقه الذهبي.

(٣) شرح صحيح البخاري (١٠/ ٢٠٦-٢٠٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٥)، والبخاري (٥/ ٢٢٢/ ٢٥٥٤)، ومسلم (٣/ ١٤٥٩/ ١٨٢٩)، وأبو داود (٣/ ٣٤٢-٣٤٣/ ٢٩٢٨)، والترمذي (٤/ ١٨٠-١٨١/ ١٧٠٥)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٧٤/ ٩١٧٣) من حديث عبداللَّه بن عمر ﷺ.

(٥) أخرجه بنحوه أحمد (٢/ ١٦٢)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٨٤) وقال: أبو سبرة هذا اسمه سالم بن سبرة، قال أبو حاتم: مجهول. وقال الحاكم (١/ ٧٥-٧٦): «هذا حديث صحيح، فقد اتفق الشيخان على الاحتجاج بجميع رواته، غير أبي سبرة الهذلي وهو تابعي كبير مبين ذكره في المسانيد والتواريخ غير مطعون فيه»، ووافقه الذهبي، وجملة: «حتى يؤتمن الخائن ويخون الأمين» وردت في أحاديث بعضها في الباب.

ونصرته»[1].

قوله: «فانتظر الساعة»:

قال المناوي: «لأنه قد جاء أشراطها . وإنما دل على دنو الساعة لإفضائه إلى اختلال الأمر والنهي، ووهن الدين، وضعف الإسلام، وغلبة الجهل، ورفع العلم، وعجز أهل الحق عن القيام به ونصرته، وللساعة أشراط كثيرة كبار وصغار، وهذا منها»[2].

قال ابن الملك: «فإن قلت: لم لم يقتصر في جواب السؤال الأول على قوله: «إذا ضيعت الأمانة»؟ قلنا: لو اقتصر لتوهم أنه وقت قيام الساعة، فزاد قوله: «فانتظر» لينبّه على أنه من أماراتها، فعلى هذا لا يكون (إذا) شرطية، فإن قلت: كان ينبغي أن يأتي في السؤال الثاني بـ(متى) ليطابق الجواب، قلنا: مراد تقدير الكلام: متى تضيع الأمانة، وكيف حصول إضاعتها؟ فأجاب بقوله ﷺ: **«إذا وسد الأمر»**، ولم يشتغل ببيان كيفية التضييع لطوله، وإنما قال فيه أيضًا: **«فانتظر الساعة»** تنبيهًا على دنو الساعة إذ ذاك؛ لأن تغير الولاة وفسادهم مستلزم لتغير الرعايا، وعن هذا قيل: الناس على دين ملوكهم[3]»[4].

ومنها: رفع العلم وظهور الجهل وكثرة الزنا وانتشار شرب الخمر وقلة الرجال وكثرة النساء:

* عن أنس رضي الله عنه قال: لأحدثنكم حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ لا يحدثكم به أحد غيري، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويكثر الجهل، ويكثر الزنا، ويكثر شرب الخمر، ويقل الرجال، ويكثر النساء، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد»**[5].

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث من الفقه: أن من أشراط الساعة وأماراتها التي تقدم قيامها:

---

(١) شرح صحيح البخاري (١/ ١٣٨).
(٢) فيض القدير (١/ ٤٥١).
(٣) قال في تذكرة الموضوعات (ص: ١٨٣): «لا أعرفه حديثاً»، وكذا في المقاصد الحسنة (ص: ٤٤١).
(٤) مبارق الأزهار (٢/ ٦٤-٦٥).
(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٠٢)، والبخاري (٩/ ٤١٢/ ٥٢٣١)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٦/ ٢٦٧١[٩])، والترمذي (٤/ ٤٢٦/ ٢٢٠٥)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٥٥/ ٥٩٠٦)، وابن ماجه (٢/ ١٣٤٣/ ٤٠٤٥).

رفع العلم وظهور الجهل، وفشو الزنا، وكثرة شرب الخمر، وانتشار ذلك، وقلة الرجال وكثرة النساء.

قال الحافظ: «وقال القرطبي في «المفهم»: في هذا الحديث علم من أعلام النبوة؛ إذ أخبر عن أمور ستقع، فوقعت خصوصًا في هذه الأزمان»[1]. قال ابن الجوزي: «وأما رفع العلم فيكون بشيئين: أحدهما: بموت العلماء، كما قال في حديث عبدالله بن عمرو: «**ولكن يقبضه بقبض العلماء**»[2]»[3].

قال القرطبي: «وهو -أي: حديث ابن عمرو ﷺ- نص في أن رفع العلم لا يكون بمحوه من الصدور، بل بموت العلماء، وبقاء الجهال الذين يتعاطون مناصب العلماء في الفتيا والتعليم، يفتون بالجهل ويعلمونه، فينتشر الجهل ويظهر، وقد ظهر ذلك ووجد على نحو ما أخبر ﷺ، فكان ذلك دليلًا من أدلة نبوته، وخصوصًا في هذه الأزمان؛ إذ قد ولي المدارس والفتيا كثير من الجهال والصبيان، وحرمها أهل ذلك الشأن، غير أنه جاء في كتاب الترمذي عن جبير بن نفير عن أبي الدرداء: ما يدل على أن الذي يرفع هو العمل. قال أبو الدرداء ﷺ: «كنا مع النبي ﷺ، فشخص ببصره إلى السماء، ثم قال: **هذا أوان يختلس فيه العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء**». فقال زياد بن لبيد الأنصاري: وكيف يختلس منا وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لنقرأنه، ولنقرئنّه نساءنا وأبناءنا. فقال: «ثكلتك أمك يا زياد! إن كنت لأعدّك من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تغني عنهم؟». قال: فلقيت عبادة بن الصامت، فقلت: ألا تسمع إلى ما يقول أخوك أبو الدرداء؟ فأخبرته بالذي قال أبو الدرداء، قال: «صدق أبو الدرداء، إن شئت لأحدثنك بأول علم يرفع: الخشوع، يوشك أن تدخل المسجد الجامع فلا ترى فيه رجلًا خاشعًا»[4]، قال: هذا حديث حسن غريب. وقد

---

(١) فتح الباري (١/ ٢٣٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٢)، والبخاري (١/ ٢٥٨/ ١٠٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٨/ ٢٦٧٣)، والترمذي (٥/ ٣١/ ٢٦٥٢)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٥٥-٤٥٦/ ٥٩٠٧)، وابن ماجه (١/ ٢٠/ ٥٢).

(٣) كشف المشكل (٣/ ٢٣٢).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٣١-٣٢/ ٢٦٥٣) وقال: «هذا حديث حسن غريب، ومعاوية بن صالح ثقة عند أهل الحديث، ولا نعلم أحداً تكلم فيه غير يحيى بن سعيد القطان»، وصححه الحاكم (١/ ٩٩)، ووافقه الذهبي.

خرجه النسائي من حديث جبير بن نفير أيضًا عن عوف بن مالك الأشجعي من طرق صحيحة[١]. وظاهر هذا الحديث أن الذي يرفع إنما هو العمل بالعلم، لا نفس العلم، وهذا بخلاف ما ظهر من حديث عبدالله بن عمرو، فإنه صريح في رفع العلم.

قلت: ولا تباعد فيهما، فإنه إذا ذهب العلم بموت العلماء، خلفهم الجهال، فأفتوا بالجهل فعمل به، فذهب العلم والعمل، وإن كانت المصاحف والكتب بأيدي الناس، كما اتفق لأهل الكتابين من قبلنا، ولذلك قال رسول الله ﷺ لزياد على ما نص عليه النسائي: «**ثكلتك أمك زياد! هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى؟**»[٢] وذلك أن علماءهم لما انقرضوا خلفهم جهالهم، فحرفوا الكتاب، وجهلوا المعاني، فعملوا بالجهل، وأفتوا به، فارتفع العلم والعمل، وبقيت أشخاص الكتب لا تغني شيئًا»[٣].

قال ابن الجوزي: «والثاني: بخساسة الهمم واقتناعها باليسير منه، فإنها إذا دنت قصرت، وكشف هذا أنك إذا تأملت من سبق من العلماء؛ رأيت كل واحد منهم يفتن في العلوم ويرتقي في كل فن إلى أقصاه، حتى روينا عن الشعبي أنه قال: ما أروي أقل من الشعر، ولو شئت لأنشدتكم شهرًا لا أعيد. أخبرنا القزاز قال: أنبأنا أحمد بن علي الحافظ قال: حدثنا الصوري قال: سمعت رجاء بن محمد بن عيسى المعدل يقول: سألت الدارقطني فقلت له: رأى الشيخ مثل نفسه؟ فقال: إن كان في فن واحد فقد رأيت من هو أفضل مني، وأما من اجتمع فيه ما اجتمع فيّ فلا. ثم إن الرغبات فترت في العلم، فصار صاحب الحديث يقتصر على ما علا إسناده ويعرض عن الفقه، فلو وقعت مسألة في الطهارة لم يهتد لجوابها، وصار الفقيه يقتصر على ما كتب في التعليقة، ولا يدري هل الحديث الذي بنى عليه الحكم صحيح أم لا، وصار اللغوي يشتغل بحفظ ألفاظ العرب، ولا يلتفت إلى الفقه،

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٦-٢٧)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٥٦/ ٥٩٠٩)، وصححه ابن حبان (١٠/ ٤٣٣/ ٤٥٧٩)، والحاكم (١/ ٩٨-٩٩)، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٦٠)، وابن ماجه (٢/ ١٣٤٤/ ٤٠٤٨)، قال البوصيري: «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات إلا أنه منقطع، قال البخاري في التاريخ الصغير: لم يسمع سالم بن أبي الجعد من زياد بن لبيد، وتبعه على ذلك الذهبي في الكاشف». وللحديث شاهدان من حديث عوف بن مالك وأبي الدرداء ﭫ.

(٣) المفهم (٦/ ٧٠٥-٧٠٨).

فهذا رفع العلم. ثم له رفع من حيث المعنى: وهو أنا إذا وجدنا العالم المتقن قد مال إلى الدنيا وتشاغل بخدمة السلاطين، والتردد إليهم غير آمر بالمعروف ولا ناه لهم عن المنكر، وانعكف على اللذات، وربما مزجها بحرام كلبس الحرير، لم يبق لعلمه نور عند المقتبس، فصار كالطبيب المخلط، لا يكاد يقبل قوله في الحمية، فمات العلم عنده وهو موجود، نسأل اللَّه ﷻ عزمًا مجدًا لا فتور فيه، وعملًا خالصًا لا رياء معه»[١].

قوله: «**ويكثر الزنا**»، وفي رواية: «**ويظهر الزنا**»:

قال الحافظ: «ليس المراد تجدد وجوده؛ فإنه كان موجودًا، وإنما المراد شهرته وكثرته، كما وقع في رواية مسلم: «**ويفشو الزنا**»»[٢].

قوله: «**ويكثر شرب الخمر**»: قال الكرماني: «فإن قلت: شرب الخمر كيف يكون من علاماتها، والحال أنه كان واقعًا في جميع الأزمان، وقد حد رسول اللَّه ﷺ بعض الناس لشربه إياها؟[٣] قلت: المراد أن يشرب شربًا فاشيًا، أو أن نفس الشرب وحده ليس علامة، بل العلامة مجموع الأمور المذكورة»[٤].

وقال القسطلاني: «فالمطلق محمول على المقيد خلافًا لمن ذهب إلى أنه لا يجب حمله عليه، والاحتياط بالحمل ههنا أولى؛ لأن حمل كلام النبوة على أقوى محامله أقرب؛ فإن السياق يفهم أن المراد بأشراط الساعة وقوع أشياء لم تكن معهودة حين المقالة، فإذا ذكر شيئًا كان موجودًا عند المقالة؛ فحمله على أن المراد بجعله علامة أن يتصف بصفة زائدة على ما كان موجودًا كالكثرة والشهرة أقرب»[٥].

قوله: «**ويقل الرجال ويكثر النساء**»:

قال الكرماني: «أي: بسبب تلاحم الفتن وقتل الرجال فيها، كما ورد في المواضع الأخر. ويكفي كثرتهن في قلة العلم وظهور الجهل والزنا؛ لأن النساء

---

(١) كشف المشكل (٣/ ٢٣٢-٢٣٣). (٢) انتقاض الاعتراض (١/ ١٢١).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٧٦)، والبخاري (١٢/ ٧٤/ ٦٧٧٣)، ومسلم (٣/ ١٣٣٠/ ١٧٠٦)، وأبو داود (٤/ ٦٢١/ ٤٤٧٩)، والترمذي (٤/ ٣٨/ ١٤٤٣)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٢٤٩/ ٥٢٧٣)، وابن ماجه (٢/ ٨٥٨/ ٢٥٧٠) عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ أتي برجل شرب الخمر فجلده بجريدتين نحو أربعين.. الحديث.

(٤) شرح صحيح البخاري (١/ ٢/ ٦٠) (٥) إرشاد الساري (١/ ٣١٥).

حبائل الشيطان، وهن ناقصات عقل ودين»[١].

قال الحافظ: «وقال أبو عبدالملك: هو إشارة إلى كثرة الفتوح، فتكثر السبايا، فيتخذ الرجل الواحد عدة موطوءات. قلت: وفيه نظر؛ لأنه صرح بالقلة في حديث أبي موسى الآتي في الزكاة عند المصنف فقال: «**من قلة الرجال وكثرة النساء**»، والظاهر أنها علامة محضة لا لسبب آخر، بل يقدر الله في آخر الزمان أن يقل من يولد من الذكور ويكثر من يولد من الإناث، وكون كثرة النساء من العلامات مناسبة لظهور الجهل ورفع العلم»[٢].

وقال أيضًا: «قوله: «**القيم الواحد**»؛ أي: الذي يقوم بأمورهن، ويحتمل أن يكنى به عن اتباعهن له لطلب النكاح حلالًا أو حرامًا»[٣].

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «واللام للعهد إشعارًا بما هو معهود من كون الرجال قوامين على النساء»[٤].

قال الكرماني: «فإن قلت: هل لتخصيص هذه الأمور بالذكر فائدة معلومة؟ قلت -والله أعلم-: يحتمل أن يكون ذلك لأنها مشعرة باختلال الضرورات الخمس الواجبة رعايتها في جميع الأديان التي بحفظها صلاح المعاش والمعاد، ونظام أحوال الدارين، وهي الدين والعقل والنفس والنسب والمال، فرفع العلم مخل بحفظ الدين، وشرب الخمر بالعقل، وبالمال أيضًا، وقلة الرجال بسبب الفتن، وظهور الزنا بالنسب، وكذا بالمال غالبًا، فإن قلت: لم كان اختلال هذه الأمور من علاماتها؟ قلت: لأن الخلائق لا يتركون سدى، ولا نبي بعد هذا الزمان، فتعين خراب العالم وقرب القيامة»[٥].

ومنها: قتال المسلمين لليهود والترك ولقوم ينتعلون الشعر:

* عن عمرو بن تغلب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**إن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قومًا ينتعلون نعال الشعر، وإن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قومًا عراض**

---

(١) شرح صحيح البخاري (١/ ٢/ ٦١).
(٢) فتح الباري (١/ ٢٣٧).
(٣) فتح الباري (٩/ ٤١٣).
(٤) فتح الباري (١/ ٢٣٩).
(٥) شرح صحيح البخاري (١/ ٢/ ٦١-٦٢).

الوجوه، كأن وجوههم المجان المطرقة»[١].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك، صغار الأعين، حمر الوجوه، ذلف الأنوف، كأن وجوههم المجان المطرقة، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قومًا نعالهم الشعر**»[٢].

⋆ غريب الحديثين:

ذلف الأنوف: بضم الذال المعجمة: جمع الأذلف، وهو صغر الأنف مستوي الأرنبة، وهو الفطس. وقيل: قصر الأنف وانبطاحه، ورواه بعضهم بدال مهملة. وقال ابن قرقول: وقيدناه بالوجهين، وبالمعجمة أكثر. وقيل: تشمير الأنف عن الشفة، وعن ابن فارس: الذلف الاستواء في طرف الأنف، والعرب تقول: أملح النساء الذلف. والأنوف: جمع أنف، مثل: فلس فلوس، ويجمع على أنف وإناف. وفي المخصص: هو جمع المنخر، وسمي أنفًا لتقدمه.

المجان المطرقة: أي: التراس التي ألبست العقب شيئًا فوق شيء. ومنه طارَقَ النعل: إذا صيرها طاقًا فوق طاق، وركب بعضها فوق بعض، ورواه بعضهم بتشديد الراء للتكثير، والأول أشهر. شبه وجوههم بالترس: لبسطها وتدويرها، وبالمطرقة: لغلظها وكثرة لحمها.

⋆ فوائد الحديثين:

قال الحافظ: «هذا والحديث الذي بعده ظاهر في أن الذين ينتعلون الشعر غير الترك، وقد وقع للإسماعيلي من طريق محمد بن عباد قال: بلغني أن أصحاب بابك كانت نعالهم الشعر»[٣].

قال ابن أبي جمرة: «ظاهر الحديث يدل على أن الرهطين المذكورين فيه إذا ظهرا فهو علَم على اقتراب الساعة، والكلام عليه من وجهين:

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٧٠)، والبخاري (٦/ ١٢٩/ ٢٩٢٧)، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٢/ ٤٠٩٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٣٠)، والبخاري (٦/ ١٢٩/ ٢٩٢٨)، ومسلم (٤/ ٢٢٣٣/ ٢٩١٢[٦٥])، وأبو داود (٤/ ٤٨٦-٤٨٧/ ٤٣٠٣-٤٣٠٤)، والترمذي (٤/ ٤٣٠/ ٢٢١٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٢/ ٤٠٩٧).

(٣) الفتح (٦/ ١٣٠). وانظر شرح مسلم للنووي (١٨/ ٣٠).

الوجه الأول: فيه دليل على أن معجزات النبي ﷺ على قسمين: مشاهد مرئي، وأخبار يؤمن بها ويصدق، وكل الأمة اجتمع في ذلك أولهم وآخرهم، وإن كان النبي ﷺ قد انتقل إلى الآخرة، لكن معجزاته ﷺ لم تزل باقية مستمرة إلى قيام الساعة، بيان ذلك: أن الصحابة رضوان اللَّه عليهم عاينوا ما كان في زمانهم من معجزات النبي ﷺ مما أظهر اللَّه على يديه، وآمنوا بما أخبر به مما يأتي بعدهم، وأهل هذا الزمان قد حصل لهم الإيمان بمشاهدة ما ورد في هذا الحديث وأشباهه، والتصديق بما رأى الصحابة رضوان اللَّه عليهم، والإيمان بما يأتي بعد، وكذلك من يأتي بعدهم لا بد من معجزات يشاهدونها، وذلك مستمر لا ينقطع إلى قيام الساعة، وهذا من الأدلة الظاهرة على علو منزلته ﷺ، التي لم تزل معجزاته مشاهدة إلى يوم القيامة.

الوجه الثاني: خروج هذين الرهطين المذكورين، هل هو دال على الآخرة كما أخبر ﷺ لا غير؟ أو فيه معنى زائد على ما يظهر من صيغة لفظه؟ محتمل للوجهين معًا، والمعنى الزائد هو أن يكون ذلك من جملة الفتن التي تكون عند اقتراب الساعة، مع ما فيه من الدلالة على قرب القيامة، فإن كان دالاً على قرب الآخرة ليس إلاّ، فتكون فائدة الإخبار به أن يقطع الأمل من هذه الدار عند معاينة ذلك؛ إذ إنها قد انصرمت، والإقبال على الآخرة والعمل على الخلاص فيها إذ إنها قد قربت، فظهر منه ﷺ هنا ما أخبر ﷻ عنه في كتابه حيث وصفه بقوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]؛ لأنه ﷺ نظر الخير لأمته بكل ممكن أمكنه من أخبار أو حال، وإن كان المراد بالإخبار به أن يعلم أن ما ذكر فيه من جملة الفتن، مع كونه دالاً على قرب قيام الساعة، فتكون الفائدة فيه المسارعة إلى أخذ الدواء الذي به يقع الخلاص من الفتن، والدواء هو ما قد نص ﷺ عليه في غير هذا الحديث حين ذكر الفتن فقيل له: ما تأمرنا إن أدركنا ذلك؟ قال ﷺ: «**الجؤوا إلى الإيمان والأعمال الصالحات**»[2]، وهذا الوجه الأخير هو الأظهر واللَّه أعلم، وهو

---

(١) التوبة: الآية (١٢٨).

(٢) ثبت بنحوه أخرجه: أحمد (١/ ٤٢٨)، والبخاري (٦/ ٧٥٩/ ٣٦٠٣) عن ابن مسعود ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إنها ستكون فتن وأمور تنكرونها، قالوا: يا رسول الله! فما تأمرنا؟ قال: تؤدون الحق الذي عليكم، وتسألون اللَّه** ﷻ **الذي لكم**».

أن يكون المراد بسياق الحديث المعنيين اللذين ذكرناهما في هذا الوجه الأخير، بدليل قوله ﷺ: «**اتركوا مقاتلة الترك ما تركوكم**»(١)، فلو أنهم من جملة الفتن ما حض ﷺ على ترك قتالهم ما لم يبدؤوا بالقتال، وأمر بقتال غيرهم من الكفار مطلقًا، ولأن معنى قوله ﷺ: «**الجؤوا إلى الإيمان والأعمال الصالحات**» يظهر من قوة الإخبار بهذا الحديث؛ إذ إن الفتن لا تقع إلا لضعف في الإيمان، أو فترة في كماله، فقد ظهر ما أخبر به ﷺ، فوجب الامتثال لما أمر به، فمن رزق التوفيق لامتثال ما أمر به؛ ضمن له الخلاص بمقتضى الوعد الجميل، والحذر الحذر لمن أراد الخلاص أن يلتفت لفساد الوقت، ولا للخلل الواقع في الأحوال؛ لأن ذلك سبب للهلاك، جعلنا اللَّه ممن قوى إيمانه، وأصلح عمله»(٢).

قال ابن كثير: «المقصود أن الترك قاتلهم الصحابة، فهزموهم وغنموهم وسبوا نساءهم وأبناءهم، وظاهر هذا الحديث يقتضي أن هذا يكون من أشراط الساعة، لا يكون إلا بين يديها قريبًا، فقد يكون هذا واقعًا مرات عديدة بين المسلمين والترك، حتى يكون آخر ذلك خروج يأجوج ومأجوج. وإن كان أشراط الساعة أعم من أن يكون بين يديها قريبًا منها، أو يكون مما يقع في الجملة، حتى ولو تقدم قبلها بدهر طويل، إلا أنه مما يقع بعد زمان النبي ﷺ، وهذا الذي يظهر بعد تأمل الأحاديث الواردة في هذا الباب»(٣).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، حتى يقول الحجر وراءه اليهودي: يا مسلم! هذا يهودي ورائي فاقتله**»(٤).

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «هذا إنما يكون -واللَّه أعلم- بعد قتل الدجال؛ فإن اليهود هم أكثر أتباعه»(٥).

---

(١) أخرجه: أبو داود (٤/ ٤٨٥-٤٨٦/ ٤٣٠٢)، والنسائي (٦/ ٣٥٠-٣٥١/ ٣١٧٦)، وفي الكبرى (٣/ ٢٨-٢٩/ ٤٣٨٥).

(٢) بهجة النفوس (٣/ ١٣٠-١٣١).

(٣) النهاية في الفتن والملاحم (١/ ٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤١٧)، والبخاري (٦/ ١٢٨/ ٢٩٢٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٣٩/ ٢٩٢٢).

(٥) المفهم (٧/ ٢٥١).

قال ابن بطال: «قال المهلب: في هذا الحديث دليل على ظهور الآيات بتكلم الجماد عند نزول عيسى ابن مريم، الذي يستأصل الدجال واليهود معه. وفيه دليل على بقاء دين محمد ودعوته بعد نزول عيسى ابن مريم؛ لقوله: «تقاتلوا»، ولا يكونوا مخاطبين بالقتال إلا وهم على دينهم؛ لجواز علم النبي ﷺ أن الذين يقاتلون الدجال غير من يخاطب بالحضرة، لكن خاطب من بالحضرة لمجيء من بعدهم على مذهبهم، وهذا في كتاب اللَّه كثير، خاطب من الحضرة ما يلزم الغائبين الذين لم يخلقوا بعد»[١].

ومنها: تباهي الناس في المساجد:

* عن أنس رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد»**[٢].

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث: «دليل على أن التباهي في المساجد من أشراط الساعة»[٣].

قال القاري: «من علامات القيامة: أن يتباهى الناس في المساجد؛ أي: في شأنها أو بنائها، يعني يتفاخر كل أحد بمسجده ويقول: مسجدي أرفع، أو أزين أو أوسع أو أحسن، رياءً وسمعةً، واجتلابًا للمدحة»[٤].

قال في «عون المعبود»: «قال ابن رسلان: هذا الحديث فيه معجزة ظاهرة لإخباره ﷺ عما سيقع بعده، فإن تزويق المساجد والمباهاة بزخرفتها كثر من الملوك والأمراء في هذا الزمان، بالقاهرة والشام وبيت المقدس، بأخذهم أموال الناس ظلمًا، وعمارتهم بها المدارس على شكل بديع، نسأل اللَّه السلامة والعافية. انتهى»[٥].

---

(١) شرح البخاري (٥/ ١٠٧-١٠٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٤٥)، وأبو داود (١/ ٣١١/ ٤٤٩)، والنسائي (٢/ ٣٦١-٣٦٢/ ٦٨٨)، وابن ماجه (١/ ٢٤٤/ ٧٣٩)، وصححه ابن خزيمة (٢/ ٢٨١-٢٨٢/ ١٣٢٢-١٢٢٣)، وابن حبان (الإحسان ٤/ ٤٩٣/ ١٦١٤).

(٣) أفاده ابن خزيمة في صحيحه (٢/ ٢٨١).

(٤) المرقاة (٢/ ٤٢٢).

(٥) (٢/ ١١٨). ولمزيد الفائدة ينظر المنهل (٤/ ٤٤-٤٥)، والفتح (١/ ٧١١).

ومنها: عودة الجزيرة العربية جنانًا خضرة نضرة وأنهارًا جارية:

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض، حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحدًا يقبلها منه، وحتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا**»[١].

★ غريب الحديث:

المروج: جمع مرج، وهي الأرض الواسعة ذات نبات كثير، تمرج فيه الدواب؛ أي: تخلى تسرح مختلطة كيف شاءت.

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث: «إخبار النبي ﷺ بما يكون، ولابد من كونه إن كان قاله، فإنه لا يقول إلا حقًا»[٢].

قال الألباني رحمه الله: «وقد بدأت تباشير هذا الحديث تتحقق في بعض الجهات من جزيرة العرب، بما أفاض اللَّه عليها من خيرات وبركات، وآلات ناضحات تستنبط الماء الغزير من بطن أرض الصحراء»[٣].

وقال النووي: «قوله ﷺ: «**حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا**» معناه - واللَّه أعلم- أنهم يتركونها ويعرضون عنها، فتبقى مهملة لا تزرع ولا تسقى من مياهها، وذلك لقلة الرجال، وكثرة الحروب، وتراكم الفتن، وقرب الساعة، وقلة الآمال، وعدم الفراغ لذلك والاهتمام به»[٤].

وقال القرطبي: «أي: تنصرف دواعي العرب عن مقتضى عاداتهم من انتجاع الغيث والارتحال في المواطن للحروب والغارات، ومن نخوة النفوس العربية الكريمة الأبية إلى أن يتقاعدوا عن ذلك، فينشغلوا بغراسة الأرض وعمارتها، وإجراء مياهها، كما قد شوهد في كثير من بلادهم وأحوالهم»[٥].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٠و٤١٧)، ومسلم (٢/ ٧٠١/ ١٥٧) واللفظ له.
(٢) أفاده القاضي عياض في الإكمال (٣/ ٥٣٣).
(٣) السلسلة الصحيحة (١/ ١٠).
(٤) شرح صحيح مسلم (٧/ ٨٥).
(٥) المفهم (٣/ ٥٧).

ومنها: قلة البركة في الزمان وكثرة الفتن والقتل:

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**يتقارب الزمان، وينقص العمل، ويلقى الشح، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج**. قالوا: يا رسول الله! أيّما هو؟ قال: **القتل القتل**»[1].

★ غريب الحديث:

أيما: هي (أيّ) مشددة مضافة إلى (ما) بمعنى شيء، وتسمى (ما) هذه تامة، لا تحتاج إلى صفة ولا صلة، والمبتدأ مقدر؛ أي: هو أي شيء؟ أي: الهرج.

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «هذا كله إخبار من النبي ﷺ بأشراط الساعة، وقد رأينا هذه الأشراط عيانًا فأدركناها، فقد قبض العلم، وظهر الجهل، وألقي بالشح في القلوب، وعمت الفتن، وكثر القتل»[2].

قال ابن أبي جمرة: «ظاهر الحديث يدل على خمسة أحكام: الأول: الإخبار بتقارب الزمان، والثاني: نقص العمل، والثالث: إلقاء الشح، والرابع: ظهور الفتن، والخامس: كثرة الهرج وهو القتل. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: ما معنى تقارب الزمان؟ وكيف يكون نقص العمل؟ وما معنى هذا الشح الملقى، هل هو على العموم أو على الخصوص؟ وما الفتن المشار إليها؟ وما صفة القتل الذي يكثر، هل هو بحق أو بغيره؟ وما معنى الهرج؟ أما قولنا: ما معنى تقارب الزمان؟ فمعناه: أن يقصر ويقل طوله، وقد جاء في حديث غير هذا كقوله ﷺ: «**تكون السنة كالشهر والشهر كالجمعة، والجمعة كاليوم واليوم كالساعة، والساعة كالنفس**»[3] أو كما قال ﷺ، ولا يخلو هذا القصر أن يكون المراد به معنويًا أو حسيًا، فأما المعنوي فقد ظهر وله سنون عديدة، يعرف ذلك أهل

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٣)، والبخاري (١٣/ ١٦/ ٧٠٦١)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٧/ ١٥٧[١١])، وابن ماجه (٢/ ١٣٤٥/ ٤٠٥٢).

(٢) شرح البخاري (١٠/ ١٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٣٧-٥٣٨)، وأبو يعلى (١٢/ ٣٢-٣٣/ ٦٦٨٠)، وقال الهيثمي (٧/ ٣٣١): «رجاله رجال الصحيح»، وصححه ابن حبان (١٥/ ٢٥٦-٢٥٧/ ٦٨٤٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الأعمال، ومن له فطنة ما من أهل الدنيا، المشتغلين بالأسباب فيها، فإنهم يجدون أنفسهم لا يقدرون أن يبلغوا من عمل أسباب الدنيا قدر الذي كانوا يعملون، ويشكون ذلك ولا يدرون العلة من أين هي، وكذلك أهل أعمال الآخرة قد وجدوا نقص العمل، ونقص تلك المعاني الخاصة بالقلوب الحاملة على الأعمال، فالعلة في ذلك -والله أعلم- ما دخل في الإيمان من الضعف من كثرة إظهار الأمور المخالفة للسان العلم من وجوه عديدة، من حيث لا يخفى على ذي بصيرة، ومما دخل من أجلها في الأقوات من الشبه، بل من الحرام المحض، حتى إن كثيرًا من الناس ما يتوقف في هذا الباب عن شيء، وكيف قدر أن يصل إلى شيء فعل ولا يبالي، فإن البركة في الزمان والرزق والبدن من طريق قوة الإيمان، واتباع الأمر واجتناب النهي، يشهد لذلك قوله جل جلاله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾(١).

وأما إن كان المقصود بتقارب الزمان أن يكون حسًّا ظاهرًا؛ فهذا لم يظهر بعد، ولعله من الأمور التي تكون عند قرب الساعة، ولعله ﷺ عنى بذلك الوجهين معا، فيكون الواحد وهو المعنوي قد ظهر، وبقي الآخر وهو الحسي، حتى يصل وقته مع ما بقي من الشروط.

وأما كيفية نقص العمل فعلى وجهين: إن كان في الحسي الذي لم يظهر بعد؛ فهذا بين لا يحتاج فيه إلى تعليل؛ لأن الزمان ظرف الأعمال، فإذا نقص نقص بعض العمل لا محالة. وأما نقصه في المعنوي فمن وجهين: أحدهما ما أشرنا إليه آنفًا، وهو من جهة المطعم وما دخل فيه من الخلل، وقلة الباعث الذي هو حامل على الأعمال ومحرض عليها، وذلك من ضعف الإيمان. والثاني: من قلة المساعد على ذلك في الخارج، والنفس من طبعها أنها ميالة إلى جنسها، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾(٢)، ولكثرة شياطين الإنس الذين هم أضر عليك من الشيطان الرجيم، إلا تلك العصابة التي شاء سبحانه وتعالى بقاءها على الحق لا يضرها من خالفها، فهي محمولة بالقدرة واللطف الرباني، وإنما جاءت الأخبار على الغالب من أحوال الناس.

وأما قولنا: ما معنى الشح الذي يلقى، هل هو على العموم أو على الخصوص؟ محتمل. والظاهر العموم؛ لأن الشح الخاص المستعمل عند الناس فيما عدا

---

(١) الأعراف: الآية (٩٦). (٢) المائدة: الآية (٢).

الفرائض، لا يعود منه ذلك الضرر المخوف، وإنما الشح الذي يخاف منه ومن وباله؛ الشح بالفرائض، ومن يشح بها فمن باب أولى أن يشح بغيرها، فيكون عامًّا، والله أعلم. يشهد لهذا قوله ﷺ: **«لا تزداد الدنيا إلا إدبارًا، ولا الناس إلا شحًّا»**[1] أو كما قال ﷺ، فجاء لفظ عام في الحديثين معا، ولا يسمي الفقهاء شحيحًا إلا الذي يشح بالفرائض، والناس يسمون الشحيح كل من لا يجود عليهم، ولا ينظرون هل أدى فرضه أم لا؟ كما يزعمون أن الكنز هو ما جعل من المال تحت الأرض، والعلماء يقولون: الكنز هو المال الذي لم تخرج زكاته، كان على وجه الأرض أو في بطنها مدفونًا، وإذا كان مدفونًا وهو يخرج زكاته، فليس عندهم بكنز، وأمثال حقوق الأموال سبب إلى ذهابها، وقلة بركتها، وطروُّ الجوائح عليها، ولذلك قال ﷺ: **«لا ينقص مال من صدقة»**[2] أو كما قال ﷺ، قال أهل العلم: معناه: أن المال الذي يخرج منه الزكاة لا يلحقه عاهة، ولا يتلف، ولا يلحقه شيء من الأشياء التي تأتي على الأموال فينقص بها؛ فإن الزكاة تحرسه من ذلك، ولذلك سميت زكاة، فإن المال يزكو بها وينمو، وكذلك صاحبه، ولذلك قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[3].

وأما قولنا: ما الفتن التي قد عرفها بالألف واللام؟ فهي -والله أعلم- التي قد بينها ﷺ بقوله: **«فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا»**[4] أو كما قال ﷺ؛ لأن كل فتنة يسلم فيها الدين، فليست بفتنة مخوفة، أعاذنا الله من جميعها بمنه وفضله.

والهرج يحتمل معنيين: أحدهما الفتن التي تقع بين الناس، ويخوض بعضهم في بعض، والثاني القتل، ولذلك استفهم الصحابة ﷺ سيدنا ﷺ بقولهم: **«أيما هو»** فأزال ﷺ الاحتمال الأول بقوله: **«القتل»** ثم أكده ثانيًا لزوال الاحتمال الأول.

---

(١) أخرجه: ابن ماجه (٢/ ١٣٤٠-١٣٤١/ ٤٠٣٩)، والحاكم (٤/ ٤٤١)، من حديث أنس بن مالك ﷺ، وضعفه الشيخ الألباني في الضعيفة (٧٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٣١)، والترمذي (٤/ ٤٨٧/ ٢٣٢٥) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٤١٣/ ٤٢٢٨) من حديث أبي كبشة الأنماري ﷺ.

(٣) التوبة: الآية (١٠٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٤)، ومسلم (١/ ١١٠/ ١١٨)، والترمذي (٤/ ٤٢٢/ ٢١٩٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وأما قولنا: ما معنى كثرة القتل، هل يكون ذلك لحقوق لازمة أو لغير ذلك؟ فاعلم أن القتل الذي هو في الحقوق اللازمة شرعًا رحمة للعباد والبلاد، يشهد لذلك قوله ﷺ: «**لأن يقام حدّ من حدود اللَّه في بقعة خير لهم من أن تمطر السماء عليهم ثلاثين يومًا، وقيل أربعين يومًا**»[1] أو كما قال عليه السلام، فهذا في حد واحد، فكيف إذا كثر القيام بالحدود وفشا أمرها وتعدد!! وإنما يكون القتل واللَّه أعلم في الوجهين اللذين قد ذكرهما ﷺ في أحاديث متفرقة، منها قوله عليه السلام: «**لا تقوم الساعة حتى لا يعرف المقتول فيم قُتل، ولا القاتل فيم قتل**»[2] أو كما قال عليه السلام، ولا يكون ذلك إلا لكثرة القتل بغير لسان العلم، حتى لا يعرف القاتل ولا المقتول لم وقع بهم ذلك الأمر. والوجه الثاني: قوله عليه السلام: «**لا تقوم الساعة حتى ينحسر الفرات عن جبل من ذهب، يقتل عليه من كل مائة تسعة وتسعون**»[3] أو كما قال عليه السلام.

وهنا بحث، وهو ما الفائدة بأن أخبرنا بهذه الفتن؟ فنقول واللَّه الموفق: لوجوه: منها: أن نستعيذ منها كما قال ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ونعوذ بك من فتنة القبر، ونعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، ونعوذ بك من فتنة المحيا والممات**»[4] وهو ﷺ معافى من جميعها، لكن ذلك على طريق التعليم لنا، وعلى جهة الأدب منه عليه السلام مع الربوبية، حتى يجعل نفسه المكرمة من جملة العبيد الذين يخافون الفتن. ومنها: لأن يستعمل منا من رأى منها شيئًا الدواء الذي قد علمناه، وهو قوله ﷺ لما سأله بعض الصحابة عند ذكره ﷺ الفتن فقال له: ما تأمرني إن أدركني ذلك الزمان؟ فقال ﷺ: «**الجؤوا إلى الإيمان والأعمال الصالحات**». **فبين** ﷺ كيف العمل فيها، وقد جاء من طريق آخر أنه لا يسلم منها إلا من يكون حلسًا من أحلاس بيته. ومنها: لأن يتبين لنا الوجوه التي منها الفتن،

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٠٢)، والنسائي (٨/ ٤٤٦-٤٤٧/ ٤٩١٩-٤٩٢٠)، وابن ماجه (٢/ ٨٤٨/ ٢٥٣٨)، وصححه ابن حبان (١٠/ ٢٤٤/ ٤٣٩٨)، وانظر الصحيحة رقم (٢٣١).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٣١/ ٢٩٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٦)، والبخاري (١٣/ ٩٨/ ٧١١٩)، ومسلم (٤/ ٢٢١٩/ ٢٨٩٤)، وأبو داود (٤/ ٤٩٣/ ٤٣١٣-٤٣١٤)، والترمذي (٤/ ٦٠٢/ ٢٥٦٩-٢٥٧٠)، وابن ماجه (٢/ ٣٤٣/ ٤٠٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢٤٢)، ومسلم (١/ ٤١٣/ ٥٩٠)، وأبو داود (٢/ ١٩٠/ ١٥٤٢)، والترمذي (٥/ ٤٩٠/ ٣٤٩٤)، والنسائي (٤/ ٤١٠/ ٢٠٦٢)، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٢/ ٣٨٤٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فنأخذ في سد تلك الطرق، مستعينين بالله على ذلك. ومنها: لأن تكون معجزاته ﷺ متتابعة إلى يوم القيامة؛ لأنه كلما خرجت واحدة مما ذكر ﷺ في هذا الحديث وغيره، هي معجزة له ﷺ في الوقت وفي ظهورها متتابعة إلى يوم القيامة، حق لله تعالى وحق له ﷺ وحق لأمته. فالحق الذي هو لله تعالى هو استصحاب ظهور حجته ﷻ على عباده؛ لأن ظهور معجزة الرسول ﷺ حجة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1]، وحجة الرسل في تصديق ما جاؤوا به، وتصديق رسله حجة على عباده، وزيادة قوة في إيمانهم. وأما الذي هو حق له ﷺ فدوام معجزاته ودوام إنذاره إلى يوم القيامة بالطريقين العظيمين، بالكتاب لقوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾[2]، فإنذاره ﷺ عليه باق إلى يوم القيامة بإظهار معجزاته ﷺ، وهي ظهور كل ما أخبر به ﷺ؛ فإن على ظهور كل واحدة منها علمًا بتصديقه ﷺ مقوّيًا لما جاء به، وهذا مما خص به ﷺ دون غيره من الأنبياء عليهم السلام. وأما الذي هو حق لأمته فهو أن يكون هذا الخير الذي جاء به ﷺ متساويًا في أمته من أولها إلى آخرها، من طريقين بالكتاب العزيز الذي حفظ عليهم ولم يوكلوا في ذلك إلى أنفسهم، فكان يقع فيه التغيير والتبديل، كما وقع في الكتب المتقدمة، وبمعجزاته ﷺ التي هي من أول أمته إلى آخرها على نوعين: منها ما هي ظاهرة لأهل ذلك الزمان، ومنها ما يصدقون به ولم يروها، حتى يكون الشاهد منها ما يصدق الغائب، وإن كانت كلها صدقًا، لكن فاق الصحابة ﷺ غيرهم بزيادة الصحبة، وعاينوا ما كان في وقتهم منها، وآمنوا بما أخبر به ﷺ أنه يكون بعدهم، ومن جاء بعدهم آمن بالذي شاهد منها الصحابة ﷺ، وبالتالي أتت بعدهم إيمان تصديق، فحصل لهم بها إيمان ومشاهدة، والذين يأتون في آخر الزمان، يؤمنون بما تقدم منها تقليدا، وبما في زمانهم معاينة، فجاء هذا الخير الذي جاء به ﷺ في أمته من أولها إلى آخرها، ولبقاء هذا الخير دائما أخبر ﷺ أنه «**لا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة**»[3] أو كما قال ﷺ، فإن الخير إذا بقي في الأرض لا بد له من أهل له قائمين به، وكذلك هي إشارته ﷺ بقوله: «**أمتي مثل**

---

(١) الإسراء: الآية (١٥). (٢) الأنعام: الآية (١٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٤٨)، ومسلم (١/ ١٣٧/ ١٥٦) من حديث جابر ﷺ.

المطر، لا يدرى أيه أنفع أوله أو آخره»[١] أو كما قال ﷺ.

وهنا بحث: وهو أنه لا يكون هذا الخير إلا للذين يعلمون علم الكتاب والسنة، فإنه لا يعلم ما أخبر ﷺ به إلا من سمع الحديث واعتنى به، فمن اشتغل بغير ذلك من العلوم فاته هذا الخير، وبقيت الحجة عليه قائمة بتضييعه لأثر النبوة التي بها الخير بدءًا وعودًا، وأصلًا وفرعًا. ومنها أن تكون النفوس تُراض على دفعها وكراهيتها، حتى إن ظهر منها شيء تجد النفس لها كراهية، فإذا كرهتها أولًا ووقيت أولها كفيت فيما بقي منها؛ لقوله ﷺ: **«تعرض الفتن على القلب عودًا عودًا، فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى يصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا، فلا يضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباد كالكوز مجخيًا، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه»**[٢]، والأسود المربد هو شدة البياض في سواد، والكوز المجخي هو الكوز المنكوس، ولذلك قيل: قلبك فاحفظه من الفتن، وإلى اللَّه فالجأ في ذلك»[٣].

ومنها: ثلاثة عشر شرطًا وعلامة تضمنها حديث أبي هريرة ؓ:

* عن أبي هريرة ؓ أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، تكون بينهما مقتلة عظيمة، دعوتهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين؛ كلهم يزعم أنه رسول اللَّه، وحتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج وهو القتل، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض، حتى يهم رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي به، وحتى يتطاول الناس في البنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا. ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما**

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٣٠)، والترمذي (٥/ ١٤٠/ ٢٨٦٩) وقال: «حسن غريب»، وقال الحافظ في الفتح (٧/ ٧): «وهو حديث حسن له طرق قد يرتقي بها إلى الصحة»، من حديث أنس ؓ.

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٠٥)، ومسلم (١/ ١٢٨-١٣٠/ ١٤٤) عن حذيفة ؓ.

(٣) بهجة النفوس (٤/ ٢٥٧-٢٦٠).

بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»[1].

★ **غريب الحديث:**

لقحته: اللقحة: الناقة ذات اللبن.

يليط حوضه: بفتح أوله من الثلاثي وبضمه من الرباعي، والمعنى: يصلحه بالطين والمدر، فيسد شقوقه ليملأه، ويسقي منه دوابه. يقال: لاط الحوض يليطه: إذا أصلحه بالمدر ونحوه. ومنه قيل: اللائط لمن يفعل الفاحشة[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «قال علماؤنا -رحمة اللّه عليهم-: هذه ثلاث عشرة علامة جمعها أبو هريرة في حديث واحد، ولم يبق بعد هذا ما ينظر فيه من العلامات والأشراط في عموم إنذار النبي ﷺ بفساد الزمان، وتغيير الدين، وذهاب الأمانة؛ ما يغني عن ذكر التفاصيل الباطلة والأحاديث الكاذبة في أشراط الساعة»[3].

قال الحافظ: «وأما قوله: **«حتى تقتتل فئتان»** المراد بالفئتين علي ومن معه ومعاوية ومن معه، ويؤخذ من تسميتهم **«مسلمين»** ومن قوله: **«دعوتهما واحدة»**؛ الرد على الخوارج ومن تبعهم في تكفير كل من الطائفتين»[4].

وأما قوله: **«وحتى يبعث دجالون كلهم يزعم أنه رسول الله»**. **فقال الحافظ**: «ظاهر في أن كلاً منهم يدعي النبوة، وهذا هو السر في قوله في آخر الحديث الماضي: **«وإني خاتم النبيين»**[5] ويحتمل أن يكون الذين يدعون النبوة منهم ما ذكر

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٦-٢٣٧)، والبخاري (١٣/ ١٠٢/ ٧١٢١) واللفظ له، ومسلم (١/ ١٣٧/ ١٥٧)، وأبو داود (٤/ ٥٠٦-٥٠٧/ ٤٣٣٣)، والترمذي (٤/ ٤٣٢/ ٢٢١٨).

(٢) فتح الباري (١٣/ ١١٠).

(٣) التذكرة (٢/ ٤٧٦).

(٤) فتح الباري (١٣/ ١٠٦).

(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٦)، والطبراني في الكبير (٣/ ١٨٨/ ٣٠٢٦)، والأوسط (٦/ ١١٤/ ٥٤١٦)، والبزار كما في كشف الأستار (٤/ ١٣٢/ ٣٣٧٤)، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٣٢): «رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح»، وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ١٠٨): «أخرجه أحمد عن حذيفة بسند جيد».

من الثلاثين أو نحوها، وأن من زاد على العدد المذكور يكون كذابًا فقط، لكن يدعو إلى الضلالة كغلاة الرافضة والباطنية، وأهل الوحدة والحلولية وسائر الفرق الدعاة إلى ما يعلم بالضرورة أنه خلاف ما جاء به محمد ﷺ، ويؤيده أن في حديث علي عند أحمد: «**فقال علي لعبداللّه بن الكواء: وإنك لمنهم**»[١]، وابن الكواء لم يدع النبوة، وإنما كان يغلو في الرفض»[٢].

قال القاضي عياض: «وهذا الحديث قد ظهر، فلو عد من تنبأ من زمن النبي ﷺ إلى الآن، ممن اشتهر بذلك وعرف واتبعته جماعة على ضلالته؛ لوجد هذا العدد فيهم، ومن طالع كتب الخبر والتاريخ عرف صحة هذا، فلولا التطويل لسردنا منهم هذا العدد، واللّه أعلم»[٣].

قال الحافظ: «وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقًا؛ فإنهم لا يحصون كثرة لكون غالبهم ينشأ لهم ذلك عن جنون أو سوداء، وإنما المراد من قامت له شوكة وبدت له شبهة كمن وصفنا، وقد أهلك اللّه تعالى من وقع له ذلك منهم، وبقي منهم من يلحقه بأصحابه، وآخرهم الدجال الأكبر»[٤].

وأما قوله: «**وتكثر الزلازل**»: **فقال الحافظ**: «قد وقع في كثير من البلاد الشمالية والشرقية والغربية كثير من الزلازل، ولكن الذي يظهر أن المراد: بكثرتها شمولها ودوامها، وقد وقع في حديث سلمة بن نفيل عند أحمد[٥]: «**وبين يدي الساعة سنوات الزلازل**»، وله[٦] عن أبي سعيد: «**تكثر الصواعق عند اقتراب**

---

(١) أخرجه: البخاري في التاريخ الكبير (كتاب الكنى ص: ٢١)، وعبد اللّه بن الإمام أحمد في السنة (ص: ٢٣١)، وأبو يعلى (١/ ٣٤٩-٣٥٠/ ٤٤٩)، وابن أبي عاصم (٩٨٢)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٣٣) وقال: «رجاله ثقات»، وضعفه الشيخ الألباني في ظلال الجنة (٢/ ٤٧٦).

(٢) فتح الباري (١٣/ ١٠٨-١٠٩).

(٣) إكمال المعلم (٨/ ٤٦٣).

(٤) فتح الباري (٦/ ٧٦٦).

(٥) في المسند (٤/ ١٠٤)، وصححه ابن حبان (١٥/ ١٨٠/ ٦٧٧٧)، والحاكم (٤/ ٤٤٧-٤٤٨/ ٨٣٨٣) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، قال الذهبي: «لم يخرجاه لأرطأة، وهو ثبت، والخبر من غرائب الصحاح»، وقد ذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٠٦) وقال: «رواه أحمد والطبراني والبزار وأبو يعلى، ورجاله ثقات».

(٦) في المسند (٣/ ٦٤-٦٥)، وصححه الحاكم على شرط مسلم (٤/ ٤٤٣-٤٤٤)، وذكره الهيثمي (٨/ ٩) وقال: «رواه أحمد عن محمد بن مصعب، وهو ضعيف».

الساعة»»[١].

وأما قوله: «**وتظهر الفتن**» «فالمراد كثرتها واشتهارها وعدم التكاتم بها، والله المستعان»[٢].

وقوله: «**وحتى يكثر فيكم المال**»؛ يقول الحافظ: «يشعر بأنه محمول على زمن الصحابة، فيكون إشارة إلى ما وقع من الفتوح، واقتسامهم أموال الفرس والروم، ويكون قوله: «**فيفيض حتى يهم رب المال**» إشارة إلى ما وقع في زمن عمر بن عبدالعزيز، فقد تقدم أنه وقع في زمنه أن الرجل كان يعرض ماله للصدقة، فلا يجد من يقبل صدقته، ويكون قوله: «**وحتى يعرضه، فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي به**» إشارة إلى ما سيقع في زمن عيسى ابن مريم[٣]»[٤].

ومنها: هبوب ريح ألين من الحرير تأخذ أرواح أهل الإيمان، فلا يبقى إلا أهل الشرك والكفر، وعليهم تقوم الساعة:

* عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله**»[٥].

* عن علباء السلمي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة إلا على حُثالة الناس**»[٦].

★ **غريب الحديث:**

حُثالة: الحثالة: الرديء من كل شيء، ومنه حثالة الشعير والأرز والتمر وكل ذي قشر.

* عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس**»[٧].

---

(١) فتح الباري (١٣/ ١٠٩). (٢) الفتح (١٣/ ٢١).

(٣) تحديد الزمن يحتاج إلى خبر صحيح عن المعصوم ﷺ كما تقدمت الإشارة إليه في مقدمة هذا المبحث من أشراط الساعة. (٤) فتح الباري (١٣/ ١٠٩).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠٧)، ومسلم (١/ ١٣١/ ١٤٨)، والترمذي (٤/ ٤٢٦-٤٢٧/ ٢٢٠٧).

(٦) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٩٩)، والطبراني (١٨/ ٨٤-٨٥/ ١٥٦)، وصححه الحاكم (٤/ ٤٩٥-٤٩٦) ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ١٣) وقال: «رجاله ثقات».

(٧) أخرجه: أحمد (١/ ٣٩٤و٤٣٥)، ومسلم (٤/ ٢٢٦٨/ ٢٩٤٩).

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه يبعث ريحًا من اليمن ألين من الحرير، فلا تدع أحدًا في قلبه -قال أبو علقمة: مثقال حبة، وقال عبدالعزيز: مثقال ذرة من إيمان؛ إلا قبضته»[١].

* عن المغيرة بن شعبة: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «لا يزال قوم من أمتي ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر اللَّه وهم ظاهرون»[٢].

* عن عائشة ﷺ سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى. فقلت: يا رسول الله! إن كنت لأظن حين أنزل الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾[٣]: أن ذلك تامًا. قال: إنه سيكون من ذلك ما شاء اللَّه، ثم يبعث اللَّه ريحًا طيبة، فتوفى كل من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم»[٤].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة، وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية»[٥].

★ غريب الحديث:

أليات: جمع أَلْية، بفتح فسكون: اللحمة المشرفة على الظهر والفخذ.

ذي الخلصة: هو بيت كان فيه صنم لدوس وخثعم وبجيلة وغيرهم. وقيل: ذو الخلصة: الكعبة اليمانية التي كانت باليمن، فأنفذ إليها رسول اللَّه ﷺ جرير بن عبداللَّه فخربها. وقيل: ذو الخلصة اسم الصنم نفسه.

طاغية دوس: أي صنمهم. ودوس: قبيلة ينسبون إلى دوس بن عُدثان -بضم المهملة وبعد الدال الساكنة مثلثة- بن عبداللَّه بن زهران.

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ١٠٩/ ١١٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٤٤)، والبخاري (٦/ ٧٨٤/ ٣٦٤٠)، ومسلم (٣/ ١٥٢٣/ ١٩٢١).

(٣) التوبة: الآية (٣٣).

(٤) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٣٠/ ٢٩٠٧).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٧١)، والبخاري (١٣/ ٩٥/ ٧١١٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٣٠/ ٢٩٠٦).

★ **فوائد الأحاديث:**

قال السخاوي: «بعد موت عيسى عليه السلام تهب ريح فتقبض أرواح المؤمنين، كما تقدم في أواخر الكلام على خروج يأجوج ومأجوج، مع أنه لم يقع الإفصاح هناك بكونه بعد موته، ثم إنه لم يعين جهة مجيء الريح، وقد ثبت في الصحيح: «**أن الله تعالى يبعث ريحًا من اليمن**»، وفي رواية: «**من قبل الشام**»[1]؛ فإن في حديث: «**يخرج الدجال في أمتي، فيبعث الله عيسى ابن مريم، فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين، ثم يرسل الله تعالى ريحًا باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير من إيمان إلا قبضته**»، وفيه: «**فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع**» يعني بخفة الطير: مسارعتهم وخفتهم إلى الشرور وقضاء الشهوات كطيران الطير، وكأحلام السباع؛ أي: في الإفساد والعدوان في خلق السباع العادية، لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا، فيتمثل لهم الشيطان فيأمرهم بعبادة الأوثان، ثم ينفخ في الصور -ولا مانع من المجيء منهما معًا، أو يكون ابتداؤها من أحد الإقليمين، ثم تجيء من الآخر ويتصل ذلك وينتشر، وتلك الريح ألين من الحرير- فلا تدع أحدًا في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته. .

قال النووي: (وأما الحديث الآخر: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة حتى يأتي أمر الله**»؛ فليس مخالفًا لها؛ لأن معناه أنهم لا يزالون على الحق حتى تأتيهم هذه الريح اللينة قرب القيامة وعند تظاهر أشراطها، فأطلق فيه بقاءهم إلى قيام الساعة على أشراطها ودنوها المتناهي في القرب). وقريب منه قول شيخنا: أمر الله هو هبوب تلك الريح الآتي بعد وقوع الآيات العظام التي تعقبها قيام الساعة، ولا يتخلف عنها إلا شيئًا يسيرًا، فيكون الظهور قبل هبوبها، فأما ما بعده فلا يبقى إلا الشرار وليس فيهم مؤمن، فعليهم تقوم الساعة. وعلى هذا فآخر الآيات المؤذنة بقيام الساعة هبوب تلك الريح، ولعل هذا هو الوقت المشار إليه بقوله: «**لا تقوم الساعة حتى يرجع ناس من أمتي إلى عبادة الأوثان من دون الله**

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٥٨/ ٢٩٤٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٠١/ ١١٦٢٩) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

تعالى»[١]، وفي لفظ: «**لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى؛ إن اللَّه يبعث ريحًا طيبة، فيتوفى كل من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم**». ونحوه: «**لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات** -أي: أعجاز- **نساء دوس على ذي الخلصة**» يعني: صنم دوس التي كانت تعبده في الجاهلية، وفي لفظ: «**لا تقوم الساعة حتى تتدافع مناكب نساء بني عامر على ذي الخلصة**»؛ على أن ابن بطال قال فيه وما أشبهه: (ليس المراد به أن الدين ينقطع كله في جميع أقطار الأرض حتى لا يبقى منه شيء؛ لأنه ثبت أن الإسلام إلى قيام الساعة، إلا أنه يضعف ويعود غريبًا كما بدأ. وجنح إلى أن الطائفة التي تبقى على الحق تكون ببيت المقدس، وقال: فبهذا تأتلف الأخبار)؛ يعني: حيث حملها في الطرفين على ما قال. ونازعه شيخنا بأنه ليس فيما احتج به تصريح ببقاء أولئك إلى قيام الساعة، وإنما فيه: «**حتى يأتي أمر الله**» فيحتمل أن يكون المراد بأمر اللَّه ما ذكر من قبض من بقي من المؤمنين؛ يعني: كما سلف، فظواهر الأخبار تقتضي أن الموصوفين بكونهم ببيت المقدس أن آخرهم كان مع عيسى عليه السلام، ثم إذا بعث اللَّه الريح الطيبة فقبضت روح كل مؤمن لم يبق إلا شرار الناس، وقد ثبت: «**لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس**». **وذلك إنما يقع بعد طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، وسائر الآيات العظام**»[٢].

قال ابن كثير: «وفي معنى قوله ﷺ: «**حتى لا يقال في الأرض: اللَّه، الله**» قولان:

أحدهما: أن معناه: أن أحدًا لا ينكر منكرًا، ولا يزجر أحد أحدًا إذا رآه قد تعاطى منكرًا، وعبر عن ذلك بقوله: «**حتى لا يقال: اللَّه، الله**» كما تقدم في حديث عبداللَّه بن عمرو: «**فيبقى فيها عجاجة لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا**».

والقول الثاني: حتى لا يذكر اللَّه في الأرض، ولا يعرف اسمه فيها، وذلك عند فساد الزمان، ودمار نوع الإنسان، وكثرة الكفر، والفسوق والعصيان، وهذا كما في

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٧٨)، وأبو داود (٤/ ٤٥٠-٤٥٢/ ٤٢٥٢)، وابن ماجه (٢/ ١٣٠٤/ ٣٩٥٢) مطولاً.
وأخرجه: مسلم (٣/ ١٥٢٣/ ١٩٢٠)، والترمذي (٤/ ٤٣٢/ ٢٢١٩) مختصراً من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) القناعة (ص: ٦٦-٧٢).

الحديث الآخر: «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: لا إله إلا الله**»[١]، وكما تقدم في الحديث الآخر إن الشيخ الكبير يقول: «**أدركت الناس وهم يقولون: لا إله إلا الله**»[٢]، ثم يتفاقم الأمر ويتزايد الحال، حتى يترك ذكر الله في الأرض، وينسى بالكلية، فلا يعرف فيها وأولئك شرار الناس وعليهم تقوم الساعة»[٣].

ومنها: شدة موافقة أهل الإسلام لليهود والنصارى في ركوب المحرمات والمعاصي والمخالفات:

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**لتتبعن سَنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا ذراعًا، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم. قلنا:** يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: **فمن؟**»[٤].

★ غريب الحديث:

سَنن: السَّنن: بفتح السين والنون، هو الطريق.

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «أخبر ﷺ: أن أمته قبل قيام الساعة يتبعون المحدثات من الأمور والبدع والأهواء المضلة، كما اتبعتها الأمم من فارس والروم، حتى يتغير الدين عند كثير من الناس، وقد أنذر ﷺ في كثير من حديثه أن الآخر شر، وأن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق، وأن الدين إنما يبقى قائمًا عند خاصة من المؤمنين، لا يخافون العداوات، ويحتسبون أنفسهم على الله في القول بالحق، والقيام بالمنهج القويم في دين الله»[٥].

قال النووي: «والمراد بالشبر والذراع وجحر الضب: التمثيل بشدة الموافقة لهم، والمراد الموافقة في المعاصي والمخالفات، لا في الكفر، وفي هذا معجزة

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٦٨) واللفظ له، ومسلم (١/ ١٣١/ ١٤٨) من حديث أنس بن مالك ﷺ.
(٢) أخرجه: ابن ماجه (٢/ ١٣٤٤-١٣٤٥/ ٤٠٤٩)، قال في الزوائد: «إسناده صحيح، رجاله ثقات»، وصححه الحاكم (٤/ ٥٤٥)، ووافقه الذهبي، وهو في الصحيحة رقم (٨٧) من حديث حذيفة ﷺ.
(٣) النهاية في الفتن والملاحم (١/ ١٨٦-١٨٧).
(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٨٤-٨٩)، والبخاري (١٣/ ٣٧١/ ٧٣٢٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٤/ ٢٦٦٩).
(٥) شرح ابن بطال (١٠/ ٣٦٦).

لرسول اللَّه ﷺ، فقد وقع ما أخبر به ﷺ»[١].

قال شيخ الإسلام: «فأخبر أنه سيكون في أمته مضاهاة لليهود والنصارى، وهم أهل الكتاب، ومضاهاة لفارس والروم، وهم الأعاجم، وقد كان ﷺ ينهى عن التشبه بهؤلاء وهؤلاء، وليس هذا إخبارًا عن جميع الأمة؛ بل قد تواتر عنه أنه قال: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة**»، وأخبر ﷺ «**أن اللَّه لا يجمع هذه الأمة على ضلالة**»[٢] و«**أن اللَّه لا يزال يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم فيه بطاعته**»[٣]، فعلم بخبره الصدق أن لا بد أن يكون في أمته قوم متمسكين بهديه الذي هو دين الإسلام محضًا، وقوم منحرفين إلى شعبة من شعب دين اليهود، أو إلى شعبة من شعب دين النصارى، وإن كان الرجل لا يكفر بهذا الانحراف، بل وقد لا يفسق أيضًا، بل قد يكون الانحراف كفرًا، وقد يكون فسقًا، وقد يكون سيئة، وقد يكون خطأ، وهذا الانحراف أمر تتقاضاه الطباع، ويزينه الشيطان، فلذلك أمر العبد بدوام دعاء اللَّه سبحانه بالهداية إلى الاستقامة، التي لا يهودية فيها ولا نصرانية أصلًا»[٤].

ومنها: غربة أهل الإيمان آخر الزمان:

* عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء؟ قال: النزاع من القبائل**»[٥].

---

(١) شرح صحيح مسلم (١٦/ ١٨٠).

(٢) أخرجه: الترمذي (٤/ ٤٠٥/ ٢١٦٧) وقال: «غريب من هذا الوجه»، والحاكم (١/ ١١٥-١١٦) وحكى فيه اضطراباً، ووافقه الذهبي، والحديث حسنه الشيخ الألباني بمجموع طرقه في الصحيحة رقم (١٣٣١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٠٠)، وابن ماجه (١/ ٥/ ٨)، وصححه ابن حبان (٢/ ٣٢-٣٣/ ٣٢٦)، وهو في الصحيحة (٢٤٤٢) من حديث أبي عنبة رضي الله عنه.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (ص: ٦).

(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٣٩٨)، والترمذي (٥/ ١٩/ ٢٦٢٩)، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٠/ ٣٩٨٨)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (٥/ ٢٩٦): «إسناده صحيح».

★ **غريب الحديث:**

طوبى: اسم الجنة، وقيل: شجرة فيها، وأصلها (فُعلى) من الطيب، ضمت الطاء فانقلبت الياء واوًا.

النزاع: جمع نازع ونزيع، وهو الغريب الذي نزع عن أهله وعشيرته؛ أي: بعد وغاب؛ أي: طوبى للمهاجرين الذين هجروا أوطانهم في اللَّه تعالى.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن هبيرة: «في هذا الحديث من الفقه: أن اللَّه تعالى أظهر الإسلام غريبًا، وكان في نأنأة، ثم إنه أظهره على الدين كله والمشركون راغمون، فأخبر ﷺ أنه سيعود غريبًا كما بدأ غريبًا، وهذا إنما يكون إذا انقلبت الأمور ومات العلماء، ودرست السنن وظهرت البدع، وكانت أشراط الساعة، وإن آثار ذلك ومقدماته لائحة بادية، واللَّه تعالى يتدارك عباده برأفته»[١].

قال شيخ الإسلام: «وقوله ﷺ: **«ثم يعود غريبًا كما بدأ»** يحتمل شيئين: أحدهما: أنه في أمكنة وأزمنة يعود غريبًا بينهم ثم يظهر، كما كان في أول الأمر غريبًا ثم ظهر، ولهذا قال: **«سيعود غريبًا كما بدأ»**. وهو لما بدأ كان غريبًا لا يعرف، ثم ظهر وعرف، وكذلك يعود حتى لا يعرف، ثم يظهر ويعرف، فيقل من يعرفه في أثناء الأمر كما كان من يعرفه أولًا.

ويحتمل أنه في آخر الدنيا لا يبقى مسلمًا إلا قليل. وهذا إنما يكون بعد الدجال ويأجوج ومأجوج عند قرب الساعة، وحينئذ يبعث اللَّه ريحًا تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة، ثم تقوم القيامة»[٢].

ومنها: خروج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه:

* **عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان، يسوق الناس بعصاه»**[٣].

---

(١) الإفصاح (٤/ ٢٦٠-٢٦١).

(٢) الفتاوى (١٨/ ٢٩٥-٢٩٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٤١٧)، والبخاري (٦/ ٦٧٦/ ٣٥١٧)، ومسلم (٤/ ٢٢٣٢/ ٢٩١٠).

★ **فوائد الحديث:**

بوب البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ على هذا الحديث بقوله: «باب تغير الزمان حتى تعبد الأوثان».

قال الحافظ: «وفي ذلك إشارة إلى أن ملك القحطاني يقع في آخر الزمان عند قبض أهل الإيمان، ورجوع كثير ممن يبقى بعدهم إلى عبادة الأوثان، وهم المعبر عنهم بشرار الناس الذين تقوم عليه الساعة»(١).

وقوله: «**يسوق الناس بعصاه**»:

قال القرطبي: «كناية عن استقامة الناس وانقيادهم إليه واتفاقهم عليه، ولم يرد نفس العصا، وإنما ضرب بها مثلًا لطاعتهم له، واستيلائه عليهم، إلا أن في ذكرها دليلًا على خشونته عليهم، وعسفه بهم. وقد قيل: إنه يسوقهم بعصاه، كما تساق الإبل والماشية، وذلك لشدة عنفه وعدوانه»(٢).

قال الحافظ: «شبهه بالراعي، وشبه الناس بالغنم، ونكتة التشبيه: التصرف الذي يملكه الراعي في الغنم. وهذا الحديث يدخل في علامات النبوة من جملة ما أخبر به ﷺ قبل وقوعه ولم يقع بعد»(٣).

ومنها: تشبب المشيخة:

* عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**يكون قوم في آخر الزمان يخضبون بهذا السواد**، -قال حسين: كحواصل الحمام- **لا يريحون رائحة الجنة**»(٤).

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**يخضبون بهذا السواد**»:

قال القاري: «أراد جنسه، لا نوعه المعين، فمعناه باللون الأسود، وكأنه كان متعارفًا في زمانه الشريف، ولهذا عبر عنه «**بهذا السواد**»، أو أراد السواد الصرف؛

---

(١) فتح الباري (١٣/ ١٤٤). (٢) التذكرة (٢/ ٤٨٨).

(٣) فتح الباري (٦/ ٦٧٧).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧٣)، وأبو داود (٤/ ٤١٨/ ٤٢١٢)، والنسائي (٨/ ٥١٤/ ٥٠٩٠)، وصححه الألباني [صحيح أبي داود (٢/ ٧٩٢/ ٣٥٤٨)].

ليخرج الأحمر الذي يضرب إلى السواد، كالكتم والحناء، ويؤيد تقييده بقوله: «كحواصل الحمام» أي: كصدورها؛ فإنها سود غالبًا»[١].

ومنها: تخصيص السلام بالمعرفة، وكثرة التجارة، وفشو قطيعة الرحم، وظهور الكتاب، وظهور شهادة الزور وكتمان شهادة الحق:

* عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«بين يدي الساعة تسليم الخاصة، وفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة، وقطع الأرحام، وفشو القلم، وظهور الشهادة بالزور، وكتمان شهادة الحق»**[٢].

★ فوائد الحديث:

قال الألباني رحمه الله: **«هذا الحديث من أعلام نبوته ﷺ؛ لأن كل ما فيه قد تحقق في عصرنا»**[٣].

قال في عون المعبود: «وتخصيص السلام بمن يعرف من أشراط الساعة كما جاء في الحديث»[٤].

قال النووي: «قال المتولي: إذا لقي رجل جماعة فأراد أن يخص طائفة منهم بالسلام كره؛ لأن القصد من السلام المؤانسة والألفة، وفي تخصيص البعض إيحاش للباقين، وربما صار سببًا للعداوة»[٥].

أما قوله في هذا الحديث: **«فشو القلم»**: فقال ابن عبدالبر: «فإنه أراد ظهور الكتاب، وكثرة الكتاب، روى المبارك بن فضالة، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى يرفع العلم، ويفيض المال، ويظهر القلم، ويكثر**

---

(١) المرقاة (٨/ ٢٣٢).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٤٠٧- ٤٠٨)، البخاري في الأدب المفرد (١٠٤٩) والسياق له. والحاكم (٤/ ٤٤٥- ٤٤٦) وسكت عنه وكذا الذهبي، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٢٩) وقال: «رواه كله أحمد، والبزار بعضه.. ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح»، قال الألباني في الصحيحة (٦/ ٦٣٣): «رواه البخاري في الأدب المفرد.. وأحمد.. بإسناد صحيح، رجاله ثقات رجال مسلم غير سيار، وهو سيار أبو الحكم كما وقع في رواية البخاري.. وهو ثقة من رجال الشيخين».

(٣) صحيح الأدب المفرد (ص: ٤٠٢).

(٤) عون المعبود (١٤/ ١٠٢).

(٥) الأذكار (ص: ٢٥٤) دار الحديث.

التجار»[١].

قال الحسن: لقد أتى علينا زمان، إنما يقال: تاجر بني فلان، وكاتب بني فلان، ما يكون في الحي إلا التاجر الواحد والكاتب الواحد. قال الحسن: واللَّه إن كان الرجل ليأتي الحي العظيم، فما يجد به كاتبًا»[٢].

قال الألباني: «ففي الحديث إشارة قوية إلى اهتمام الحكومات اليوم في أغلب البلاد بتعليم الناس القراءة والكتابة، والقضاء على الأمية حتى صارت الحكومات تتباهى بذلك، فتعلن أن نسبة الأمية قد قلّت عندها حتى كادت أن تمحى، فالحديث علم من أعلام نبوته ﷺ، بأبي هو وأمي. ولا يخالف ذلك -كما قد يتوهم البعض- ما صح عنه ﷺ في غير ما حديث أن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل؛ لأن المقصود به العلم الشرعي الذي به يعرف الناس ربهم ويعبدونه حق عبادته، وليس بالكتابة ومحو الأمية كما يدل على ذلك المشاهدة اليوم؛ فإن كثيرًا من الشعوب الإسلامية فضلًا عن غيرها، لم تستفد من تعلمها القراءة والكتابة على المناهج العصرية إلا الجهل والبعد عن الشريعة الإسلامية، إلا ما قلّ وندر، وذلك مما لا حكم له»[٣].

وأما قوله: **«وظهور الشهادة بالزور، وكتمان شهادة الحق»: فقال ابن عبدالبر**: «قد جعل رسول اللَّه ﷺ ظهور شهادة الزور، وكتمان شهادة الحق، من أشراط الساعة، عائبًا لذلك وموبخًا عليه، فإذا كان كتمان شهادة الحق عيبًا وحرامًا؛ فالبدار إلى الإخبار بها قبل أن يسأل عنها، فيه الفضل الجسيم، والأجر العظيم، إن شاء الله»[٤].

ومنها: ظهور قوم يلازمون السياط:

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«يوشك إن طالت بك مدة، أن**

---

(١) أخرجه ابن عبدالبر مرسلاً، ووصله النسائي (٧/ ٢٨٠/ ٤٤٦٨)، وفي الكبرى (٤/ ٥/ ٦٠٤٨)، والطيالسي (١/ ١٦١/ ١١٧١)، وصححه الحاكم (٢/ ٧)، ووافقه الذهبي بهذا السياق عن عمرو بن تغلب رضي الله عنه، وقد تقدم قريباً بسياق آخر عند أحمد (٥/ ٧٠)، والبخاري (٦/ ١٢٩/ ٢٩٢٧)، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٢/ ٤٠٩٨) عن عمرو أيضاً.

(٢) فتح البر (١١/ ٣٤٠-٣٤١).

(٣) الصحيحة (٦/ ٦٣٥).

(٤) فتح البر (١١/ ٣٤٠).

ترى قومًا في أيديهم مثل أذناب البقر، يغدون في غضب اللَّه، ويروحون في سخط اللَّه»[١].

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «هذا الحديث من معجزات النبوة، فقد وقع ما أخبر به ﷺ»[٢].

قال القرطبي: «فإنه خلف بعد تلك الأعصار قوم يلازمون السياط المؤلمة، التي لا يجوز أن يضرب بها في الحدود قصدًا لتعذيب الناس، فإن أمروا بإقامة حد أو تعزير تعدوا المشروع في ذلك؛ في الصفة والمقدار، وربما أفضى بهم الهوى، وما جبلوا عليه من الظلم إلى هلاك المضروب، أو تعظيم عذابه، وهذا أحوال الشرط بالمغرب، والعوانية في هذه البلاد. وعلى الجملة: فهم سخط اللَّه في الجملة، عاقب اللَّه بهم شرار خلقه غالبًا، نعوذ باللَّه من سخطه في الدنيا والآخرة»[٣].

ومنها: ظهور رجال لا خلاق لهم نساؤهم كاسيات عاريات:

* عن عبداللَّه بن عمرو قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **«سيكون في آخر أمتي رجال يركبون على سروج كأشباه الرجال، ينزلون على أبواب المساجد، نساؤهم كاسيات عاريات، على رؤوسهن كأسنمة البخت العجاف، العنوهنّ فإنهنّ ملعونات، لو كانت وراءكم أمة من الأمم لخدمن نساؤكم نساءَهم كما يخدمنكم نساء الأمم قبلكم»[٤].**

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «هذا الحديث من معجزات النبوة؛ فقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ. أما الكاسيات ففيه أوجه:

أحدها: معناها كاسيات من نعمة اللَّه عاريات من شكرها.

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٨و٣٢٣)، ومسلم (٤/ ٢١٩٣/ ٢٨٥٧) واللفظ له.

(٢) شرح صحيح مسلم (١٧/ ١٥٧).

(٣) المفهم (٥/ ٤٤٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٢٣)، والطبراني في الأوسط (١٠/ ١٥٤-١٥٥/ ٩٣٢٧)، وفي الصغير (١٠٩٧) مختصراً، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٣/ ٦٤/ ٥٧٥٣) واللفظ له، والحاكم (٤/ ٤٣٦) على شرط=

والثاني: كاسيات من الثياب، عاريات من فعل الخير والاهتمام لآخرتهن والاعتناء بالطاعات.

والثالث: تكشف شيئًا من بدنها إظهارًا لجمالها، فهن كاسيات عاريات.

والرابع: يلبسن ثيابًا رقاقًا تصف ما تحتها، كاسيات عاريات في المعنى»[١].

قال ابن عبدالبر: «وأما معنى «**كاسيات عاريات**»؛ فإنه أراد اللواتي يلبسن من الثياب الشيء الخفيف الذي يصف ولا يستر، فهن كاسيات بالاسم، عاريات في الحقيقة»[٢].

قال الشيخ أحمد شاكر: «وعلى كل حال.. فقد تحقق في عصرنا هذا، بل قبله، وجودُ هاته النسوة الكاسيات العاريات الملعونات»[٣].

وقال الشيخ الألباني: «في الحديث معجزة علمية غيبية أخرى غير المتعلقة بالنساء الكاسيات العاريات، ألا وهي المتعلقة برجالهن الذين يركبون السيارات ينزلون على أبواب المساجد، ولعمر الله إنها لنبوءة صادقة نشاهدها كل يوم جمعة حينما تتجمع السيارات أمام المساجد حتى ليكاد الطريق على رحبه يضيق بها، ينزل منها رجال ليحضروا صلاة الجمعة، وجمهورهم لا يصلون الصلوات الخمس، أو على الأقل لا يصلونها في المساجد، فكأنهم قنعوا من الصلوات بصلاة الجمعة، ولذلك يتكاثرون يوم الجمعة، وينزلون بسياراتهم أمام المساجد، فلا تظهر ثمرة الصلاة عليهم، وفي معاملتهم لأزواجهم وبناتهم، فهم بحق: نساؤهم كاسيات عاريات. وثمة ظاهرة أخرى ينطبق عليها الحديث تمام الانطباق، ألا وهي التي نراها في تشييع الجنائز على السيارات في الآونة الأخيرة من هذا العصر، يركبها أقوام لا خلاق لهم من الموسرين المترفين التاركين للصلاة، حتى إذا وقفت السيارة التي تحمل الجنازة وأدخلت المسجد للصلاة عليها، مكث أولئك المترفون أمام

= الشيخين، وتعقبه الذهبي بقوله: «عبدالله بن عياش وإن كان قد احتج به مسلم فقد ضعفه أبو داود والنسائي، وقال أبو حاتم: هو قريب من ابن لهيعة». وذكره الهيثمي في المجمع (٥/ ١٣٧) وقال: «رواه أحمد والطبراني في الثلاثة، ورجال أحمد رجال الصحيح»، والحديث حسنه الألباني في الصحيحة (٦/ ٤١٦).

(١) شرح صحيح مسلم (١٧/ ١٥٧).

(٢) فتح البر (٣/ ٥٩١).

(٣) شرح المسند (١٢/ ٣٨).

المسجد في سياراتهم، وقد ينزل عنها بعضهم ينتظرون الجنازة ليتابعوا تشييعها إلى قبرها نفاقًا اجتماعيًا ومداهنة، وليس تعبدًا وتذكرًا للآخرة، واللَّه المستعان. هذا هو الوجه في تأويل هذا الحديث عندي، فإن أصبت فمن اللَّه، وإن أخطأت فمن نفسي، واللَّه تعالى هو المسؤول أن يغفر لي خطئي وعمدي، وكل ذلك عندي»[١].

ومنها: خروج نار بأرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى:

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى**»[٢].

★ غريب الحديث:

بُصرى: بضم الباء: مدينة حوران المعروفة بالشام، بينها وبين دمشق نحو ثلاث مراحل[٣].

★ فوائد الحديث:

ترجم البخاري رحمه الله لهذا الحديث بقوله: «باب خروج النار». وقال أنس: قال النبي ﷺ: «**أول أشراط الساعة: نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب**»[٤].

قال الحافظ: «قال النووي: تواتر العلم بخروج هذه النار عند جميع أهل الشام. وقال أبو شامة في «ذيل الروضتين»: وردت في أوائل شعبان سنة أربع وخمسين كتب من المدينة الشريفة فيها شرح أمر عظيم حدث بها، فيه تصديق لما في الصحيحين، فذكر هذا الحديث. . قال: فأخبرني بعض من أثق به ممن شاهدها أنه بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب. . ومن ذلك أن في بعض الكتب: ظهر في أول جمعة من جمادى الآخرة في شرقي المدينة نار عظيمة، بينها وبين المدينة نصف يوم، انفجرت من الأرض، وسال منها واد من نار حتى حاذى جبل أحد. وفي كتاب آخر: انبجست الأرض من الحرة بنار عظيمة يكون قدرها مثل مسجد المدينة، وهي برأي العين من المدينة، وسال منها واد يكون مقداره أربع

---

(١) الصحيحة (٦/ ٤١٥-٤١٦).
(٢) أخرجه: البخاري (١٣/ ٩٨/ ٧١١٨)، ومسلم (٤/ ٢٢٢٧-٢٢٢٨/ ٢٩٠٢).
(٣) شرح صحيح مسلم (١٨/ ٢٤).
(٤) فتح الباري (١٣/ ٩٨).

فراسخ، وعرضه أربع أميال، يجري على وجه الأرض، ويخرج منه مهاد وجبال صغار. وفي كتاب آخر: ظهر ضوؤها إلى أن رأوها من مكة، قال: ولا أقدر أصف عظمها، ولها دوي. قال أبو شامة: ونظم الناس في هذا أشعارًا، ودام أمرها أشهرًا، ثم خمدت. والذي ظهر لي أن النار المذكورة في حديث الباب هي التي ظهرت بنواحي المدينة، كما فهمه القرطبي وغيره. وأما النار التي تحشر الناس فنار أخرى»[١].

ومنها: خراب الكعبة وانقطاع الحج:

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي صلى اللَّه عليه وآله وسلم قال: «**لا تقوم الساعة حتى لا يحج البيت**»[٢].

★ فوائد الحديث:

ظاهر هذا الحديث يعارض قوله ﷺ: «**ليحجنّ البيت، وليعتمرنّ بعد خروج يأجوج ومأجوج**»[٣]؛ قال الحافظ ابن حجر: «ولكن يمكن الجمع بين الحديثين؛ فإنه لا يلزم من حج الناس بعد خروج يأجوج ومأجوج أن يمتنع الحج في وقت ما عند قرب ظهور الساعة، ويظهر -واللَّه أعلم- أن المراد بقوله: «**ليحجنّ البيت**» أي: مكان البيت»[٤].

وقال ابن كثير: «ولا منافاة في المعنى بين الروايتين؛ لأن الكعبة يحجها الناس، ويعتمرون بها بعد خروج يأجوج ومأجوج وهلاكهم، وطمأنينة الناس، وكثرة أرزاقهم في زمان المسيح عليه الصلاة والسلام، ثم يبعث اللَّه ريحًا طيبة، فيقبض بها روح كل مؤمن ومؤمنة، ويتوفى نبي اللَّه عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، ويصلي عليه المسلمون، ويدفن بالحجرة النبوية مع رسول اللَّه ﷺ فيها[٥]، ثم يكون خراب الكعبة على يدي ذي السويقتين بعد هذا، وإن كان ظهوره

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٥٨٠/ ١٥٩٣) معلقاً بصيغة الجزم، ووصله أبو يعلى (٢/ ٢٧٧/ ٩٩١)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٥/ ١٥١/ ٦٧٥٠)، والحاكم (٤/ ٤٥٣)، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٧-٢٨)، والبخاري (٣/ ٥٨٠/ ١٥٩٣) عن أبي سعيد ﷺ.

(٤) فتح الباري (٣/ ٥٨١).

(٥) يحتاج ذلك إلى خبر صحيح.

في زمان المسيح، كما قال كعب الأحبار»[١].

قال القرطبي: «وقيل: إن خرابه يكون بعد رفع القرآن من صدور الناس ومن المصاحف، وذلك بعد موت عيسى ﷺ، وهو الصحيح في ذلك»[٢].

ومنها: مطر شديد لا تكنّ منه إلا بيوت الشعر:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى تمطر السماء مطرًا لا يكنّ منه بيوت المدر، ولا يكنّ منه إلا بيوت الشعر»**[٣].

★ غريب الحديث:

المدر: هو الطين الصلب المتماسك.

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث: «إخباره ﷺ عن المطر الشديد الذي يكون في آخر الزمان الذي يتعذر الكنّ منه في البيوت»[٤].

قال السندي: «قوله: «**لا تكنّ**» أي: لا تستر منه شيئًا؛ أي: أن ذلك المطر ينزل من بيوت المدر، ولا تمنع بيوت المدر من نزوله، ولا ينزل من بيوت الشعر، وهو تعالى قادر على كل شيء»[٥].

قال الألباني: «ثم اعلم أن ظاهره -أي حديث أبي هريرة- يخالف ما جاء في حديث النواس بن سمعان في قصة يأجوج ومأجوج، وإهلاك اللّه تعالى إياهم، حتى تنتن الأرض من زهومتهم، وفيه: «**ثم يرسل اللّه عليهم مطرًا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة**»[٦] رواه مسلم وغيره. فقوله:

---

(١) النهاية في الفتن والملاحم (١/ ١٥٦).
(٢) التذكرة (٢/ ٤٤٣).
(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٢)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٣١): وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح»، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٥/ ١٧٣-١٧٤/ ٦٧٧٠) واللفظ له.
(٤) أفاده ابن حبان في صحيحه (١٥/ ١٧٣) الإحسان.
(٥) حاشية المسند (١٣/ ١٢).
(٦) أخرجه: أحمد (٤/ ١٨١-١٨٢)، ومسلم (٤/ ٢٢٥٠-٢٢٥٥/ ٢٩٣٧)، وأبو داود (٤/ ٤٩٦-٤٩٧/ ٤٣٢١)، والترمذي (٤/ ٤٤٢-٤٤٥/ ٢٢٤١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٣٥/ ١٠٧٨٣)، وابن ماجه (٢/ ١٣٥٦-١٣٥٩/ ٤٠٧٥) عن النواس بن سمعان رضي الله عنه.

«ولا وبر» ينافي قوله في حديث الترجمة: «إلا بيت الشعر»، فلعل ذلك يكون في زمنين مختلفين»[(١)].

ومنها: إخباره ﷺ بمنع العراق والشام ومصر خراجها:

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**منعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مديها ودينارها، ومنعت مصر إردبها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم**»، شهد على ذلك لحم أبي هريرة ودمه[(٢)].

★ غريب الحديث:

قفيزها: القفيز لأهل العراق: ثمانية مكاكيك، والمكوك صاع ونصف.

مديها: الْمُدْيُ: مكيال لأهل الشام، يسع خمسة وأربعين رطلًا. وهو غير المُدّ.

إردبها: الإردب لأهل مصر: مكيال لهم يسع أربعة وعشرين صاعًا، والهمزة فيه زائدة.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وهذا منه إخبار بأن أمور الدين وقواعده يترك العمل بها لضعف القائم بها، أو لكثرة الفتن واشتغال الناس بها، وتفاقم أمر المسلمين، فلا يكون من يأخذ الزكاة ولا الجزية ممن وجبت عليه، فيمتنع من وجب عليه حق من أدائه، واللَّه تعالى أعلم»[(٣)].

قال البغوي: «وللحديث تأويلان: أحدهما: سقوط ما وظف عليهم باسم الجزية بإسلامهم، فصاروا بالإسلام مانعين لتلك الوظيفة، وذلك معنى قوله ﷺ: «**وعدتم من حيث بدأتم**» أي: كان في سابق علم اللَّه سبحانه وتعالى، وتقديره: أنهم سيسلمون، فعادوا من حيث بدؤوا.

---

(١) الصحيحة (٧/ ٧٩٥/ ٣٢٦٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٣)، ومسلم (٤/ ٢٢٢٠-٢٢٢١/ ٢٨٩٦)، وأبو داود (٣/ ٤٢٦/ ٣٠٣٥).

(٣) المفهم (٧/ ٢٣٠).

والتأويل الثاني: هو أنهم يرجعون عن الطاعة، فيمنعون ما وظف عليهم، وكان هذا القول من النبي ﷺ دليلًا على نبوته حيث أخبر عن أمر أنه واقع قبل وقوعه، فخرج الأمر في ذلك على ما قاله»[1].

ومنها: تكليم الجماد والحيوان للإنسان:

* عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس، وحتى تكلم الرجل عذبة سوطه، وشراك نعله، وتخبره فخذه بما أحدث أهله من بعده**»[2].

★ غريب الحديث:

عذبة سوطه: العذبة: بفتح العين المهملة والذال المعجمة؛ أي: السير المعلق في طرفه.

شراك نعله: بكسر الشين المعجمة: أحد سيور النعل، تكون على وجهها.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وفي هذا الحديث ما يرد على كفرة الأطباء والزنادقة الملحدين، وأن الكلام ليس مرتبطا بالهيبة والبلة، وإنما الباري جلت قدرته يخلقه متى شاء، في أي شيء شاء، من جماد أو حيوان، على ما قدره الخالق الرحمن، فقد كان الحجر[3] والشجر[4] يسلمان عليه ﷺ، تسليم من نطق وتكلم، ثبت ذلك في غير ما حديث، وهو قول أهل أصول الدين في القديم والحديث، وثبت باتفاق حديث البقرة والذئب، وأنهما تكلما، على ما أخبر عنهما ﷺ في الصحيحين[5]،

---

(١) شرح البغوي (١١/ ١٧٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٨٣-٨٤)، والترمذي (٤/ ٤١٣/ ٢١٨١) والسياق له، وقال: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث القاسم بن الفضل، والقاسم بن الفضل ثقة مأمون عند أهل الحديث وثقه يحيى بن سعيد القطان وعبدالرحمن بن مهدي»، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٤/ ٤١٨-٤١٩/ ٦٤٩٤)، والحاكم (٤/ ٤٦٧) على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٨٩)، ومسلم (٤/ ١٧٨٢/ ٢٢٧٧) عن جابر بن سمرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٠)، والبخاري (٦/ ٧٤٦/ ٣٥٨٤)، وأبو داود (١/ ٦٥٣/ ١٠٨١)، والترمذي (٢/ ٣٧٩/ ٥٠٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٥-٢٥٦)، والبخاري (٦/ ٦٣٥/ ٣٤٧١)، ومسلم (٤/ ١٨٥٧/ ٢٣٨٨)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٧/ ٨١١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قاله ابن دحية»[١].

قال التويجري: «الذي لا شك فيه أن السباع تكلم الإنس في آخر الزمان كلامًا حقيقيًا، وكذلك الفخذ، وعذبة السوط، وشراك النعل، فكلها تكلم الناس في آخر الزمان كلامًا حقيقيًا، ومن أنكر ذلك أو شك فيه؛ فهو ممن يشك في إسلامه؛ لأنه لم يحقق الشهادة بأن محمدًا رسول اللَّه، ومن تحقيقها تصديق النبي ﷺ فيما أخبر به من الغيوب الماضية، والغيوب الآتية، قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[٢]، وقال النبي ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه، ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**»[٣]. وتكليم السباع للإنس فيه خرق للعادة، وكذلك تكليم الفخذ وعذبة السوط، وشراك النعل، فكل ذلك خارق للعادة، ومستغرب جدًا، ولهذا يكون وجود ذلك دليلًا على اقتراب الساعة ودنوها»[٤].

ومن أشراط الساعة التي أخبر النبي ﷺ بها: خروج المهدي، وهو رجل صالح من آل بيت النبي ﷺ يخرج في آخر الزمان، يؤيد اللَّه به الدين، يملك خمس أو سبع سنين، يملأ الأرض عدلًا بعدما ملئت جورًا، وتكثر النعم في زمانه، فتخرج الأرض نباتها، وترسل السماء قطرها، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد:

قال ابن كثير: «وفي زمانه تكون الثمار كثيرة، والزروع غزيرة، والمال وافرًا، والسلطان قاهرًا، والدين قائمًا، والعدو راغمًا، والخير في أيامه دائمًا»[٥].

اسمه ونسبه:

* عن عبداللَّه بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لو لم يبق من الدنيا إلا يوم - قال زائدة في حديثه- لَطَوَّلَ اللَّه ذلك اليوم -ثم اتفقوا- حتى يبعث فيه رجلًا مني،**

---

(١) التذكرة (٢/ ٤٩٠).

(٢) النجم: الآيتان (٣و٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٢٣)، والبخاري (٦/ ١٣٨/ ٢٩٤٦)، ومسلم (١/ ٥٢/ ٢١[٣٤])، وأبو داود (٣/ ١٠١/ ٢٦٤٠)، والترمذي (٥/ ٥/ ٢٦٠٦)، والنسائي (٦/ ٣١١-٣١٢/ ٣٠٩٠)، وابن ماجه (٢/ ١٢٩٥/ ٣٩٢٧).

(٤) إتحاف الجماعة (٣/ ٢٢٣-٢٢٤).

(٥) النهاية (١/ ٣١).

أو من أهل بيتي، يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال القاري: «فيكون اسمه محمد بن عبدالله، وفيه رد على الشيعة حيث يقولون: المهدي الموعود هو القائم المنتظر، وهو محمد بن الحسن العسكري»[٢].

وقال شيخ الإسلام في معرض رده على ابن مطهر الرافضي: «إن لفظ الحديث حجة عليكم، لا لكم؛ فإن لفظه: «يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي»، فالمهدي الذي أخبر به النبي ﷺ اسمه: محمد بن عبدالله، لا محمد بن الحسن، وقد روي عن علي ؓ أنه قال: «هو من ولد الحسن بن علي، لا من ولد الحسين»»[٣].

قال ابن القيم: «وفي كونه من ولد الحسن سر لطيف، وهو أن الحسن ؓ ترك الخلافة لله، فجعل الله من ولده من يقوم بالخلافة الحق المتضمن للعدل الذي يملأ الأرض، وهذه سنة الله في عباده، أنه من ترك لأجله شيئًا أعطاه الله أو أعطى ذريته أفضل منه، وهذا بخلاف الحسين ؓ؛ فإنه حرص عليها وقاتل عليها فلم يظفر بها، والله أعلم»[٤].

صفته:

* عن أبي سعيد الخدري ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: **«المهدي منّي، أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما ملئت جورًا وظلمًا، ويملك سبع سنين»**[٥].

* عن علي ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: **«المهدي منا آل البيت، يصلحه الله**

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٧٧و٤٣٠و٤٤٨)، وأبو داود (٤/ ٤٧٢-٤٧٣/ ٤٢٨٢)، والترمذي (٤/ ٤٣٨/ ٢٢٣٠) وقال: «حسن صحيح»، وصححه ابن حبان (١٣/ ٤٨٤/ ٥٩٥٤).

(٢) المرقاة (٩/ ٣٥١).

(٣) منهاج السنة (٤/ ٩٥).

(٤) المنار المنيف (ص: ١٣٩).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ١٧)، وأبو داود (٤/ ٤٧٤-٤٧٥/ ٤٢٨٥) واللفظ له، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٥/ ٢٣٨/ ٦٨٢٦)، والحاكم (٤/ ٥٥٧)، قال الذهبي: «عمران ضعيف، ولم يخرج له مسلم»، وحسنه الشيخ الألباني في المشكاة رقم (٥٤٥٤)، وفي سنن أبي داود (٣٦٠٤).

في ليلة»[١].

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: خشينا أن يكون بعد نبينا حدث، فسألنا نبي الله ﷺ فقال: «**إن في أمتي المهدي يخرج، يعيش خمسًا أو سبعًا أو تسعًا** -زيد الشاكّ- قال: قلنا: وما ذاك؟ قال: سنين، قال: **فيجيء الرجل إليه، فيقول: يا مهدي! أعطني أعطني. فيحثي له في ثوبه ما استطاع أن يحمله**»[٢].

★ غريب الأحاديث:

أجلى الجبهة: أي: واسعها. وفي «النهاية»: النزعتان من جانب الرأس بما لا شعر عليه، والجلا، مقصورًا: انحسار مقدم الرأس من الشعر أو نصف الرأس أو هو دون الصلع، والنعت: أجلى وجلواء، وجبهة جلواء: واسعة.

أقنى الأنف: قال في «النهاية»: القنا في الأنف: طوله ودقة أرنبته مع حدب في وسطه، يقال: رجل أقنى، وامرأة قنواء. قال القاري: والمراد: لم يكن أفطس؛ فإنه مكروه الهيئة[٣].

★ فوائد الأحاديث:

قوله: «يملأ الأرض قسطًا وعدلًا بعدما ملئت جورًا وظلمًا»:

قال القاري: «فيكون جامعًا لما ذكر الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾[٤]،

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٨٤)، وابن ماجه (٢/ ١٣٦٧/ ٤٠٨٥). قال البوصيري في الزوائد: «قال البخاري في التاريخ عقب حديث إبراهيم بن محمد بن الحنفية هذا: في إسناده نظر، وذكره ابن حبان في الثقات ووثقه العجلي، قال البخاري: فيه نظر، ولا أعلم له حديثاً غير هذا. وقال ابن معين وأبو زرعة: لا بأس به، وأبو داود الحفري: اسمه عمر بن سعد، واحتج به مسلم في صحيحه، وباقيهم ثقات». قال الألباني في الصحيحة (ح: ٢٣٧١) بعد أن نقل كلام العلماء في ياسين العجلي: «وسائر الرواة ثقات، فالإسناد حسن لكن متابعة سالم بن أبي حفصة المتقدمة -وهو صدوق في الحديث- ترفع الحديث إلى مرتبة الصحيح، والله أعلم».

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٢١)، والترمذي (٤/ ٤٣٩/ ٢٢٣٢)، وابن ماجه (٢/ ١٣٦٦-١٣٦٧/ ٤٠٨٣)، والحاكم (٤/ ٥٥٨) من طرق عن زيد العمي عن أبي صديق الناجي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً. قال ابن عدي: وهذا الحديث مداره على زيد العمي، وبه يعرف. قلت: زيد العمي، قال عنه ابن حجر في «التقريب»: «ضعيف». وقال الترمذي: «هذا حديث حسن، وقد روي من غير وجه عن أبي سعيد عن النبي ﷺ». والحديث حسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» و«صحيح سنن ابن ماجه».

(٣) المرقاة (٩/ ٣٥١).

(٤) النحل: الآية (٩٠).

وقائمًا بما قاله العلماء من أن الدين هو التعظيم لأمر اللَّه، والشفقة على خلق اللَّه، وموصوفًا بوصف الكمال، وهو إجراء كل من تجلي الجمال وتجلي الجلال في محله اللائق بكل حال من الأحوال»[١].

قوله: «يصلحه اللَّه في ليلة»:

قال ابن كثير: «أي: يتوب عليه، ويوفقه، ويلهمه، ويرشده، بعد أن لم يكن كذلك»[٢].

قال الشيخ الألباني: «ولعل المقصود بذلك أنه يصلحه؛ أي: يعدّه لتولي قيادة المسلمين، لا أنه كان فاسقًا فأصلحه اللَّه وتاب عليه»[٣].

* عن جابر ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثيًا ولا يعدّه عدًّا»**[٤].

★ فوائد الحديث:

قال المناوي: «قالوا: وهو المهدي»[٥].

وأشار إليه القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: «وقد روى الترمذي وأبو داود أحاديث صحيحة في هذا الخليفة، وسمياه بالمهدي»[٦].

وقال الشيخ الألباني: «وهو المهدي المبشر بخروجه بين يدي نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويصلي عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ خلفه»[٧].

وفي قوله: «يحثي المال حثيًا» يقول النووي: «هذا الحثو الذي يفعله هذا الخليفة؛ يكون لكثرة الأموال والغنائم والفتوحات مع سخاء نفسه»[٨].

مسألة تعيين المهدي:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد اختلف الناس في المهدي على أربعة أقوال:

---

(١) المرقاة (٩/ ٣٥٠). (٢) النهاية (١/ ٢٩).

(٣) قصة المسيح الدجال (ص: ١٤١).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٣٣)، ومسلم (٤/ ٢٢٣٤/ ٢٩١٣).

(٥) فيض القدير (٦/ ١٣). (٦) المفهم (٧/ ٢٥٢).

(٧) صحيح الجامع (٥/ ٢١٧).

(٨) شرح مسلم (١٨/ ٣٢).

أحدها: أنه المسيح ابن مريم، وهو المهدي على الحقيقة.

واحتج أصحاب هذا بحديث محمد بن خالد الجندي المتقدم[١]، وقد بينا حاله وأنه لا يصح، ولو صح لم يكن فيه حجة؛ لأن عيسى أعظم مهدي بين يدي رسول اللَّه ﷺ وبين الساعة.

وقد دلت السنة الصحيحة عن النبي ﷺ على نزوله على المنارة البيضاء شرقي دمشق[٢]، وحكمه بكتاب اللَّه، ووضعه الجزية[٣]، وإهلاك أهل الملل في زمانه.

فيصح أن يقال: لا مهدي في الحقيقة سواه، وإن كان غيره مهديًا؛ كما يقال: لا علم إلا ما نفع، ولا مال إلا ما وقى وجه صاحبه. وكما يصح أن يقال: إنما المهدي عيسى ابن مريم، يعني المهدي الكامل المعصوم.

القول الثاني: أنه المهدي الذي ولي من بني العباس، وقد انتهى زمانه.

واحتج أصحاب هذا القول بما رواه أحمد في مسنده: حدثنا وكيع عن شريك عن علي بن زيد عن أبي قلابة عن ثوبان قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا رأيتم الرايات السود قد أقبلت من خراسان، فائتوها ولو حبوًا على الثلج؛ فإن فيها خليفة اللَّه المهدي**»[٤].

وعلي بن زيد قد روى له مسلم متابعة، ولكن هو ضعيف، وله مناكير تفرد بها، فلا يحتج بما ينفرد به. وفي سنن ابن ماجه عن عبداللَّه بن مسعود قال: «بينما نحن عند رسول اللَّه ﷺ إذ أقبل فتية من بني هاشم، فلما رآهم النبي ﷺ اغرورقت

---

(١) وهو: «لا مهدي إلا عيسى ابن مريم» أخرجه: ابن ماجه (٢/ ١٣٤٠-١٣٤١/ ٤٠٣٩)، والحاكم (٤/ ٤٤١)، وبين علته فقال: «فذكرت ما انتهى إليه من علة هذا الحديث تعجباً لا محتجّاً به»، ووافقه الذهبي. قال في الضعيفة (٧٧): منكر من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٨١-١٨٢)، ومسلم (٤/ ٢٢٥٠-٢٢٥٥/ ٢٩٣٧)، وأبو داود (٤/ ٤٩٦-٤٩٧/ ٤٣٢١)، والترمذي (٤/ ٤٤٢-٤٤٥/ ٢٢٤١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٣٥/ ١٠٧٨٣)، وابن ماجه (٢/ ١٣٥٦-١٣٥٩/ ٤٠٧٥) عن النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٠٦)، وأبو داود (٤/ ٤٩٨-٤٩٩/ ٤٣٤)، وصححه ابن حبان (١٥/ ٢٣٣-٢٣٤/ ٦٨٢١)، والحاكم (٢/ ٥٩٥)، ووافقه الذهبي، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٧٧)، وابن ماجه (٢/ ١٣٦٧/ ٤٠٨٤)، وصححه الحاكم (٤/ ٤٦٣-٤٦٤)، ووافقه الذهبي، لكن له علل بينها الشيخ الألباني، وحكم بنكارته. انظر الضعيفة (٨٥).

عيناه. . »[1] الحديث. وفي إسناده يزيد بن أبي زياد، وهو سيئ الحفظ، اختلط في آخر عمره، وكان يقبل التلقين، وهذا والذي قبله لو صح لم يكن فيه دليل على أن المهدي الذي تولى من بني العباس هو المهدي الذي يخرج في آخر الزمان؛ بل هو مهديٌّ من جملة المهديين، وعمر بن عبدالعزيز كان مهديًّا؛ بل هو أولى باسم المهدي منه، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**»[2].

وقد ذهب الإمام أحمد -في إحدى الروايتين عنه- وغيره إلى أن عمر بن عبدالعزيز منهم، ولا ريب أنه كان راشدًا مهديًا، ولكن ليس بالمهدي الذي يخرج في آخر الزمان؛ فالمهدي في جانب الخير والرشد كالدجال في جانب الشر والضلال، وكما أن بين يدي الدجال الأكبر صاحب الخوارق دجالين كذابين؛ فكذلك بين يدي المهدي الأكبر مهديون راشدون.

القول الثالث: أنه رجل من أهل بيت النبي ﷺ من ولد الحسن بن علي، يخرج في آخر الزمان، وقد امتلأت الأرض جورًا وظلمًا، فيملؤها قسطًا وعدلًا. وأكثر الأحاديث على هذا تدل. .

وأما الرافضة الإمامية فلهم قول رابع: وهو أن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري المنتظر من ولد الحسين بن علي، لا من ولد الحسن، الحاضر في الأمصار، الغائب عن الأبصار!! الذي يورث العصا ويختم الفضا، دخل سرداب سامراء طفلًا صغيرًا من أكثر من خمس مئة سنة، فلم تره بعد ذلك عين، ولم يحس فيه بخبر ولا أثر!! وهم ينتظرونه كل يوم يقفون بالخيل على باب السرداب، ويصيحون به أن يخرج إليهم: اخرج يا مولانا! اخرج يا مولانا! ثم يرجعون بالخيبة والحرمان، فهذا دأبهم ودأبه. ولقد أحسن من قال:

---

(١) أخرجه: ابن ماجه (٢/ ١٣٦٦/ ٤٠٨٢)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٨٥/ ١٠٠٣١)، وفي الأوسط (٦/ ٣٢٧/ ٥٦٩٥)، والبزار في البحر الزخار (٤/ ٣١٠/ ١٤٩١)، والحاكم (٤/ ٤٦٤)، وقال الذهبي: «هذا موضوع». وقال الشيخ الألباني في ضعيف ابن ماجه (٨٨٦): «ضعيف».

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٦-١٢٧)، وأبو داود (٥/ ١٣-١٥/ ٤٦٠٧)، والترمذي (٥/ ٤٣-٤٤/ ٢٦٧٦) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ١٦-١٧/ ٤٣-٤٤)، وصححه ابن حبان (١/ ١٧٨-١٧٩/ ٥)، والحاكم (١/ ٩٥-٩٧) ووافقه الذهبي، من حديث العرباض بن سارية ﷺ.

ما آن للسرداب أن يلد الذي كلمتموه بجهلكم ما آنا
فعلى عقولكم العفاء فإنكم ثلثتم العنقاء والغيلانا

ولقد أصبح هؤلاء عارًا على بني آدم وضحكة يسخر منهم كل عاقل.

أما مهدي المغاربة محمد بن تومرت، فإنه رجل كذاب ظالم متغلب بالباطل، ملك بالظلم والتغلب والتحيل، فقتل النفوس وأباح حريم المسلمين، وسبى ذراريهم، وأخذ أموالهم، وكان شرًّا على الملة من الحجاج بن يوسف بكثير، وكان يودع بطن الأرض في القبور جماعة من أصحابه أحياء يأمرهم أن يقولوا للناس: إنه المهدي الذي بشر به النبي ﷺ، ثم يردم عليهم ليلًا لئلا يكذّبوه بعد ذلك، وسمى أصحابه الجهمية نفاة صفات الرب، وكلامه وعلوه على خلقه واستوائه على عرشه ورؤية المؤمنين له بالأبصار يوم القيامة: الموحدين! واستباح قتل من خالفهم من أهل العلم والإيمان، وتسمى بالمهدي المعصوم. ثم خرج المهدي الملحد عبدالله بن ميمون القداح، وكان جده يهوديًا من بيت مجوسي، فانتسب بالكذب والزور إلى أهل البيت، وادعى أنه المهدي الذي بشر به النبي ﷺ، وملك وتغلب، واستفحل أمره إلى أن استولت ذريته الملاحدة المنافقون -الذين كانوا أعظم الناس عداوة لله ولرسوله- على بلاد المغرب ومصر والحجاز والشام، واشتدت غربة الإسلام ومحنته ومصيبته، وكانوا يدّعون الإلهية، ويدّعون أن للشريعة باطنًا يخالف ظاهرها، وهم ملوك القرامطة الباطنية أعداء الدين، فتستروا بالرفض والانتساب كذبًا إلى أهل البيت، ودانوا بدين أهل الإلحاد، ولم يزل أمرهم ظاهرًا إلى أن أنقذ الله الأمة، ونصر الإسلام بصلاح الدين يوسف بن أيوب، فاستنقذ الملة الإسلامية منهم وأبادهم، وعادت مصر دار إسلام بعد أن كانت دار نفاق وإلحاد في زمنهم.

والمقصود أن هؤلاء لهم مهدي، وأتباع ابن تومرت لهم مهدي، والرافضة الاثنا عشرية لهم مهدي، فكل هذه الفرق تدعي في مهديها الظلوم الغشوم والمستحيل المعدوم؛ أنه الإمام المعصوم والمهدي المعلوم الذي بشر به النبي ﷺ وأخبر بخروجه، وهي تنتظره كما تنتظر اليهود القائم الذي يخرج في آخر الزمان فتعلو به كلمتهم، ويقوم به دينهم، وينصرون به على جميع الأمم، والنصارى تنتظر المسيح يأتي قبل يوم القيامة، فيقيم دين النصرانية ويبطل سائر الأديان، وفي

عقيدتهم نزع المسيح الذي هو إله حق من إله حق من جوهر أبيه الذي نزل طامينا، إلى أن قالوا: وهو مستعد للمجيء قبل يوم القيامة، فالملل الثلاث تنتظر إمامًا قائمًا يقوم في آخر الزمان، ومنتظر اليهود الدجال الذي يتبعه من يهود أصبهان سبعون ألفًا، وفي المسند مرفوعًا عن النبي ﷺ: «**أكثر أتباع الدجال اليهود والنساء**»[١]. والنصارى تنتظر المسيح عيسى ابن مريم، ولا ريب في نزوله، ولكن إذا نزل كسر الصليب، وقتل الخنزير، وأباد الملل كلها سوى ملة الإسلام»[٢].

العلامات التي يعرف بها عند خروجه:

* عن أم سلمة ﵂ قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يعوذ عائذ بالبيت، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم**»[٣].

★ فوائد الحديث:

ترجم له ابن حبان بقوله: «ذكر الخبر المصرح بأن القوم الذين يخسف بهم إنما هم القاصدون إلى المهدي في زوال الأمر عنه»[٤].

وقال الطيبي: «وهو المهدي بدليل إيراد أبي داود هذا الحديث في باب المهدي»[٥].

وقال ابن حجر الهيثمي: «إن ذلك العائذ هو المهدي، وأن تلك البيداء الحُلَيفة»[٦].

* عن جابر بن عبداللَّه ﵁ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، فينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء؛ تكرمة اللَّه هذه**

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢١٦-٢١٧)، والطبراني في الكبير (٩/ ٦٠/ ٨٣٩٢)، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٤٢): «رواه أحمد والطبراني، وفيه علي بن زيد، وفيه ضعف وقد وثق، وبقية رجالهما رجال الصحيح»، وصححه الحاكم (٤/ ٤٧٨)، وتعقبه الذهبي بقوله: «أبو هبيرة واهٍ».

(٢) المنار المنيف (ص: ١١٤-١٢٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٩٠)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٩/ ٢٨٨٢)، وأبو داود (٤/ ٤٧٦-٤٧٧/ ٤٢٨٩)، والترمذي (٤/ ٤٠٧/ ٢١٧١).

(٤) الإحسان (١٥/ ١٥٨).

(٥) شرح المشكاة (١١/ ٣٤٤٤).

(٦) الزواجر (١/ ٤٧٠).

الأمة»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال محمد حبيب اللَّه الشنقيطي: «ولم يعين الإمام هنا باسمه؛ بل أطلق، وورد مقيّدًا بأنه المهدي في أحاديث أُخر، منها: ما أخرجه أبو نعيم عن أبي سعيد والحارث بن أبي أسامة عن جابر أن النبي ﷺ قال: «**ينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم المهدي: تعال صلّ بنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمير تكرمة اللَّه لهذه الأمة**». قال ابن القيم بعد ذكره حديث الحارث: وهذا إسناد جيد»[٢].

قال أبو الحسن الأبري في مناقب الشافعي: «تواترت الأخبار بأن المهدي من هذه الأمة، وأن عيسى يصلي خلفه»[٣].

وقال السيوطي: «إن صلاة عيسى عليه السلام خلف المهدي ثابتة في عدة أحاديث صحيحة بإخبار النبي ﷺ، وهو الصادق المصدوق»[٤].

وقال صديق حسن خان -بعد ذكر حديث جابر السابق-: «ليس فيه ذكر المهدي، ولكن لا محمل له ولأمثاله من الأحاديث إلا المهدي المنتظر؛ لما دلت عليه الأخبار المتقدمة والآثار الكثيرة»[٥].

وقال الشيخ الألباني: «هو المهدي محمد بن عبداللَّه عليه السلام؛ كما تظاهرت بذلك الأحاديث بأسانيد بعضها صحيح، وبعضها حسن»[٦].

وقال المناوي: «نزول عيسى لقتل الدجال يكون في زمن المهدي، ويصلي عيسى خلفه كما جاءت به الأخبار، وجزم به جمع من الأخيار»[٧].

مكان وزمان خروجه:

قال ابن كثير: «ويكون ظهوره من بلاد المشرق، لا من سرداب سامراء كما يزعمه جهلة الرافضة؛ من أنه موجود فيه الآن، وهم ينتظرون خروجه في آخر

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٥-٣٨٤)، ومسلم (١/ ١٣٧/ ١٥٦).

(٢) المهدي وفقه أشراط الساعة (ص: ٥٣).

(٣) نقلاً عن الفتح (٦/ ٦١١).

(٤) نزول عيسى آخر الزمان (ص: ٥٦).

(٥) الإذاعة (ص: ٧٨).

(٦) مختصر صحيح مسلم للمنذري (ص: ٣٠٩).

(٧) فيض القدير (٦/ ٣٠١).

الزمان؛ فإن هذا نوع من الهذيان، وقسط كبير من الخذلان شديد من الشيطان؛ إذ لا دليل على ذلك ولا برهان، لا من كتاب ولا سنة ولا معقول صحيح ولا استحسان»[١].

وقال: «والمقصود أن المهدي الممدوح الموعود بوجوده في آخر الزمان؛ يكون أصل ظهوره وخروجه من ناحية المشرق، ويبايع له عند البيت، كما دل على ذلك بعض الأحاديث»[٢].

مسألة: فيمن يمكث المهدي ومدة مكثه:

* عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**لا تنقضي الأيام ولا يذهب الدهر حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي، اسمه اسمي**»[٣].

قال الطيبي: «قوله: «**يملك العرب**» لم يذكر العجم، وهم مرادون أيضًا؛ لأنه إذا ملك العرب واتفقت كلمتهم، وكانوا يدًا واحدة، قهروا سائر الأمم»[٤].

قال القاري: «ويمكن أن يقال: ذكر العرب لغلبتهم في زمنه، أو لكونهم أشرف، أو هو من باب الاكتفاء، ومراده العرب والعجم، كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾[٥] أي: والبرد. والأظهر أنه اقتصر على ذكر العرب؛ لأنهم كلهم يطيعونه بخلاف العجم، بمعنى ضد العرب؛ فإنه قد يقع منهم خلاف في طاعته، والله تعالى أعلم»[٦].

قال ابن كثير: «وهذا يدل على أن أكبر مدته تسع، وأقلها خمس أو سبع»[٧].

تواتر أحاديث المهدي:

قال الشوكاني: «والأحاديث الواردة في المهدي التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثًا، فيها الصحيح والضعيف المنجبر، وهي متواترة بلا شك ولا شبهة، بل يصدق وصف التواتر على ما هو دونها على جميع الاصطلاحات المحررة في

---

(١) النهاية (١/ ٢٩).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٣٠).
(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٧٧)، وأبو داود (٤/ ٤٧٢-٤٧٣/ ٤٢٨٢)، والترمذي (٤/ ٤٣٨/ ٢٢٣٠) وقال: «حسن صحيح»، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٣/ ٢٨٤/ ٥٩٥٤).
(٤) الكاشف (١١/ ٣٤٤٣).
(٥) النحل: الآية (٨١).
(٦) المرقاة: (٩/ ٣٤٩).
(٧) النهاية في الفتن والملاحم (١/ ٣١).

الأصول. وأما الآثار عن الصحابة المصرحة بالمهدي فهي كثيرة أيضًا، لها حكم الرفع؛ إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك»[١].

قال صديق حسن خان: «والأحاديث الواردة فيه على اختلاف رواياتها كثيرة جدًّا، تبلغ حد التواتر، وهي في السنن وغيرها من دواوين الإسلام من المعاجم والمسانيد»[٢].

قال البرازنجي: «واعلم أن الأحاديث الواردة في المهدي على اختلاف رواياتها لا تكاد تنحصر، فقد قال محمد بن الحسن الأسنوي في كتاب «مناقب الشافعي»: قد تواترت الأخبار عن رسول اللَّه ﷺ بذكر المهدي وأنه من أهل بيته، انتهى. . إلى أن قال: قد علمت أن أحاديث وجود المهدي وخروجه آخر الزمان، وأنه من عترة رسول اللَّه ﷺ من ولد فاطمة، بلغت حد التواتر المعنوي، فلا معنى لإنكارها»[٣].

قال أبو الحسن الأبري: «قد تواترت الأخبار واستفاضت، وكثرت بكثرة رواتها عن المصطفى ﷺ بخروجه، وأنه من أهل بيته، وأنه يملك سبع سنين، وأنه يملأ الأرض عدلًا، وأنه يخرج مع عيسى عليه السلام، فيساعده على قتل الدجال بباب لد بأرض فلسطين، وأنه يؤم هذه الأمة ويصلي عيسى خلفه»[٤].

قال محمد بن جعفر الكتاني: «الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة، وكذا الواردة في الدجال، وفي نزول سيدنا عيسى عليه السلام»[٥].

ومن هذه الأشراط ما تضمنه حديث عوف بن مالك رضي الله عنه:

* عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك -وهو في قبة من أدم- فقال: **«اعدد ستًّا بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني**

---

(١) (التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح) نقلاً عن الإذاعة (ص: ٦٢).

(٢) الإذاعة (ص: ٦١). (٣) الإشاعة (ص: ١٨٤).

(٤) القناعة (ص: ٧٩).

(٥) نظم المتناثر من الحديث المتواتر (ص: ١٤٧).

الأصفر، فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفًا»[(١)].

⋆ غريب الحديث:

موتان: بضم الميم وسكون الواو، بوزن البطلان: الموت الكثير الوقوع. ويروى أيضًا بفتح الميم.

قعاص الغنم: القعاص بالضم: داء يأخذ الغنم لا يلبثها أن تموت.

بنو الأصفر: هم الروم.

هدنة: بضم الهاء وسكون المهملة بعدها نون: هي الصلح على ترك القتال بعد التحرك فيه.

غاية: الغاية الراية وسميت بذلك لأنها غاية المتبع إذا وقفت وقف.

⋆ فوائد الحديث:

قال العيني: «وهذه الست المذكورة ظهرت منها الخمس: موت النبي ﷺ، وفتح بيت المقدس، والموتان كان في طاعون عمواس زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، مات فيه سبعون ألفًا في ثلاثة أيام، واستفاضة المال كانت في خلافة عثمان رضي الله عنه، عند تلك الفتوح العظيمة والفتنة استمرت بعده، والسادسة لم تجئ بعد»[(٢)].

فأما موته ﷺ فهو من أعظم المصائب في الدين.

قال القرطبي: «أول أمر دهم الإسلام موت النبي ﷺ ثم بعده موت عمر، فبموت النبي ﷺ انقطع الوحي وماتت النبوة وكان أول ظهور الشر بارتداد العرب وغير ذلك، وكان أول انقطاع الخير وأول نقصانه، قال أبو سعيد: ما نفضنا أيدينا من التراب من قبر رسول الله ﷺ حتى أنكرنا قلوبنا، وقال أبو بكر الصديق في أبيات يرثي بها النبي ﷺ:

فلتحدثن حوادث من بعده ... تعنى بهن جوانح وصدور

وقالت صفية بنت عبد المطلب في أبيات ترثي بها النبي ﷺ:

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٥)، والبخاري (٦/ ٣٤٠-٣٤١/ ٣١٧٦)، وأبو داود (٥/ ٢٧١-٢٧٢/ ٥٠٠٠)، وابن ماجه (٢/ ١٣٤١-١٣٤٢/ ٤٠٤٢).

(٢) عمدة القاري (١٠/ ٥٣٠) ينظر كلام المقريزي (١٣/ ١٩١).

لعمرك ما أبكي النبي لفقده ... ولكن ما أخشى من الهرج آتيا»[١].

وأما بيت المقدس؛ فقد «فتح مرتين مرة في زمن عمر ومرة في زمن الأكراد الأيوبية، فتحه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الملك الناصر، وكان من أعظم فتوح الإسلام، ثم بعد موته رده بعض أولاده إلى النصارى، ثم استرده حفيده داود الملك الناصر، وأنشد في ذلك بعض الشعراء يهنيه:

المسجد الأقصى له عادة ... إذا غدا بالكفر مستوطنا

فناصر طهره أولا ... سارت فصارت مثلا سائرا

أن يبعث اللَّه له ناصرا ... وناصر طهره آخرا»[٢].

وأما الموتان؛ فقد قال عنه الطيبي: «كان ذلك في طاعون عمواس زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو أول طاعون وقع في الإسلام، مات منه سبعون ألفًا في ثلاثة أيام»[٣].

قال الحافظ ابن كثير: «المشهور الذي عليه الجمهور أن طاعون عمواس كان بها -أي: سنة ثماني عشرة-، وقد تبعنا قول سيف بن عمر وابن جرير في إيراده ذلك في السنة التي قبلها، لكنا نذكر وفاة من مات في الطاعون في هذه السنة إن شاء اللَّه تعالى، قال ابن إسحاق وأبو معشر: كان في هذه السنة طاعون عمواس وعام الرمادة، فتفانى فيهما الناس»[٤].

قال المقريزي: «قال سيف بن عمر: قالوا: ووقع الطاعون بالشام ومصر والعراق، واستقر في الشام، ومات فيه الناس الذين هم في أهل الأمصار، وفي المحرم وصفر، يعني سنة سبع عشرة وارتفع عن الناس، وكتبوا إلى عمر -رضي اللَّه تبارك وتعالى عنه- بإخلاء الشام، قالوا: وكان ذلك الطاعون موتانًا لم ير مثيله، طمع له العدو في الناس، وتخوفت له قلوب المسلمين لما كثر موته، وطال مكثه حتى ما تكلم في ذلك اثنان فاختلفوا، فأمر معاذ بن جبل رضي اللَّه تبارك وتعالى عنه بالصبر حتى ينجلي، وأمر عمرو بن عبسة بالتنحي»[٥].

---

(١) التذكرة (٢/ ٤٧٩).
(٢) من كلام البرازنجي في الإشاعة (ص: ٨٢).
(٣) شرح الطيبي (١١/ ٣٤٢٥).
(٤) البداية والنهاية (٧/ ٩٢).
(٥) إمتاع الأسماع (١٣/ ١٩٣).

«وممن مات في طاعون عمواس من مشاهير الصحابة: أبو عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وشرحبيل بن حسنة، والفضل بن العباس وهو ابن عم رسول اللَّه ﷺ، وأبو مالك الأشعري، ويزيد بن أبي سفيان أخو معاوية، والحارث بن هشام أخو أبي جهل، وأبو جندل الذي جاء يوم الحديبية يرسف في قيوده، وسهيل بن عمرو الذي قام بمكة يوم مات النبي ﷺ فثبت الناس، وهو والد أبي الجندل»[(١)].

وأما استفاضة المال «فالمراد به كثرته»[(٢)].

قوله: «**حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا**» «أي: غضبان لعده المائة قليلًا، وهذه الكثرة ظهرت في خلافة عثمان رضي اللَّه تعالى عنه عند الفتوح، وأما اليوم فبعض أهل زماننا يعدون الألف قليلًا ويحقرونه»[(٣)].

وأما الفتنة التي لا يبقى بيت من بيوت العرب إلا دخلته؛ فقال المهلب: «والفتنة لم تزل من زمن عثمان، عصمنا اللَّه من مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن، وقد دعا ﷺ ألا يجعل بأس أمته بينهم»[(٤)].

وأما الهدنة التي تكون بين المسلمين وبين بني الأصفر؛ أي: الروم؛ فقد قال عنها ابن المنير: «أما قصة الروم فلم تجتمع إلى الآن، ولا بلغنا أنهم غزوا في البر في هذا العدد، فهي من الأمور التي لم تقع بعد، وفيه بشارة ونذارة، وذلك أنه دل على أن العاقبة للمؤمنين مع كثرة ذلك الجيش، وفيه إشارة إلى أن عدد جيوش المسلمين سيكون أضعاف ما هو عليه، ووقع في رواية للحاكم من طريق الشعبي عن عوف بن مالك في هذا الحديث: «**أن عوف بن مالك قال لمعاذ في طاعون عمواس: إن رسول اللَّه ﷺ قال لي**: اعدد ستًّا بين يدي الساعة، فقد وقع منهن ثلاث، يعني موته ﷺ وفتح بيت المقدس والطاعون، قال: وبقي ثلاث، فقال له معاذ: إن لهذا أهلًا»[(٥)]»[(٦)].

---

(١) الإشاعة (ص: ٩٩-١٠٠).

(٢) البغوي في شرح السنة (١٥/ ٤٤).

(٣) قاله القاري في المرقاة (٩/ ٣٠٥).

(٤) شرح ابن بطال على البخاري (٥/ ٣٥٨).

(٥) أخرجه الحاكم (٤/ ٤٢٢-٤٢٣) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٦) قاله الحافظ في الفتح (٦/ ٣٤٢-٣٤٣).

قال المهلب: «في هذا الحديث علامات النبوة، وأن الغدر من أشراط الساعة»[(١)].

قلت: وقد ثبت تفسير هذه الهدنة في حديث ذي مخبر ﷺ:

* عن حسان بن عطية قال: مال مكحول وابن أبي زكرياء إلى خالد بن معدان وملت معهم، فحدثنا عن جبير بن نفير قال: قال جبير: انطلق بنا إلى ذي مخبر: رجل من أصحاب النبي ﷺ، فأتيناه فسأله جبير عن الهدنة، فقال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**ستصالحون الروم صلحًا آمنًا، فتغزون أنتم وهم عدوًّا من ورائكم، فتنصرون وتغنمون وتسلمون، ثم ترجعون حتى تنزلوا بمرج ذي تلول، فيرفع رجل من أهل النصرانية الصليب فيقول: غلب الصليب، فيغضب رجل من المسلمين فيدقه، فعند ذلك تغدر الروم وتجمع للملحمة**»[(٢)].

★ غريب الحديث:

الروم: جيل معروف في بلاد واسعة تضاف إليهم فيقال: بلاد الروم. . وأما حدود الروم؛ فمشارقهم وشمالهم الترك والخزر ورس، وهم الروس، وجنوبهم الشام والإسكندرية، ومغاربهم البحر والأندلس، وكانت الرقة والشامات كلها تعد في حدود الروم أيام الأكاسرة، وكانت دار الملك أنطاكية، إلى أن نفاهم المسلمون إلى أقصى بلادهم[(٣)].

★ فوائد الحديث:

قال القاري: «قوله: «**ستصالحون الروم**» الخطاب للمسلمين، «**صلحًا**»: مفعول مطلق من غير بابه، أو بحذف الزوائد، «**آمنًا**» بالمد: صفة «**صلحًا**»؛ أي: صلحًا ذا أمن، أو على أن الإسناد مجازي، «**فتغزون أنتم**» أي: فتقاتلون أيها المسلمون، «**وهم**» أي: الروم المصالحون معكم «**عدوًّا من ورائكم**» أي: من

---

(١) شرح ابن بطال على البخاري (٥/ ٣٥٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٩١)، وأبو داود (٤/ ٤٨١/ ٤٢٩٢) واللفظ له، وابن ماجه (٢/ ١٣٦٩/ ٤٠٨٩) وقال البوصيري: «إسناده حسن»، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٥/ ١٠١-١٠٣/ ٦٧٠٨-٦٧٠٩)، والحاكم (٤/ ٤٢١) ووافقه الذهبي.

(٣) معجم البلدان (٣/ ٩٧-٩٨).

خلفكم، «**فتنصرون**» بصيغة المفعول؛ أي: فينصركم اللّه عليهم، «**وتغنمون**» أي: الأموال، «**وتسلمون**» أي: من القتل والجرح في القتال، «**ثم ترجعون**» أي: عن عدوكم، «**حتى تنزلوا**» أي: أنتم وأهل الروم «**بمرج**» بفتح فسكون؛ أي: روضة، وفي النهاية: أرض واسعة ذات نبات كثير، «**ذي تلول**» بضم التاء: جمع تل بفتحها، وهو موضع مرتفع، «**فيرفع رجل من أهل النصرانية**»: وهو الأروام حينئذ، «**الصليب**»: وهو خشبة مربعة، يدعون أن عيسى ﷺ صلب على خشبة كانت على تلك الصورة، «**فيقول**» أي: الرجل منهم، «**غلب الصليب**» أي: غلبنا ببركة الصليب، «**فيغضب رجل من المسلمين**» حيث نسب الغلبة لغير الحبيب، «**فيدقه**» أي: فيكسر المسلم الصليب، «**فعند ذلك تغدر الروم**» بكسر الدال؛ أي: تنقض العهد، «**وتجمع**» أي: رجالهم ويجتمعون، «**للملحمة**» أي: للقتال أو للمقتلة، «**وزاد بعضهم**» أي: الرواة، «**فيثور**» أي: يعدو ويقوم، «**المسلمون إلى أسلحتهم**» أي: مسرعون وناهضين إليها، «**فيقتتلون**» أي: معهم، «**فيكرم اللّه تلك العصابة**» أي: الجماعة من المسلمين «**بالشهادة**»، وجعلهم اللّه شهداء ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ﴾[1][2] الآية»[3].

وقد دل على هذه المعاني أحاديث صحيحة منها:

* عن يُسَير بن جابر قال: هاجت ريح حمراء بالكوفة، فجاء رجل ليس له هِجّيرى إلا: يا عبداللّه بن مسعود! جاءت الساعة. قال: فقعد وكان متكئًا، فقال: إن الساعة لا تقوم حتى لا يقسم ميراث، ولا يفرح بغنيمة، ثم قال بيده هكذا، ونحاها نحو الشام، فقال: عدو يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهل الإسلام. قلت: الروم تعني؟ قال: نعم، وتكون عند ذاكم القتال ردة شديدة، فيشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء

---

(١) آل عمران: الآيتان (١٦٩و١٧٠).
(٢) هي لأبي داود (٤/ ٤٨١-٤٨٢/ ٤٢٩٣).
(٣) مرقاة المفاتيح (٩/ ٣١٨-٣١٩).

وهؤلاء، كل غير غالب وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يمسوا، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب وتفنى الشرطة، فإذا كان يوم الرابع، نهد إليهم بقية أهل الإسلام، فيجعل اللَّه الدبرة عليهم، فيقتلون مقتلة -إما قال لا يرى مثلها، وإما قال: لم ير مثلها- حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم فما يخلفهم حتى يخر ميتًا، فيتعاد بنو الأب، كانوا مائة، فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد، فبأي غنيمة يفرح؟ أو أي ميراث يقاسم؟ فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك، فجاءهم الصريخ، إن الدجال قد خلفهم في ذراريهم، فيرفضون ما في أيديهم ويقبلون، فيبعثون عشرة فوارس طليعة، قال رسول اللَّه ﷺ: «**إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم، وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ**»[(١)].

★ غريب الحديث:

ليس له هجيرى: أي ليس له شأن ودأب، وهجيرى: بكسر الهاء والجيم مشددة مقصورة، بمعنى الهجير.

فيشترط المسلمون شرطة للموت: قال النووي: «أما قوله «فيشترط» فضبطوه بوجهين:

أحدهما: فيشترط بمثناة تحت ثم شين ساكنة ثم مثناة فوق.

والثاني: فيتشرط بمثناة تحت ثم مثناة فوق ثم شين مفتوحة وتشديد الراء»[(٢)].

والشرطة: «بضم الشين: طائفة من الجيش تقدم للقتال».

نهد إليهم بقية أهل الإسلام: نهد بفتح النون والهاء؛ أي: نهض وتقدم.

فجعل اللَّه الدبرة عليهم: الدبرة، بفتح الدال: أي الهزيمة، وروي الدائرة، بالألف بعدها همزة: وهي بمعنى الدبرة، قال الأزهري: الدائرة: الدولة تدور على الأعداء.

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم**

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٤٣٥)، ومسلم (٤/ ٢٢٢٣-٢٢٢٤/ ٢٨٩٩).

(٢) شرح صحيح مسلم (١٨/ ٢٠).

بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم. فيقول المسلمون: لا والله، لا نخلي بينكم وبين إخواننا. فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدًا، ويقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث لا يفتنون أبدًا، فيفتتحون القسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون؛ إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم. فيخرجون، وذلك باطل، فإذا جاؤوا الشام خرج، فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف؛ إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم ﷺ، فأمهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته»[1].

★ غريب الحديث:

بالأعماق أو بدابق: «الأعماق بفتح الهمزة وبالعين المهملة، ودابق: بكسر الباء الموحدة وفتحها والكسر هو الصحيح وهما موضعان بقرب حلب»[2].

فيخرج إليهم جيش من المدينة: يحتمل أنها مدينته ﷺ؛ لأنها صارت كالعلم عليها، وسياق الحديث يدل أنها بالشام[3].

خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا: روي: «سبوا» على وجهين: فتح السين والباء وضمهما، وصوب القاضي عياض رواية الضم. وقال النووي: «كلاهما صواب؛ لأنهم سبوا أولًا، ثم سبوا الكفار، وهذا موجود في زماننا، بل معظم عساكر الإسلام في بلاد الشام ومصر سبوا، ثم هم اليوم بحمد الله يسبون الكفار، وقد سبوهم في زماننا مرارًا كثيرة، يسبون في المرة الواحدة من الكفار ألوفًا، ولله الحمد على إظهار الإسلام وإعزازه»[4].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر؟ قالوا: نعم يا رسول الله! قال: لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفًا من بني إسحق، فإذا جاؤوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم، قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط أحد جانبيها، -قال ثور: لا أعلمه إلا قال:**

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٢١/ ٢٨٩٧).
(٢) شرح مسلم للنووي (١٨/ ١٧).
(٣) إكمال الإكمال (٩/ ٣٤٥).
(٤) شرح مسلم للنووي (١٨/ ١٧).

الذي في البحر- ثم يقولوا الثانية: لا إله إلا اللَّه واللَّه أكبر، فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولوا الثالثة: لا إله إلا اللَّه واللَّه أكبر، فيفرج لهم، فيدخلوها فيغنموا، فبينما هم يقتسمون المغانم إذ جاءهم الصريخ فقال: إن الدجال قد خرج، فيتركون كل شيء ويرجعون»(١).

⋆ غريب الحديث:

الصريخ: المستغيث، (فَعيل) من الصراخ.

⋆ فوائد الأحاديث:

في هذه الأحاديث من الفوائد: تبشير النبي ﷺ هذه الأمة بفتح القسطنطينية، وأن فتحها «سيكون في مستقبل قريب أو بعيد يعلمه اللَّه ﷻ، وهو الفتح الصحيح لها، حين يعود المسلمون إلى دينهم الذي أعرضوا عنه، وأما فتح الترك الذي كان قبل عصرنا هذا، فإنه كان تمهيدًا للفتح الأعظم، ثم هي قد خرجت بعد ذلك من أيدي المسلمين، منذ أعلنت حكومتهم هناك أنها حكومة غير إسلامية وغير دينية، وعاهدت الكفار أعداء الإسلام، وحكمت أمتها بأحكام القوانين الوثنية الكافرة، وسيعود الفتح الإسلامي لها، إن شاء اللَّه كما بشر به رسول اللَّه ﷺ»(٢).

قال القرطبي: «وقوله: «**لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفًا من بني إسحاق**»، هكذا صحت الرواية عند الجميع، وفي الأمهات. قال القاضي أبو الفضل: قال بعضهم: المعروف المحفوظ من بني إسماعيل، وهو الذي يدل عليه الحديث وسياقه؛ لأنه إنما يعني به: العرب والمسلمين، بدليل الحديث الذي سماها في الأم وأنها: القسطنطينية، وإن لم يصفها بما وصفها به هنا.

قلت: وهذا فيه بعد من جهة اتفاق الرواة والأمهات على بني إسحاق، فإذا المعروف خلاف ما قال هذا القائل، ويمكن أن يقال: إن الذي وقع في الرواية صحيح، غير أنه أراد به العرب ونسبهم إلى عمهم، وأطلق عليهم ما يطلق على ولد الأب، كما يقال ذلك في الخال، حتى قد قيل: الخال أحد الأبوين -واللَّه تعالى أعلم- وأما قوله: إن هذه القرية هي القسطنطينية، فينبغي أن يبحث عن صفتها، هل

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٣٨/ ٢٩٢٠).

(٢) من كلام أحمد شاكر في عمدة التفسير (٢/ ٢٥٦).

توافق ما وصفه النبي ﷺ في هذه المدينة أم لا؟ وأما ما ذكره مسلم في الأم من حديث القسطنطينية فهو ما تقدم في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- الذي قال في أوله: «**لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق، أو بدابق**» قال فيه: «**فيقاتلهم المسلمون فينهزم ثلث، ويقتل ثلث، ويفتح الثلث القسطنطينية، فبينما هم يقسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم**»، وظاهر هذا يدل على: أن القسطنطينية إنما تفتح بالقتال، وهذا الحديث يدل على أنها تفتح بالتهليل والتكبير، فقول بعضهم فيه بعد، والحاصل: أن القسطنطينية لا بد من فتحها، وأن فتحها من أشراط الساعة على ما شهدت به أخبار كثيرة، منها: ما ذكرناه آنفًا، ومنها: ما خرجه الترمذي من حديث معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: «**الملحمة العظمى، وفتح القسطنطينية، وخروج الدجال، في سبعة أشهر**»[(١)] قال: هذا حديث حسن صحيح، وفيه عن أنس بن مالك: أن فتح القسطنطينية مع قيام الساعة، هكذا رواه موقوفًا. قال محمود: هذا حديث غريب، والقسطنطينية: هي مدينة الروم تفتح عند خروج الدجال، والقسطنطينية قد فتحت في زمان بعض أصحاب النبي ﷺ.

قلت: وعلى هذا فالفتح الذي يكون مقارنًا لخروج الدجال هو الفتح المراد بهذه الأحاديث؛ لأنها اليوم بأيدي الروم -دمرهم الله تعالى- والله بتفاصيل هذه الوقائع أعلم»[(٢)].

قال الأبي: «ولم يجب عن التعارض بين الحديثين، وتنتفي المعارضة بأنه إنما قال: «**ويفتح ثلثهم قسطنطينية**»، وفتحها أعم من أن يكون بقتال أو بالتهليل والتكبير المذكور»[(٣)].

* **عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب، يقتتل الناس عليه، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون،**

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٣٤)، وأبو داود (٤/ ٤٨٢-٤٨٣/ ٤٢٩٤-٤٢٩٥)، والترمذي (٤/ ٤٤٢/ ٢٢٣٨) وقال: «حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٠/ ٤٠٩٢)، والحاكم (٤/ ٤٢٦) وسكت عنه، وتبعه الذهبي، وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف السنن.

(٢) المفهم (٧/ ٢٤٨-٢٥٠).

(٣) إكمال الإكمال (٩/ ٣٧٠).

ويقول كل رجل منهم: لعلي أكون أنا الذي أنجو»[1].

★ غريب الحديث:

حتى يحسر الفرات: يقال: حسرت العمامة عن رأسي والثوب عن بدني؛ أي: كشفته.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «وتسميته كنزًا باعتبار حاله قبل أن ينكشف، وتسميته جبلًا للإشارة إلى كثرته، ويؤيده ما أخرجه مسلم من وجه آخر عن أبي هريرة رفعه: «**تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت. فيجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدَعونه فلا يأخذون منه شيئًا**»[2]. قال ابن التين: إنما نهى عن الأخذ منه لأنه للمسلمين، فلا يؤخذ إلا بحقه، قال: ومن أخذه وكثر المال ندم لأخذه ما لا ينفعه، وإذا ظهر جبل من ذهب كسد الذهب، ولم يرد. قلت: وليس الذي قاله ببين، والذي يظهر أن النهي عن أخذه لما ينشأ عن أخذه من الفتنة والقتال عليه. وقوله: «**وإذا ظهر جبل من ذهب. .** » إلخ؛ في مقام المنع، وإنما يتم ما زعم من الكساد أن لو اقتسمه الناس بينهم بالسوية، ووسعهم كلهم فاستغنوا أجمعين، فحينئذ تبطل الرغبة فيه، وأما إذا حواه قوم دون قوم، فحرص من لم يحصل له منه شيء باق على حاله، ويحتمل أن تكون الحكمة في النهي عن الأخذ منه لكونه يقع في آخر الزمان عند الحشر الواقع في الدنيا، وعند عدم الظهور أو قلته فلا ينتفع بما أخذ منه، ولعل هذا هو السر في إدخال البخاري له في ترجمة خروج النار، ثم ظهر لي رجحان الاحتمال الأول، لأن مسلما أخرج هذا الحديث أيضًا من طريق أخرى عن أبي هريرة بلفظ: «**يحسر الفرات عن جبل من ذهب**» فيقتتل عليه الناس فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون، ويقول كل رجل منهم لعلي أكون أنا الذي أنجو. وأخرج مسلم أيضًا عن أبي بن كعب قال: لا يزال الناس مختلفة أعناقهم في طلب الدنيا، سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٦)، والبخاري (١٣/ ٩٨/ ٧١١٩)، ومسلم (٤/ ٢٢١٩/ ٢٨٩٤) واللفظ له، وأبو داود (٤/ ٤٩٣/ ٤٣١٣-٤٣١٤)، والترمذي (٤/ ٦٠٢/ ٢٥٦٩-٢٥٧٠)، وابن ماجه (٢/ ١٣٤٣/ ٤٠٤٦).

(٢) أخرجه: مسلم (٢/ ٧٠١/ ١٠١٣)، والترمذي (٤/ ٤٢٧/ ٢٢٠٨) عن أبي هريرة ﷺ.

يقول: «**يوشك أن يحسر الفرات عن جبل من ذهب، فإذا سمع به الناس ساروا إليه، فيقول من عنده: لئن تركنا الناس يأخذون منه ليذهبن به كله، قال: فيقتتلون عليه، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون**»[١]، فبطل ما تخيله ابن التين، وتوجه التعقب عليه، ووضح أن السبب في النهي عن الأخذ منه ما يترتب على طلب الأخذ منه من الاقتتال فضلًا عن الأخذ، ولا مانع أن يكون ذلك عند خروج النار للمحشر، لكن ليس ذلك السبب في النهي عن الأخذ منه. وقد أخرج ابن ماجه عن ثوبان رفعه قال: «**يقتل عند كنزكم ثلاثة، كلهم ابن خليفة**»[٢] فذكر الحديث في المهدي، فهذا إن كان المراد بالكنز فيه الكنز الذي في حديث الباب، دل على أنه إنما يقع عند ظهور المهدي، وذلك قبل نزول عيسى وقبل خروج النار جزمًا، والله أعلم»[٣].

ومنها: كثرة الروم وشدتهم آخر الزمان:

* عن موسى بن علي عن أبيه قال: قال المستورد القرشي عند عمرو بن العاص: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تقوم الساعة والروم أكثر الناس**». **فقال له عمرو: أبصر ما تقول. قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: لئن قلت ذلك، إن فيهم لخصالًا أربعًا، إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك**[٤].

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «هذا الحديث قد صدقه الوجود؛ فإنهم اليوم أكثر من في العالم غير يأجوج ومأجوج؛ إذ قد عمروا من الشام إلى أقصى منقطع أرض الأندلس، وقد اتسع دين النصارى اتساعًا عظيمًا لم تتسعه أمة من الأمم، وكل ذلك بقضاء الله تعالى وقدره، ووصف عبدالله بن عمرو لهم بما وصفهم به من تلك الأوصاف الجميلة، الذين أدرك هو زمانهم، وأما ما في الوجود منهم اليوم، فهم أنجس

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٣٩)، ومسلم (٤/ ٢٢٢٠/ ٢٨٩٥) من حديث أبي ﷺ.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) فتح الباري (١٣/ ١٠١).
(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٣٠)، ومسلم (٤/ ٢٢٢٢/ ٢٨٩٨).

الخليقة وأركسهم، وهم موصوفون بنقيض تلك الأوصاف»[١].

وقال ابن كثير -بناءً على وصفهم بتلك الأوصاف الجميلة-: «وهذا يدل على أن الروم يسلمون في آخر الزمان، ولعل فتح القسطنطينية، يكون على يدي طائفة منهم. فالروم يكونون في آخر الزمان خيرًا من بني إسرائيل؛ فإن الدجال يتبعه تسعون ألفًا من يهود أصبهان، فهم أنصار الدجال، وهؤلاء -أعني الروم- قد مدحوا في هذا الحديث، فلعلهم يسلمون على يدي المسيح ابن مريم، والله أعلم»[٢].

ومنها: كثرة الأمطار وقلة الزرع:

* عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يمطر الناس مطرًا عامًّا، ولا تنبت الأرض شيئًا**»[٣].

★ فوائد الحديث:

قال المناوي: «ليس عام القحط الذي لا تمطر الناس فيه مع وجود البركة، بل أن تمطروا ولا تنبت، وذلك لأن اليأس بعد وقوع الرجاء بظهور مخايله أفظع مما كان حاصلًا من أول الأمر، والنفس مترقبة حدوثها، قال:

أظلت علينا من نداك غمامة — فلا غيمها يجلو فييأس طامع
أضاءت لنا برق وأبطا رشاشها — ولا غيثها يهمي فيروي عطاشها»[٤].

قال القرطبي: «إن الأحق باسم السنة والجدب أن يتوالى المطر حتى تغرق الأرض ويفسد ما عليها بكثرته وتواليه، وإنما كان هذا أحق بهذا الاسم، لأنه أمنع من التصرف، وأضيق للحال، وأعلم للقوت، وأسرع في الإهلاك»[٥].

ومنها: صدق رؤيا المؤمن في آخر الزمان:

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن**

---

(١) المفهم (٧/ ٢٣٦). (٢) النهاية (١/ ٥٨).
(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٤٠)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٣٠) وعزاه لأحمد وأبي يعلى والبزار، وقال: «رجال الجميع ثقات»، والحاكم (٤/ ٥١٣) وصححه ووافقه الذهبي.
(٤) فيض القدير (٥/ ٣٩١). (٥) المفهم (٢/ ٥٤٨).

تكذب، وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثًا»[١].

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «معناه -واللَّه أعلم-: إذا اقتربت الساعة، وقبض أكثر العلم، ودرست معالم الديانة بالهرج والفتنة، فكان الناس على فترة من الرسل يحتاجون إلى مذكر ومجدد، لما درس من الدين، كما كانت الأمم قبلنا تذكر بالنبوة، فلما كان نبينا محمد ﷺ خاتم الرسل، وما بعده من الزمان، ما يشبه الفترة؛ عوضوا مما منع من النبوة بعده بالرؤيا الصادقة، التي هي جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة الآتية بالتبشير والإنذار. وقد ذكر أبو سليمان الخطابي في غريب الحديث عن أبي داود السجستاني؛ أنه كان يقول في تأويل قوله ﷺ: «**إذا تقارب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب**»، قال: تقارب الزمان هو استواء الليل والنهار، قال: والمعبرون يزعمون أنه أصدق الأزمان لوقوع التعبير وقت انبثاق الأنوار، ووقت ينع الثمار وإدراكها، وهما الوقتان اللذان يتقارب الزمان فيهما، ويعتدل الليل والنهار، قال المؤلف: والتأويل الأول هو الصواب الذي أراده النبي ﷺ؛ لأنه قد روي مرفوعًا عنه»[٢].

ومنها: ظهور الخسف والمسخ والقذف:

* عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف. قالت: قلت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا ظهر الخبث**»[٣].

ومنها: زوال الجبال عن أماكنها وظهور الأمور العظام:

* عن سمرة ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تزول الجبال عن أماكنها، وترون الأمور العظام التي لم تكونوا ترونها**»[٤].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٩)، والبخاري (١٢/ ٥٠٠/ ٧٠١٧)، ومسلم (٤/ ١٧٧٣/ ٢٢٦٣)، وأبو داود (٥/ ٢٨٢/ ٥٠١٩)، والترمذي (٤/ ٤٦١/ ٢٢٧٠)، وابن ماجه (٢/ ١٢٨٩/ ٣٩١٧).

(٢) شرح البخاري (٩/ ٥٣٨-٥٣٩).

(٣) أخرجه: الترمذي (٤/ ٤١٥/ ٢١٨٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/ ٢٣٧/ ١٧٧٦).

(٤) أخرجه: الطبراني (٧/ ٢٠٧/ ٦٨٥٧)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٢٦) وقال: «فيه عفير بن معدان، وهو ضعيف»، وصححه الألباني. انظر الصحيحة (٣٠٦١).

ومنها: انتفاخ الأهلة واتخاذ المساجد طرقًا وظهور موت الفجأة:

* عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من اقتراب الساعة أن يرى الهلال قَبَلًا، فيقال: لليلتين، وأن يتخذ المساجد طرقًا، وأن يظهر موت الفجأة**»[1].

★ غريب الحديث:

قَبَلًا: بفتحتين، وهو: أن يرى ساعة ما يطلع، فيقال: هو ابن ليلتين.

★ فوائد الحديث:

قال المناوي: «أي: يرى ساعة ما يطلع لعظمه ووضوحه من غير أن يتطلب، «**فيقال لليلتين**» أي: هو ابن ليلتين، «**وأن تتخذ المساجد طرقًا**» للمارة، يدخل الرجل من باب ويخرج من باب، فلا يصلي فيه تحية، ولا يعتكف فيه لحظة، «**وأن يظهر موت الفجأة**» فيسقط الإنسان ميتًا وهو قائم يكلم صاحبه، أو يتعاطى مصالحه»[2].

* * *

(١) أخرجه: الطبراني في الأوسط (١٠/ ١٧٣/ ٩٣٧٢)، والصغير (٢/ ٣٩٨/ ١١٠٣)، وصححه الألباني. انظر الصحيحة (٥/ ٣٦٧).
(٢) فيض القدير (٦/ ١٠).

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فمن أي وجه لهؤلاء المكذّبين بآيات اللَّه ذكرى ما قد ضيَّعوا وفرطوا فيه من طاعة اللَّه إذا جاءتهم الساعة، يقول: ليس ذلك بوقت ينفعهم التذكر والندم؛ لأنه وقت مجازاة لا وقت استعتاب ولا استعمال»[1].

قال السعدي: «ففي هذا الحث على الاستعداد قبل مفاجأة الموت، فإن موت الإنسان قيام ساعته»[2].

* * *

(١) جامع البيان (٢٦/ ٥٣).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٧٣).

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهة، ويجوز لك وللخلق عبادته؛ إلا اللَّه الذي هو خالق الخلق، ومالك كل شيء، يدين له بالربوبية كل ما دونه»[1].

قال السعدي: «العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته بمعنى ما طلب منه علمه، وتمامه أن يعمل بمقتضاه.

وهذا العلم الذي أمر اللَّه به -وهو العلم بتوحيد الله-؛ فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد كائنًا من كان، بل كلٌّ مضطر إلى ذلك. والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا اللَّه أمور:

أحدها، بل أعظمها: تدبر أسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلالته، فإنها توجب بذل الجهد في التأله له، والتعبد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبته، والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داع إلى العلم بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع اللَّه، واتخذت آلهة،

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٥٣-٥٤).

وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ولا ينصرون من عبدهم، ولا ينفعونهم بمثقال ذرة، من جلب خير أو دفع شر، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا اللَّه وبطلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب اللَّه على ذلك، وتواطؤها عليه.

السابع: أن خواص الخلق، الذين هم أكمل الخليقة أخلاقًا وعقولًا، ورأيًا وصوابًا وعلمًا -وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون- قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه اللَّه من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، تنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، وبديع حكمته، وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر اللَّه من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا اللَّه، وأبداها في كتابه، وأعادها عند تأمل العبد في بعضها؛ لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك، فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتفقت، وقامت أدلة التوحيد من كل جانب، فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد، بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تزلزله الشبه والخيالات، ولا يزداد -على تكرر الباطل والشبه- إلا نموًا وكمالًا.

هذا، وإن نظرت إلى الدليل العظيم، والأمر الكبير -وهو تدبر هذا القرآن العظيم، والتأمل في آياته-؛ فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد، ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا يحصل في غيره»[١].

قال عبدالرحمن بن قاسم: «استدل المصنف -أي: محمد بن عبدالوهاب- رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الآية الكريمة على وجوب البداءة بالعلم قبل القول والعمل، كما استدل بها البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ على صحة ما ترجم به؛ وذلك أن اللَّه تعالى أمر نبيه ﷺ بأمرين: بالعلم ثم العمل. والمبدوء به العلم في قوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ثم أعقبه بالعمل في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾، فدل على أن مرتبة العلم مقدمة على مرتبة العمل، وأن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبر إلا به، فهو مقدم عليهما؛ لأنه مصحح النية المصححة للعمل»[٢].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٧٣-٧٥).

(٢) حاشية الأصول الثلاثة (ص: ٢١).

قال ابن القيم في معرض بيان أن كلاً من العلم والعمل ينقسم إلى وسيلة وغاية: «فليس العلم كله وسيلة مرادة لغيرها؛ فإن العلم بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الإطلاق، وهو مطلوب لنفسه مراد لذاته؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾[1]، فقد أخبر سبحانه أنه خلق السموات والأرض ونزّل الأمر بينهنّ؛ ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة؛ وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

فالعلم بوحدانيته تعالى وأنه لا إله إلا هو مطلوب لذاته، وإن كان لا يُكتفى به وحده، بل لا بد معه من عبادته وحده لا شريك له، فهما أمران مطلوبان لأنفسهما: أن يُعرف الرب تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وأن يُعبد بموجبها ومقتضاها، فكما أن عبادته مطلوبة مرادة لذاتها، فكذلك العلم به ومعرفته.

وأيضًا؛ فإن العلم من أفضل أنواع العبادات -كما تقدم تقريره- فهو متضمن للغاية والوسيلة»[2].

قال الحافظ ابن حجر: «استدل سفيان بن عيينة بهذه الآية على فضل العلم كما أخرجه أبو نعيم في «الحلية»[3] في ترجمته من طريق الربيع بن نافع عنه أنه تلاها فقال: ألم تسمع أنه بدأ به فقال: (اعلم) ثم أمره بالعمل؟»[4].

قال الكرماني: «يعلم من الآية أن التوحيد مما يجب العلم به، ولا يجوز فيه التقليد»[5].

قال تقي الدين الهلالي: «فائدة: يجب على كل مسلم أن يعلم معنى (لا إله إلا الله)، ويعتقده بقلبه، ويقولها بلسانه، ويعمل بمقتضاها، وإلا فليس من أهلها ولو قالها في كل يوم ألف مرة؛ فإن أهل الردة الذين قاتلهم أبو بكر الصديق ومعه جميع الصحابة، وسبى ذريتهم، وغنم أموالهم، كانوا يقولون: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ويصلّون ويقرؤون القرآن، ويحجون ويصومون، فلم تنفعهم؛

---

(١) الطلاق: الآية (١٢).
(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٣٥).
(٣) انظر الحلية (٧/ ٣٠٥-٣٠٦).
(٤) فتح الباري (١/ ٢١٢).
(٥) شرح البخاري (٢/ ٣٠).

لأنهم لم يعملوا بمقتضاها، لما امتنعوا من دفع الزكاة إلى أبي بكر الصديق، ومعناها: أن يشهد قائلها على نفسه قولًا واعتقادًا وعملًا؛ أنه لا يعبد إلا اللّه، ويتبرأ من عبادة غيره، ويحب في ذلك ويبغض فيه، ويوالي ويعادي عليه، فمن فعل ذلك فهو من أهل (لا إله إلا الله)»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
المبينة لحاجة الخلق إلى العقيدة في الدنيا والآخرة

* عن عتبان بن مالك رضي اللّه تعالى عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**لن يوافي عبد يوم القيامة يقول: لا إله إلا اللّه، يبتغي بها وجه اللّه، إلا حرم اللّه عليه النار**»[٢].

* عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله؛ دخل الجنة**»[٣].

* عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «**من شهد أن لا إله إلا اللّه، وأن محمدًا رسول الله؛ حرم اللّه عليه النار**»[٤].

★ **فوائد الأحاديث:**

انظر فوائد هذه الأحاديث عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾[٥].

* * *

(١) سبيل الرشاد (٢/ ٢١٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٤٩)، والبخاري (١/ ٦٨٣/ ٤٢٥)، ومسلم (١/ ٤٥٥-٤٥٦/ ٣٣) مطولاً، والنسائي (٢/ ٤٤٠/ ٨٤٣)، وابن ماجه (١/ ٢٤٩/ ٧٥٤) مختصراً.

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٦٥)، ومسلم (١/ ٥٥/ ٢٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٧٤/ ١٠٩٥٢-١٠٩٥٤).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٣١٨)، ومسلم (١/ ٥٧-٥٨/ ٢٩)، والترمذي (٥/ ٢٣-٢٤/ ٢٦٣٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٧٧/ ١٠٩٦٧).

(٥) يوسف: الآية (١٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «وقوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ أي: اطلب من اللَّه المغفرة لذنبك، بأن تفعل أسباب المغفرة من التوبة والدعاء بالمغفرة، والحسنات الماحية، وترك الذنوب والعفو عن الجرائم.

﴿وَ﴾ استغفر أيضًا ﴿لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ فإنهم -بسبب إيمانهم- كان لهم حق على كل مسلم ومسلمة.

ومن جملة حقوقهم أن يدعو لهم ويستغفر لذنوبهم، وإذا كان مأمورًا بالاستغفار لهم المتضمن لإزالة الذنوب وعقوباتها عنهم، فإن من لوازم ذلك النصح لهم، وأن يحب لهم من الخير ما يحب لنفسه، ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه، ويأمرهم بما فيه الخير لهم، وينهاهم عما فيه ضررهم، ويعفو عن مساويهم ومعايبهم، ويحرص على اجتماعهم اجتماعًا تتألف به قلوبهم، ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق، الذي به تكثر ذنوبهم ومعاصيهم»[1].

قال ابن أبي العز: «فأمره سبحانه بالتوحيد والاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات، فالتوحيد أصل الدين، والاستغفار له وللمؤمنين كماله. فالدعاء لهم بالمغفرة والرحمة وسائر الخيرات، إما واجب وإما مستحب، وهو على نوعين: عام وخاص، أما العام فظاهر، كما في هذه الآية، وأما الدعاء الخاص، فالصلاة على الميت، فما من مؤمن يموت إلا وقد أمر المؤمنون أن يصلوا عليه صلاة الجنازة، وهم مأمورون في صلاتهم عليه أن يدعوا له، كما روى أبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة ﵁، قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إذا صليتم على**

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٧٦-٧٧).

الميت فأخلصوا له الدعاء»[(١)]»[(٢)].

قال أبو منصور الماتريدي: «أرجى آية للمؤمنين هذه الآية؛ لأنه ﷻ أمر رسوله ﷺ أن يستغفر لهم، فلا يُحتمل ألا يستغفر، وقد أمره مولاه بالاستغفار، ثم لا يُحتمل أيضًا أنه إذا استغفر لهم على ما أمره به فلا يجيب له. وكذلك دعاء سائر الأنبياء ﷺ نحو دعاء إبراهيم ﷺ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ۝﴾[(٣)]، ونحو دعاء نوح ﷺ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[(٤)] ونحو ذلك.

وكذا استغفار الملائكة أيضًا كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾[(٥)] وقوله: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾[(٦)].

هذه الآيات أرجى آيات للمؤمنين، ودعوات الأنبياء -عليهم السلام- أفضل وسائل، تكون إلى اللَّه تعالى، وأعظم قُرب عنده، واللَّه الموفق.

ثم قوله ﷻ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فيه دلالة نقض المعتزلة؛ لأنهم يقولون: إن الصغائر مغفورة، لا يجوز لله تعالى أن يعذّب عباده عليها، والكبائر لا يحل له أن يغفرها لهم إلا بالاستغفار منهم والتوبة. فهذه الآية، تنقض قولهم ومذهبهم؛ لأنه أمر رسوله أن يستغفر لهم: فلا يخلو: إما أن تكون صغائر، وهي مغفورة عندهم؛ فكأنه يقول: اللهم لا تَجُرْ؛ لأنها مغفورة، لا يسع له أن يعذّب عليها وإما أن تكون كبائر، ولا يحل له المغفرة عنها، فيكون قوله: اللهم اغفر لهم كأنه قال: اللهم جُرْ؛ لأن مغفرته إياهم عن الكبائر تكون جورًا ووضعَ الشيء في غير موضعه.

فكيف ما كان ففيها نقض قولهم وحجة لقولنا: إن له أن يعذّبهم عليها، وإن كانت صغائر، وله أن يعفو عنها، وإن كانت كبائر؛ إذ المغفرة عن الذنب تكون، واللَّه الموفق للصواب»[(٧)].

---

(١) أخرجه: أبو داود (٣/ ٥٣٨/ ٣١٩٩)، وابن ماجه (١/ ٤٨٠/ ١٤٧٩)، وصححه ابن حبان (٧/ ٣٤٥-٣٤٦/ ٣٠٧٦-٣٠٧٧)، عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) شرح الطحاوية (ص: ٤٢٥-٤٢٦).

(٣) إبراهيم: الآية (٤١).

(٤) نوح: الآية (٢٨).

(٥) الشورى: الآية (٥).

(٦) غافر: الآية (٧).

(٧) تأويلات أهل السنة (٤/ ٥٠٧-٥٠٨).

وقال أبو حيان: «وفي الآية ما يدل على التواضع وهضم النفس إذ أمره بالاستغفار، ومع غيره بالاستغفار لهم»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل الاستغفار

* عن أبي هريرة ﷺ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، قال رسول اللَّه ﷺ: **«إني لأستغفر اللَّه في اليوم سبعين مرة»**[٢].

* عن عبداللَّه بن سرجس ﷺ قال: رأيت النبي ﷺ وأكلت معه خبزًا ولحمًا أو قال: ثريدًا، قال: فقلت له: استغفر لك النبي ﷺ؟ قال: نعم، ولك، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾». قال: ثم درت خلفه فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه، عند ناغض كتفه اليسرى جمعًا عليه خيلان كأمثال الثآليل[٣].

★ **غريب الحديث:**

ناغض كتفه: بالنون والغين والضاد المعجمتين، والغين مكسورة، والناغض أعلى الكتف.

الخيلان: بكسر الخاء وإسكان الياء: جمع الخال، وهو الشامة في الجسد.

الثآليل: حلمة الثدي.

* عن الأغر المزني ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر اللَّه في اليوم مائة مرة»**[٤].

★ **غريب الحديث:**

ليغان: ليغطى، والغين: التغطية، وما يتغشى القلب.

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٨٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٨٢)، والترمذي (٥/ ٣٥٧/ ٣٢٥٩) واللفظ له، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأخرجه بدون ذكر الآية: البخاري (١١/ ١٢١/ ٦٣٠٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١١٤/ ١٠٢٦٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٨٢)، ومسلم (٤/ ١٨٢٣-١٨٢٤/ ٢٣٤٦) واللفظ له، والترمذي في الشمائل (مختصر: رقم ٢٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٦٠/ ١١٤٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٦٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٥/ ٢٧٠٢) واللفظ له، وأبو داود (٢/ ١٧٧-١٧٨/ ١٥١٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١١٦/ ١٠٢٧٦).

قال القرطبي: «ولا يظن أن أحدًا قال: إن قلب النبي ﷺ تأثر بسبب ذنب وقع منه بغين أو رين، أو طبع عليه، فإن من جوز الصغائر على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يقل: إنها إذا وقعت منهم أثرت في قلوبهم كما تؤثر الذنوب في قلوب العصاة، بل: هم مغفور لهم ومكرمون، وغير مؤاخذين بشيء من ذلك، فثبت بهذا أن ذلك الغين ليس هو بسبب الذنب، ولكن اختلفوا في ذلك الغين. فقالت طائفة: إنه عبارة عن فترات وغفلات عن الذكر الذي كان دأبه، فكان يستغفر اللَّه من تلك الفترات، وقيل: كان ذلك بسبب ما اطلع عليه من أحوال أمته. وما يكون منها بعده، فكان يستغفر اللَّه لهم. وقيل: كان ذلك لما يشغله من النظر في أمور أمته ومصالحهم، ومحاربة عدوه عن عظيم مقامه، فكان يرى أن ذلك -وإن كان من أعظم الطاعات، وأفضل الأعمال- نزول عن علو درجاته ورفعة مقامه، فيستغفر ربه من ذلك، وقيل: كان ذلك حال خشية وإعظام لله تعالى. والاستغفار الذي صدر منه لم يكن لأجل ذلك الغين بل للقيام بالعبادة، ألا ترى قوله في الحديث: «**إنه لا يغان على قلبي، وإني لأستغفر الله**» فأخبر بأمرين مستأنفين ليس أحدهما معلقًا على الآخر»[١].

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن كنا لنعد لرسول اللَّه ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة «**رب اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الرحيم**»[٢].

* عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى اللَّه عليه وآله وسلم؛ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «**رب اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي خطاياي وعمدي وجهلي وجدي. وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير**»[٣].

---

(١) المفهم (٧/ ٢٦-٢٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢١)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٦١٨)، وأبو داود (٢/ ١٧٨/ ١٥١٦) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٤٦١/ ٣٤٣٤) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، والنسائي في الكبرى (٦/ ١١٩/ ١٠٢٩٢)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٣/ ٣٨١٤)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٣/ ٢٠٦-٢٠٧/ ٩٢٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٤١٧)، والبخاري (١١/ ٢٣٤/ ٦٣٩٨) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٠٨٧/ ٢٧١٩).

★ فوائد الأحاديث:

«في هذه الأحاديث بيان فضل الاستغفار، وأن رسول اللَّه ﷺ كان يكثر من الاستغفار مع مكانته من العصمة، وذلك لمعرفته لحق اللَّه تعالى حق المعرفة، ولكي تتأسى به أمته، ولما كان الإنسان لا ينفك عن الذنوب والغفلة، كانت حاجته إلى الاستغفار دائمة، وأن الاستغفار باب من أبواب الرزق، وسبب من أسباب تفريج الكرب، وإذهاب الهم»[(١)].

قال ابن القيم: «لا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما .. وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر»[(٢)].

قال القرطبي: وإنما أخبر النبي ﷺ بأنه يكرر توبته كل يوم مع كونه مغفورًا له؛ ليُلحِق به غيرُه نفسَه بطريق الأولى؛ لأن غيره يقول: إذا كانت حال من تحقق مغفرة ذنوبه هكذا، كانت حال من هو في ذلك في شك أحرى وأولى، وكذلك القول في الاستغفار والتوبة يقتضي شيئًا يتاب منه، إلا أن ذلك منقسم بحسب حال من صدر منه ذلك الشيء»[(٣)].

قال القاضي عياض: وقوله «**اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني. اللهم، اغفر لي جدي وهزلي وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي**» الحديث: اعترافًا منه ﷺ وتواضعًا لربه واستكانة وعبادة بالدعاء، وشكرًا لربه، وقد علم أنه مغفور له ما تقدم وما تأخر، ومثله قوله: «**اغفر لي ما قدمت وما أخرت**». وقيل: يحتمل على ما كان منه على سهو وغفلة، وقد يحتمل: ما تقدم وما تأخر مما مضى، ويحتمل أن يريد بقوله: «**خطيئتي وجهلي، وإسرافي**» ما كان قبل النبوة»[(٤)].

* * *

(١) إهداء الديباجة (٥/ ١٧٢).

(٢) صحيح الوابل الصيب (ص: ٨٠) دار ابن الجوزي.

(٣) المفهم (٧/ ٢٨).

(٤) إكمال المعلم (٨/ ٢١٤-٢١٥).

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ أي: يعلم تصرفكم في نهاركم ومستقركم في ليلكم، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾[1]، وكقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝﴾[2]. وهذا القول ذهب إليه ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير. وعن ابن عباس: «متقلبكم في الدنيا، ومثواكم في الآخرة»، وقال السدي: متقلبكم في الدنيا، ومثواكم في قبوركم. والأول أولى وأظهر، والله أعلم»[3].

قال القرطبي: «قلت: والعموم يأتي على هذا كله؛ فلا يخفى عليه سبحانه شيء من حركات بني آدم وسكناتهم، وكذا جميع خلقه، فهو عالم بجميع ذلك قبل كونه جملة وتفصيلًا، أولى وأخرى، سبحانه! لا إله إلا هو»[4].

قال القنوجي: «والمعنى أنه عالم بجميع أحوالكم، لا يخفى عليه شيء منها، وإن دق وخفي، ومثله حقيق بأن يتقى ويخشى، وأن يستغفر»[5].

* * *

---

(١) الأنعام: الآية (٦٠).

(٢) هود: الآية (٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣١٧).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٦٠).

(٥) فتح البيان (١٣/ ٦٧).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «هذا ابتداء وصف حال المؤمنين في جدهم في دين اللَّه، وحرصهم على ظهوره، وحال المنافقين من الكسل والفشل، والحرص على فساد دين اللَّه وأهله؛ وذلك أن المؤمنين كان حرصهم يبعثهم على تمني الظهور، وتمني قتال العدو، وفضيحة المنافقين، ونحو ذلك مما هو ظهور للإسلام، فكانوا يأنسون بالوحي، ويستوحشون إذا أبطأ، واللَّه تعالى قد جعل ذلك بآماد مضروبة وأوقات لا تتعدى، فمدح اللَّه المؤمنين بحرصهم. وقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ﴾ معناه: تتضمن إظهارنا، وأمرنا بمجاهدة العدو، ونحوه. ثم أخبر تعالى عن حال المنافقين عند نزول أمر القتال»[١].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يقول: رأيت الذين في قلوبهم شك في دين اللَّه وضعف ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد، ﴿نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ﴾؛ خوفًا أن تغزيهم وتأمرهم بالجهاد مع المسلمين، فهم خوفًا من ذلك وتجبنًا عن لقاء العدوّ ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه الذي قد صرع. وإنما عنى بقوله: ﴿مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ﴾ من خوف الموت، وكان هذا فعل أهل النفاق. .

وقوله: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فأولى لهؤلاء الذين في قلوبهم مرض.

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ١١٧).

وقوله: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ وعيد توعَّد اللَّه به هؤلاء المنافقين. .

وقوله: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ وهذا خبر من اللَّه -تعالى ذكره- عن قيل هؤلاء المنافقين من قبل أن تنزل سورة محكمة، ويذكر فيها القتال، وأنهم إذا قيل لهم: إن اللَّه مفترض عليكم الجهاد، قالوا: سمع وطاعة، فقال اللَّه ﷻ لهم -إذا أُنزلت سورة، وفرض القتال فيها عليهم، فشقّ ذلك عليهم، وكرهوه-: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ قبل وجوب الفرض عليكم، ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ كرهتموه وشقّ عليكم. .

وقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ يقول: فإذا وجب القتال وجاء أمر اللَّه بفرض ذلك كرهتموه. .

وقوله: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فلو صدقوا اللَّه ما وعدوه قبل نزول السورة بالقتال بقولهم -إذ قيل لهم: إن اللَّه سيأمركم بالقتال-: طاعة، فَوَفَّوا له بذلك؛ لكان خيرًا لهم في عاجل دنياهم، وآجل معادهم»[1].

قال السعدي: «وذلك -أي: صدقهم اللَّه ووفاؤهم بما عاهدوه به من قبل، خيرٌ لهم- من وجوه:

منها: أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه اللَّه، فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده.

ومنها: أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل، ضعف عن العمل، بوظيفة وقته، وبوظيفة المستقبل، أما الحال، فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره، والعمل تبع للهمة، وأما المستقبل، فإنه لا يجيء حتى تفتر الهمة عن نشاطها فلا يعان عليه.

ومنها: أن العبد المؤمل للآمال المستقبلة، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيه بالمتألي الذي يجزم بقدرته على ما يستقبل من أموره، فأحرى به أن يخذل ولا يقوم بما همّ به ووطن نفسه عليه، فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه على وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقت استقبله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعينًا بربه في ذلك، فهذا حريٌّ بالتوفيق والتسديد في جميع أموره»[2].

(١) جامع البيان (٢٦/ ٥٤-٥٥).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٧٨-٧٩).

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة، أنه إذا أنزل سورة محكمة؛ أي: متقنة الألفاظ والمعاني، واضحة الدلالة، لا نسخ فيها، وذكر فيها وجوب قتال الكفار، تسبب عن ذلك كون الذين فى قلوبهم مرض؛ أي: شك ونفاق، ينظرون كنظر الإنسان الذي يغشى عليه لأنه في سياق الموت؛ لأن نظر من كان كذلك تدور فيه عينه ويزيغ بصره؛ وهذا إنما وقع لهم من شدة الخوف من بأس الكفار المأمور بقتالهم.

وقد صرح -جل وعلا- بأن ذلك من الخوف المذكور في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾[(١)].

وقد بين تعالى أن الأغنياء من هؤلاء المنافقين، إذا أنزل اللَّه سورة فيها الأمر بالجهاد، استأذنوا النبي ﷺ في التخلف عن الجهاد، وذمهم اللَّه على ذلك، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾[(٢)]»[(٣)].

قال ابن عاشور: «هذه الآية إنباء مما سيكون منهم حين يجدّ الجد، ويجيء أوان القتال، وهي من معجزات القرآن في الإخبار بالغيب؛ فقد عزم أمر القتال يوم أُحُد، وخرج المنافقون مع جيش المسلمين في صورة المجاهدين، فلما بلغ الجيش إلى الشوط بين المدينة وأُحُد؛ قال عبداللَّه بن أُبيّ بن سلول رأسُ المنافقين: ما ندري علامَ نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس؟ ورجع هو وأتباعه[(٤)]. وكانوا ثلث الجيش، وذلك سنة ثلاث من الهجرة؛ أي: بعد نزول هذه الآية بنحو ثلاث سنين»[(٥)].

* * *

(١) الأحزاب: الآية (١٩).
(٢) التوبة: الآيتان (٨٦و٨٧).
(٣) أضواء البيان (٧/ ٤٢٧-٤٢٨).
(٤) أخرجه ابن إسحق في السيرة (٣/ ٦٤)، وذكره ابن كثير في البداية (٤/ ١٤).
(٥) التحرير والتنوير (٢٦/ ١١١).

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى: ذكره لهؤلاء الذين وصف أنهم إذا نزلت سورة محكمة، وذُكر فيها القتال نظروا إلى رسول اللَّه ﷺ نظر المغشيّ عليه ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ أيها القوم، يقول: فلعلكم إن توليتم عن تنزيل اللَّه -جل ثناؤه-، وفارقتم أحكام كتابه، وأدبرتم عن محمد ﷺ وعما جاءكم به ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يقول: أن تعصوا اللَّه في الأرض، فتكفروا به، وتسفكوا فيها الدماء، ﴿وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ وتعودوا لما كنتم عليه في جاهليتكم من التشتت والتفرق بعدما قد جمعكم اللَّه بالإسلام، وألّف به بين قلوبكم»[١].

وقال ابن عاشور: «فالمعنى: أفيتحقق إن توليتم أنكم تفسدون في الأرض وتقطعون أرحامكم، وأنتم تزعمون أنكم توليتم إبقاء على أنفسكم، وعلى ذوي قرابة أنسابكم، على نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾[٢]، وهذا توبيخ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾[٣]. والمعنى: أنكم تقعون فيما زعمتم التّفادي منه، وذلك بتأييد الكفر، وإحداث العداوة بينكم وبين قومكم من الأنصار. فالتولّي هنا هو الرجوع عن الوجهة التي خرجوا لها، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[٤]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾[٥]، وقوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾[٦]»[٧].

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٥٦).
(٢) البقرة: الآية (٢٤٦).
(٣) البقرة: الآية (٨٥).
(٤) البقرة: الآية (٢٤٦).
(٥) النجم: الآية (٣٣).
(٦) طه: الآية (٦٠).
(٧) التحرير والتنوير (٢٦/ ١١٢).

وقال السعدي: « ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ أي: فهما أمران: إما التزام لطاعة اللَّه، وامتثال لأوامره، فثم الخير والرشد والفلاح، وإما إعراض عن ذلك، وتولّ عن طاعة اللَّه، فما ثم إلا الفساد في الأرض بالعمل بالمعاصي وقطيعة الأرحام»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على وجوب صلة الرحم وتحريم قطعها

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن اللَّه خلق الخلق، حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. قال: نعم. أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، يا رب. قال: فهو لك**. قال رسول اللَّه ﷺ: **فاقرؤوا إن شئتم**: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ »[٢].

★ **غريب الحديث:**

خلق الخلق: قال في المفهم: «خلق هنا بمعنى اخترع وأصله: التقدير، كما تقدم، والخلق هنا: بمعنى المخلوق، وأصله مصدر، يقال: خلق يخلق خلقًا: إذا قدر وإذا اخترع»[٣].

العائذ بك: قال النووي: «العائذ المستعيذ وهو المعتصم بالشيء والملتجئ إليه المستجير به»[٤].

القطيعة: قال في النهاية: «القطيعة: الهجران والصد، وهي (فعيلة) من القطع، ويراد به ترك البر والإحسان إلى الأهل والأقارب، وهي ضد صلة الرحم»[٥].

الرحم: قال القرطبي: الرحم عبارة عن قرابات الرجل من جهة طرفي آبائه وإن علوا، وأبنائه وإن نزلوا، وما يتصل بالطرفين من الأعمام والعمات، والأخوال

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٧٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٠)، والبخاري (١٠/ ٥١٠/ ٥٩٨٧) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٩٨٠-١٩٨١/ ٢٥٥٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٦١/ ١١٤٩٧).

(٣) (٦/ ٥٢٤).

(٤) شرح مسلم (١٦/ ٩١).

(٥) (٤/ ٨٢).

والخالات، والإخوة والأخوات، ومن يتصل بهم من أولادهم برحم جامعة، والقرابة إذا نسبة من النسب، كالأبوة، والأخوة والعمومة»[١].

* عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**الرحم شجنة، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته**»[٢].

★ غريب الحديث:

شجنة: بكسر المعجمة وسكون الجيم بعدها نون، وجاء بضم أوله وفتحه رواية ولغة، وأصل الشجنة عروق الشجر المشتبكة، والشجن بالتحريك واحد الشجون، وهي طرق الأودية، ومنه قولهم: «**الحديث ذو شجون**» أي: يدخل بعضه في بعض[٣].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**إن الرحم شجنة من الرحمن، فقال الله: من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته**»[٤].

★ فوائد الأحاديث:

قال القرطبي: «الرحم المحرم قطعها، المأمور بصلتها على وجهين، عامة وخاصة.

فالعامة: رحم الدين، وتجب مواصلتها بملازمة الإيمان، والمحبة لأهله ونصرتهم، والنصيحة لهم، وترك مضارتهم، والعدل بينهم، والنصفة في معاملتهم، والقيام بحقوقهم الواجبة كتمريض المرضى، وحقوق الموتى: من غسلهم والصلاة عليهم، ودفنهم، وغير ذلك من الحقوق المترتبة لهم.

وأما الرحم الخاصة: فتجب لهم الحقوق العامة، وزيادة عليها كالنفقة على القرابة القريبة، وتفقد أحوالهم، وترك التغافل عن تعاهدهم في أوقات ضروراتهم، وتتأكد في حقهم حقوق الرحم العامة، حتى إذا تزاحمت الحقوق بدئ بالأقرب فالأقرب»[٥].

---

(١) المفهم (٦/ ٥٢٤).

(٢) أخرجه: البخاري (١٠/ ٥١١/ ٥٩٨٩) واللفظ له، مسلم (٤/ ١٩٨١/ ٢٥٥٥).

(٣) الفتح (١١/ ٥١٢).

(٤) أخرجه: البخاري (١٠/ ٥١١/ ٥٩٨٨).

(٥) المفهم (٦/ ٥٢٦).

قال الحافظ: «قال ابن أبي جمرة: تكون صلة الرحم بالمال، وبالعون على الحاجة، وبدفع الضرر، وبطلاقة الوجه، وبالدعاء. والمعنى الجامع إيصال ما أمكن من الخير، ودفع ما أمكن من الشر بحسب الطاقة، وهذا إنما يستمر إذا كان أهل الرحم أهل استقامة، فإن كانوا كفارا أو فجارا فمقاطعتهم في اللَّه هي صلتهم، بشرط بذل الجهد في وعظهم، ثم إعلامهم إذا أصروا أن ذلك بسبب تخلفهم عن الحق، ولا يسقط مع ذلك صلتهم بالدعاء لهم بظهر الغيب أن يعودوا إلى الطريق المثلى»[١].

فيها: «تعظيم أمر الرحم، وأن صلتها مندوب مرغب فيه، وأن قطعها من الكبائر لورود الوعيد الشديد فيه»[٢].

* عن جبير بن مطعم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة قاطع**»[٣].

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «قوله: «**لا يدخل الجنة قاطع**» قال سفيان يعني: قاطع رحم. هذا التفسير صحيح لكثرة مجيء لفظ قاطع في الشرع مضافًا إلى الرحم، فإذا ورد عريًا عن الإضافة حمل على ذلك الغالب»[٤].

ثم قال: «هذا الحديث يدل دلالة واضحة على وجوب صلة الرحم على الجملة، وعلى تحريم قطعها، وأنه كبيرة، ولا خلاف فيه. لكن الصلة درجات بعضها أرفع من بعض، فأدناها ترك المهاجرة، وأدنى صلتها بالسلام. وهذا بحسب القدرة عليها، والحاجة إليها، فمنها ما يتعين ويلزم، ومنها ما يستحب ويرغب فيه، وليس من لم يبلغ أقصى الصلات يسمى قاطعًا، ولا من قصر عما ينبغي له ويقدر عليه يسمى واصلًا»[٥].

وقال أيضًا: «قال القاضي: وقد اختلف في حد الرحم التي تجب صلتها، فقال

---

(١) الفتح (١٠/ ٥١٢-٥١٣). (٢) الفتح (١٠/ ١١٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٨٤)، والبخاري (١٠/٥٠٨/ ٥٩٨٤)، ومسلم (٤/ ١٩٨١/ ٢٥٥٦)، وأبو داود (٢/ ٣٢٣/ ١٦٩٦)، والترمذي (٤/ ٢٧٩/ ١٩٠٩).

(٤) المفهم (٦/ ٥٢٦-٥٢٧).

(٥) المفهم (٦/ ٥٢٧)

بعض أهل العلم: هي كل رحم محرم، وعلى هذا فلا تجب في بني الأعمام وبني الأخوال. وقيل: بل هذا في كل رحم ممن ينطلق عليه ذلك من ذوي الأرحام في المواريث محرما كان أو غير محرم. قلت: فيخرج من هذا: أن رحم الأم التي لا يتوارث بها لا تجب صلتهم، ولا يحرم قطعهم، وهذا ليس بصحيح، والصواب ما ذكرناه قبل هذا من التعميم والتقسيم»[1].

* عن أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: **«ما من ذنب أجدر أن يعجل اللّه لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة؛ مثل البغي وقطيعة الرحم»**[2].

★ غريب الحديث:

أجدر: بسكون الجيم، أحق.

البغي: هو الجور والكبر والظلم.

★ فوائد الحديث:

قال البنا: «معناه أن اللّه ﷻ يعجل له العقوبة في الدنيا غير ما يؤخره له من العقاب الشديد في الآخرة. قال المناوي[3]: قوله: **«قطيعة الرحم»**: بنحو إيذاء أو صد أو هجر فإنه كبيرة كما يفيده هذا الوعيد الشديد، وأما قطيعتها بترك الإحسان فليس بكبيرة»[4].

* عن عبدالرحمن بن عوف ﷺ قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: **«قال الله: أنا الرحمن، وهي الرحم، شققت لها اسمًا من اسمي، من وصلها وصلته، ومن قطعها بتته»**[5].

* عن عبداللّه بن عمرو ﷺ يرفعه إلى النبي ﷺ قال: **«الراحمون يرحمهم**

---

(١) المفهم (٦/ ٥٢٧-٥٢٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٧)، وأبو داود (٥/ ٢٠٨/ ٤٩٠٢)، والترمذي (٤/ ٥٧٣/ ٢٥١١) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٨/ ٤٢١١)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٢/ ٢٠٠-٢٠١/ ٤٥٥-٤٥٦)، والحاكم (٢/ ٣٥٦) ووافقه الذهبي.

(٣) انظر كلامه في الفيض (٥/ ٤٧٨).

(٤) الفتح الرباني (١٩/ ٢١٧).

(٥) أخرجه: أحمد (١/ ١٩٤)، أبو داود (٢/ ٣٢٢/ ١٦٩٤)، الترمذي (٤/ ٢٧٨/ ١٩٠٧) وقال: حديث صحيح، وصححه الحاكم (٤/ ١٥٧-١٥٨).

الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شجنة من الرحمن، فمن وصلها وصله اللَّه، ومن قطعها قطعه الله»(١).

* عن عبداللَّه بن سلام ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»(٢).

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قلت: يا رسول الله! إني إذا رأيتك طابت نفسي، وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء. فقال: «كل شيء خلق من ماء». قال: قلت: يا رسول الله! أنبئني عن أمر إذا أخذت به دخلت الجنة. قال: «أفش السلام، وأطعم الطعام، وصل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنة بسلام»(٣).

★ **فوائد الأحاديث:**

دلت هذه الأحاديث على عظم قدر صلة الرحم، وأن اللَّه تعالى اشتق لها اسمًا من اسمه، فمن وصلها وصله اللَّه، ومن قطعها قطعه اللَّه، وأمر بها نبيه ﷺ وحث عليها، وجعل جزاء واصلها دخول الجنة.

وقد تقدم الكلام على صلة الرحم وما يتعلق بها من أحكام وآداب في الأحاديث السابقة، بما أغنى عن إعادتها، واللَّه المستعان وعليه التكلان.

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٠)، أبو داود (٥/ ٢٣١/ ٤٩٤١)، الترمذي (٤/ ٢٨٥/ ١٩٢٤) واللفظ له وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه: الدارمي (١/ ٣٤٠-٣٤١)، الترمذي (٤/ ٥٦٢-٥٦٣/ ٢٤٨٥)، وقال: هذا حديث صحيح، ابن ماجه (٢/ ١٠٨٣/ ٣٢٥١) واللفظ للدارمي. ، وصححه الحاكم (٣/ ١٣) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩٥) واللفظ له، وذكره الهيثمي في المجمع (٥/ ١٦) وقال: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح خلا أبي ميمونة وهو ثقة»، وصححه ابن حبان (الإحسان ٦/ ٢٩٩/ ٢٥٥٩)، والحاكم (٤/ ١٦٠) ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ٢٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: هؤلاء الذين يفعلون هذا، يعني الذين يفسدون ويقطعون الأرحام؛ الذين لعنهم اللَّه فأبعدهم من رحمته، ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ يقول: فسلبهم فَهْمَ ما يسمعون بآذانهم من مواعظ اللَّه في تنزيله، ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ يقول: وسلبهم عقولهم، فلا يتبيّنون حجج اللَّه، ولا يتذكّرون ما يرون من عبره وأدلته»[1].

قال الرازي: «فيه لطيفة: وهي أن اللَّه تعالى قال: (أصمهم) ولم يقل: (أصم آذانهم)، وقال: ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾، ولم يقل: أعماهم، وذلك لأن العين آلة الرؤية، ولو أصابها آفة لا يحصل الإبصار، والأذن لو أصابها آفة من قطع أو قلع تسمع الكلام؛ لأن الأذن خلقت وخلق فيها تعاريج ليكثر فيها الهواء المتموج، ولا يقرع الصماخ بعنف فيؤذي كما يؤذي الصوت القوي، فقال: (أصمّهم) من غير ذكر الأذن، وقال: ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ مع ذكر العين؛ لأن البصر ههنا بمعنى العين، ولهذا جمعه بالأبصار، ولو كان مصدرًا لما جمع فلم يذكر الأذن؛ إذ لا مدخل لها في الإصمام، والعين لها مدخل في الرؤية؛ بل هي الكل، ويدل عليه أن الآفة في غير المواضع لما أضافها إلى الأذن سماها وقرًا، كما قال تعالى: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾[2] وقال: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾[3]، والوقر دون الصم، وكذلك الطرش»[4].

وقال السعدي: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ أفسدوا في الأرض، وقطعوا أرحامهم ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بأن أبعدهم عن رحمته، وقربوا من سخط اللَّه. ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي: جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ولا يبصرونه، فلهم آذان ولكن لا تسمع سماع إذعان وقبول، وإنما تسمع سماعًا تقوم به حجة اللَّه عليها، ولهم أعين ولكن لا يبصرون بها العبر والآيات، ولا يلتفتون بها إلى البراهين والبينات»[5].

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٥٧).
(٢) فصلت: الآية (٥).
(٣) لقمان: الآية (٧).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٦٥-٦٦).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٧٩).

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ اللَّه التي يعظهم بها في آي القرآن، الذي أنزله على نبيه عليه الصلاة والسلام، ويتفكّرون في حججه التي بيّنها لهم في تنزيله؛ فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون، ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ فلا يعقلون ما أنزل اللَّه في كتابه من المواعظ والعبر»[١].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا بتدبر القرآن وتفهمه، وناهيًا عن الإعراض عنه، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ أي: بل على قلوب أقفالها، فهي مُطْبَقَة لا يخلص إليها شيء من معانيه»[٢].

قال ابن عطية: «قوله تعالى: ﴿يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ توقيف وتوبيخ، وتدبر القرآن زعيم بالتبيين والهدى»[٣].

وقال القرطبي: «﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ أي: بل على قلوب أقفال أقفلها اللَّه ﷻ عليهم فهم لا يعقلون. وهذا يرد على القدرية والإمامية مذهبهم»[٤].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (أم) فيه منقطعة بمعنى (بل)، فقد أنكر تعالى عليهم إعراضهم عن تدبر القرآن، بأداة الإنكار التي هي الهمزة، وبين أن قلوبهم عليها أقفال لا تنفتح لخير، ولا لفهم قرآن.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من التوبيخ والإنكار على من أعرض عن تدبر كتاب اللَّه، جاء موضحًا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٥٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٠٣).
(٣) المحرر الوجيز (٥/ ١١٩).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٢٤٦).
(٥) النساء: الآية (٨٢).

جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[٢].

وقد ذم -جل وعلا- المعرض عن هذا القرآن العظيم في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾[٣] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾[٤].

ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم؛ أي: تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها؛ فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان اللَّه أعطاه فهمًا يقدر به على التدبر، وقد شكا النبي ﷺ إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾[٥].

وهذه الآيات المذكورة تدل على أن تدبر القرآن وتفهمه وتعلمه والعمل به؛ أمر لا بد منه للمسلمين.

وقد بين النبي ﷺ أن المشتغلين بذلك هم خير الناس. كما ثبت عنه ﷺ في الصحيح من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»[٦]. وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[٧].

فإعراض كثير من الأقطار عن النظر في كتاب اللَّه، وتفهمه والعمل به، وبالسنة الثابتة المبينة له؛ من أعظم المناكر وأشنعها، وإن ظن فاعلوه أنهم على هدى.

ولا يخفى على عاقل أن القول بمنع العمل بكتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، اكتفاء عنهما بالمذاهب المدونة، وانتفاء الحاجة إلى تعلمهما، لوجود ما يكفي عنهما من مذاهب الأئمة؛ من أعظم الباطل، وهو مخالف لكتاب اللَّه وسنة رسوله وإجماع

---

(١) المؤمنون: الآية (٦٨).
(٢) ص: الآية (٢٩).
(٣) الكهف: الآية (٥٧).
(٤) السجدة: الآية (٢٢).
(٥) الفرقان: الآية (٣٠).
(٦) أخرجه: أحمد (١/ ٥٨)، والبخاري (٩/ ٩١/ ٥٠٢٧)، وأبو داود (٢/ ١٤٧/ ١٤٥٢)، والترمذي (٥/ ١٥٩/ ٢٩٠٧)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٩/ ٨٠٣٦)، وابن ماجه (١/ ٧٦-٧٧/ ٢١١-٢١٢).
(٧) آل عمران: الآية (٧٩).

الصحابة، ومخالف لأقوال الأئمة الأربعة.

فمرتكبه مخالف لله ولرسوله، ولأصحاب رسوله جميعًا، وللأئمة رحمهم الله، كما سترى إيضاحه إن شاء الله تعالى.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ تحت عنوان: مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة:

«المسألة الأولى:

اعلم أن قول بعض متأخري الأصوليين: إن تدبر هذا القرآن العظيم، وتفهمه والعمل به؛ لا يجوز إلا للمجتهدين خاصة، وأن كل من لم يبلغ درجة الاجتهاد المطلق بشروطه المقررة عندهم، التي لم يستند اشتراط كثير منها إلى دليل من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس جلي، ولا أثر عن الصحابة؛ قول لا مستند له من دليل شرعي أصلًا.

بل الحق الذي لا شك فيه، أن كل من له قدرة من المسلمين على التعلم والتفهم، وإدراك معاني الكتاب والسنة؛ يجب عليه تعلمهما، والعمل بما علم منهما.

أما العمل بهما مع الجهل بما يعمل به منهما فممنوع إجماعًا.

وأما ما علمه منهما علمًا صحيحًا ناشئًا عن تعلم صحيح؛ فله أن يعمل به، ولو آية واحدة أو حديثًا واحدًا.

ومعلوم أن هذا الذم والإنكار على من يتدبر كتاب الله عام لجميع الناس. ومما يوضح ذلك: أن المخاطبين الأولين به الذين نزل فيهم هم المنافقون والكفار، ليس أحد منهم مستكملًا لشروط الاجتهاد المقررة عند أهل الأصول، بل ليس عندهم شيء منها أصلًا. فلو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به، والاهتداء بهديه إلا المجتهدون بالاصطلاح الأصولي؛ لما وبخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه، ولما أقام عليهم الحجة به حتى يحصلوا شروط الاجتهاد المقررة عند متأخري الأصوليين، كما ترى.

ومعلوم أن من المقرر في الأصول أن صورة سبب النزول قطعية الدخول، وإذًا فدخول الكفار والمنافقين في الآيات المذكورة قطعي، ولو كان لا يصح الانتفاع بهدي القرآن إلا لخصوص المجتهدين؛ لما أنكر الله على الكفار عدم تدبرهم كتاب

اللَّه، وعدم عملهم به.

وقد علمت أن الواقع خلاف ذلك قطعًا، ولا يخفى أن شروط الاجتهاد لا تشترط إلا فيما فيه مجال للاجتهاد، والأمور المنصوصة في نصوص صحيحة، من الكتاب والسنة، لا يجوز الاجتهاد فيها لأحد، حتى تشترط فيها شروط الاجتهاد، بل ليس فيها إلا الاتباع، وبذلك تعلم أن ما ذكره صاحب «مراقي السعود» تبعًا للقرافي من قوله:

من لم يكن مجتهدًا فالعمل منه بمعنى النص مما يحظل

لا يصح على إطلاقه بحال؛ لمعارضته لآيات وأحاديث كثيرة من غير استناد إلى دليل.

ومن المعلوم: أنه لا يصح تخصيص عمومات الكتاب والسنة؛ إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

ومن المعلوم أيضًا: أن عمومات الآيات والأحاديث، الدالة على حث جميع الناس، على العمل بكتاب اللَّه، وسنة رسوله؛ أكثر من أن تحصى، كقوله ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب اللَّه وسنتي»[1]، وقوله ﷺ: «عليكم بسنتي»[2] الحديث، ونحو ذلك مما لا يحصى. فتخصيص جميع تلك النصوص بخصوص المجتهدين، وتحريم الانتفاع بهدي الكتاب والسنة على غيرهم تحريمًا باتًّا؛ يحتاج إلى دليل من كتاب اللَّه، أو سنة رسوله ﷺ، ولا يصح تخصيص تلك النصوص بآراء جماعات من المتأخرين المقرين على أنفسهم بأنهم من المقلدين.

ومعلوم أن المقلد الصرف؛ لا يجوز عده من العلماء ولا من ورثة الأنبياء، كما سترى إيضاحه إن شاء اللَّه. وقال صاحب «مراقي السعود»، في «نشر البنود»، في شرحه لبيته المذكور آنفًا ما نصه: يعني أن غير المجتهد يحظل له؛ أي: يمنع أن

(١) أخرجه: مالك (٢/ ٨٩٩) بلاغًا، ووصله الدارقطني (٤/ ٢٤٥)، والبيهقي (١٠/ ١١٤) عن أبي هريرة ﷺ، وصححه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢/ ٩٧٩/ ١٨٦٦)، والحاكم (١/ ٩٣)، ووافقه الذهبي، وفيه صالح ابن موسى الطلحي متروك، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (١٧٦١) بشواهده.

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٦-١٢٧)، وأبو داود (٥/ ١٣-١٥/ ٤٦٠٧)، والترمذي (٥/ ٤٣/ ٢٦٧٦) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ١٦-١٧/ ٤٣-٤٤)، وصححه ابن حبان (١/ ١٧٨-١٧٩/ ٥)، والحاكم (١/ ٩٥-٩٧)، ووافقه الذهبي، من حديث العرباض بن سارية ﷺ.

يعمل بمعنى نص من كتاب أو سنة وإن صح سندها؛ لاحتمال عوارضه، من نسخ وتقييد، وتخصيص وغير ذلك من العوارض التي لا يضبطها إلا المجتهد، فلا يخلصه من اللَّه إلا تقليد مجتهد. قاله القرافي. انتهى محل الغرض منه بلفظه.

وبه تعلم أنه لا مستند له، ولا للقرافي الذي تبعه، في منع جميع المسلمين، غير المجتهدين من العمل بكتاب اللَّه، وسنة رسوله، إلا مطلق احتمال العوارض، التي تعرض لنصوص الكتاب والسنة، من نسخ أو تخصيص أو تقييد ونحو ذلك، وهو مردود من وجهين:

الأول: أن الأصل السلامة من النسخ حتى يثبت ورود الناسخ، والعام ظاهر في العموم حتى يثبت ورود المخصص، والمطلق ظاهر في الإطلاق حتى يثبت ورود المقيد، والنص يجب العمل به حتى يثبت النسخ بدليل شرعي، والظاهر يجب العمل به عمومًا كان أو إطلاقًا أو غيرهما حتى يرد دليل صارف عنه إلى المحتمل المرجوح، كما هو معروف في محله.

وأول من زعم أنه لا يجوز العمل بالعام، حتى يبحث عن المخصص فلا يوجد ونحو ذلك: أبو العباس بن سريج، وتبعه جماعات من المتأخرين، حتى حكوا على ذلك الإجماع حكاية لا أساس لها.

وقد أوضح ابن القاسم العبادي في «الآيات البينات» غلطهم في ذلك، في كلامه على شرح المحلي لقول ابن السبكي في «جمع الجوامع»: (ويُتمسّك بالعام في حياة النبي ﷺ، قبل البحث عن المخصص، وكذا بعد الوفاة، خلافًا لابن سريج) اهـ.

وعلى كل حال فظواهر النصوص، من عموم وإطلاق، ونحو ذلك، لا يجوز تركها إلا لدليل يجب الرجوع إليه، من مخصص أو مقيد، لا لمجرد مطلق الاحتمال، كما هو معلوم في محله.

فادعاء كثير من المتأخرين أنه يجب ترك العمل به حتى يبحث عن المخصص، والمقيد مثلًا، خلاف التحقيق.

الوجه الثاني: أن غير المجتهد إذا تعلم بعض آيات القرآن، أو بعض أحاديث النبي ﷺ ليعمل بها، تعلم ذلك النص العام، أو المطلق، وتعلم معه مخصصه

ومقيده إن كان مخصصًا أو مقيدًا، وتعلم ناسخه إن كان منسوخًا، وتعلم ذلك سهل جدًا، بسؤال العلماء العارفين به، ومراجعة كتب التفسير والحديث المعتد بها في ذلك، والصحابة كانوا في العصر الأول يتعلم أحدهم آية فيعمل بها، وحديثًا فيعمل به، ولا يمتنع من العمل بذلك حتى يحصل رتبة الاجتهاد المطلق، وربما عمل الإنسان بما علم، فعلمه ما لم يكن يعلم، كما يشير له قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[٢] على القول بأن الفرقان هو العلم النافع الذي يفرق به بين الحق والباطل.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾[٣] الآية.

وهذه التقوى -التي دلت الآيات على أن اللَّه يعلم صاحبها بسببها ما لم يكن يعلم- لا تزيد على عمله بما علم من أمر اللَّه، وعليه فهي عمل ببعض ما علم، زاده اللَّه به علم ما لم يكن يعلم.

فالقول بمنع العمل بما علم من الكتاب والسنة، حتى يحصل رتبة الاجتهاد المطلق؛ هو عين السعي في حرمان جميع المسلمين من الانتفاع بنور القرآن، حتى يحصلوا شرطًا مفقودًا في اعتقاد القائلين بذلك، وادعاء مثل هذا على اللَّه وعلى كتابه وعلى سنة رسوله هو كما ترى.

تنبيه مهم:

يجب على كل مسلم، يخاف العرض على ربه يوم القيامة، أن يتأمل فيه ليرى لنفسه المخرج من هذه الورطة العظمى، والطامة الكبرى، التي عمت جل بلاد المسلمين من المعمورة، وهي ادعاء الاستغناء عن كتاب اللَّه وسنة رسوله استغناء تامًا، في جميع الأحكام من عبادات ومعاملات، وحدود وغير ذلك، بالمذاهب المدونة.

وبناء هذا على مقدمتين:

إحداهما: أن العمل بالكتاب والسنة لا يجوز إلا للمتجهدين.

---

(١) البقرة: الآية (٢٨٢). (٢) الأنفال: الآية (٢٩).

(٣) الحديد: الآية (٢٨).

والثانية: أن المجتهدين معدومون عدمًا كليًا، لا وجود لأحد منهم في الدنيا، وأنه بناء على هاتين المقدمتين، يمنع العمل بكتاب اللَّه وسنة رسوله منعًا باتًا على جميع أهل الأرض، ويستغنى عنهما بالمذاهب المدونة.

وزاد كثير منهم على هذا منع تقليد غير المذاهب الأربعة، وأن ذلك يلزم استمراره إلى آخر الزمان.

فتأمل يا أخي -رحمك الله- : كيف يسوغ لمسلم أن يقول بمنع الاهتداء بكتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، وعدم وجوب تعلمهما والعمل بهما، استغناء عنهما بكلام رجال غير معصومين، ولا خلاف في أنهم يخطئون.

فإن كان قصدهم أن الكتاب والسنة لا حاجة إلى تعلمهما، وأنهما يغني عنهما غيرهما؛ فهذا بهتان عظيم، ومنكر من القول وزور.

وإن كان قصدهم أن تعلمهما صعب لا يقدر عليه، فهو أيضًا زعم باطل؛ لأن تعلم الكتاب والسنة أيسر من تعلم مسائل الآراء والاجتهاد المنتشرة، مع كونها في غاية التعقيد والكثرة، واللَّه -جل وعلا- يقول في سورة (القمر) مرات متعددة: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾[1]، ويقول تعالى في (الدخان): ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾[2]، ويقول في (مريم): ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾[3].

فهو كتاب ميسر بتيسير اللَّه لمن وفقه اللَّه للعمل به، واللَّه -جل وعلا- يقول: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾[4]، ويقول: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾[5].

فلا شك أن الذي يتباعد عن هداه، يحاول التباعد عن هدى اللَّه ورحمته.

ولا شك أن هذا القرآن العظيم هو النور الذي أنزله اللَّه إلى أرضه؛ ليستضاء به فيعلم في ضوئه الحق من الباطل، والحسن من القبيح، والنافع من الضار، والرشد من الغي؛ قال اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا

(١) القمر: الآية (١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠).
(٢) الدخان: الآية (٥٨).
(٣) مريم: الآية (٩٧).
(٤) العنكبوت: الآية (٤٩).
(٥) الأعراف: الآية (٥٢).

مُبِينًا﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[(٥)].

فإذا علمت أيها المسلم أن هذا القرآن العظيم هو النور الذي أنزله اللَّه ليستضاء به، ويهتدى بهداه في أرضه، فكيف ترضى لبصيرتك أن تعمى عن النور. فلا تكن خفاشي البصيرة، واحذر أن تكون ممن قيل فيهم:

خفافيش أعماها النهار بضوئه ... مثل النهار يزيد أبصار الورى

ووافقها قطع من الليل مظلم ... نورًا ويعمي أعين الخفاش

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ﴾[(٦)]، ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾[(٧)].

ولا شك أن من عميت بصيرته عن النور، تخبط في الظلام، ومن لم يجعل اللَّه له نورًا، فما له من نور.

وبهذا تعلم أيها المسلم المنصف أنه يجب عليك الجد والاجتهاد في تعلم كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، وبالوسائل النافعة المنتجة، والعمل بكل ما علمك اللَّه منهما علمًا صحيحًا.

ولتعلم أن تعلم كتاب اللَّه وسنة رسوله في هذا الزمان أيسر منه بكثير في القرون الأولى؛ لسهولة معرفة جميع ما يتعلق بذلك، من ناسخ ومنسوخ، وعام وخاص، ومطلق ومقيد، ومجمل ومبين، وأحوال الرجال من رواة الحديث، والتمييز بين الصحيح والضعيف؛ لأن الجميع ضبط وأتقن ودون، فالجميع سهل التناول اليوم.

---

(١) النساء: الآية (١٧٤).
(٢) المائدة: الآيتان (١٥و١٦).
(٣) الشورى: الآية (٥٢).
(٤) التغابن: الآية (٨).
(٥) الأعراف: الآية (١٥٧).
(٦) البقرة: الآية (٢٠).
(٧) الرعد: الآية (١٩).

فكل آية من كتاب اللَّه قد علم ما جاء فيها من النبي ﷺ، ثم من الصحابة والتابعين، وكبار المفسرين. وجميع الأحاديث الواردة عنه ﷺ حفظت ودونت، وعلمت أحوال متونها وأسانيدها، وما يتطرق إليها من العلل والضعف. فجميع الشروط التي اشترطوها في الاجتهاد يسهل تحصيلها جدًا على كل من رزقه اللَّه فهمًا وعلمًا»[1].

وقال تقي الدين الهلالي: «من المعلوم أن المقلدين لا يتدبرون القرآن، فقلوبهم مقفلة عنه، ولو علموا معناه لا يعملون به فقد زين لهم شيطانهم أن الأحكام لا تؤخذ من القرآن، وإنما تؤخذ من آراء أئمتهم، ويزعمون أن أئمتهم قد مخضوا القرآن والسنة، وأخرجوا زبدهما، وأودعوه كتب الرأي، ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾[2]»[3].

* * *

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٤٢٨-٤٣٧).

(٢) فاطر: الآية (٨).

(٣) سبيل الرشاد (٤/ ٩٣-٩٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾﴾

★ غريب الآية:

سوَّل: زيّن وحسّن؛ يقال: سَوَّلْتُ له كذا؛ أي: حسّنتُهُ له وسهّلتُهُ عليه.

أملى: أمهل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول اللَّه ﷻ: إن الذين رجعوا القهقرى على أعقابهم كفارًا باللَّه من بعد ما تبين لهم الحقّ وقصد السبيل، فعرفوا واضح الحجة، ثم آثروا الضلال على الهدى عنادًا لأمر اللَّه -تعالى ذكره- من بعد العلم. .

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ﴾ يقول -تعالى ذكره-: الشيطان زين لهم ارتدادهم على أدبارهم، من بعد ما تبين لهم الهدى. .

وقوله: ﴿وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ يقول: ومدّ اللَّه لهم في آجالهم مُلاوة من الدهر، ومعنى الكلام: الشيطان سوّل لهم، واللَّه أملى لهم»[1].

وقال ابن عاشور: «لم يزل الكلام على المنافقين، فالذين ارتدوا على أدبارهم منافقون، فيجوز أن يكون مرادًا به قوم من أهل النفاق كانوا قد آمنوا حقًّا ثم رجعوا إلى الكفر؛ لأنهم كانوا ضعفاء الإيمان، قليلي الاطمئنان، وهم الذين مثلهم اللَّه في سورة (البقرة) بقوله: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾[2] الآية.

والارتداد على الأدبار على هذا الوجه: تمثيل للراجع إلى الكفر بعد الإيمان بحال من سار ليصل إلى مكان ثم ارتد في طريقه. ولما كان الارتداد سيرًا إلى الجهة

(١) جامع البيان (٢٦/ ٥٨-٥٩).

(٢) البقرة: الآية (١٧).

التي كانت وراء السائر جُعل الارتداد إلى الأدبار؛ أي: إلى جهة الأدبار. وجيء بحرف (على) للدلالة على أن الارتداد متمكن من جهة الأدبار كما يقال: على صراط مستقيم.

والهدى: الإيمان، وتبيّن الهدى لهم على هذا الوجه تبيّن حقيقي؛ لأنهم ما آمنوا إلا بعد أن تبين لهم هدى الإيمان.

وعلى هذا الوجه فالإتيان بالموصول والصلة ليس إظهارًا في مقام الإضمار؛ لأن أصحاب هذه الصلة بعض الذين كان الحديث عنهم فيما تقدم. ويجوز أن يكون مرادًا به جميعُ المنافقين، عبر عن تصميمهم على الكفر بعد مشاركتهم المسلمين في أحوالهم في مجلس النبي ﷺ، والصلاة معه، وسماع القرآن والمواعظ بالارتداد؛ لأنه مفارقة لتلك الأحوال الطيبة؛ أي: رجعوا إلى أقوال الكفر وأعماله، وذلك إذا خلوا إلى شياطينهم، وتبين الهدى على هذا الوجه كونه بيّنًا في نفسه، وهو بيّن لهم لوضوح أدلته، ولا غبار عليه، فهذا التبين من قبيل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[1]؛ أي: ليس معه ما يوجب ريب المرتابين. ويجوز أن يكون المراد به قومًا من المنافقين لم يقاتلوا مع المسلمين، بعد أن علموا أن القتال حق. وهذا قول ابن عباس والضحاك والسدّي، وعليه فلعل المراد: الجماعة الذين انخزلوا يوم أُحُد مع عبداللّه بن أُبَيّ ابن سلول، والارتداد على الأدبار على هذا الوجه حقيقة؛ لأنهم رجعوا عن موقع القتال بعد أن نزلوا به، فرجعوا إلى المدينة وكانت المدينة خلفهم. وهذا عندي أظهر الوجهين وأليق بقوله بعد: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾[2]. والهدى على هذا الوجه هو الحقّ؛ أي: من بعد ما علموا أن الحق قتال المشركين»[3].

قال الشنقيطي: «الظاهر أن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، قوم كفروا بعد إيمانهم.

وقال بعض العلماء: هم اليهود الذين كانوا يؤمنون بنبينا محمد ﷺ، فلما بعث وتحققوا أنه هو النبي الموصوف في كتبهم كفروا به.

---

(١) البقرة: الآية (٢). (٢) محمد: الآيتان (٢٦و٢٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ١١٤-١١٥).

وعلى هذا القول فارتدادهم على أدبارهم هو كفرهم به بعد أن عرفوه وتيقنوه. وعلى هذا، فالهدى الذي تبين لهم هو صحة نبوته ﷺ، ومعرفته بالعلامات الموجودة في كتبهم.

وعلى هذا القول فهذه الآية يوضحها قوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾[1]؛ لأن قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾ مبين معنى قوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾، وقوله: ﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ مبين معنى قوله: ﴿ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾.

وقال بعض العلماء: نزلت الآية المذكورة في المنافقين.

وقد بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن سبب ارتداد هؤلاء القوم من بعد ما تبين لهم الهدى، هو إغواء الشيطان لهم؛ كما قال تعالى مشيرًا إلى علة ذلك: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾؛ أي: زين لهم الكفر والارتداد عن الدين، ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: مدّ لهم في الأمل، ووعدهم طول العمر.

قال الزمخشري: ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾: سهّل لهم ركوب العظائم، من السول: وهو الاسترخاء، وقد اشتقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعًا. ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾: ومدّ لهم في الآمال والأماني. انتهى.

وإيضاح هذا: أن هؤلاء المرتدين على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى؛ وقع لهم ذلك بسبب أن الشيطان سوّل لهم ذلك؛ أي: سهله لهم وزينه لهم وحسنه لهم ومناهم بطول الأعمار؛ لأن طول الأمل من أعظم أسباب ارتكاب الكفر والمعاصي. .

ومعنى إملاء الشيطان لهم وعده إياهم بطول الأعمار، كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[3].

---

(١) البقرة: الآية (٨٩). (٢) النساء: الآية (١٢٠).

(٣) الإسراء: الآية (٦٤).

وقال بعض العلماء: ضمير الفاعل في قوله: ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ على قراءة الجمهور راجع إلى الله تعالى.

والمعنى: الشيطان ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي: سهّل لهم الكفر والمعاصي، وزين ذلك وحسنه لهم، والله -جل وعلا- ﴿أَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم إمهال استدراج.

وكون التسويل من الشيطان والإمهال من الله، قد تشهد لهم آيات من كتاب الله، كقوله تعالى في تزيين الشيطان لهم: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[1] الآية، وقوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾[3] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

وكقوله تعالى في إملاء الله لهم استدراجًا: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[9]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة»[10].

* * *

(١) الأنفال: الآية (٤٨).
(٢) النحل: الآية (٦٣).
(٣) إبراهيم: الآية (٢٢).
(٤) الأعراف: الآيتان (١٨٢و١٨٣).
(٥) آل عمران: الآية (١٧٨).
(٦) مريم: الآية (٧٥).
(٧) الأنعام: الآية (٤٤).
(٨) الأعراف: الآية (٩٥).
(٩) المؤمنون: الآيتان (٥٥و٥٦).
(١٠) أضواء البيان (٧/ ٥٨٤-٥٨٦).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: مالئوهم وناصحوهم في الباطن على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي: يعلم ما يسرون وما يخفون، الله مطلع عليه وعالم به، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾[1]»[2].

وقال الشنقيطي: «الإشارة في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ راجعة إلى قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾.

أي: ذلك التسويل والإملاء المفضي إلى الكفر بسبب أنهم ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾»[3].

قال ابن جرير: «﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ يقول -تعالى ذكره-: والله يعلم إسرار هذين الحزبين المتظاهرين من أهل النفاق، على خلاف أمر الله وأمر رسوله، إذ يتسارّون فيما بينهم بالكفر بالله ومعصية الرسول، ولا يخفى عليه ذلك ولا غيره من الأمور كلها»[4].

قال الماتريدي: «كراهة نزول ما أنزل الله تعالى على رسوله كانت من اليهود وجميع الكفرة لقوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[5]، والله أعلم»[6].

---

(١) النساء: الآية (٨١).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٠٣).
(٣) أضواء البيان (٧/ ٥٨٧).
(٤) جامع البيان (٢٦/ ٥٩).
(٥) البقرة: الآية (١٠٥).
(٦) تأويلات أهل السنة (٤/ ٥١١).

قال الشنقيطي: «وظاهر الآية يدل على أن بعض الأمر الذي قالوا لهم سنطيعكم فيه مما نزل اللَّه وكرهه أولئك المطاعون.

والآية الكريمة تدل على أن كل من أطاع من كره ما نزل اللَّه في معاونته له على كراهته ومؤازرته له على ذلك الباطل؛ أنه كافر باللَّه بدليل قوله تعالى فيمن كان كذلك: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾[(١)].

وقد قدمنا ما يوضح ذلك من القرآن في سورة (الشورى) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾[(٢)] وفي مواضع عديدة من هذا الكتاب المبارك.

وبينا في سورة (الشورى) أيضًا شدة كراهة الكفار لما نزل اللَّه، وبينا ذلك بالآيات القرآنية في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[(٣)].

وقد قدمنا مرارًا أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب»[(٤)].

* * *

(١) محمد: الآيتان (٢٧و٢٨).
(٢) الشورى: الآية (١٠).
(٣) الشورى: الآية (١٣).
(٤) أضواء البيان (٧/ ٥٨٧).

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾[1]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[2]»[3].

قال ابن عاشور: وهذا -أي: حالهم عند الموت- يقتضي شيئين: أولهما: أنهم ميّتون لا محالة، وثانيهما: أن موتتهم يصحبها تعذيب.

فالأول مأخوذ بدلالة الالتزام، وهو في معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾[4]، وقوله: ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾[5].

والثاني هو صريح الكلام، وهو وعيد لتعذيبهم في الدنيا عند الموت.

والمقصود وعيدهم بأنهم سيعجل لهم العذاب من أول منازل الآخرة وهو حالة الموت. ولما جعل هذا العذاب محققًا وقوعُه؛ رتّب عليه الاستفهام عن حالهم استفهامًا مستعملًا في معنى تعجيب المخاطب من حالهم عند الوفاة، وهذا التعجيب مؤذن بأنها حالة فظيعة غير معتادة؛ إذ لا يتعجب إلاّ من أمْر غير معهود،

---

(١) الأنفال: الآية (٥٠).
(٢) الأنعام: الآية (٩٣).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٢١).
(٤) آل عمران: الآية (١٦٨).
(٥) التوبة: الآية (٨١).

والسياق يدل على الفظاعة. .

والمقصود من هذه الحال: وعيدهم بهذه المِيتة الفظيعة التي قدرها اللَّه لهم، وجعل الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم؛ أي: يضربون وجوههم التي وَقَوْهَا من ضرب السيف حين فرُّوا من الجهاد؛ فإن الوجوه مما يقصد بالضرب بالسيوف عند القتال. . ويضربون أدبارهم التي كانت محل الضرب لو قاتلوا، وهذا تعريض بأنهم لو قاتلوا لفرُّوا فلا يقع الضرب إلا في أدبارهم»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١١٨-١١٩).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: تفعل الملائكة هذا الذي وصفت بهؤلاء المنافقين؛ من أجل أنهم اتبعوا ما أسخط اللَّه، فأغضبه عليهم من طاعة الشيطان، ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ يقول: وكرهوا ما يرضيه عنهم من قتال الكفار به، بعد ما افترضه عليهم.

وقوله: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يقول: فأبطل اللَّه ثواب أعمالهم وأذهبه؛ لأنها عملت في غير رضاه ولا محبته، فبطلت، ولم تنفع عاملها»[1].

قال ابن عاشور: «والجمع بين الإخبار عنهم باتباعهم ما أسخط اللَّه، وكراهتهم رضوانه، مع إمكان الاجتزاء بأحدهما عن الآخر؛ للإيماء إلى أن ضرب الملائكة وجوه هؤلاء مناسب لإقبالهم على ما أسخط اللَّه، وأن ضربهم أدبارهم مناسب لكراهتهم رضوانه؛ لأن الكراهة تستلزم الإعراض والإدبار، ففي الكلام أيضًا محسن اللف والنشر المرتب. فكان ذلك التعذيب مناسبًا لحالَيْ توقيهم في الفرار من القتال، وللسببين الباعثين على ذلك التوقي.

وفرع على اتباعهم ما أسخط اللَّه وكراهتهم رضوانه قوله: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فكان اتباعهم ما أسخط اللَّه وكراهتهم رضوانه سببًا في الأمرين: ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند الوفاة، وإحباط أعمالهم»[2].

وقال الشوكاني: «أي: بسبب اتباعهم ما يسخط اللَّه من الكفر والمعاصي، وقيل: كتمانهم ما في التوراة من نعت نبينا ﷺ، والأول أولى لما في الصيغة من العموم، ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ أي: كرهوا ما يرضاه اللَّه من الإيمان والتوحيد

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٦٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١١٩).

والطاعة، ﴿فَأَحْبَطَ﴾ الله ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ بهذا السبب، والمراد بأعمالهم: الأعمال التي صورتها صورة الطاعة، وإلا فلا عمل لكافر، أو ما كانوا قد عملوا من الخير قبل الردة»[1].

قال الشنقيطي: «اعلم أن هذه الآية الكريمة قد قال بعض العلماء: إنها نزلت في المنافقين.

وقال بعضهم: إنها نزلت في اليهود، وأن المنافقين أو اليهود قالوا للكفار الذين كرهوا ما نزل الله: سنطيعكم في بعض الأمر، وهو عداوة النبي ﷺ، والتعويق عن الجهاد ونحو ذلك.

وبعضهم يقول: إن الذين اتبعوا ما أسخط الله، هم اليهود حين كفروا بالنبي ﷺ لما عرفوه، وكرهوا رضوانه، وهو الإيمان به ﷺ.

والتحقيق الذي لا شك فيه أن هذه الآيات عامة في كل ما يتناوله لفظها، وأن كل ما فيها من الوعيد عام لمن أطاع من كره ما نزل الله.

مسألة:

اعلم أن كل مسلم يجب عليه في هذا الزمان تأمل هذه الآيات من سورة (محمد) وتدبرها، والحذر التام مما تضمنته من الوعيد الشديد؛ لأن كثيرًا ممن ينتسبون للمسلمين داخلون بلا شك فيما تضمنته من الوعيد الشديد؛ لأن عامة الكفار من شرقيين وغربيين كارهون لما نزل الله على رسوله محمد ﷺ، وهو هذا القرآن، وما يبينه به النبي ﷺ من السنن. فكل من قال لهؤلاء الكفار الكارهين لما نزله الله: سنطيعكم في بعض الأمر، فهو داخل في وعيد الآية.

وأحرى من ذلك من يقول لهم: سنطيعكم في كل الأمر، كالذين يتبعون القوانين الوضعية مطيعين بذلك للذين كرهوا ما نزل الله، فإن هؤلاء لا شك أنهم من تتوفاهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، وأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه، وأنه محبط أعمالهم. فاحذر كل الحذر من الدخول في الذين قالوا: سنطيعكم في بعض الأمر»[2].

---

(١) فتح القدير (٥/ ٥٦).

(٢) أضواء البيان (٧/ ٥٨٩-٥٩٠).

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ۝٢٩﴾

اقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: اعتقد المنافقون أن اللَّه لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟! بل سيوضح أمرهم، ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر، وقد أنزل تعالى في ذلك سورة (براءة)، فبين فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم، ولهذا إنما كانت تسمى (الفاضحة)، والأضغان: جمع ضغن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره»[١].

قال ابن عاشور: «﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ۝٢٩﴾: انتقال من التهديد والوعيد إلى الإنذار بأن اللَّه مطلع رسوله ﷺ على ما يضمره المنافقون من الكفر والمكر والكيد؛ ليعلموا أن أسرارهم غير خافية، فيوقنوا أنهم يكيدون عقولهم في ترتيب المكائد بلا طائل، وذلك خيبة لآمالهم»[٢].

وقال السعدي: «يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ من شبهة أو شهوة، بحيث تخرج القلب عن حال صحته واعتداله؛ أن اللَّه لا يخرج ما في قلوبهم من الأضغان والعداوة للإسلام وأهله؟ هذا ظن لا يليق بحكمة اللَّه، فإنه لا بد أن يميز الصادق من الكاذب، وذلك بالابتلاء بالمحن، التي من ثبت عليها، ودام إيمانه فيها؛ فهو المؤمن حقيقة، ومن ردته على عقبيه فلم يصبر عليها، وحين أتاه الامتحان جزع وضعف إيمانه، وخرج ما في قلبه من الضغن، وتبين نفاقه، هذا مقتضى الحكمة الإلهية»[٣].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٢١).
(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٢٠).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٨٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

سيماهم: علاماتهم.

لحن القول: أي: في فحواه ومعناه، أو الكلام المحال به إلى غير ظاهره للتعريض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم، فعرفتهم عيانًا، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترًا منه على خلقه، وحملًا للأمور على ظاهر السلامة، وردّ السرائر إلى عالمها، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: «**ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها اللَّه على صفحات وجهه، وفلتات لسانه**»»[١].

قال الماتريدي: «أي: لو نشاء لجعلنا لهم أعلامًا في الوجه والقول لتعرِفَهم، ولكن لم يجعل لهم، ولكن جعل معرفتهم بأعمال يعملون، فيظهر نفاقهم بذلك، واللَّه أعلم، كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٢]، وقوله في آية أخرى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾[٣]، وقوله في آية أخرى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[٤]، وقوله في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٢١).
(٢) البقرة: الآية (٢٠٤).
(٣) المنافقون: الآية (٤).
(٤) التوبة: الآية (٥٤).

﴿قُلُوبُهُمْ﴾[1]، ونحو ذلك من الآيات مما يظهر نفاقهم وخلافهم بالأعمال التي كانوا يعملون. فدلّت هذه الآيات على أنه كان لا يعرفهم بالسيماء والنطق والقول والأجسام، وإنما يعرفهم بأفعال كانوا يفعلونها، والله أعلم»[2].

قال السيوطي: «قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ استدل به من جعل التعريض بالقذف موجبًا للحدّ»[3].

وقال القرطبي: «قال الكلبي: فلم يتكلم بعد نزولها عند النبي ﷺ منافق إلا عرفه. وقيل: كان المنافقون يخاطبون النبي ﷺ بكلام تواضعوه فيما بينهم، والنبي ﷺ يسمع ذلك ويأخذ بالظاهر المعتاد، فنبهه الله تعالى عليه، فكان بعد هذا يعرف المنافقين إذا سمع كلامهم.

قال أنس: فلم يَخْفَ منافق بعد هذه الآية على رسول الله ﷺ، عرفه الله ذلك بوحي أو علامة عرفها بتعريف الله إياه.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء منها»[4].

* * *

(١) التوبة: الآية (٤٥).
(٢) تأويلات أهل السنة (٤/ ٥١٢).
(٣) الإكليل (ص: ٢٣٨).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٢٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي: ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي، ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾. وليس في تقدم علم اللَّه تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب، فالمراد: حتى نعلم وقوعه؛ ولهذا يقول ابن عباس في مثل هذا: إلا لنعلم؛ أي: لنرى»[1].

قال الشنقيطي: «ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن اللَّه -جل وعلا- يبلو الناس؛ أي: يختبرهم بالتكاليف، كبذل الأنفس والأموال في الجهاد ليتميز بذلك صادقهم من كاذبهم، ومؤمنهم من كافرهم؛ جاء موضحًا في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾[2] الآية، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾[6] الآية، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ الآية.

وقد قدمنا إزالة الإشكال في نحوه في سورة (البقرة) في الكلام على قوله تعالى:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٠٤).
(٢) البقرة: الآية (٢١٤).
(٣) آل عمران: الآية (١٤٢).
(٤) التوبة: الآية (١٦).
(٥) العنكبوت: الآيات (١-٣).
(٦) آل عمران: الآية (١٧٩).

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾[1] الآية»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات القدر

* عن علي رضي الله عنه قال: «كنا مع النبي ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال: **ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار**. فقالوا: يا رسول الله! أفلا نتكل؟ فقال: **اعملوا، فكل ميسر**. ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝﴾ إلى قوله: ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾[3]»[4].

★ **فوائد الحديث:**

قال أبو الحسن الأشعري: «وقد أجمع المسلمون قبل حدوث الجهمية والمعتزلة والحرورية على أن لله علمًا لم يزل، وقد قالوا: علم الله لم يزل، وعلم الله سابق في الأشياء، ولا يمتنعون أن يقولوا في كل حادثة تحدث، ونازلة تنزل: كل هذا سابق في علم الله، فمن جحد أن لله علمًا؛ فقد خالف المسلمين وخرج عن اتفاقهم»[5].

وقال أبو عمر بن عبد البر: «وإنما يجري الخلق فيما سبق من علم الله، والقدر سر الله، لا يدرك بجدال، ولا يشفي منه مقال، والحجاج فيه مرتجة لا يفتح شيء منها إلا بكسر شيء وغلقه، وقد تظاهرت الآثار وتواترت الأخبار فيه عن السلف الأخيار، الطيبين الأبرار، وبالاستسلام والانقياد، والإقرار بأن علم الله سابق، ولا يكون في ملكه إلا ما يريد، وما ربك بظلام للعبيد»[6].

وسيأتي بيان ذلك مستوفى في سورة (الليل) من هذا السفر المبارك، وبالله التوفيق.

---

(١) البقرة: الآية (١٤٣). (٢) أضواء البيان (٧/ ٥٩٠-٥٩١).
(٣) الليل: الآيات (٥-١٠).
(٣) أخرجه: أحمد (١/ ١٣٢-١٣٣)، والبخاري (٨/ ٩١٧/ ٤٩٤٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٩-٢٠٤٠/ ٢٦٤٧)، وأبو داود (٥/ ٦٨-٦٩/ ٤٦٩٤)، والترمذي (٥/ ٤١٠-٤١١/ ٣٣٤٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥١٦/ ١١٦٧٨)، وابن ماجه (١/ ٣٠-٣١/ ٧٨). (٤) الإبانة (ص: ٨٩).
(٥) فتح البر (٢/ ٢٩٣-٢٩٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن الذين جحدوا توحيد اللَّه، وصدوا الناس عن دينه الذي ابتعث به رسله ﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ يقول: وخالفوا رسوله محمدًا ﷺ، فحاربوه وآذوه من بعد ما علموا أنه نبيّ مبعوث، ورسول مرسل، وعرفوا الطريق الواضح بمعرفته، وأنه لله رسول.

وقوله: ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ لأن اللَّه بالغ أمره، وناصر رسوله، ومُظهره على من عاداه وخالفه، ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يقول: وسيذهب أعمالهم التي عملوها في الدنيا، فلا ينفعهم بها في الدنيا ولا الآخرة، ويبطلها إلا مما يضرهم»[(١)].

قال السعدي: «هذا وعيد شديد لمن جمع أنواع الشر كلها من الكفر باللَّه وصد الخلق عن سبيل اللَّه الذي نصبه موصلًا إليه»[(٢)].

قال الشنقيطي: «وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: خالفوا محمدًا ﷺ مخالفة شديدة.

وقد دلت هذه الآية الكريمة على أمرين:

أحدهما: أن الذين كفروا وصدوا غيرهم عن الحق وخالفوه ﷺ لن يضروا اللَّه بكفرهم شيئًا؛ لأنه غني لذاته الغنى المطلق.

والثاني: أنهم إنما يضرون بذلك أنفسهم؛ لأن ذلك الكفر سبب لإحباط أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة جاءا موضحين في آيات من كتاب اللَّه.

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٦٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٨٤).

فمن الآيات الدالة على الأول الذي هو غنى اللَّه عن خلقه، وعدم تضرره بمعصيتهم، قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا ۚ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ۚ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝١٥﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات.

ومن الآيات الدالة على الثاني وهو إحباط أعمالهم بالكفر؛ أي: إبطالها به، قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ﴾[8] الآية، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾[9]، وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾[10] إلى غير ذلك من الآيات»[11].

وقال ابن عاشور: «الظاهر أن المعنيّ بالذين كفروا هنا الذين كفروا المذكورون في أول هذه السورة، وفيما بعد من الآيات التي جرى فيها ذكر الكافرين؛ أي: الكفار الصرحاء، عاد الكلام إليهم بعد الفراغ من ذكر المنافقين الذين يخفون الكفر؛ عودًا على بدء لتهوين حالهم في نفوس المسلمين، فبعد أن أخبر اللَّه أنه أضل أعمالهم وأنهم اتبعوا الباطل، وأمر بضرب رقابهم، وأن التعس لهم، وحقَّرهم بأنهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، وأن اللَّه أهلك قرى هي أشد منهم قوة، ثم جرى ذكر المنافقين، بعد ذلك ثُني عنان الكلام إلى الذين كفروا أيضًا؛ ليعرِّف اللَّه المسلمين بأنهم في هذه المآزق التي بينهم وبين المشركين

---

(١) آل عمران: الآية (٩٧).
(٢) الزمر: الآية (٧).
(٣) إبراهيم: الآية (٨).
(٤) يونس: الآية (٦٨).
(٥) التغابن: الآية (٦).
(٦) فاطر: الآية (١٥).
(٧) الفرقان: الآية (٢٣).
(٨) إبراهيم: الآية (١٨).
(٩) النور: الآية (٣٩).
(١٠) هود: الآية (١٦).
(١١) أضواء البيان (٧/ ٥٩٤-٥٩٥).

لا يَلحقهم منهم أدنى ضُرّ، وليزيد وصف الذين كفروا بأنهم شاقّوا الرسول ﷺ.

فالجملة استئناف ابتدائي، وهي توطئة لقوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾[(١)] . .

وتبيُّن الهدى لهم: ظهور ما في دعوة الإسلام من الحق الذي تدركه العقول إذا نبهتْ إليه، وظهور أن أمر الإسلام في ازدياد ونماء، وأن أمور الآخرين في إدبار، فلم يردعهم ذلك عن محاولة الإضرار بالرسول ﷺ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾[(٢)]. فحصل من مجموع ذلك أن الرسول ﷺ رسولُ اللَّه، وأن الإسلام دين اللَّه.

وقيل: المراد بالذين كفروا في هذه الآية يهود قريظة والنضير، وعليه فمشاقتهم الرسول ﷺ مشاقة خفية، مشاقَّة كيد ومكْر، وتبيُّن الهدى لهم: ظهور أن محمدًا ﷺ هو الموعود به في التوراة وكتب الأنبياء، فتكون الآية تمهيدًا لغزو قريظة والنضير»[(٣)].

* * *

(١) محمد: الآية (٣٥).

(٢) الرعد: الآية (٤١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٢٥-١٢٦).

قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ۝٣٣ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالله ورسوله ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ في أمرهما ونهيهما ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ يقول: ولا تبطلوا بمعصيتكم إياهما وكفركم بربكم ثواب أعمالكم؛ فإن الكفر بالله يحبط السالف من العمل الصالح»[1].

قال ابن عاشور: «اعتراض بين جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾[2]، وبين جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾[3]، وُجه به الخطاب إلى المؤمنين بالأمر بطاعة الله ورسوله ﷺ، وتجنب ما يبطل الأعمال الصالحة اعتبارًا بما حكي من حال المشركين في الصد عن سبيل الله ومشاقة الرسول ﷺ.

فوصف الإيمان في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مقابل وصف الكفر في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وطاعة الله مقابل الصدّ عن سبيل الله، وطاعةُ الرسول ضد مشاقة الرسول ﷺ والنهي عن إبطال الأعمال ضد بطلان أعمال الذين كفروا.

فطاعة الرسول ﷺ التي أمروا بها هي امتثال ما أمَر به ونهى عنه من أحكام الدين. وأما ما ليس داخلًا تحت التشريع، فطاعة أمر الرسول ﷺ فيه طاعة انتصاح وأدب، ألا ترى أن بريرة لم تطع رسول الله ﷺ في مراجعة زوجها مُغيث[4] لما علمتْ أن أمره إياها ليس بعزم.

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٦٢).
(٢) محمد: الآية (٣٢).
(٣) محمد: الآية (٣٤).
(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٥)، والبخاري (٩/ ٥١٠-٥١١/ ٥٢٨٣)، وأبو داود (٢/ ٦٧٠-٦٧١/ ٢٢٣١)، والترمذي (٣/ ٤٦٢/ ١١٥٦)، والنسائي (٨/ ٦٣٦-٦٣٧/ ٥٤٣٢)، وابن ماجه (١/ ٦٧١/ ٢٠٧٥).

والإبطال: جعل الشيء باطلًا؛ أي: لا فائدة منه، فالإبطال تتصف به الأشياء الموجودة.

ومعنى النهي عن إبطالهم الأعمالَ: النهي عن أسباب إبطالها، فهذا مهيع قوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾. وتسمح محامِله بأن يشمل النهي والتحذير عن كل ما بيَّن الدِينُ أنه مبطل للعمل كلاً أو بعضًا، مثل الردة ومثل الرياء في العمل الصالح، فإنه يبطل ثوابه. وهو عن ابن عباس قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[1].

وكان بعض السلف يخشى أن يكون ارتكاب الفواحش مبطلًا لثواب الأعمال الصالحة، ويحمل هذه الآية على ذلك، وقد قالت عائشة لما بلغها أن زيد بن أرقم عقد عقدًا تراه عائشة حرامًا: «**أخبروا زيدًا أنه أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إن لم يترك فعله هذا**»[2]، ولعلها أرادت بذلك التحذير، وإلا فما وجهُ تخصيص الإحباط بجهاده؟ وإنما علمتْ أنه كان أنفس عمل عنده.

وعن الحسن البصري والزهري: «**لا تبطلوا أعمالكم بالمعاصي الكبائر**». ذكر ابن عبدالبرّ في «الاستيعاب»: أن زيد بن أرقم قال: «**غزا رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة، وغزوتُ منها معه سبع عشرة غزوة**»[3]. وهذه كلها من مختلف الأفهام في المعنيّ بإبطال الأعمال وما يبطلها، وأحسن أقوال السلف في ذلك ما رويَ عن ابن عمر قال: «**كنا نرى أنه ليس شيء من حسناتنا إلا مقبولًا، حتى نزل: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾، فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، حتى نزل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[4]، فكففنا عن القول في ذلك، وكنّا نخاف على من أصاب الكبائر، ونرجو لمن لم**

---

(١) البقرة: الآية (٢٦٤).

(٢) أخرجه: الدارقطني (٣/ ٥٢)، والبيهقي في الكبرى (٥/ ٣٣٠)، وعبد الرزاق (٨/ ١٨٤-١٨٥/ ١٤٨١٢-١٤٨١٣)، ونسبه الزيلعي في نصب الراية (٤/ ١٦) لمسند الإمام أحمد، وقال ابن عبدالهادي في التنقيح (٢/ ٥٥٨): «هذا إسناد جيد»، وكذا شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٥٩-٢٦٠)، وابن القيم في إعلام الموقعين (٣/ ٢١٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٦٨)، والبخاري (٧/ ٣٥٤/ ٣٩٤٩)، ومسلم (٢/ ٩١٦/ ١٢٥٤)، والترمذي (٤/ ١٦٧/ ١٦٧٦).

(٤) النساء: الآية (٤٨).

يصبها»[1] اهـ. فأبان أن ذلك محامل محتملة لا جزم فيها.

وعن مقاتل: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بالمنّ، وقال: هذا خطاب لقوم من بني أسد أسلموا وقالوا لرسول الله ﷺ: قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلنا، يمنون عليه بذلك، فنزلت فيهم هذه الآية، ونزل فيهم أيضًا قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾[2].

وهذه محامل ناشئة عن الرأي والتوقع، والذي جاء به القرآن وبينته السنة الصحيحة أن الحسنات يُذهبن السيئات، ولم يجئ أن السيئات يذهبن الحسنات، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾[3]»[4].

قال القنوجي: «ليس في هذه الآية دليل كما ظنه الزمخشري على إحباط الطاعات بالكبائر على ما زعمت المعتزلة والخوارج، فجمهورهم على أن كبيرة واحدة تحبط جميع الطاعات، حتى إن من عبد الله طول عمره، ثم شرب جرعة خمر فهو كمن لم يعبده قط»[5].

قال السعدي: «وإذا كان الله قد نهى عن إبطال الأعمال، فهو أمر بإصلاحها، وإكمالها وإتمامها، والإتيان بها، على الوجه الذي تصلح به علمًا وعملًا»[6].

قال ابن المنير: «قاعدة أهل السنة مؤسسة على أن الكبائر ما دون الشرك لا تحبط حسنة مكتوبة؛ لأن الله لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا، نعم يقولون: إن الحسنات يذهبن السيئات، كما وعد به الكريم -جل وعلا-. وقاعدة المعتزلة موضوعة على أن كبيرة واحدة تحبط ما تقدمها من الحسنات ولو كانت مثل زبد البحر؛ لأنهم يقطعون بخلود الفاسق في النار وسلب سمة الإيمان منه، ومتى خلد في النار لم تنفع طاعاته ولا إيمانه، فعلى

---

(١) أخرجه بنحوه أبو يعلى (١٠/ ١٨٥-١٨٦/ ٥٨١٣)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٥) وقال: «رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح غير حرب بن سريج وهو ثقة».

(٢) الحجرات: الآية (١٧).

(٣) النساء: الآية (٤٠).

(٤) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٢٦-١٢٨).

(٥) فتح البيان (١٣/ ٧٨).

(٦) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٨٥).

هذا بنى الزمخشري كلامه، وجلب الآثار التي في بعضها موافقة في الظاهر لمعتقده، ولا كلام عليها جملة من غير تفصيل؛ لأن القاعدة المتقدمة ثابتة قطعًا بأدلة اقتضت ذلك يحاشى كل معتبر في الحل والعقد عن مخالفتها، فمهما ورد من ظاهر يخالفها وجب رده إليها بوجه من التأويل، فإن كان نصًا لا يقبل التأويل؛ فالطريق في ذلك تحسين الظن بالمنقول عنه، والتوريك بالغلط على النقلة، على أن الأثر المذكور عن ابن عمر هو أولى بأن يدل ظاهره لأهل السنة فتأمله. وأما محمل الآية عند أهل الحق؛ فعلى أن النهي عن الإخلال بشرط من شروط العمل، وبركن يقتضي بطلانه من أصله، لا أنه يبطل بعد استجماعه شرائط الصحة والقبول»[1].

قال القرطبي: «احتج علماؤنا وغيرهم بهذه الآية على أن التحلل من التطوع - صلاة كان أو صومًا- بعد التلبس به لا يجوز؛ لأن فيه إبطال العمل وقد نهى اللَّه عنه»[2].

قال ابن عاشور: «وإطلاق الإبطال على القطع وعدم الإتمام يشبه أنه مجاز؛ أي: لا تتركوا العمل الصالح بعد الشروع فيه، فأخذوا منه أن النفل يجب بالشروع لأنه من الأعمال، وهو قول أبي حنيفة في النوافل مطلقًا. ونسب ابن العربي في الأحكام مثلَه إلى مالك. ومثله القرطبي وابن الفرس. ونقل الشيخ الجد في «حاشيته على المحلّى» عن القرافي في «شرح المحصول»، ونقل حلولو في «شرح جمع الجوامع» عن القرافي في «الذخيرة»: أن مالكًا قال بوجوب سبْع نوافل بالشروع، وهي: الصلاة والصيام والحج والعمرة والاعتكاف والائتمام وطواف التطوع دون غيرها نحو الوضوء والصدقة والوقف والسفر للجهاد، وزاد حُلولو إلحاق الضحية بالنوافل التي تجب بالشروع، ولم أقف على مأخذ القرافي ذلك، ولا على مأخذ حلولو في الأخير»[3].

قال النووي: «قال الشافعي والأصحاب رحمهم اللَّه تعالى: إذا دخل في صوم تطوع أو صلاة تطوع استحب له إتمامهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾،

---

(١) الانتصاف (حاشية الكشاف ٣/ ٥٣٨).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٢٥٥).
(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٢٨-١٢٩).

وللخروج من خلاف العلماء؛ فإن خرج منهما بعذر أو بغير عذر؛ لم يحرم عليه ذلك ولا قضاء عليه، لكن يكره الخروج منهما بلا عذر لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا أَعْمَٰلَكُمْ﴾، هذا هو المذهب. وفيه وجه حكاه الرافعي: أنه لا يكره الخروج بلا عذر، ولكنه خلاف الأولى.

وأما الخروج منه بعذر فلا كراهة فيه بلا خلاف، ويستحب قضاؤه؛ سواء خرج بعذر أم بغيره لما سنذكره من الأحاديث. .

وبهذا قال عمر وعلي وابن مسعود وابن عمر وابن عباس وجابر بن عبدالله وسفيان الثوري وأحمد وإسحق. وقال أبو حنيفة: يلزمه الإتمام، فإن خرج منهما لعذر لزمه القضاء ولا إثم، وإن خرج بغير عذر لزمه القضاء وعليه الإثم.

وقال مالك وأبو ثور: يلزمه الإتمام، فإن خرج بلا عذر لزمه القضاء، وإن خرج بعذر فلا قضاء. واختلف أصحاب أبي حنيفة فيمن دخل في صوم أو صلاة يظنهما عليه، ثم بان في أثنائهما أنهما ليسا عليه، هل يجوز الخروج منهما أم لا، واحتج لمن أوجب إتمام صوم التطوع وصلاته بمجرد الشروع فيهما بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا أَعْمَٰلَكُمْ﴾، وبحديث طلحة بن عبيدالله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال للأعرابي الذي سأله عن الإسلام: «خمس صلوات في اليوم والليلة، قال: هل عليّ غيرهنّ؟ قال: لا، إلا أن تطوع»[1] إلى آخر الحديث. .

قالوا: وهذا الاستثناء متصل، فمقتضاه وجوب التطوع بمجرد الشروع فيه، قالوا: ولا يصح حملكم على أنه استثناء منقطع، بمعنى أنه يقدر، لكن لك أن تطوع؛ لأن الأصل في الاستثناء الاتصال، فلا تقبل دعوى الانقطاع فيه بغير دليل. واحتجوا أيضًا بالقياس على حج التطوع وعمرته، فإنهما يلزمان بالشروع بالإجماع.

واحتج أصحابنا بحديث عائشة قالت: «دخل عليّ النبي ﷺ ذات يوم فقال: هل عندكم شيء؟ قلنا: لا، قال: فإني إذن صائم، ثم أتانا يومًا آخر، فقلنا: يا رسول الله! أهدي لنا حيس، فقال: أرنيه، فلقد أصبحت صائمًا، فأكل» رواه

(١) أخرجه: أحمد (١/ ١٦٢)، والبخاري (١/ ١٤٢/ ٤٦)، ومسلم (١/ ٤٠-٤١/ ١١)، وأبو داود (١/ ١٧٢-١٧٣/ ٣٩١)، والنسائي (١/ ٢٤٦-٢٤٧/ ٢٥٧).

مسلم[١] بهذا اللفظ، وفي رواية لمسلم: «**فأكل، ثم قال: قد كنت أصبحت صائمًا**»، وفي رواية أبي داود -وإسناده على شرط البخاري ومسلم-: قالت عائشة: «فقلنا يا رسول الله! قد أهدي لنا حيس، فحبسناه لك، فقال: أدنيه، فأصبح صائمًا وأفطر»[٢] هذا لفظه، وعن عائشة أيضًا قالت: «دخل علي رسول الله ﷺ ذات يوم، فقال: **أعندك شيء؟** فقلت: لا، قال: **إني إذن أصوم**. قالت: ودخل عليّ يومًا آخر، فقال: **أعندك شيء؟** قلت: نعم، قال: **إذن أفطر، وإن كنت قد فرضت الصوم**»[٣]، رواه الدارقطني والبيهقي بهذا اللفظ، وقال: إسناده صحيح.

وعن أبي جحيفة قال: «**آخى النبي ﷺ** بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له في الدنيا حاجة. فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعامًا، فقال: كل، فإني صائم. قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل. فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم فنام، ثم ذهب يقوم، قال: نم فنام. فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا. فقال له سلمان: إن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعط كل ذي حق حقه. فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له. فقال النبي ﷺ: **صدق سلمان**» رواه البخاري[٤]. وعن أم هانئ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الصائم المتطوع أمير نفسه: إن شاء صام، وإن شاء أفطر**»، وفي روايات: «**أمين أو أمير نفسه**» رواه أبو داود[٥] والترمذي[٦] والنسائي[٧] والدارقطني[٨] والبيهقي[٩] وغيرهم[١٠]، وألفاظ رواياتهم متقاربة

---

(١) مسلم (٢/ ٨٠٨-٨٠٩/ ١١٥٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٠٧)، وأبو داود (٢/ ٨٢٤-٨٢٥/ ٢٤٥٥)، والترمذي (٣/ ١١١/ ٧٣٣-٧٣٤)، والنسائي (٤/ ٥٠٧-٥٠٨/ ٢٣٢٤)، وفي الكبرى (٢/ ١١٥/ ٢٦٣٦)، وابن ماجه (١/ ٥٤٣/ ١٧٠١)، وصححه ابن خزيمة (٣/ ٣٠٨/ ٢١٤٣)، وابن حبان (٨/ ٣٩١-٣٩٢/ ٣٦٢٨).

(٣) أخرجه: النسائي في الكبرى (٢/ ١١٦/ ٢٦٣٩)، والدارقطني (٢/ ١٧٥)، والطيالسي رقم (١٥٥١)، والبيهقي (٤/ ٢٧٥).

(٤) البخاري (٤/ ٢٦٢-٢٦٣/ ١٩٦٨)، والترمذي (٤/ ٥٢٦/ ٢٤١٣).

(٥) في سننه (٢/ ٨٢٥-٨٢٦/ ٢٤٥٦).

(٦) في سننه (٣/ ١٠٩-١١٠/ ٧٣٢).

(٧) في سننه الكبرى (٢/ ٢٤٩-٢٥٠/ ٣٣٠٢).

(٨) في سننه (٢/ ١٧٤).

(٩) في السنن (٤/ ٢٧٦-٢٧٧)، وفي معرفة السنن والآثار (٧/ ٣٣٨-٣٣٩).

(١٠) أخرجه أيضاً: أحمد (٦/ ٣٤١)، وصححه الحاكم (١/ ٤٣٩)، ووافقه الذهبي.

المعنى وإسنادها جيد، ولم يضعفه أبو داود، وقال الترمذي: في إسناده مقال. .

وأما الجواب عن احتجاجهم بحديث طلحة فهو أن معناه: لكن لك أن تطوع، ويكون الاستثناء منقطعًا، وهو إن كان خلاف الأصل؛ لكن يتعين تأويله ليجمع بينه وبين الأحاديث التي ذكرناها. وأما القياس على الحج والعمرة، فالفرق أن الحج لا يخرج منه بالإفساد لتأكد الدخول فيه بخلاف الصوم. .

واحتج أصحابنا لعدم وجوب القضاء بما احتج به البيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: «صنعت لرسول الله ﷺ طعامًا، فأتى هو وأصحابه، فلما وضع الطعام قال رجل من القوم: إني صائم، فقال رسول الله ﷺ: دعاكم أخوكم وتكلف لكم، ثم قال له: أفطر، وصم يومًا مكانه إن شئت»[1]، قالوا: ولأن الأصل عدم القضاء، ولم يصح في وجوبه شيء»[2].

* * *

(١) أخرجه: البيهقي في الكبرى (٤/ ٢٧٩)، والطبراني في الأوسط (٤/ ١٥٢/ ٣٢٦٤)، وذكره الهيثمي في المجمع (٤/ ٥٣) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه حماد بن أبي حميد وهو ضعيف، وبقية رجاله ثقات». قال الحافظ في الفتح (٤/ ٢٦٣) عن إسناد البيهقي: «وإسناده حسن». وأقره الألباني في الإرواء (٧/ ١٢-١٤).

(٢) المجموع (٦/ ٣٦٣-٣٦٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن الذين أنكروا توحيد اللَّه، وصدوا من أراد الإيمان باللَّه وبرسوله عن ذلك، ففتنوهم عنه، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من ذلك، ﴿ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ يقول: ثم ماتوا وهم على ذلك من كفرهم، ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ يقول: فلن يعفو اللَّه عما صنع من ذلك، ولكنه يعاقبه عليه، ويفضحه به على رؤوس الأشهاد»[١].

قال السعدي: «هذه الآية والتي في (البقرة) قوله: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ﴾[٢] مقيدتان، لكل نص مطلق، فيه إحباط العمل بالكفر، فإنه مقيد بالموت عليه»[٣].

قال الشوكاني: قيد سبحانه عدم المغفرة بالموت على الكفر؛ لأن باب التوبة وطريق المغفرة لا يغلقان على من كان حيًّا، وظاهر الآية العموم، وإن كان السبب خاصًّا»[٤].

قال الشنقيطي: «ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن من مات على الكفر لن يغفر اللَّه له؛ لأن النار وجبت له بموته على الكفر، جاء موضحًا في آيات أخر من كتاب اللَّه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا

(١) جامع البيان (٢٦/ ٦٢-٦٣).
(٢) البقرة: الآية (٢١٧).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٨٦).
(٤) فتح القدير (٥/ ٥٨-٥٩).
(٥) آل عمران: الآية (٩١).
(٦) البقرة: الآيتان (١٦١و١٦٢).

﴿الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٢]»[٣].

قال السعدي: «ومفهوم الآية الكريمة: أنهم إن تابوا من ذلك قبل موتهم، فإن اللَّه يغفر لهم ويرحمهم، ويدخلهم الجنة، ولو كانوا مفنين أعمارهم في الكفر به، والصد عن سبيله، والإقدام على معاصيه، فسبحان من فتح لعباده أبواب الرحمة، ولم يغلقها عن أحد، ما دام حيًّا متمكنًا من التوبة.

وسبحان الحليم، الذي لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يعافيهم، ويرزقهم، كأنهم ما عصوه مع قدرته عليهم»[٤].

* * *

(١) النساء: الآية (١٨).
(٢) البقرة: الآية (٢١٧).
(٣) أضواء البيان (٧/ ٥٩٥-٥٩٦).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٨٦).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يَتِرَكم: ينقصكم؛ يقال: وَتَرَهُ حَقَّهُ؛ أي: نَقَصَهُ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: لا تضعفوا عن قتال عدوكم، ويستولي عليكم الخوف، بل اصبروا واثبتوا، ووطنوا أنفسكم على القتال والجلاد، طلبًا لمرضاة ربكم، ونصحًا للإسلام، وإغضابًا للشيطان.

ولا تدعوا إلى المسالمة والمتاركة بينكم وبين أعدائكم، طلبًا للراحة، ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿أَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ﴾ أي: ينقصكم ﴿أَعْمَالَكُمْ﴾.

فهذه الأمور الثلاثة، كل منها مقتض للصبر وعدم الوهن كونهم الأعلين؛ أي: قد توفرت لهم أسباب النصر، ووعدوا من الله بالوعد الصادق؛ فإن الإنسان لا يهن إلا إذا كان أذل من غيره وأضعف عددًا، وعددًا، وقوة داخلية وخارجية.

الثاني: أن الله معهم، فإنهم مؤمنون، والله مع المؤمنين، بالعون، والنصر، والتأييد، وذلك موجب لقوة قلوبهم، وإقدامهم على عدوهم.

الثالث: أن الله لا ينقصهم من أعمالهم شيئًا، بل سيوفيهم أجورهم، ويزيدهم من فضله، خصوصا عبادة الجهاد، فإن النفقة تضاعف فيه، إلى سبع مائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا

يَعۡمَلُونَ ﴿١٢١﴾[(١)].

فإذا عرف الإنسان أن اللَّه تعالى لا يضيع عمله وجهاده، أوجب له ذلك النشاط، وبذل الجهد فيما يترتب عليه الأجر والثواب، فكيف إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة؛ فإن ذلك يوجب النشاط التام، فهذا من ترغيب اللَّه لعباده، وتنشيطهم، وتقوية أنفسهم على ما فيه صلاحهم وفلاحهم»[(٢)].

قال ابن عاشور: «وهذا النهي عن الوهن وعن الدعاء إلى السَّلْم تحذير من أمر توفرت أسباب حصوله متهيئة للإقدام على الحرب عند الأمر بها، وليس نهيًا عن وهن حصل لهم، ولا عن دعائهم إلى السلم؛ لأن هذه السورة نزلت بعد غزوة بدر وقبل غزوة أُحُد في مدة لم يكن فيها قتال بين المسلمين والمشركين؛ ولكن التحذير من أن يستوهنهم المنافقون عند توجه أمر القتال فيقولوا: لو سالمنا القوم مدة حتى نستعيد عُدتنا ونسترجع قوتنا بعد يوم بدر، وقد كان أبو سفيان ومن معه من المشركين لما رجعوا إلى مكة مفلولين بعد وقعة بدر، يتربصون بالمسلمين فرصة يقاتلونهم فيها لِما ضايقهم من تعرض المسلمين لهم في طريق تجارتهم إلى الشام مثل ما وقع في غزوة السويق، وغزوة ذي قَرَد. فلما كان في المدينة منافقون وكان عند أهل مكة رجال من أهل يثرب خرجوا منها مع أبي عامر الضبغي الملقب في الجاهلية بالراهب والذي غيّر النبي ﷺ لقبَه فلقبه الفاسق[(٣)]؛ كان من المتوقع أن يكيد للمسلمين أعداؤهم من أهل يثرب، فيظاهِروا عليهم المشركين متسترين بعلة طلب السلم، فحذرهم اللَّه من أن يقعوا في هذه الحبالة.

والوهن: الضعف والعَجز، وهو هنا مجاز في طلب الدعة. ومعناه: النهي عن إسلام أنفسهم لخواطر الضعف، والعمل بهذا النهي يكون باستحضار مساوي تلك الخواطر؛ فإن الخواطر الشريرة إذا لم تقاومها همة الإنسان دبّت في نفسه رُويدًا رُويدًا حتى تتمكن منها فتصبح ملكة وسجيّة. فالمعنى: ادفعوا عن أنفسكم خواطر

(١) التوبة: الآيتان (١٢٠و١٢١).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٨٦-٨٨).
(٣) أخرجه: ابن إسحق في السيرة (٣/ ٦٧)، والطبري في التاريخ (٢/ ٦٤)، وابن كثير في البداية (٤/ ١٧).

الوهن واجتنبوا مظاهره، وأوَّلُها الدعاءُ إلى السلم، وهو المقصود بالنهي. والنهي عن الوهن يقتضي أنهم لم يكونوا يومئذٍ في حال وهَن.

وعُطف ﴿وَتَدْعُوٓاْ﴾ على ﴿تَهِنُواْ﴾ فهو معمول لِحرف النهي، والمعنى: ولا تدعوا إلى السلم، وهو عطف خاص على عام من وجه؛ لأن الدعاء إلى السلم مع المقدرة من طلب الدعة لغير مصلحة. وإنما خص بالذكر لئلا يظن أن فيه مصلحة استبقاء النفوس والعُدة بالاستراحة من عُدوان العدوّ على المسلمين؛ فإن المشركين يومئذ كانوا متكالبين على المسلمين، فربما ظن المسلمون أنهم إن تداعوا معهم للسلم أمِنوا منهم، وجعلوا ذلك فرصة لينشروا الدعوة فعرفّهم اللَّه أن ذلك يعود عليهم بالمضرة؛ لأنه يحط من شوكتهم في نظر المشركين، فيحسبونهم طلبوا السلم عن ضعف، فيزيدهم ذلك ضراوة عليهم، وتستخف بهم قبائل العرب بعد أن أخذوا من قلوبهم مكان الحرمة وتوقع البأس.

ولهذا المقصد الدقيق جمع بين النهي عن الوهن والدعاء إلى السلم وأُتبع بقوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾.

فتحصل مما تقرر أن الدعاء إلى السلم المنهي عنه هو طلب المسالمة من العدّو في حال قدرة المسلمين وخوف العدوّ منهم، فهو سلم مقيد بكون المسلمين داعين له وبكونه عن وهن في حال قوة. قال قتادة: أي: لا تكونوا أول الطائفتين ضَرعت إلى صاحبتها. فهذا لا ينافي السلم المأذون فيه بقوله: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾[1]؛ فإنه سلم طلبه العدو، فليست هذه الآية ناسخة لآية (الأنفال) ولا العكس، ولكل حالة خاصة، ومقيّد بكون المسلمين في حالة قوة ومنعة وعِدّة وعُدّة بحيث يدعون إلى السلم رغبة في الدعَة»[2].

قال الشوكاني: «اختلف أهل العلم في هذه الآية: هل هي محكمة أو منسوخة؟ فقيل: إنها محكمة، وإنها ناسخة لقوله: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ وقيل: منسوخة بهذه الآية. ولا يخفاك أنه لا مقتضي للقول بالنسخ؛ فإن اللَّه سبحانه نهى المسلمين

---

(١) الأنفال: الآية (٦١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٣١).

في هذه الآية عن أن يدعوا إلى السلم ابتداءً، ولم ينه عن قبول السلم إذا جنح إليه المشركون، فالآيتان محكمتان ولم يتواردا على محل واحد حتى يحتاج إلى دعوى النسخ أو التخصيص»[١].

قال الشنقيطي: «ومما يوضح معنى آية القتال هذه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾[٢] الآية؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ من النصر الذي وعدكم الله به والغلبة، وجزيل الثواب.

وذلك كقوله هنا: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي: بالنصر والإعانة والثواب. .

وهذا الذي ذكرنا في معنى هذه الآية أولى وأصوب مما فسرها به ابن كثير رحمه الله.

وهو أن المعنى: لا تدعوا إلى الصلح والمهادنة وأنتم الأعلون؛ أي: في حال قوتكم وقدرتكم على الجهاد.

أي: وأما إن كنتم في ضعف وعدم قوة فلا مانع من أن تدعوا إلى السلم؛ أي: الصلح والمهادنة، ومنه قول العباس بن مرداس السلمي:

السلم تأخذ منها ما رضيت به ... والحرب تكفيك من أنفاسها جرع»[٣].

قال السمرقندي: «وفي هذه الآية دليل على أن أيدي المسلمين إذا كانت عالية على المشركين لا ينبغي لهم أن يجيبوهم إلى الصلح؛ لأن فيه ترك الجهاد، وإن لم تكن يدهم عالية عليهم فلا بأس بالصلح لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾[٤] يعني: إن مالوا للصلح فمل إليه»[٥].

قال الجصاص -في قوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾-: «فيه الدلالة على امتناع جواز طلب الصلح من المشركين.

---

(١) فتح القدير (٥/ ٥٩).
(٢) النساء: الآية (١٠٤).
(٣) أضواء البيان (٧/ ٥٩٧-٥٩٨).
(٤) الأنفال: الآية (٦١).
(٥) بحر العلوم (٣/ ٢٤٧).

وهو بيان لما أكد فرضه من قتال مشركي العرب حتى يسلموا، وقتال أهل الكتاب ومشركي العجم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية، والصلح على غير إعطاء الجزية خارج عن مقتضى الآيات الموجبة لما وصفنا، فأكد النهي عن الصلح بالنص عليه في هذه الآية، وفيه الدلالة على أن النبي ﷺ لم يدخل مكة صلحًا، وإنما فتحها عنوة؛ لأن اللَّه قد نهاه عن الصلح في هذه الآية، وأخبر أن المسلمين هم الأعلون الغالبون، ومتى دخلها صلحًا برضاهم فهم متساوون؛ إذ كان حكم ما يقع بتراضي الفريقين فهما متساويان فيه، ليس أحدهما بأولى بأن يكون غالبًا على صاحبه من الآخر»[١].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء»[٢].

قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ وعد بتسديد الأعمال ونجاحها عكس قوله في أول السورة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١﴾[٣]، فكنى عن توفيق الأعمال ونجاحها بعدم وترها؛ أي: نقصها؛ للعلم بأنه إذا كان لا ينقصها فبالحري أن لا يبطلها؛ أي: أن لا يخيبها، وهو ما تقدم من قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾[٤].

ويجوز أيضًا أن يراد منه صريحه؛ أي: ينقصكم ثوابكم على أعمالكم؛ أي: الجهاد المستفاد من قوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ فيفيد التحريض على الجهاد بالوعد بأجره كاملًا»[٥].

قال الشنقيطي: «وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة من عدم نقصه تعالى شيئًا من ثواب الأعمال جاء موضحًا في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾[٦].

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ٣٩٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٢٣).
(٣) محمد: الآية (١).
(٤) محمد: الآيتان (٤و٥).
(٥) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٣٢).
(٦) الحجرات: الآية (١٤).

وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾[١].

والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة، وقد قدمناها مرارًا»[٢].

* * *

(١) الأنبياء: الآية (٤٧).
(٢) أضواء البيان (٧/٥٩٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝٣٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى تحقيرًا لأمر الدنيا وتهوينًا لشأنها: ﴿إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله ﷻ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ أي: هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئًا، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساةً لإخوانكم الفقراء؛ ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم»(١).

وقال القاسمي: «والظاهر أن المراد بيان غناه عن عباده، وأن طلب إنفاق الأموال منهم لعود نفعه إليهم لا إليه؛ لاستغنائه المطلق؛ فإن الصدقات دفع أحقاد صدور الفقراء عنهم، وفي بذله للجهاد دفع غائلة الشرور والفساد، وكله مما يعود ثمرته عليهم»(٢).

قال السعدي: «هذا تزهيد منه لعباده في الحياة الدنيا بإخبارهم عن حقيقة أمرها، بأنها لعب ولهو، لعب في الأبدان ولهو في القلوب، فلا يزال العبد لاهيًا في ماله، وأولاده، وزينته، ولذاته من النساء، والمآكل والمشارب، والمساكن والمجالس، والمناظر والرياسات، لاعبًا في كل عمل لا فائدة فيه، بل هو دائر بين البطالة والغفلة والمعاصي، حتى تستكمل دنياه، ويحضره أجله، فإذا هذه الأمور قد ولت وفارقت، ولم يحصل العبد منها على طائل، بل قد تبين له خسرانه وحرمانه، وحضر عذابه، فهذا موجب للعاقل الزهد فيها، وعدم الرغبة فيها، والاهتمام بشأنها، وإنما الذي ينبغي أن يهتم به ما ذكره بقوله: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ بأن تؤمنوا بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتقوموا بتقواه التي

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٠٦).
(٢) محاسن التأويل (١٥/ ٦٠).

هي من لوازم الإيمان ومقتضياته، وهي العمل بمرضاته على الدوام، مع ترك معاصيه، فهذا الذي ينفع العبد، وهو الذي ينبغي أن يتنافس فيه، وتبذل الهمم والأعمال في طلبه، وهو مقصود اللَّه من عباده رحمة بهم ولطفًا، ليثيبهم الثواب الجزيل»[١].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾: هذه الأجور التي وعد اللَّه بها من آمن واتقى جاءت مبينة في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾[٢] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾: في هذه الآية الكريمة أوجه معلومة عند أهل التفسير، منها أن المعنى: ولا يسألكم النبي ﷺ أموالكم أجرًا على ما بلغكم من الوحي المتضمن لخير الدنيا والآخرة.

وهذا الوجه تشهد له آيات كثيرة من كتاب اللَّه كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾[٥].

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة (هود) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾[٦]، وذكرنا بعض ذلك في سورة (الشورى) في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ﴾[٧]»[٨].

قال ابن عاشور: «وهذه الآية في الإنفاق نظيرها قوله تعالى لجماعة من المسلمين في شأن الخروج إلى الجهاد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾[٩].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٨٨-٨٩).
(٢) الحديد: الآية (٢٨).
(٣) سبأ: الآية (٤٧).
(٤) ص: الآية (٨٦).
(٥) الطور: الآية (٤٠).
(٦) هود: الآية (٢٩).
(٧) الشورى: الآية (٢٣).
(٨) أضواء البيان (٧/ ٥٩٩).
(٩) التوبة: الآية (٣٨).

فقوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ يفيد بعمومه وسياقه معنى لا يسألكم جميع أموالكم؛ أي: إنما يسألكم ما لا يجحف بكم، فإضافة أموال وهو جمع إلى ضمير المخاطبين تفيد العموم، فالمنفي سؤال إنفاق جميع الأموال، فالكلام من نفي العموم لا من عموم النفي بقرينة السياق، وما يأتي بعده من قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1] الآية.

ويجوز أن يفيد أيضًا معنى: أنه لا يطالبكم بإعطاء مال لذاته فإنه غني عنكم، وإنما يأمركم بإنفاق المال لصالحكم كما قال: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ﴾. وهذا توطئة لقوله بعده: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ﴾ أي: ما يكون طلب بذل المال إلا لمصلحة الأمة، وأية مصلحة أعظم من دمغها العدّو عن نفسها لئلا يفسد فيها ويستعبدها؟

وأما تفسير سؤال الأموال المنفي بطلب زكاة الأموال فصرف للآية عن مهيعها؛ فإن الزكاة مفروضة قبل نزول هذه السورة؛ لأن الزكاة فرضت سنة اثنتين من الهجرة على الأصح»[2].

* * *

(١) محمد: الآية (٣٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٣٤-١٣٥).

قوله تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ۝٣٧﴾

★ **غريب الآية:**

يُحْفِكُم: يُلِحُّ عليكم؛ يقال: أَحْفَى بالمسألة، وأَلْحَفَ وأَلَحَّ، بمعنى واحد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول جلّ ثناؤه: إن يسألكم ربكم أموالكم ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ يقول: فيجهدكم بالمسألة، ويلحّ عليكم بطلبها منكم فيلحف، ﴿تَبْخَلُوا۟﴾: يقول: تبخلوا بها وتمنعوها إياه، ضنًّا منكم بها، ولكنه علم ذلك منكم، ومن ضيق أنفسكم فلم يسألكموها.

وقوله: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ يقول: ويخرج جلّ ثناؤه لو سألكم أموالكم بمسألته ذلك منكم أضغانكم قال: قد علم اللَّه أن في مسألته المال خروج الأضغان»[1].

قال ابن عاشور: «وهذه الآية أصل في سد ذريعة الفساد»[2].

وقال الرازي: «الفاء في قوله: ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ للإشارة إلى أن الإحفاء يتبع السؤال بيانًا لشح الأنفس، وذلك لأن العطف بالواو قد يكون للمثلين، وبالفاء لا يكون إلا للمتعاقبين، أو متعلقين أحدهما بالآخر، فكأنه تعالى بيّن أن الإحفاء يقع عقيب السؤال؛ لأن الإنسان بمجرد السؤال لا يعطي شيئًا، وقوله: ﴿تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ يعني: ما طلبها، ولو طلبها وألح عليكم في الطلب لبخلتم، كيف وأنتم تبخلون باليسير لا تبخلون بالكثير، وقوله: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ يعني: بسببه، فإن الطالب وهو النبي ﷺ وأصحابه يطلبونكم، وأنتم لمحبة المال وشح الأنفس تمتنعون، فيفضي إلى القتال، وتظهر به الضغائن»[3].

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٦٥).
(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٣٥).
(٣) تفسير الرازي (٢٨/ ٧٥).

وقال **عبدالكريم الخطيب**: «وفي الآية الكريمة إشارة إلى أن هذا المال هو مال اللَّه سبحانه وتعالى، وأن لله سبحانه وتعالى أن يسأل هذا المال كله، وأن يأخذه جميعه، دون أن يكون في هذا ظلم لأحد؛ لأنه سبحانه لم يأخذ شيئًا ليس له، ومع هذا فإنه سبحانه يهب فضله وإحسانه لعباده، ثم يتقبل منهم بعض ما وهب؛ ليكون رصيدًا لهم من الفضل والإحسان، يطهرون به نفوسهم، ويغسلون به أدرانهم»[1].

* * *

(١) التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٣٨٨).

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- للمؤمنين: ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ أيها الناس ﴿هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقول: تدعون إلى النفقة في جهاد أعداء اللَّه ونُصرة دينه ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ﴾ بالنفقة فيه. .

وقوله: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ومن يبخل بالنفقة في سبيل اللَّه، فإنما يبخل عن بخل نفسه؛ لأن نفسه لو كانت جوادًا لم تبخل بالنفقة في سبيل اللَّه، ولكن كانت تجود بها، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ولا حاجة لله أيها الناس إلى أموالكم ولا نفقاتكم؛ لأنه الغنيّ عن خلقه والخلق الفقراء إليه، وأنتم من خلقه، فأنتم الفقراء إليه، وإنما حضكم على النفقة في سبيله؛ ليُكسبكم بذلك الجزيل من ثوابه»[1].

وقال القاسمي: «﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ أي: عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ﴾ أي: بالذات إليه، فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم لا ينفكون عنه؛ أي: وإذا كان كذلك فإنما حضكم في النفقة في سبيله ليكسبكم بذلك الجزيل من ثوابه، وليعلم أن سبيل اللَّه يشمل كل ما فيه نفع وخير وفائدة وقربة ومثوبة، وإنما اقتصر المفسرون على الجهاد لأنه فرده الأشهر وجزئيه الأهم وقت نزول الآيات، وإلا فلا ينحصر فيه»[2].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٥/ ٦٥).

(٢) محاسن التأويل (١٥/ ٦١).

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: يقول -تعالى ذكره-: وإن تتولوا أيها الناس عن هذا الدين الذي جاءكم به محمد ﷺ، فترتدّوا راجعين عنه، ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يقول: يهلككم ثم يجيء بقوم آخرين غيركم بدلًا منكم يصدّقون به، ويعملون بشرائعه، ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ يقول: ثم لا يبخلوا بما أُمروا به من النفقة في سبيل اللّه، ولا يضيعون شيئًا من حدود دينهم، ولكنهم يقومون بذلك كله على ما يؤمرون به»[1].

وقال أبو حيان: «﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ أي: عن الإيمان والتقوى؛ ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: يخلق قومًا غيركم راغبين في الإيمان والتقوى، غير متولين عنهما؛ كما قال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[2]»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان منقبة من مناقب سلمان الفارسي ﷺ وقومه

* عن أبي هريرة ﷺ قال: «تلا رسول اللّه ﷺ يومًا هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ قالوا: ومن يستبدل بنا؟ قال: فضرب رسول اللّه ﷺ على منكب سلمان ثم قال: **هذا وقومه، هذا وقومه**»[4].

★ **فوائد الحديث:**

قال المباركفوري: «اعلم أن هذا الحديث صريح في أن قوله ﷺ: «**لو كان الإيمان. .** » إلخ؛ صدر منه عند نزول هذه الآية وحديث أبي هريرة الآتي في تفسير سورة (الجمعة) صريح في أن هذا القول صدر منه عند نزول قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٦٦). (٢) إبراهيم: الآية (١٩).
(٣) البحر المحيط (٨/ ٢٦).
(٤) أخرجه: الترمذي (٥/ ٣٥٨/ ٣٢٦٠)، وصححه الحاكم (٢/ ٢٥٨) على شرط مسلم.

مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ قال الحافظ في الفتح[١]: يحتمل أن يكون ذلك صدر عند نزول كل من الآيتين»[٢].

قال ابن عاشور: «هو يدل [أي هذا الحديث] على أن فارس إذا آمنوا لا يرتدون، وهو من دلائل نبوءة النبي ﷺ؛ فإن العرب ارتد منهم بعض القبائل بعد وفاة النبي ﷺ، وارتد البربر بعد فتح بلادهم وإيمانهم ثنتي عشرة مرة؛ فيما حكاه الشيخ أبو محمد بن أبي زيد، ولم يرتد أهل فارس بعد إيمانهم»[٣].

قلت: وسيأتي مزيد بيان لباقي فوائد هذا الحديث إن شاء اللَّه تعالى عند قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ الآية (٣) من سورة (الجمعة)، وباللَّه التوفيق.

* * *

(١) انظر كلام الحافظ في الفتح (٨/ ٨٢٩).

(٢) تحفة الأحوذي (٩/ ١٠٤).

(٣) التحرير التنوير (٢٦/ ١٣٩).

فهرس الموضوعات

سورة الدخان

سورة الجاثية

سورة الأحقاف

سورة محمد

* * *